

الخجر

مكتبة
الكتاب
مكتبة



المشروع القومي للترجمة



تأليف : سير أنجوس فريزر

ترجمة : عبادة كحيلة

المشروع القومي للترجمة

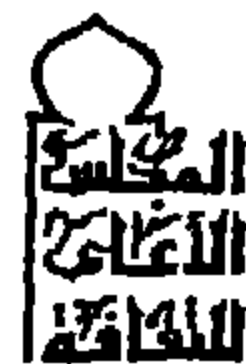
الفجر

تأليف

سير أجنوس فريزر

ترجمة

عبادة كُحيلة



٢٠٠١

هذه ترجمة كاملة لكتاب

The Gypsies

By

SIR ANGUS FRASER

Published By :

BLACKWELL

Oxford Uk & Cambridge USA

1995

إهداء

إلينا

حتى لا تتحول جميعاً إلى غجر

المترجم

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر لكل من جيمس كامبل من كلية ورسستر - أكسفورد لقراءته الناقدة لمخطوط هذا الكتاب ، ولجون دافى من دار نشر بلاكويل لما عاناه فى سبيل إصداره ، ولولدى سايمون لما بذله من عون لدى نسخه على الحاسوب

المؤلف

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	11
مقدمة المؤلف	15
الفصل الأول : الأصول	25
الدليل اللغوى	25
الأنثروپولوجيا الطبيعية	39
النظراء السلايون	42
الإحصاءات اللفظية	45
الفصل الثانى : الهجرات الباكرة	51
فارس	51
أرمينية	60
التماسك الاجتماعى	61
الفصل الثالث : فى الإمبراطورية البيزنطية وبلاد البلقان	65
بيزنطة وبلاد اليونان	65
صربيا وبلغاريا والأفلاق والبغدان	77
الفصل الرابع : الخديعة الكبرى	81
عهد الأمان الإمبراطورية	86
خطابات حماية جديدة	93
رصيد متجدد	101

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس : تحوُّل المد	107
ألمانيا والنمسا وسويسرا	110
فرنسا	115
إسبانيا والبرتغال	121
البلاد الواطئة	125
إيطاليا	130
المجر وترانسيلفانيا	132
بوهيميا وبولندا - ليتوانيا وأوكرانيا	135
إسكوتلاندا وإنجلترا	136
إسكندنافيا	145
الصور والقوالب	147
النماذج الأوربية	151
الفصل السادس : وطأة الأغلال	155
الطرد والدمج والاقتلاع	155
الترحيل	195
فى الإمبراطورية العثمانية	200
صراع من أجل البقاء	205
بصيص من الضوء	211
الفصل السابع : قوى التغيير	217
مفاهيم جديدة	217
هيمنة الموسيقى	227
مشهد الأرض ومشهد المدن	235

الموضوع	الصفحة
تخطيط الأغلال	249
هجرات متجددة	253
المحافظة والطفرة	265
الفصل الثامن : الطريق إلى الجحيم	275
مناهضة الغجر وإزعاجهم	276
المحرقة المنسية	285
الفصل التاسع : الأزمنة الحديثة	299
عبور الحدود	299
البحث عن حلول	303
أقوام وجماعات	319
تحولات اللغة	328
تراث من المتغيرات	331
حجاج ومحتفلون بالعنصرة	339
انهضوا يا غجر !	344
قائمة المراجع	349

مقدمة

يعيش بيننا فى مصر وفى وطننا العربى قوم يتفردون عن غيرهم بنسق مهنى خاص بهم ، ويتحدثون فيما بينهم بلغة يفهمونها ولا نفهمها ، وندعوهم على الإجمال بالغجر ، وربما نخصص فنقول حلباً أو نوراً .

يعود هؤلاء القوم فى وجودهم بيننا إلى أمد متباعدة ، وصار لهم حضورهم فى ذاكرة شعبنا وفى مآثوره وأمثاله وبعض من حكاياته ، بل صار لهم حضورهم فى مرافق حياتنا كافة ، فمن منا لم يشاهد ذات يوم غازية ، أو يبسط يده إلى عرافة ، أو يتعامل مع حاو أو حداد أو قراد ، أو يأخذ بلبه شاعر يتغنى بالهلالية فى ليالى الحصاد ؟

بيد أن حضور هؤلاء القوم فى ذاكرتنا يتلازم دوماً - ولا نقول أحياناً - مع قدر يوازيه من غموض ، يعود فى بعض أسبابه إلينا ، ويعود فى بعضها الآخر إليهم .

وأهم مصدر لهذا الغموض هو ما درجت عليه الحال عندنا - فى وطننا العربى - من حراك اجتماعى مرن ، كان يقضى فى أحيان إلى حجب الصفة الفجرية عنهم أو عن البعض منهم .

فى فجر نهضتنا الحديثة وجد الغجر طريقهم إلى بعض علمائنا الذين تعاملوا معهم من مدخل لغوى ، وأهمهم عالم عراقى كبير هو الأب أنستاس مارى الكرملى (ت ١٣٦٦ / ١٩٤٧) . وبعد سنوات طويلة وجدوا طريقهم إلى بعض باحثينا الذين تخصصوا فى الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية ، وتعرف أحياناً بالإثنولوجيا ، على أن جملة ما كتبوه فى هذا الصدد كان محدوداً فى أعداده محدوداً فى امتداده ، ولم يتحقق ما كان يرجى له من ذبوع .

ومنذ صباى كنت - وما أزال - مشدوداً إلى ما هو غير معتاد ، أو ما هو ملتبس وغامض ، شأتى فى ذلك شأن بحار جسور طوحت به الأمواه ذات مساء عاصف إلى عالم سحرى ، يفارق عالمنا من غير وجه .

أفكار مثل هذه أهتمتني منذ سنوات لأن أصدر كتاباً صغيراً حول أصول الفجر، سعت فيه إلى استكمال ما نهض به قبل مائة عام أو نحوها مستشرق هولندي كبير هو دي خويه De Goeje (ت ١٩٠٩) للوصول بين من نعرفهم اليوم بالفجر ومن عرفناهم في السابق بالزُط ، وأزعم أنني وقفت على حلقة الوصل بين أولئك وهؤلاء ، وتتمثل في قوم كانوا يعرفون ببني ساسان أو الساسانيين ، حفل بهم وبأخبارهم بعض من شعرنا ، وأخصه القصيدة الساسانية لأبي دُلف (ت حوالي ٣٩٠هـ) وإحدى بابات (تمثيلات) ابن دانيال (ت ٧١١هـ) ، كما حفل بهم بعض من نثرنا ، وأخصه مقامات الهمداني (ت ٣٩٨هـ) ومقامات الحريري (ت ٥١٦هـ) ومقامات أخرى غيرها .

وكان لما حظى به هذا الكتاب الصغير من صدئ طيب بين جمهور المثقفين خاصتهم وعامتهم (ولا أقصد هؤلاء الذين يقتعدون مناصب في صحف ومجلات مصرية وعربية) أقول كان لهذا أثره في الولوج بي إلى كتاب آخر كبير ، قطعت فيه أشواطاً ، وألتمس عونه تعالى ، لأقطع سائر أشواطه .

على أننا في الحالين : في الكتاب الذي صدر ، وفي الكتاب الذي نحن بسبيل إصداره وقفنا على هذا الكتاب ، فوجدنا فيه ما لم نجده في غيره ، وصار لا مندوحة لنا من ترجمته لتعم فائدته ، ويتبدد معها بعض مما ران على صورة هؤلاء القوم من غموض .

نمضي مع الكاتب في كتابه ، فنجده يتعرض لموضوعه من مداخل تاريخية ولغوية وأنثروبولوجية ، وهي مداخل يصعب أن تجتمع جميعها في شخص واحد، ثم إنه كان حريصاً في كتابه على تقصى موارد في مظان شتى بلغات شتى ، مع ولع فائق بالوثائق ، ينضو عنها غبار الزمن ، ويمضي بنا في رحلة مع هؤلاء القوم ، منذ نجومهم قبل خمسة عشر قرناً حتى زماننا .. وكم كانت رحلة شائقة وشاقة في آن .

لهذا وغيره صادف هذا الكتاب قبولاً واسعاً لدى صدره في طبعته الأولى (١٩٩٢) ، فأعيد طبعه ثلاث مرات في العامين التاليين ، ثم صدرت طبعته الثانية في العام ١٩٩٥ .

ولما كان الكاتب يتوجه بخطابه إلى قارئ غربي ، ثقافته غير ثقافتنا ، فقد وردت بكتابه أشياء يعلمها هذا القارئ ونجهلها ، وربما أيضاً وردت به أشياء أخرى تخصنا ،

أتى بها الكاتب على نحو مبتسر .. لذا لزم علينا أن نختصها جميعها بحواش شارحة ،
أجملناها مع هوامش المؤلف ، وميزناها بكونها للمترجم ، ولم نشأ أن نستزيد منها
حتى لا ينصرف ذهن القارئ عن متابعتها لكتاب ممتع ، بقدر ما هو مفيد .

وفقنا الله وهدانا ، وسدد خطانا .

الهرم ، الجيزة فى يوم السبت غرة شعبان ١٤٢١

الثامن والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٠

أبو أدهم

عبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

مقدمة المؤلف

هذه قصة شعب جوال حط الرحال في البلقان إبان العصور الوسطى ، وانتشر على نحو تدريجي في القارة الأوربية وما وراءها ، وعندما طرق هؤلاء القوم أبواب أوروبا في هيئة الحاج ، فقد أثاروا دهشة كبيرة ، وتواترت النظريات بشأن أصولهم ، وبعد دهر طويل صار من الممكن أن يستنبط من لغتهم أين بدأ شتاتهم ، وعبر القرون - ورغمما عن تعرضهم المستمر إلى كم هائل من التأثيرات والصفوط - فقد نجحوا في أن يحافظوا على هوية متميزة ، وأن يظهروا قدرةً فائقةً على التكيف والبقاء . والواقع أن المرء حين يتأمل ما واجهوه من تقلبات - يوضحها أن القصة التي نحكيها اليوم هي إلى حد كبير ما قام به الآخرون من أجل القضاء على تفردهم وتميزهم - فإننا نخلص إلى أن أهم ما تحقق لهم هو مجرد البقاء .

ومع أنه ليس من المتفق عليه تماماً أن الغجر « شعب من شعوب أوروبا » ^(١) فإنه يبدو من الأوفق أن نعترف بأهليتهم ، لأن يدرجوا في هذه السلسلة .

وإذا كان الشعب جماعة من الرجال والنساء والأطفال ، لهم لغة مشتركة وثقافة مشتركة وطابع عرقي مشترك ، ويتميزون بوضوح عن جيرانهم ، فإن الغجر جديرون بهذه التسمية منذ بعيد ، فقد صاروا عبر القرون مختلفين بامتياز ، ومن أجل معرفة المعانى المرتبطة بمصطلح « غجرى » Gypsy ، تنشأ مشكلة دلالية ليست من صنع الغجر أنفسهم ، حيث إن هذا المصطلح هو المسمى أو بالأحرى أحد المسميات التي أطلقها عليهم الأغيار .

صارت هذه المشكلة أشد احتداماً في عصرنا ، ففي السابق كان للفظ « غجرى » مضمون عرقي في أساسها ، والتعريف الأولى لها في معجم أكسفورد للغة الإنجليزية (الطبعة الثانية ١٩٨٩) هو ما يأتي :

(١) وهو العنوان العام للسلسلة التي يندرج تحتها هذا الكتاب (المترجم) .

« gipsy أو gypsy فرد في عرق جوال (يطلق أفرادهم على أنفسهم تعبير رومنى Ro-many) (٢) من أصل هندي ، ظهورها لأول مرة في إنجلترا ، حول بداية القرن السادس عشر ، وكان يظن وقتها أنهم أتوا من مصر .

« لديهم بشرة داكنة مشربة بصفرة وشعر أسود ، يرتزقون من صناعة السلال وتجارة الخيل وقراءة الطالع وما إليه ، وعادة ما يكونون موضعاً للشك ، بسبب ترحالهم وعاداتهم ولغتهم (وتدعى بالرومنية) وهى لهجة هندية مختلطة إلى حد بعيد بمزيج من الكلمات من لغات أوربية شتى» (٣).

إلى جانب هذا المعنى ، فقد صارت للكلمة دلالة فضفاضة ، فغالباً ما تستخدم في عصرنا للإشارة دون تمييز إلى أى فرد مترحل في جماعة ليست مترحلة بوضوح وهناك أوصاف ربما ظلت أكثر حياداً في المعنى (حيث إن لفظة « غجرى » اتخذت طابعاً منحطاً) وتستخدم داخل الجماعة المختصة وخارجها ، وأكثرها وروداً هي رجال Traveller ومرادفاتها في لغات أخرى . والمسألة برمتها صارت مصطبغة بالحساسيات الحديثة المتعلقة بالتمييز على أساس العرق ، ولا يعد أى مصطلح من المصطلحات التي استخدمها الأغيار مطمئناً خالياً من الالتباس .

تتضح معالم المشكلة في تطور كلمة " Gypsy " في القانون الإنجليزي ، منذ أواخر الخمسينيات من القرن العشرين ، فقد جردت من كل معنى عرقى أو سلالى - عن غير عمد في البداية ثم عمداً بعد ذلك - في استخداميها التشريعيين خلال هذه الحقبة . ففي مرسوم الطرق العامة لسنة ١٩٥٩ ، وتعزيزاً لتشريعات سابقة ، فقد حذفت منه عبارة « أو أى شخص رحال » لدى تحديد جماعة من الناس يتهمون بانتهاك هذا المرسوم ، عندما ينصبون خيمة أو سقيفة أو حظيرة أو منصة للبيع على طريق عامة (يوجد بها ممشى أو مساحات خضراء أو مواقف دراجات) ، وبذا فقد تحددت قائمة المنتهكين المحتملين في « بائع جوال أو أمثاله من الباعة أو غجرى » .

(٢) أثرتا كتابة هذه الكلمة بدون ألف حتى لا يختلط معناها بمعنى كلمة رومانى نسبة إلى روما أو رومانيا (المترجم) .

(٣) بين التهجئات الأربعة الممكنة Gipsy ، Gypsy ، Gipsy ، gipsy نستخدم في هذا الكتاب Gypsy فيما عدا الاقتباسات التي تتضمن تهجئات مختلفة ، وبالنسبة لرومنى Romany فمن المناسب استخدام البديل Romani لدى الإشارة إلى اللغة .

وليس ثم دليل على أن المشرعين أعطوا فكرةً أوسع لما تتضمنه هذه اللفظة الدالة «عجري» مما يعنى إنه لا مناص من تأويلها ، وهم بجرة قلم خلقوا مشكلة دلالية دقيقةً جديدةً بأن تتداول في المحاكم ^(٤). وعندما انتهت المشكلة إلى المحكمة العليا في سنة ١٩٦٧ خلص القضاة إلى أن اللفظة في سياقها لا يمكن أن يعطى لها معناها المعجمي الأولى « كعضو في العرق الروماني » ؛ فليس وارداً بالنسبة لهم أن يختص البرلمان شخصاً ما بعقوبة لمجرد أنه ينتمى إلى عرق ما ، لذا فقد قرروا أن « عجرياً » يجب ألا تعنى أكثر من شخص يعيش حياة الرجل بدون عمل محدد ولا سكن محدد « أى يكون يوماً عجرياً ولا يكون كذلك في يوم آخر » ^(٥). هذا المفهوم تجدد في العام التالي عندما صدر « مرسوم مواضع الكراقات » لتنظيم شرط « تخييم الفجر » ، فقد حدد المرسوم الفجر بأنهم « أشخاص اعتادوا حياة الترحال ، أيًا كان عرقهم أو أصلهم » سواء كانوا مستعرضين جوالين أو عاملين في سيركات متنقلة . وهكذا فالشخص يعد عجرياً أو لا يعد كذلك وفقاً لنمط حياته ، وليس وفقاً لأصول ثقافية أو عرقية . هذا التعريف هو الوحيد الذي مايزال باقياً في التشريع الإنجليزي ، حيث إن عبارة « أو عجري » تم حذفها في نهاية الأمر من تشريع الطرق العامة بوصفها عبارة عنصرية .

مع ذلك فهناك معنى سلالى تم التأكيد عليه مرةً أخرى في سياق قانونى مختلف ، حيث إن السوابق المتعلقة بالطرق العامة ومواضع الكراقات ليست بالضرورة ذات صلة . وقد تم ذلك بفضل الحكم المستخرج من مرسوم العلاقات العرقية لسنة ١٩٧٦ الذى يبسط حمايته في بريطانيا العظمى ضد التمييز على أسس عرقية من « لون أو جنس أو جنسية أو أصل أو قومية » والجدال حول ما إذا كان الفجر مشمولين بحماية تشريع العلاقات العرقية ظل يتصاعد بانتظام عبر السنين، حتى منذ المرسوم الأول لسنة ١٩٦٥ ، وبذل جهد كبير بشأن لافتات « لا للفجر » التى نصبها بعض أصحاب

(٤) Cf. A. M. Fraser, " Reference to Gypsies in British highway Law ", Journal of the Gypsy Lore Society (third series) , 40 (1961) , pp. 137 - 9 .

هذه النورية التى سوف يتكرر ذكرها سوف نشير إليها باختصار وفقاً للسلاسل . JGLS (1), (2), (3), (4), (5)
(٥) Mills V Cooper , High Court, 1967 (2 Q.B. 459) .

الحانات ، فهي لم تكن غير قانونية بذاتها طبقاً لهذا المرسوم ، لكنها صارت كذلك فيما بعد . ومع ذلك فقد توسل بعض أصحاب الحانات بعلّة أسلم ، هي إنهم نصبوا لافتات تقول « لا للرجال » وهو وصف من شأنه أن يبعث على تحايلات قانونية ، ولذا فإن لجنة المساواة عندما تدارست وضع لافتات مثل هذه في حانة بشرقي لندن تدعى « الهر



شكل ١ - لافتة في حانة بكننت ١٢ ديسمبر ١٩٦٦ . فرانك مارتين . الجارديان .
المكتبة البودلية أكسفورد .

والضأن « اقتضى الأمر عرضه على القضاء أمام محكمة كونتية وستمنستر ١٩٨٧ ،
ثم أمام محكمة الاستئناف ١٩٨٨ .

القضية هي ما إذا كان الامتناع عن تقديم الخدمات تمييزاً « على أسس عرقية » .
وقد رفض قاضى محكمة الكونتية ادعاء لجنة المساواة العرقية الذى يذهب إلى أن
تعبير « رجال » مرادف ومتعاوض لتعبير « غجرى » وأن الغجر جماعة سلالية ethnic
group وخلص إلى أن لافتات مثل تلك وجدت فى حانة « الهر والضأن » ليست غير
قانونية ؛ وأسقطت الدعوى . وقد أيدت محكمة الاستئناف (٦) هذا الحكم إلى حد أن
القضاة الثلاثة أجمعوا على أن « رجال ليست مرادفة لغجرى » ، وأن الغجر ليسوا
مقصودين بهذا التعبير ، وبذا فليس ثم تمييز مباشر ، ومع ذلك فقد ذهبوا إلى تأكيد
أن الغجر كانوا جماعة عرقية كما يفهم من المرسوم ، وعليه فعبرة « لا للغجر » تعتبر
غير قانونية ، بيد أن عبارة « لا للرجال » تشكل تمييزاً غير مباشر من شأنه أن يصيب
الغجر بفرض شرط « ألا يكونوا رجالاً » ، وهو شرط يصير وقعه على الغجر أشد من
وقعه على غيرهم من الجماعات العرقية .

وإذا كان ثم عذر لنا فى اقتحام تفاصيل قانونية دقيقة كهذه ، فإنه يكمن فى
حقيقة أن مسألة الهوية الغجرية ظلت تلازم الغجر فى أوروبا منذ أن حلوا بها لأول مرة ،
وهذه السجلات القانونية فى المحاكم البريطانية عظيمة الفائدة فى توضيح معضلة
هامية ، لا سبيل لعزلها عن أية مناقشة لموضوع الغجر .. هل نمط حياتهم هو العامل
الأهم فى تعريفهم ؟ ربما كان هذا النمط كافياً فى حالات ، مثل بعض ما سبق أن
ذكرنا ، لكنه أبعد من أن يكون إجابة شافية لغجر كثيرين ، اتخذوا فى حياتهم نمطاً
قرارياً ولا « يترحلون » ، بل الأكثر من هذا لم يعودوا يشعرون بأنهم غجر . ومن ناحية
أخرى فإن إعطاء أهمية كبرى لمعايير بيولوجية ومعايير نسب قمين بأن يفضى إلى
تحديدات عبثية ، فالغجر شأنهم شأن غيرهم لديهم اختلاط فى أصولهم ، وإذا توقفنا
أمام الحسابات الرياضية ، نجدها تشير إلى إنه منذ حلول الغجر بأوروبا فإن معدل
أربع زيجات كل مائة مع غير الغجر يفضى إلى نسبة تصل إلى سبعين فى المائة لغجر
بهم دماء غير غجرية . وثلاث زيجات كل مائة ، تجعل هذه النسبة تصل إلى ستين فى

Commision For Racial Equality V Dutton, Court of Appeal, 1988 .

(٦)

المائة (فى الرايخ الثالث فإن ما يرتبط بالعرق من صعوبات نظرية وعملية دفع إلى إنشاء جهاز ضخّم لتحرى النسب العجرى وصياغة قواعد لتحديد درجة السلف العجرى ، ربما كانت كافية لأن تصنف شخصاً ما بأنه عجرى وتبعث به فى النهاية إلى معسكرات الموت) .

ننتهى أخيراً إلى « المعيار السلالي » بالمعنى الذى استخدمته محكمة الاستئناف فى إنجلترا فى ١٩٨٨ ، ومن المفيد أن نمنع النظر فى حيثيات حكمها وهى « إن هناك العديد من الناس يتنقلون عبر البلاد فى كراقات وعربات وحافلات مسروقة ومقطورات وشاحنات وسيارات ، ويعيشون حياة غير مستقرة .. ويمكن أن يشار إليهم على نحو فضفاض بأنهم عجر ، لكنهم لا تنطبق عليهم الموصفات الخاصة بالجماعة العرقية التى ينص عليها المرسوم » . وفى حكم قضائى سابق لمجلس اللوردات (٧) ، اعتبر أن « سلالي » فى مرسوم العلاقات العرقية ، لم يكن يستخدم بمعنى بيولوجى أو عرقى صارم . ويؤكد على خصيصتين أساسيتين لدى أية جماعة سلالية فى هذا السياق ، إحداهما « تاريخ طويل مشترك مستقر فى وعى الجماعة ، ويميزها عن غيرها من الجماعات ، ويعد ذاكرة حية لها » والثانية هى « تراث ثقافى خاص بها ، يشمل العائلة وعادات أفرادها الاجتماعية وشماثلهم ويرتبط فى الغالب وليس بالضرورة بشعائر دينية » وثمة خصائص أخرى وإن لم تكن أساسية ، إلا أنها تساعد فى تمييز جماعة سلالية هى أصل جغرافى مشترك ، أو تحدرها من أسلاف مشتركين ، ولها لغة مشتركة وأدب مشترك مميز للجماعة ، وديانة مشتركة ، تختلف عما لدى الجماعات المجاورة أو المجتمع العام ، وأن تكون أقلية أو أن تكون جماعة مضطهدة داخل مجتمع أكبر .

فى تطبيق هذه المعايير على العجر ، فإن ما أشكل منها على واحد من قضاة محكمة الاستئناف الثلاثة فى يوليو ١٩٨٨ هو إن :

« العجر يفضلون أن يدعوا « برحال » فهو ما يعد فى اعتقادهم أقل ازدرائية . وهذا يجعلنا نفترض رغبتهم فى أن يتخلصوا من هويتهم الانعزالية التى يعلمها عنهم الآخرون . شطرهم أو أكثر يعيشون الآن فى منازل مثل معظم الناس .. هل فقد العجر

Mandla (Sewa Singh) V Dowel Lee , House of Lords, 1983 (2 A. C. 548) . (٧)

إذن هويتهم الانعزالية ، وبذا لم يعودوا معترفاً بهم كجماعة سلالية بالمعنى الوارد فى المرسوم ٩٩ .

وقد أجاب على سؤاله هذا بأن التسليم بحقيقة أن بعض الغجر صار من المتعذر تمييزهم عن غيرهم من الناس ليس كافياً للزعم بأنهم فقدوا هوية اجتماعية معترفاً بها تاريخياً فى عيون الجماعة ذاتها وفى عيون من هم خارجها « ورغمما عن وجودهم الطويل فى إنجلترا ، فهم لم يذوبوا كليةً فى السكان ، مثلما فعل الساكسون والدنماركيون ، ولم يفقدوا هويتهم الانعزالية ، وهم أو كثير منهم حافظوا على انعزالييتهم وإدراكهم الذاتى بأنهم ما يزالون غجر » .

ومما لا شك فيه أنه سوف يظل هذا السجال مدوياً ، بسبب العنصر غير الرومنى الواضح فى أسلاف الغجر البريطانيين ، والتاريخ الطويل لجماعات أخرى رحالة ، كان لها حضورها الواضح قبيل مقدم الغجر ، وتداخلت معهم فى كثير من أوجه حياتهم الاجتماعية وطرائق معيشتهم . وقد أفضت الطبيعة الجزرية الواضحة للمجتمع البريطانى إلى عدم وضوح التمايزات السلالية فى هؤلاء الرحال ، سيما وإن التدفقات الخارجية الأحدث للغجر « الأجانب » كانت محدودة للغاية فى أعدادها ، مقارنةً بغيرها من الأقطار . هناك أيضاً بعد أيديولوجى قد يفضى إلى الإرباك ، فكد فعل على ما كان قد جرى فى الماضى من استغراق مضلل فى القضايا المتصلة « بنقاء الدم » ، فإنه لم يعد من اللائق فى بريطانيا الحديث عن فئات مختلفة داخل جماعة الرحل ، ويتكشف للمرء بالفعل قدر كبير من شك بعض الأنثربولوجيين الاجتماعيين فى الأصل الهندى للغجر ، وسرعان ما تتبدد الاتهامات بالغرائبية والرومانسية ومفارقة الواقع .

ماذا يمكن أن نتوقعه من الغجر ؟ فنسبتهم لأنفسهم ميكانيزم هام فى تثبيت هويتهم السلالية ... من الذين نعتبرهم « نحن » ومن الذين نعتبرهم « هم » ؟ وفى نظرهم فأهم تقسيم عندهم هو الذى بينهم وبين الـ gadžo (وتجمع gadžé)^(٨) وهو أكثر مسميات غير الغجر انتشاراً فى لهجات اللغة الرومنية (فى إسبانيا يصير غير

(٨) تعرضنا للتقاليد المتبعة فى تدوين الرومنية فى صفحة ٢٧ . أدناه ، وما نغنيه بـ gadžo هنا أطلق

عليه فى أدبيات القرن التاسع عشر فى إنجلترا gorgio ، كما يتضح فى كتابات جورج بارو-George Barrow ، وهناك تهجئات أخرى كثيرة ، استخدمت فى وقت أو آخر بينها godjo , gaujo .

الفجرى payo والكلمة المرادفة عند الرجال الاسكتلنديين هي بوجه عام flattie بينما هي في إيرلندا buffer أى ليس رومنياً) . ومع ذلك فلا يتفق الفجر جميعهم على كلمة واحدة تتطابق مع « فجرى » ، فالفجرى الإنجليزى قد يطلق على نفسه Romanichal (أى رجل فجرى) وهي كلمة استخدمها كذلك فى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا فجر يعودون فى أصولهم إلى مهاجرين من الفجر الإنجليز ... أما فى القارة الأوروبية فلدى الفجر القدماء تشكيلة من الأسماء مثل calé (= سود) فى إسبانيا وجنوبى فرنسا و kaalé فى فنلندا و sinti فى ألمانيا و manouche فى فرنسا . وفى أقطار أخرى هناك عدة مسميات ، نشأت عن موجة أحدث للهجرة الفجرية ، نجمت فى شرقى أوروبا ، منذ ما يزيد على المائة سنة ، ويطلق هؤلاء الفجر على أنفسهم Rom أو Roma وتأثر كلامهم إلى حد كبير بمقام أسلافهم الطويل فى أقطار تتحدث بالرومانية ، ومن ثم أتت تسميتهم بالروم الأفلاق Vlach Rom^(٩) (وليس لكلمة روم علاقة برومانيا ، ولكنها تعنى حرفياً رجلاً أو زوجاً) هؤلاء الروم الأفلاق لهم تقسيماتهم الفرعية إلى قبائل منها الكالديراش Kalderash واللوقارا Lovara والتشورارا Curara . عند هذه النقطة تتداعى ثنائية « هم ونحن » ، لأن كل جماعة فجرية تدعى أنها تمثل الفجر الحقيقيين ، ومن الواضح تماماً أين تقف كل جماعة منها إزاء الأغيار ، لكن هناك آخرين - غالباً فى القطر نفسه - يقفون على التخوم بين الفجر والأغيار ، ويعترف الفجر بأن هؤلاء القوم ليسوا أغياراً ، لأن لديهم أشياء مشتركة معهم ، لكنهم على نحو ما ليسوا هم . وغير خاف أن التمييز مهم عند الفجر فيما يختص بالصلات الاجتماعية من زواج وغيره ، فضلاً عن أن التصنيفات نادراً ما تكون قطعية ، ومواقف الجماعات الفجرية بعضها تجاه بعض عامل يضاف إلى السجال الذى لا نهاية له بين الأغيار وعن يجب أن يمثل « الفجر الحقيقيين » أو لا يمثلهم ، وهم يخرجون أيضاً إلى أنه ليس من المجدى أن نتحدث بتعبيرات جغرافية ، كأن نقول « فجر فرنسيين » وبذا يصير من الصعب أن نعمم بشأن الفجر .

كلمة أخيرة عن وعيهم بكونهم جزءاً من كيان أكبر ، فما جرى من نهوض للمنظمات القومية الفجرية ، منذ الستينيات وما بعدها - والمتمثلة فى الدفاع الذاتى

(٩) نسبة إلى إقليم الأفلاق Wallachia الذى يشكل مع إقليم البغدان Moldavia معظم أراضي جمهورية رومانيا الحالية (المترجم) .

والسعى للاعتراف بحقوق الغجر والنضال ضد سياسات النبذ والإدماج - أدى إلى نهوض روابط دولية ، تمضى عكس النظام الغجري المتشردم ، وتأكيد على الاختلاف والتميز ، وتلك هي البداية لإدراك جديد للمشارك التاريخي والثقافي الذي يجمع بين الغجر بعضهم وبعض .

يرد في معجم أكسفورد اللغة الإنجليزية في تعريف الشعب بأنه « هيئة من أشخاص يشكلون جماعة أو قبيلة أو عرقاً أو أمة » وربما امتد هذا التعبير الفضفاض والملتبس ليغطي هذه الفسيفساء من الشراذم السلالية التي تشكل اليوم هؤلاء القوم الذين يدعواهم الأغيار غجر ، ومع ذلك وبالعودة إلى السؤال الأصلي ، وهو إلى أى مدى يعد هؤلاء الغجر « شعباً من شعوب أوروبا » ؟ حيث إن هناك أعداداً كبيرة منهم تعيش خارج أوروبا ينحدر بعضهم من أجداد لم يهاجروا أبداً وراء القارة الآسيوية، وهناك أعداد أكبر هاجرت من (أو تحدرت من) أسلاف هاجروا من أوروبا. وبالنسبة للجميع ففيما عدا الطائفة الأولى ، فقد ترتب على ارتباط الغجر الطويل بأوروبا وامتزاجهم بغيرهم من الناس آثار عميقة في لغتهم ، وكذا الحال بالنسبة لتكوينهم العرقي وثقافتهم ومجتمعهم ، وبعد قرون عديدة قلدى الغجر ما يجعلهم يدعون بأنهم أوروبيون ، وهم في الواقع من الفئات القليلة التي تنادت بالوحدة الأوروبية .

حان الوقت الآن لنتحول إلى مناقشة أصولهم ، ونتساءل في هذا السياق : هل توافرت لأسلاف الغجر وحدة عرقية وسلالية ولغوية أكثر من تلك التي تتوافر لأخلافهم في القرن العشرين ؟؟

الفصل الأول

الأصول

لحوالى الشطر من تاريخهم ، هناك القليل من السجلات المكتوبة ، والتي يمكن أن نفيد بها فى متابعة مسيرة الفجر ، وحالما تبدأ المراجع التاريخية فى التراكم ، فإنها تأتي من أغيار ، ربما كتبوها عن جهل وتعصب وعدم فهم .

ذات يوم صرح باحث كبير « بأن التاريخ الحقيقى للفجر يكمن فى دراسة لغتهم » . ولا شك فى أن دراسة اللغة الرومنية جديدة بأن تكشف عن قدر كبير من أصل هذه اللغة وتطورها ، لكنه من الأمور الاحترازية ، أن يتوازى هذا مع أصل المتحدثين بالرومنية وتطورهم ، كما إنه ليس ممكناً أن يفترض التكافؤ ، ورغماً عن هذا فلا مندوحة فى سعيينا لأن نملا هذه الفجوة من أن نتحول إلى التحليل الفيلولوجى ^(١) حتى يتبين لنا إلى أى مدى يفيد الاستدلال اللغوى فيما أخفق التاريخ فى تسجيله .

الدليل اللغوى

يعود تاريخ أول عينة مسجلة من الرومنية إلى فترة متأخرة نسبياً ، وهى عينة جرى جمعها فى أغلب الظن فى حانة للجنة فى سسكس Sussex ونشرت فى ١٥٤٧ ولم يتم التعرف على ما بها إلا بعد عدة قرون ، حيث إنها تضمنت فى كتاب أندرو بورد Andrew Borden الموسوم « بالكتاب الأول فى المدخل إلى المعرفة » Fyrst Boke of Introduction of Knowledge (الذى استكماله فى ١٥٤٢) ، وقصد بهذه

(١) الفيلولوجيا Philology هو العلم المختص بدراسة فقه اللغة (المترجم) .



The. xxviii. Chapter treateth of
Egypt, and of theyr money
and of theyr
speche.

Egypt is a countrey formed to Turky
Her countrey is plene full of wine, corne and many
great wylde beastes. In þ which wylde men haue many
holy fathers as it apperith in hita patryll. The people
of the countrey be swarte and doth go dygging in the earþ
parrel contrary to other nations, they be lyght fyggers
and use pyking they haue litle maner, and euyl loggynge
yet they be pleasant dallisers. Her he seth of mane of
the Egyptys þ doth dwelt Egypt for Egypt is repleted
now wylthynfel alþons. Her money is brasse and golde
þe there be any man þ wyl leaue parrel of theyr speche
Englyshe and Egypt speche foloweth.
Good morow
Each settur ydurnes
How satre is it to the west tostone
Cater myla barforas

24.

2000

you be welcome to the countrey
Hopl you drynke some wyne
I wol go with you
Sitt you downe and drynke
Drynke drynke for god sake
Soynde geue me to: cad and wyne
Achae da mano: la belle
Oure me fleshe
Soynde come byther hache a wynde
Achae a wodeysulle
Ceue me aples and pettes
Soynd good do se you.
Good nyght
Zachariatut



The. xxxix. Chapter treateth of
the naturall disposicion of þ Zues,
and of theyr money
and of theyr
speche.

I am an hebreyon, some call me a Zeto
Eo Jesu Ebyrt I was neuer treth
I should kepe wifes olde lawe
I seare at length I shall proue a lawe
Soynd thynnges of moyses lawes do I not kepe
I beleue not the prophetes, I se to lunge a sepe.

34

الشذرات أن تكون نموذجاً للكلام المصرى Egipt Speche (انظر شكل ٢) ، وفى زمن
بورده كان قد تهيأ للرومنية وقت كاف منذ أن فارق الفجر وطنهم ، كى تنمو وتتطور ،
ويحدث لها ما حدث للإنجليزية ، حين انفصلت عن الأنجلو سكسونية ، وأضحت
الرومنية أبعد من أن تكون لغةً وحيدة ، حتى إن العبارات القليلة الواردة عند بورده تبدو
بها استعارات أخذتها الرومنية من اللغتين اليونانية والرومانية ، واليوم وبعد تطور
يمتد إلى الوراء أكثر من ألف سنة ، ومع عدم توافر نماذج مكتوبة تعزز الاتساق ، فإنه
لا يوجد مستوى واحد لهذه اللغة ، وبدلاً من ذلك فلدينا وفرة من اللهجات (فى أوروبا
وحدها ستون لهجة أو أكثر) وترتبط هذه اللهجات بعضها ببعض إلى درجة كبيرة ،
لكنه غالباً ما يكون ارتباطاً غير واضح .

لدى اقتباس نماذج من الرومنية ، تفيد فى معرفة تاريخ اللغة ، نقترح أن ندلف
إلى ثلاث دراسات من أطرف ما كتب عن اللهجات الفجرية ؛ أولاها « دراسات عن
الفجر » Études sur les Tchinghamianés المنشور بالقسطنطينية فى ١٨٧٠ لألكسندر
باسپاتى Alexandre Paspatis وهو يبدأ كتابه بهذه العبارة الماثورة « إن التاريخ
الحقيقى للفجر يكمن فى دراسة لغتهم » La véritable histoire de la race Tchinghamia-
née est dans étude de leur idiome ، تأتى بعد ذلك « لهجة الفجر فى ويلز The
Dialect of the Gypsies of Wales المنشور فى ١٩٢٦ للعالم الدوب جون سامسون
John Sampson ، وثالث الثلاثة « لغة النحاس الفجرى السويدى يوهان ديمترى
Tai- Johan Dimitri Tai- The Language of the Swedish Coppersmith Gipsy
kon الصادر فى ١٩٦٣ للسويديين أو . جييردمان O. Gjerdman و أ. ليونجبرج E.
Ljungberg .

تتيح لنا هذه الأعمال الفرصة لأن نتدارس اللغة الرومنية ، وسبل انتشارها فى
أوروبا من خلال جهات ثلاث أصلية ، تمثل فى الوقت نفسه ثلاثة نماذج أساسية
للرومنية المحكية ، وقد بدأ باسپاتى فى جمع مادته فى خمسينيات القرن التاسع عشر ،
وذلك من فجر رحل يقيمون فى ضواحي القسطنطينية وفى القسم الأوروبى من
الإمبراطورية العثمانية ، وحيث إنه لم يكن يزاول عمله فى صومعة ، فقد أكد على أن
لغة الفجر تجب دراستها فى الخيمة ، وهو ما قام به بالفعل ، ويذكر فى هذا السياق
أنه كان صديقاً للفجر متعاطفاً معهم ، وأضحت لكتابته قيمة باقية ، رغمًا عما كان

يشوبه أحياناً من أخطاء صوتية (٢) وأصولية (٣) ، والفائدة منه كبيرة ؛ بسبب أهمية الإقليم الذى كان موضعاً لدراسته ، فقد كان نقطة الانطلاق فى رحلة الغجر الطويلة باتجاه الغرب .. تلك الرحلة التى أتت بهم لأول مرة إلى أوروبا ، ويمكن أن نطلق على اللهجة التى سجلها پاسپاتى « الرومنية اليونانية » .

أما عن جون سامسون الذى أنفق ثلاثين سنة من عمره فى جمع مادته ، تبدأ من ١٨٩٤ ، فقد كان خازناً لمكتبة جامعة ليفربول ، كما كان فى أعماقه شاعراً ورومانسياً وثائراً ، وقد عده الغجر واحداً منهم ، وفى ويلز انهمك بشغف فى تسجيل لهجة بديعة ، بقيت على الزمن أنقى من أية لهجة أخرى للغجر فى بريطانيا ، وقد ورثها من يتحدثون بها عن أسلافهم الذين يعود العهد بهم فى ويلز إلى القرن السابع عشر ، وعلى ذلك فهم يمثلون جماعةً غجريةً مقيمة منذ زمان بعيد فى بلد واحدة .

أما عن لهجة النحاسين (أى الكالديراش Kalderash) التى سجلها جييردمان وليونجبرج فى الأربعينيات من هذا القرن ، فقد كانت لغة الحديث عند رجل ينتمى إلى الجيل الأول من هؤلاء النحاسين ، عاش فى السويد ، ثم ارتحل إلى النرويج وفنلندا وروسيا والبلقان وبولندا وألمانيا وفرنسا ، وعلى ذلك يمثل تايكون أحد اتجاهات الهجرة عند واحدة من أعظم قبائل الروم الأفلاق الذين حظوا بشهرة واسعة فى أخريات القرن التاسع عشر ، عندما زحفوا غرباً من البلقان والإستبس الروسى والسهول المجرية ، وأثاروا ضجة كبيرة كالتى سبق أن أثارها أسلافهم ، حين نفذوا إلى غربى أوروبا قبل ذلك بعدة قرون .

علينا الآن أن ندلى بدلونا فيما يختص بالتدوين الصوتى للغة الرومنية ، فعندما نقارن بين أعمال پاسپاتى وسامسون وجييردمان - ليونجبرج ، تجبهننا مشكلات تعود إلى أن الرومنية استمرت ولدى طويل لغة شعب أمى ، ليست له لغة مكتوبة ، ولا يوجد اتفاق على طريقة لكتابتها ، وغالباً ما كان المدونون يستخدمون التقاليد الصوتية فى لغتهم الأم ، واللغات - كما نعلم - تتفاوت على نحو واضح فى الاتساق بين كتابتها ونطقها .

(٢) نسبةً إلى علم الصوتيات Phonetics (المترجم)

(٣) نسبةً إلى علم أصول اللغة أو تاريخ الكلمات Etymology (المترجم) .

بيد أن هناك قاعدة ألفبائية صوتية صارمة ، مثل تلك التي أقرتها جمعية الصوتيات الدولية International Phonetic Association ، ففيها يشير كل رمز إلى صوت بعينه ، وليس إلى غيره ، ومن شأن ذلك أن يزيل أى التباس ، ومن أجل أن تقوم ألفبائية مثل هذه بالدور المنوط بها في عمل تقنى كهذا ، فإنها تستخدم عدداً من الحروف أكثر من الستة والعشرين حرفاً الرومانية ، وبالنسبة للقاريء العام تبدو هذه الحروف بأشكالها غير المألوفة مريبة إلى حد ما ، ونقترح تسويةً تطرح جانباً الحروف التي يبعد أن تكون قيمتها الصوتية التقريبية محيرةً لقاريء الإنجليزية ، لكنه بالنسبة لأصوات معينة تدون على نحو متفاوت في لغات أوروبية وفي الإنجليزية ذاتها ، علينا أن نستعين ببعض العلامات الصوتية المساعدة وتوليفة خاصة من الحروف ، والصياغات التي سوف نستخدمها لهذه الحالات الخاصة موضحة في العمود الأخير أدناه .

جيريدهمان - ليونجبرج	سامسون	باسپاتى	الصوت فى الكلمة الإنجليزية
č	tʃ	tch	church
dž	dʒ	dj	judge
š	ʃ	sh	she
ž	ʒ	z	treasure
kh	kʰ	kh,k	ink - horn
ph	pʰ	ph/p	top - hole
th	tʰ	th/t	ant - hill
x	x	kh	loch (بالنطق الإسكتلندي)

(وتتطابق الصياغات فى العمود الأخير مع ما أقره مؤتمر الفجر العالمى World Romany Congress المنعقد فى سنة ١٩٩٠ ، فيما عدا dž ، حيث فضل المؤتمر لها هيئةً حرفيةً خاصة) (٤). والنقطة الأخيرة لتدوين الرومنية تدويناً صوتياً ، هى إنه

(٤) يلاحظ أنه فى عناوين بعض الأعمال المذكورة فى الحواشى استخدمت علامات صوتية مختلفة للتعبير عن هذه الأصوات č, j, š, ž .

حيثما يبدو ضرورياً ، فإنه يشار إلى الصوائت الطويلة بعلامة مد على الحرف الصائت (مثل e إلى آخره) ، ويوضح النُّبر بوضع علامة نبر حادة على الحرف الصائت النبرى كما فى e .

ومع أننا لسنا على يقين من أنساب الغجر أنفسهم ، فإن علم اللغة المقارن يزودنا بوفرة من المعلومات عن تسلسل أنساب لهجاتهم ، فقد تحققنا قبل مائتى عام تقريباً من وجوب أن تكون الرومنية متحدرة من أصل هندي ، ومرد ذلك يعود إلى التشابه بين مفرداتها ومفردات بعض اللغات الهندية ، وازداد الأمر وضوحاً فيما تلا ذلك من سنوات ، ولو أننا نفتقر إلى اليقين ، وحيث إن هناك اعتماداً كبيراً على الاستدلال اللغوى ، يصير من الأفضل أن نلقى نظرة على تكنيك علم اللغة المقارن ، وهو يركز على ثلاثة جوانب أساسية هى الأصوات والبناء والمعجم .

لتقصي القرباب بين اللغات فإن اثنين من المفاتيح الأهم ، هما مجموعة المفردات الأساسية ، والتمائل فى البناء النحوى ، وهناك مفتاح ثالث هو الاطراد فى التوافق الصوتى ، أى الإتساق فى الصلات الصوتية بين الكلمات التى لديها معان متطابقة فى لغتين معاً ، وعلى ذلك فإن صوتاً فى لغة ما يعد بانتظام هو الصوت نفسه فى لغة أخرى .

من الطبيعى أن تتوافر فى لغتين شديدتى القرابة أعداد كثيرة من الكلمات المتماثلة ، ومع أن الكم ليس هو المعيار الأساسى ، فإنه من المهم أن نختص بعنايتنا الكلمات المحافظة ذوات الدلالات الأساسية فى اللغتين والتى يبعد أن تكون مستعارة من لغات أخرى ، وتتضمن هذه الكلمات ضمائر شخصية (أنا ، أنت ... إلى آخره) وأفعالاً تعبر عن نشاطات أساسية أو أحوال (مثل يشرب ، يرى ، ينام) وصفات تنوه إلى خصائص أولية (مثل كبير وحاد) أو أسماء ترمز إلى أشياء واسعة الانتشار (مثل ماء أو إنسان) أو إلى أجزاء الجسم (مثل شعر ، رأس ، أنف) أو صلات قوية (مثل أخ ، أب ، أخت) .

وبالنسبة للملامح النحوية مثل الصرف أو مورفولوجيا اللغة morphology (أى تعديل الكلمات المفردة بتصريفها أو بتغييرات فى جذورها) فإنها أكثر محافظة من نظم الجملة syntax (أى التعبير الاصطلاحي idiom أو بناء الجملة) وعندما نصادف

تشابهاً في الصرف - مثل تصريف الأسماء أو تصريف الأفعال - فإنه يصير من المستبعد أن نعزو ذلك إلى المصادفة ، والأمر نفسه (مع أنه ليس مستحيلاً) أن نعزوه إلى الاستعارة ، ولا نذهب إلى ما هو أبعد ، حيث إنه في النهاية لا يوجد شيء عصي عن الإنتشار عبر الحدود اللغوية .

إذا نحن طبقنا هذه الاختبارات الثلاثة على الصلات المتطورة في مجموع المفردات الأساسية ، والتمائل في البناء النحوي ، والاطراد في التوافق الصوتي بين الرومنية ولغات هندية معينة ، فإن النتيجة تعنى الوحدة في الأصل .

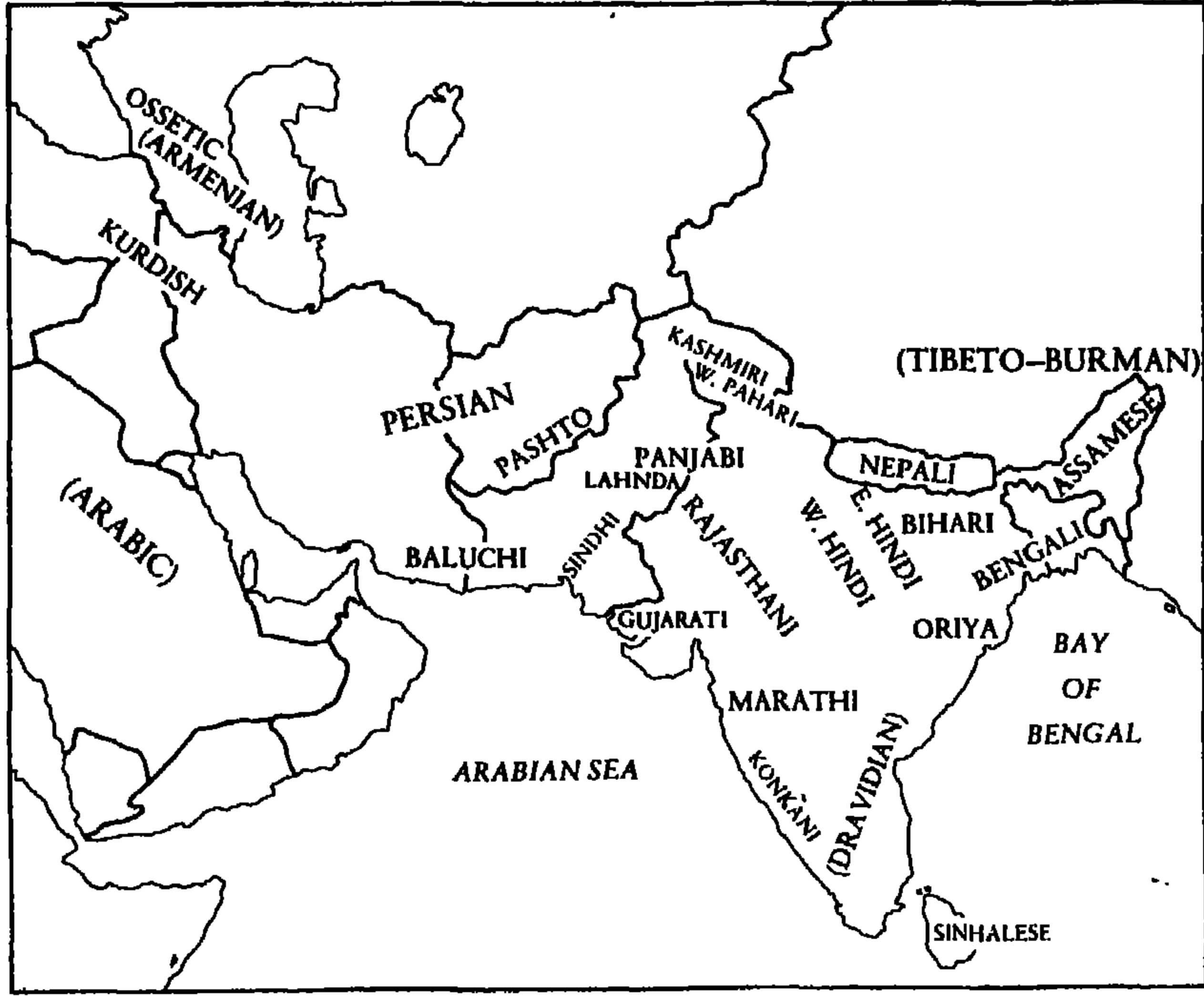
والجدول التالي يعطينا عينةً بسيطةً لمجموعة من الكلمات من النوع المحافظ ذوات أهمية فائقة (في هذه المرحلة نقتبس من السنسكريتية والهندية Hindi^(٥) كممثلتين لمجموعة اللغات الهندية ، أما السؤال عن أى من اللغات الهندية Indic هي الأقرب إلى الرومنية ، فسوف نترك الإجابة عنه إلى مناقشة تالية) .

(٥) حيث ترادف ś, ण على نحو تقريبي Sh في الانجليزية .

رومنية النحاسين	رومنية ويلزية	رومنية يونانية	هندية	سنسكريتية	إنجليزية
baró	bārō	baró	baṛā	vaḍra	big
pral	phal	pral, plal	bhāī	bhrātr̥	brother
pē -	pī -	Pī -	pī -	pībati (drinks)	(to) drink
dad	dad	dat, dad	tāt	tāta	father
bal	bal	bal	bāl	vāla	hair
śeró	śerō	Śeró, seró	sir	síras	head
tató	tatō	tattó	tattā	tapta	hot, warm
mē	me	mē	maiñ	méyā (instr.)	I
manús	manús	manús	mānuṣya	mānuṣa	man
nakh	nakh	nak	nāk	nakka	nose
amaró	amārō	amaró	hamārā	asmāka (ours)	our
dikh	dikh	dik -	dēkh -	dr̥kṣati (sees)	to(see)
phei	phen	pen, ben	bahn	bhaginī	sister
sov-	sov -	sov -	sōnā	svāpati (sleeps)	(to) sleep
kham	kham	kam	ghām	gharmā (heat)	sun
pai	pānī	paní	pāñf	pañfya	water
tu	tū	tu	tū	tuvām	you (sing)

يتضح لدينا من هذه النماذج من المفردات الأساسية تشابهاً بين السنسكريتية والهندية وبين الرومنية ، فيما عدا - أختاً وأختاً - وهو ما سنعود إليه فيما بعد ، ويمكن أن تطول هذه القائمة ، فكل من اللهجات الرومنية الثلاث المنتخبة ، تحوى ما يزيد على الخمسمائة كلمة معترفاً بأصلها الهندي .

قبل متابعة المجموعتين الثانية والثالثة من المفاتيح - أى الجهاز النحوى - grammati-cal apparatus والتحويلات الصوتية Sound shifts - يحتاج الأمر لأن نلقى نظرةً واسعةً على مجموعة اللغات الهندوأرية ، فبين العائلة الكبيرة من اللغات المعروفة بالهندو أوروبية والتي تضم معظم لغات أوربا ، وتمتد حتى أواسط آسيا ، فإن المجموعة الأساسية فى أقصى الشرق يطلق عليها اسم الهندوإيرانية ، وهى مؤلفة من الهندوأرية وعائلات فرعية إيرانية ، وقد تطورت الهندوأرية أو الهندية - Indic - بمجرد ما بدأ الرعاة الرحل المتحدثون بالهندوأوروبية (والذين عرفوا تاريخاً بالآريين) فى الانتشار بشمالى شبه القارة الهندية ، وذلك بعد أجيال من الهجرة فى اتجاه الشرق من السهول الأوراسية ، وقد وقعت هذه الهجرة خلال الألف الثانية قبل الميلاد وربما قبلها ، ونقف على أقدم صيغة محلية من الهندوأرية فى النصوص المقدسة المعروفة بالفيدياس Vedas ، ومن واحدة من لهجات السنسكريتية الفيدية ، بزغت السنسكريتية الكلاسيكية ، بتراثها الأدبى الزاخر ، ويشار إلى الصدر الأول لها بالهند وأرية القديمة ، وقد حافظت على وجودها ولا نجد بها لهجات ولا تشعبات ، ثم إن التطورات التى جرت فيما بعد اتسمت بالمحدودية ، وبدأت الحقبة المتوسطة من الهندوأرية ، عندما لاحت فى الأفق أشكال شعبية منها ، تخففت من بعض تعقيدات السنسكريتية ، وبدأت هذه الأشكال ، وقد عرفت بالپراكرتية (Prakrit أى طبيعى أو فج) فى إثبات ما جرى من اختلافات لهجية ، وفى فترة باكرة تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، بدأت تحل محل السنسكريتية فى استخدامات الحياة اليومية ، ومع ذلك فقد استمرت للسنسكريتية مكانتها البارزة فى بلاد الهند كمكانة اللاتينية فى أوربا ، بل هى ما تزال حتى يومنا هذا واحدة من اللغات الرسمية المعترف بها هناك ، على أن الپراكرتية بدورها بدأت تجاوزها (حوالى القرن السادس الميلادى) لغة هى أكثر اللغات الهندوأرية الوسيطة تطوراً وتدعى Apabhramsa (أى الساقطة) ، وظل هذا الوريث لغة فى ثوب پراكرتية ومنظمة طبقاً للنموذج الخارجى للسنسكريتية ، صحيح إنه حدثت تغيرات صوتية ، لكن التغيرات فى الفصائل النحوية ونظم الجملة كانت أكثر محدودية . ومعلوماتنا يسيرة



خريطة ١ - بعض اللغات الهندو إيرانية
اللغات من غير الهندو إيرانية بين أهلة

عن تفاصيل هذا التحول من الهندوآرية الوسيطة إلى أقدم الصيغ للغات الحديثة التي نصنفها باسم الهندوآرية الجديدة ، وقد جرى هذا التحول خلال القرون القليلة السابقة لسنة ١٠٠٠ ميلادية ، حين اتسع مدى التجديد النحوي ، وتصاعدت الاختلافات المحلية أكثر فأكثر ، وهذا يعنى إنه خلال هذه المرحلة الهامة التي شهدت ميلاد اللغة الرومنية وأقربائها يوجد ستار كثيف من الغموض .

أفضت هذه التحولات للهندوآرية إلى ظهور عدد كبير من الصيغ المتحدث بها - عدة مئات - انبثقت كلغات أساسية للهند وباكستان وبنجلاديش ونيپال وسرى لانكا، ويستخدمها اليوم ما يزيد على ستمائة وخمسين مليون نسمة ، وتتضمن على نحو خاص :

المجموعة الداردية Dardic : الكشميرية .

المجموعة الشمالية الغربية : السندية ، اللاندا Lahnda (أو البنجابية الغربية)

المجموعة الشمالية : البهارية Pahari الغربية والنيپالية .

المجموعة المركزية : البنجابية والراجستانية والجوجاراتية والهندية الغربية .

المجموعة الوسطية : الهندية الشرقية .

المجموعة الشرقية : البيهارية Bihari والأورية Oriya والبنجالية والأسامية .

المجموعة الجنوبية : الماراثية Marathi والكونكانية Konkani (أى الجوائية Goa-nese) والسينهالية

هناك مجموعات أخرى بديلة ، عدد اللغات فى كل منها أكبر مما فى هذه القائمة، ووجه الخطورة فى أى تصنيف إنه قد يعطى انطباعاً بنطاقات لغوية جامعة مانعة ، بينما يعطينا الواقع نتائج مختلفة ، وحتى فى أيامنا هذه ، تذكرنا اللغات المتحدث بها فى بلاد الهند بالوضع الذى كان سائداً فى العالم الرومانسى (٦) أو العالم السلافي خلال العصور الوسطى ، حين شكلت اللغات العديدة واللهجات سلسلة متصلة بعضها ببعض ، دون حدود جغرافية جامدة بينها ، ومثل هذه الحدود كان عليها أن تنتظر حتى قيام الدول الحديثة وقيام لغات قومية (ولو أن هذه السلسلة المنوه إليها أنفاً ما تزال موجودة على مستوى التخاطب فى الأرياف على جانبى الحدود) .

هناك عدد من اللغات المتحدث بها فى شبه القارة الهندية ، ولا تنتمى إلى العائلة الهندو أوروبية ، أهمها جميعها اللغات الدرافيدية Dravidian (مثل التيلوجو Telugo والتاميل) فى جنوبى الهند ووسطيها وسرى لانكا ، وقد ظلت هذه اللغات باقية فى

(٦) يقصد بالرومانسية هنا مجموعة اللهجات الدارجة من لاتينية العصور الوسطى ، التى تحولت قبيل نهاية هذه العصور إلى لغات قائمة بذاتها كالفرنسية والإسبانية والإيطالية (المترجم) .

الأراضي الهندية التي اقتحمها الغزاة الآريون ، وهناك افتراض بأن الرومنية ربما تفرعت من الهجرة الهندو آرية الرئيسية قبل دخولها شبه القارة الهندية ، ومع هذا فقد احتوت السنسكريتية مفردات مستعارة من الدرافيدية التي كانت تمتد إلى مسافة أبعد شمالاً ، وبعض هذه المفردات موجودة في الرومنية ونخرج من هذا إلى أن الانفصال بين الرومنية وغيرها من اللغات الهندوآرية حدث داخل الأراضي الهندية ذاتها .

وتتضح القرابة في الصرف بين الرومنية والسنسكريتية ، حالما نقارن مثلاً بين نهايات الأفعال وتصريف الأسماء أو اللواحق التي تضاف إلى الصفات والمقارنات والظروف وأسماء الفاعلين والمفعولين ، ومن الواضح كذلك أن الرومنية شاركت في مرحلة أحدث لغات هندية أخرى حديثة في عديد من التغيرات الصوتية التي تفصل الپراكريتية عن السنسكريتية ، وتتجلى هذه الصلات في جوانب عديدة من صوغ الكلمة Word Formation والنظام النحوي ، أي الطريقة التي اكتسبت بها الضمائر الشخصية وضمير الاستفهام (Kon أي من ؟) النهايتين O و i لصيغتي المذكر والمؤنث ، وخلق أسماء مجردة بإضافة اللاحقة ben أو pen (مثل tačo أي حقيقي في الرومنية الويلزية و tačiben أي الحقيقة و Cor أي يسرق في الرومنية اليونانية و coribe أي سرقة) والتعويض عن حالة الإضافة في « جواد الأب » مثلاً بإلحاق نهاية نعتية بالأب فتصير في لغة الكالديرش dadésko gras .. كل هذه الخصائص وغيرها تؤكد على التشابه الواقع بين الرومنية وكثير من اللغات الهندية الحديثة ، وتوضح أن الرومنية يجب أن تعود إلى مرحلة ما بعد السنسكريتية .

والسؤال المحير هو ماذا كان على المرء أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ؟ ويضيق دائرة البحث ويتعرف على نحو أدق إلى الإقليم أو الشعب الذي نجم منه هؤلاء المهاجرون المتحدثون بالرومنية ، ووسيلته هي تحديد الصلات التي تربط الرومنية بواحدة من المجموعات اللغوية التي وردت في صفحة ٣٥ ، ومن سوء الحظ فعند هذه النقطة يبدأ علم اللغة في خذلاننا ، ومع أنه في الإمكان المضي قدماً في إعادة تشكيل لغة أولية (أي سلف مفترض لكل اللهجات الغجرية) (٧) ، مثلما فعل علماء اللغات

(٧) لدينا محاولتان مستقلتان في هذا الاتجاه هما T. Kaufman, ' Exploration in Proto Gyp- sy Phonology and Classification ' وهو بحث غير منشور ، ألقى في المؤتمر السادس للتحليل اللغوي لغات جنوبي آسيا . أوستن - تكساس ٢٥ - ٢٦ مايو ١٩٨٤ و B. Higgle, Proto Romanes Phonology وهو أطروحة لدرجة الدكتوراة من جامعة تكساس - أوستن ١٩٨٤ .

القديمة فى أحوال أخرى كثيرة ، لكنه تظل أمامنا حقيقة أنه ليس لدينا حتى الآن ما يكفى من معلومات عن نشأة اللغات الهندية الحديثة ، حتى نمضى فى البحث إلى ما وراء المقارنات العامة ، ونتعرف على لغة هى من المؤكد ألصق اللغات بالرومنية .

وقد أسفر السعى عن لغة كهذه إلى سجال لا يزال محتدماً ، منذ اكتشاف الصلة بين الرومنية والهند قبل قرنين من الزمان ، ولم يتقدم أحد بمرشح من الفروع الوسطية أو الشرقية أو الجنوبية ، لكن بين وقت وآخر يتوسل البعض بالفروع الثلاثة الباقية ، وقد قامت معظم هذه السجلات على دراسة النظام الصوتى ، إما باثبات وجود ملامح فى هذا النظام ما تزال باقية فى الرومنية ولغة هندية أخرى ، ووهنت أو تلاشت فى غيرها ، أو على العكس وعلى نحو أكثر حسماً بتحديد تحولات صوتية ، تشترك فيها الرومنية مع لغة أخرى ، كما يستعان أحياناً بعوامل أخرى مثل مقارنات جداول تصريف الأفعال والضمائر .

لسنوات عديدة فى القرن العشرين كانت لدينا مدرستان ؛ تقترح إحداهما أصلاً شمالياً غربياً أو داردياً للرومنية ، ويمثل هذه المدرسة جون سامسون John Sampson الذى حاول أن يثبت أن الرومنية انبثقت فى الولايات الشمالية الغربية ، وأن رحلتها من هناك وقعت فى فترة باكرة ، تعود إلى نهاية القرن التاسع الميلادى فى أدنى تقدير ، والمدرسة الثانية ، ويمثلها بوضوح سير رالف تيرنر Sir Ralph Turner المدير السابق لمعهد لندن للدراسات الشرقية والإفريقية ^(٨) London School of Oriental and African Studies فهو يذهب إلى أن الرومنية تنتمى فى الأصل إلى المجموعة المركزية (وتمثلها أساساً الهندية) التى شاركتها بداياتها المبكرة ، وبخصوص الروابط الدقيقة داخل هذه المجموعة يشير تيرنر إلى أنه خلال الزمن البعيد الذى يجب أن تكون الرومنية قد انفصلت فيه عن هذه المجموعة ، كان الاختلاف بين لهجاتها التى صارت الهندية والراجستانية وغيرها أدنى من أن نتقصى آثاره فى عصرنا ، لكنه كان لديه من الثقة ما يكفى لأن يستبعد وجود صلات وطيدة «بأسلاف السنهالية والماراثية والسندية واللاندا أو البنجابية والداردية والباهارية الغربية وربما الجوجاراتية والبنجالية » وإذا

(٨) See R.L. Turner, " The Position of Romani in Indo - Aryan", JGLS (3), 5
(1926) , pp. 145 - 84; J. Sampson, " Notes on Professor R. L. Turner's " The Position of Romani in Indo - Aryan " : A reply to Dr. J. Sampson' , JGLS (3) , 6 (1927) , pp. 129 - 38 .

كانت قد وجدت في الرومنية ملامح فونولوجية^(٩) ومعجمية للداردية أو الشمالية الغربية فإنه يفسرها بكونها إضافات متأخرة ، نشأت عن هجرة ربما وقعت قبل سنة ٢٥٠ م من المنطقة المركزية إلى الشمال الغربي وهجرة مثل هذه قد تفسر حقيقة أن الرومنية احتفظت بعدد من الأصوات ثم تعديلها جذرياً في المجموعة المركزية ، وليس في المجموعة الشمالية الغربية الأكثر محافظة لغوياً ، وقد دام المقام بها في هذه المناطق الجديدة - يستطرد تيرنر - عدة قرون ، إلى أن وقع الشتات الفجري في مرحلة ما قبل القرن التاسع الميلادي^(١٠).

وتبدو أطروحة تيرنر قوية الحجة ، ودليله عليها صلباً ، ويتضح لنا إن ما توصل إليه أخذ به على نحو صريح أو ضمنى في أعمال عامة تالية ، حتى وإن تفاوتت التواريخ التي اعتمدها بعض أنصاره .

في فترة أحدث تصدع هذا القدر من الاتفاق ، وبدا الأمر كما لو كان يؤكد على تنوع التفسيرات المستنبطة من مجموعة واحدة من المعطيات ، فيذهب عالم اللغويات الأمريكي تيرنس كاوفمان Terence Kaufman إلى أنه من الممكن تفسير الحقائق الفونولوجية على نحو أفضل ، بافتراض أن الفجرية الأولية انتقلت إلى أقاليم تتحدث بالإيرانية قبل عام ٣٠٠ ق . م ربما كنتيجة لغزوات الإسكندر الأكبر إلى شمالي غربي الهند في سنتي ٣٢٧ - ٣٢٦ ق . م^(١١).

(٩) الفونولوجيا Phonology هو دراسة النظام الصوتي (المترجم) .

(١٠) يوجد مسح شامل لهذا المجال اللغوي في I. Hancock's 'The development of Romani Linguistics' , in Languages and Cultures : Studies in Honor of Edgar C. Polomé eds M. A. Jazayery and W. Winter (Berlin, 1988) pp. 183 - 223.

(١١) Kaufmann, ' Explorations in ProtoGypsy ' P. 42 . Higgle ('proto - Romanes Phonology ') . PP. 19 , 141 .

حيث يشير إلى تاريخ مبكر ربما القرن السادس قبل الميلاد . والتحفظات على تواريخ كهذه ترد في A. M. Fraser, " Looking into the seeds of time " , Tsiganologische Studien (1992) , no. 1.

الأنثروبولوجيا الطبيعية

ليس فى إمكان اللغويات التاريخية أن تحسم الأصل العرقى والسلالى لأوائل المتحدثين بالرومنية ، فلا يوجد بالضرورة تلازم بين اللغة والعرق ، ولدينا حالات كثيرة معروفة لجماعات سلالية بدلت بأسرها لغاتها عبر الزمن ، لذا فنحن لسنا على يقين من أن جماعات تكون متقاربة عرقياً لأنها ببساطة متقاربة لغوياً ، عند هذه النقطة علينا أن نتفكر فيما إذا كان فى إمكان الأنثروبولوجيا الطبيعية أن تسد الفجوات التى خلفها علم اللغة ، وفى المرحلة السابقة للحرب العالمية الثانية كانت الأنثروبولوجيا الطبيعية تعنى الدراسة المقارنة للخصائص التشريحية فى الجماعات الإنسانية المختلفة والأفراد ، وتعنى على نحو خاص بمقاييس الجسم وأعضائه خصوصاً الجمجمة .

وأهم دراسة مسحية فى علم القياسات الأنثروبولوجية المقارنة Comparative Anthropometrics قام عليها الأستاذ يوجين پيتار Eugène Pittard ونشرت فى عام ١٩٣٢ وهو فى هذه الدراسة يركز على غجر البلقان ، على أمل أن يحصل على مادة عمّن يطلق عليهم تعبير الغجر الحقيقيين Les Vrais Tsiganes ، وباستخدام أشربة القياس والمسمكات Callipers (١٢) على عينة من الغجر ، تفوق فى عددها ما تم فى تجارب سابقة ، توصل پيتار إلى نتيجة ، مؤداها أن الجماعة الغجرية النموذجية ذات قامات مرتفعة قليلاً عن مثيلاتها الأوربية ، مع أرجل طويلة نسبياً مقارنةً إلى الجذع ، ورعوس أميل إلى الاستطالة (أى أن جماجمهم طويلة نسبياً وضيقة) ويتسمون بشعر أسود وأذان صغيرة وعيون عريضة ذات حدقات ملونة وأنوف تتسم بطولها ودقتها واستقامتها .

ويقرر پيتار أن هؤلاء الغجر « يقتعدون مكانةً رفيعة من الجمال الإنسانى ، وغالباً ما نجد بينهم رجالاً يتسمون بالوسامة الفائقة ونساءً بارعات الجمال ، وهم ببشرتهم الداكنة {teint légèrement basané} والشعر الأسود الفاحم والأنف المستقيمة والأسنان البيضاء والعيون العسلية الواسعة بلمعانها أو فتورها ومرونة وقفاتهم وانسجام حركاتهم ... كل هذا من شأنه أن يضعهم فى درجة من الجمال الفطرى أرفع مما لدى كثير من الأوربيين » .

(١٢) المسمك أداة لقياس سماكة شيء ما (المترجم) .

بعد قياسات للمئات من الرجال والنساء ، وتسجيل أربعة أبعاد للجسم والأطراف وخمسة للرأس وخمسة للوجه وعشرة للملامح ، فقد خلف بيتار مشكلتين كبيرتين ؛ أولاهما أن ما توصل إليه غالباً ما كان يصطدم بالشواهد التي سجلها أسلافه (الذين تعاملوا مع جماعات أصغر) ، وقد جعله هذا يؤكد على الحاجة إلى الحصول على المادة عن الغجر الحقيقيين من بين من هم أبعد عن الامتزاج بأعراق أخرى (فى هذا الصدد اعتبر بيتار أن حياة الرجل تحفظ لهم نقاعهم العرقى) ، وفى مواجهة المشكلة الأخرى ، كان عليه أن يسلم بالهزيمة ، فالمادة المتوافرة عن الجماعات السلالية الهندية الكثيرة كانت نادرة ، أو لا يعول عليها فى استنتاج ما يدل على أصل الغجر ، وقد أشار هو نفسه إلى أن التباين فى بعض المادة الخاصة بهم يعطينا مؤشراً على أصل معقد لهم .

ويمكننا أن نقرر على نحو عام ، بأن غالب الأعمال الباكورة عن الأنماط العرقية المفترضة والتي قامت فى الأساس على قياسات الجمجمة ، تبدو غير دقيقة ، وتفتقر إلى الصحة الإحصائية ، ومن المتفق عليه الآن أن بنية الجمجمة ليست حاسمة ، من منظور العوامل الوراثية ، ولا يعول عليها كثيراً فى التدليل على الاستمرارية الطويلة لجماعة بشرية ، ومع أهمية ما تم إنجازه فى هذا الشأن فى مرحلة لاحقة ببيتار^(١٣)، إلا أنه لم يحقق نتائج أفضل ، وظهرت تقنيات حديثة متطورة ، فقد زودتنا الدراسات الخاصة بفصائل الدم بآدوات بديلة ، لتصنيف النوع الإنسانى ، وحلت إلى حد بعيد محل المشاهدة المباشرة للجسم ، وفى مرحلة أحدث امتد هذا التناول ، ليشمل خصائص أخرى وراثية بيوكيماوية، وقد أثبت علم الوراثة السكانية - Population genetics الذى يعتمد فى الأساس على فصائل الدم ، أثبت مراراً قدرته على أن يقتفى الطرق التى سلكها الإنسان فى هجراته ، ولأول وهلة تبدو الدراسات الخاصة بالدم واعدة بأن تحقق نجاحات فى موضوع الغجر .

E. G. B. Ély. " Les Crânes tsiganes des Collections du Musée de l' Homme " , (١٣) Bulletins de la Société d' Anthropologie de Paris (1967), pp. 177 - 92; and R. Reyment, ' Les Voyageurs Suédois : aspects Physiques et linguistiques ' , Études Tsiganes (1981), n. 4, pp. 1 - 14 .

منذ الأربعينيات من هذا القرن ثبت من تحليلات لفصائل الدم ، أجريت لعينات من غجر أوروبا أن مستوى ما بها من مورث B أكبر من المستويات الأوربية، ويتضح من توزيعات ABO أنها تعطى دعماً قوياً للفرض القائل بالأصل الهندي (مورث B أكبر مرتين في شبه القارة من نظيره في أوروبا ، ولو أنه يتفاوت هناك من مكان إلى آخر) ، ومع أن طبيعة كرات الدم الحمراء لا تختلف كثيراً عن القيم الأوربية ، إلا أنها تتسجم مع فكرة الأصل الهندي ، علاوة على ذلك فبعض الدراسات المتقدمة عن الغجر في السويد وبريطانيا وسلوفاكيا وصلت إلى نتائج تجعلهم يختلفون عن الأنماط السائدة لمن جاورهم من سكان ، إلا أنها تنحرف كذلك عن الأنماط التي أتاحتها الدراسات المبكرة عن الغجر، والواقع فإن هذا النهج من الفحص البيولوجي^(١٤) يصادف المشكلات التي سبق أن صادفها بيتار ، فربما تصير لدى الباحث صعوبة في تحديد العينة الغجرية ، وعلى أية حال فقد خضع الغجر للاختلاط العرقي ، وربما تكون المورثات في أية جماعة خاصة مختلطة للغاية ، ففي متوسط زيجة واحدة بين مائة مع غير الغجر منذ مغادرتهم الهند ربما تجعل ما يزيد على نصفهم به دماء غير غجرية ، علاوة على أن الجماعات الصغيرة والمنعزلة تتباعد وراثياً بعضها عن بعض تبعاً للتغير الوراثة العشوائي ، وما تزال الجهود الواعدة تتواصل في هذا المجال^(١٥) ، ولكن قبل توقع أن تضيف إضافة ملموسة إلى ما توصلنا إليه من معلومات، فإن النتيجة التي انتهى إليها موران Mourant في سنة ١٩٨٣ بشأن الغجر تظل صحيحة وهي « إنه ما تزال هناك حاجة إلى المزيد من البحث في هذه الجماعات الفريدة من البشر مع التنويه بالعوامل التي تتفاوت في تواترها بين أوروبا وشمالى الهند^(١٦) .

(١٤) لدينا خلاصة طبية فيما يتعلق بالغجر فى " R. C. Gropper, " What does blood tell ? " GLS/NAC Newstetter , 4 (1981) nos 2,3 and 4 كما توجد مقدمة دقيقة لدراسات فصائل الدم على نحو عام فى A. E. Mourant's Blood Relations : Blood Groups and Anthropology (Oxford, 1983).

(١٥) بخصوص البحوث الجارية لفصائل الدم وغيرها من العلامات الوراثية (مثل بصمات الأصابع وحاسة التذوق) التي توضح الاختلافات بين الغجر فى المجر وغيرهم من المجرىين والتشابه الكبير بين الغجر والهنود . انظر T. Tauszik, ' Human - and medical - genetic examinations on the Gypsy Population in Hungary ' , GLS/ NAC Newsletter, 9 (1986), n. 4 . V. Bhalla, (Marker genes as guides to the kinship of populations : a plea for a linguistic - cum -anthropogenetic approach to the problem of " Roma " ancestry ' ,in Romani Language and Culture, eds S. Balic et al. (Sarajevo, 1989) , pp. 155 - 63 . Mourant, Blood Relations, P. 98 .

(١٦)

باختصار فالأنثروبولوجيا الطبيعية والوراثة السكانية فى حالها الراهنة - نظرياً وعملياً - مفترضة ، لكنها ليست نهائية ، وهما تذهبان بنا إلى مسافة أقل بعداً مما تذهب إليه اللغويات التاريخية ، فيما عدا أنها - بخلاف علم اللغة - أميل إلى أن تعزز الحلقة الهندية بين اللغة والمتحدث الأصلي بها ، وأن تدل على أن أصل كل منها نتلمسه فى شبه القارة الهندية ، حتى ولو لم يعطنا علم اللغة والأنثروبولوجيا الطبيعية والوراثة أى مفتاح للظروف التاريخية التى أسفرت عن خروج هؤلاء المتحدثين بالرومنية وانتشارهم ، وعن السبب فى خروجهم .

النظراء السلاليون

مع ذلك فلدينا على الأقل استدلال سلالى واحد ، تعطينا إياه اللغة ، ويكمن فى الاسم الفجرى الشائع للرجال الذين ينتمون إلى عرقهم ، فهو فى الرومنية الأوربية روم rom وفى الرومنية الأرمنية لوم lom وفى الرومنية السورية والفارسية دوم dom وجميع هذه المسميات (مع إعطائها التغيرات الصوتية المطردة فى الرومنية الأرمنية والرومنية الأوربية) فى توافق صوتى تام مع السنسكرىتية dōmba والهندية الحديثة dom أو dum ، وتشير إلى خليط بذاته من القبائل ، وهناك إشارات إلى الدوم ، تعود إلى القرن السادس ، على أنهم عازفون ، وصارت الكلمة فى السنسكرىتية تعنى « رجلاً من طبقة دنيا يرتزق من الغناء والموسيقى » وفى الكلمات المقابلة فى اللغات الهندية الحديثة تنوع فى المعانى المشابهة ، مثل « طائفة من العازفين الجوالين » (سندی) « وضع » (لاندا) « موسيقى جوال » (بنجابى) « تابع أسود البشرة من طائفة دنيا » (بهارى غربى) وهكذا فربما حفظ هذا الاسم اسم الطائفة الأصلية لأسلاف الفجر الآسيويين والأوربيين ، وما كانوا عليه من أحوال ، ولو أنه أخفق فى أن يربط بين الرومنية وأية لهجة هندية محددة ، والدوم شأنهم شأن غيرهم من القبائل الهندية التى اعتادت الهجرة ، ربما كانوا حقاً من أصل درافيدى ، وهم فى أيامنا هذه ما يزالون يعيشون حياة التشرد وتتعدد مهنهم ونشاطاتهم ، كصناع سلال وأدوات معدنية وزبالين وعازقين ومتشدين وحدادين ، وربما يبدو من المقبول افتراض أنهم شكلوا سواد الجماعة أو الجماعات التى هاجرت ، أما عن أسباب الهجرة ، فقد تكون المجاعة أو الحرب .

على أن بعض الباحثين يعترضون على هذا الربط بين الدوم والفجر ، ويتلمسون نظراً آخرين ، وعلى مدى قرن ونصف القرن ترددت افتراضات بأن البنجارا Banjara ذوو قرابة حميمة بالفجر^(١٧)، وهم عرق مختلط شأنهم شأن الدوم ، يكسبون رزقهم كعبادة جوالين ، ودرجت الحال في الهند على وصفهم بأنهم « قبائل اعتادت حياة الجريمة والتجوال » . وكثير من هؤلاء البنجارا يقيمون اليوم في أواسط الهند وجنوبيها ، وغالباً ما يستخدمون لهجة الإقليم الذي يعيشون فيه ، على أنه يتضح لدينا إن لغتهم الخاصة (البنجارية أو اللامانية Lamani)^(١٨) ضئيلة الشبه بالرومنية .

مرة ثانية فبعض الفجر الذين تدارسوا في عصرنا الحديث مشكلة أصولهم ، اجتذبهم فرض بديل^(١٩) ، يجعل أسلافهم كشاترية Kshatriya - وهم المحاربون الذين شكلوا الطائفة الثانية بين طوائف المجتمع الهندي الأربعة - أي أنهم في منزلة أعلى من تلك الزمر المتنافرة من المغنين والمتشردين المنحطين، وهم يزعمون أن الفجر تحدرُوا من المحاربين الجات Jats والراجپوت Rajputs^(٢٠)، وهم في زعمهم هذا يجدون إسناداً من كتاب هنود^(٢١) ، وقد نجد في هذا الخليط تفسيراً أحادياً لمستوى الأنماط الفيزيائية عند الفجر المعاصرين ، وحتى يعتدل الميزان ، فقد ألحق بهؤلاء المحاربين أعداد كبيرة من الأتباع - بنجارا وآخرون - اضطلعوا بخدمتهم كحدادين وعرافين وملهين وما إلى ذلك . ونظريات مثل هذه لا يبعد أن تكون تلفيقية ، ومن أجل المزيد من صقلها ،

(١٧) عن البدايات الأولى لهذه الافتراضات . انظر :

G. de Longpérier " L'Inde et ses mystères ", Musée universel, I (1857), PP. 330 - 6 .

ويوجد تقنين معاصر لهذه النظريات في :

L. Mroz, " Les Lohar, les Banjara et le Problème de l'origine des Tsiganes ". Études Tsiganes (1990) , no. I PP. 3- 14 .

G. A. Grierson, Linguistic Survey of India, vol. 9, Part III (Delhi , 1907), PP. (18)

255 - 325 ; R. L. Trail , The Grammar of Lamani (Norman, OK, 1970) .

(١٩) هناك مثال على ذلك في :

J. Kochanowski, " Roma - History of their Indian origin ", Roma, 4 (1979), no 4, PP. 16 - 32 .

(٢٠) سوف يكون الفرض الجاتى موضعاً لمناقشتنا في الفصل التالي ص ٤٠ - ٤٦ أدناه .

(٢١) Notably W. R. Rishi, Introduction to Multilingual Romani Dictionary (Chan- digrah, (1974) : Intraduction to Romani Punjabi English Dictionary (Patiala,1981); "Roma - a study " , Roma , 7 (1983) , no. 2, PP. 1 - 10 ; and " History of Romano movement, their language and Culture " , In Romani Language and Culture, PP. 1 - 10 .



شكل ٢- صناعة سلال من البنجارا . نيودلهي ١٩٦٩ * بروس ديل / الجمعية
الجغرافية القومية واشنطن دي . سي .

أضيفت إلى موجة الجات في القرن الثامن طبقة أخرى من المحاربين وذلك في القرن الثاني عشر في أعقاب معركة طرائن Tarain ١١٩٢ ، عندما هزم الراجبوت على أيدي الغزنويين من الأفغان الأتراك^(٢٢)، وهو أمر يصعب على قاريء حذر أن يتقبله .

مع ذلك فطالما صار من غير الممكن تضيق خيارات الزمان والمكان ، فإن المجال يظل متسعاً للاختلاف في تحديد من هم - من منظور الطائفة والمهنة والعرق - الذين غادروا شبه القارة الهندية قبل ألف عام أو يزيد ، وعما إذا كانوا لدى مغادرتهم مجموعة واحدة أم لم يكونوا كذلك ، البعض مثل سامسون يزعمون - على أساس لغوي - أن العجر لابد وأن يكونوا عرقاً مفرداً لدى دخولهم فارس ويتحدثون بلهجة مفردة ، وآخرون مثل تيرنريستعينون بدليل لغوي مناقض ، ويحاجون بأن الاختلافات الصرفية والمعجمية والصوتية بين الرومانيات الأوربية والأرمنية والآسيوية ، ربما تفسر ببساطة ما إذا كان هناك أكثر من خروج واحد ، أو ما إذا كان هناك بعض التمايزات في اللغة ذاتها في زمن الخروج ، وربما بدا هذا الرأي أكثر إقناعاً ، ومع ذلك فليس هناك ما يحول دون احتمال أن الجماعات المهاجرة المختلفة احتفظت بترابطها ، أو أنها صارت مترابطة بعضها ببعض ، وهو ما أسفر عن قدر من التأثيرات اللغوية المتبادلة .

الإحصاءات اللفظية

كان من المكن الانتهاء من هذا السجل مبكراً ، وذلك في حال ما إذا توافر تكتيك ما يسمح بتحديد تواريخ دقيقة للتطورات التي مرت بها لغة ما في عصورها الأولى ، على النحو الذي أتاح الفرصة لمعدل الانحلال الثابت لكربون ١٤ في المواد العضوية لأن ينجح في مجالات أخرى ، لدينا منهج أوضحه في الخمسينيات من هذا القرن عالم اللغة الأمريكي موريس سواديش Morris Swadesh^(٢٣) بزعم قدرته على تحديد تواريخ تقريبية لانفصامات تقع للغة ما باعتبار الزمن الحقيقي ، وعادة ما يشار إلى هذا المنهج

(٢٢) لم يكن المنتصرون من الغزنويين الأتراك ، إنما كانوا من الغوريين الأتراك الذين خلفوهم في أفغانستان وهندوستان . وينسب هذا النصر إلى شهاب الدين محمد الغوري قائد جيش أخيه غياث الدين محمد (١١٧٣/٥٦٩ - ١٢٠٣ / ٥٩٩) وكان نصراً حاسماً أفضى إلى سقوط شبه القارة الشمالي في أيدي المسلمين (المترجم) .

(٢٣) هو أيضاً عالم انثروبولوجيا (ت ١٩٦٨) (المترجم) .

بالتاريخ اللغوي الإحصائي glottochronology أو الإحصاءات اللفظية Lexicostatis- tics (٢٤).

يقوم هذا المنهج على أساس أنه كلما ازداد العمق الزمني لانفصال أعضاء أسرة لغوية من النقطة التي تباعدت منها عن سلف مشترك ، كلما ازدادت الفروق فيما بينها ، والافتراض الذي يطرحه هو أن المعجم الأساسي (بخلاف الفونولوجيا والبناء) هو هذا القطاع من اللغة الذي تحدث فيه التغيرات بمعدل ثابت نسبياً ، والأهمية العظمى لمعجم أساسي كهذا في تحليل الصلات بين اللغات قمنا بمناقشتها بالفعل (ص ٣٠ - ٣١ أعلاه) ، وما فعله سودايش هو أنه سعى لأن يجعل هذا التناول التقليدي دقيقاً ، بأن يعد قائمة تضم مائتي مفردة - اختزلت فيما بعد إلى مائة - يمكن الإفادة منها لا في تحديد الصلات فحسب، ولكن في احتساب الوقت المنقضى كذلك .

والإجراءات التي اتبعتها علماء اللغويات الإحصائية ، هي تحديد الكلمات في اللغتين قيد البحث والتي تتشابه في معانيها إلى أقصى حد في القائمة المشخصة ، ثم تسجيل الأزواج من الكلمات التي تعد من المشتركات اللفظية ، أي المحتفظ بها من الكلمة الأصلية في اللغة الأم المشتركة ، وفي الحالات الأخرى ، فقد ضاعت الكلمة الأصلية أو تغير معناها في إحدى اللغتين أو هما معاً ، ويستفاد من عدد المشتركات اللفظية في قياس الحد الأدنى من الزمن منذ أن انفصلت اللغتان ، ويحتسب معدل البقاء المعياري standard retention rate على أساس ما حدث بالفعل لثلاثة عشر زوجاً من اللغات ، وبالنسبة لقائمة المواد المائة من المفردات المشتركة نخلص إلى أن نسبة البقاء ٨٦٪ كل ألف سنة، وأن لغتين بدأتا في التباعد منذ ألف سنة سوف تشتركان في ٧٤٪ من المشتركات اللفظية (أي ٨٦٪ من ٨٦٪ = ٧٤٪) . وقد وضعت هذه الصيغة لحساب طول الوجود المنفصل للغتين ، حالما يتم تحديد النسبة المئوية للمشاركات اللفظية .

(٢٤) يوجد شرحان لتكنيك سواديش في :

' Lexico - Statistics dating of Prehistoric ethnic contacts ' , Proceedings of the American Philosophical Society, 96 (1952), PP. 452 - 63 ; and The Origin and Diversification of Language , ed .J. Sherzer (London, 1972), esp. PP. 271 - 84 .

والعيب الرئيسى فى هذا التكنيك أنه لا يفيد كثيراً فى حالات بعض اللغات التى يمكن أن تحدد تواريخها بوسائل أخرى ، ولم تتم البرهنة على الفرض الأولى لمعدل البقاء المعيارى ، ويصعب علينا أن نجد سبباً قَبلياً للدعاء بأن اللغات يمكن أن تحتمل فقد مفردة بمعدل منتظم حتى بالنسبة لما هو أقل قابلية للاختراق منها ، وقد أفدنا من علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics فى معرفة أن العوامل الاجتماعية المتفاوتة زمانياً ومكانياً ولدى مختلف الشعوب وثيقة الصلة بالتغير اللغوى ، وفى حال الرومنية فقد توافرت أسباب لجعل هذه اللغة مفتوحة أمام المؤثرات الخارجية ، وفى المقابل فهناك عدد آخر من الأسباب، لمقاومة مثل هذه المؤثرات ، فحاجة الفجر لأن يتحدثوا بلغة البلد المضيضة لهم وافتقارهم إلى لغة مكتوبة خاصة بهم يهيء الفرصة لأن تكون الرومنية قابلة للاختراق ، ونعلم أنه عندما يتحدث أفراد بلغة أخرى إلى جانب لغتهم الخاصة ، فإنه يحدث تقارب بين اللغتين ، ومن ناحية أخرى فإن المزية التى تتوافر لدى المحافظة على الرومنية كلفة خاصة تعمل فى الاتجاه المعاكس وعلى نحو مستمر، مما يجعل الفجر أقل خضوعاً لتأثيرات المجتمعات الأخرى ثقافياً .

مع ذلك فمن المهم أن نجرى تجربة بهذا التكنيك ، لأنها تعطينا مقياساً كمياً لمظاهر التماثل والتباين فى اللغات واللهجات ، ومن ثم درجات القرابة^(٢٥) ، فلدى مقارنة الرومنية بثمانى لغات تمثل المجموعات الداردية والشمالية الغربية والشمالية والمركزية (الكشميرية والمولتانىة والسندية والكوتجارية والهندية الغربية والبنجابية والماروارية والجوجاراتية) نجد أن ثلاثاً منها تأتى تقريباً لدى القمة ، فتشارك بحوالى خمسين بالمائة من المشتركات اللفظية مع الرومنية هى الهندية والمولتانىة (لهجة من اللاندا) والكوتجارية (لهجة بهارية غربية) تليها بعد يسير البنجابية والماروارية Mar-wari (اللهجة الرئيسية فى راجستان) والجوجاراتية ، بينما تتخلف السندية بعيداً إلى الوراء ، وتقع الكشميرية فى القاع فلا تشارك إلا بثلاثة وثلاثين بالمائة ، ويتناقض هذا التمايز الحاد مع الافتراضات العديدة السابقة بأن الرومنية ذات طابع داردى ، ومع ذلك فإن تمييزاً فجاً بين المشتركات اللفظية وغير اللفظية لا يمثل معياراً علمياً لمعرفة مدى ابتعاد الكلمات المترادفة أو المشتركة بسبب التغير الصوتى ، وإذا نحن استبدلنا

(٢٥) نجد تفصيلات للنتائج التى تتضمن جدولاً للكلمات المقارنة بين الرومنية ولغات هندية مختارة فى Fraser ' , Looking into the seeds of time ' .

بفكرة سواديش الثنائية فكرة أخرى خماسية ، تتراوح بين ٤ وصفر فنطرح نقطة لكل وحدة صوتية Phoneme^(٢٦) مختلفة ، فإن الهندية تأتي في المقدمة ، تتبعها الكوتجارية ، بينما تتخلف المولتانية بعيداً إلى الوراء ، عند مستوى البنجابية تقريباً .

ومادمنّا قد ذهبنا بعيداً ، فإنه يبدو من غير الممكن الانصراف عن تقدير الحد الأدنى من الوقت الذي انقضى - طبقاً لقياس سواديش - منذ أن بدأت الرومنية تتباعد عن اللغات الهندية ، فبالنسبة للغات القمة الثلاث (الهندية الغربية وغيرها) تعطينا صيغة سواديش تاريخاً يعود إلى سنة ٣٩٠ ق . م أو قبلها ، ومن ناحية أخرى يصل المرء بالنسبة للكشميرية إلى ١٧٠٠ ق . م أو نحوها ، وهذه التواريخ تبدو داخلة في حدود المصادقية ، ولو أنها فيما يختص بالكشميرية فإن ١٧٠٠ ق . م . يعد مبكراً جداً لابتعاد اللغات الأخرى ، وبصرف النظر عن ذلك فيتناسب التأريخ باطمئنان تام مع التوقعات ، فالمجموعة الداردية - التي تعد الكشميرية عضواً فيها - يجب أن تكون قد شرعت في الانعزال عن التيار الرئيسي للغات الهندوآرية خلال مرحلة ليست بعيدة عن وصول الآريين إلى شمالي غرب الهند ، أما بالنسبة لتاريخ ٣٩٠ ق . م فيما يختص الهندية وغيرها ، فإن تيرنر يذهب إلى أن الرومنية المبكرة يجب أن تكون قد فارقت المجموعة المركزية قبل أن ينتصف القرن الثالث قبل الميلاد . والواقع أن كاوفمان يفترض مغادرتها الهند نهائياً في القرن الرابع قبل الميلاد .

هكذا يصير لدينا بعض التزامنات المثيرة ، لكن تيرنر وآخرين يحاولون أن يثبتوا بأنه بعد مفارقة المنطقة المركزية ، فإن الرومنية الأولية لابد وأن تكون قد أمضت فترة لا بأس بها في شمالي غرب الهند ، وهذا الضرب من لم الشمل كان متوقعاً لاثراء المعجم الذي شاركت فيه اللغات الجديدة المجاورة ، وهو الأمر الذي سوف يقلب حساباتنا عن العمق الزمني ، وربما يكون عاملاً في النتائج المختلفة المتعلقة باختلاف الكشميرية عن الرومنية مقارنة بلغات هندوآرية جديدة (تأثرت الكشميرية تأثراً كبيراً بالأخيرة) وأهم فائدة متاحة من هذا التكنيك لا تبو في المسعى لتحديد العمق الزمني

(٢٦) هذا التحليل مقتبس من مقال لمارسيل كورتياك Marcel Cortiade الذي يستعين بمنهج احصائي لفظي لحساب درجات التشابه بين اللهجات الرومنية . - " Romany Phonetics and orthography " GLS/NAC Newsletter , 7 (1984) , n. 4 ' Distance between the Romani dialects ' GLS/ NAC Newsletter, 8 (1985), no. 2; and Romani Fonetika thai lehipa (Titograd, 1986) .

الذى يفصل لغتين ، لكنه يبدو فى تعزيز مقارنات صارمة بينهما بإعطائنا مادة ملموسة وإطاراً نموذجياً ، والتركيز على مدى من المفاهيم معبر عنه بكلمات أبقى من غيرها .

تعرضت اللغة الرومنية ومتحدثوها عبر العصور لتأثيرات تاريخية وديموجرافية ولغوية واجتماعية هائلة ، وهو ما جرى مثيل له بالنسبة للغات الهند وشعوبها بطرق مختلفة وبعد مرور وقت طويل جداً ، فإنه ربما يصير من العبث أن نتحقق على نحو أكيد من الشعب (أو الشعوب) الذى انبثق منه الغجر فى الماضى ، أو أيها أوثق صلة به ، بيد أنه من المبتسر أن نتوقف عن السعى ، وفى مجال اللغة فلدينا لحسن الحظ أعمال مثل كتاب جريسون Grierson البارز «مسح لغوى للهند» Linguistic Survey of India^(٢٧) ففيه وفرة من المادة الأولية المفيدة لتقييم الرومنية جنباً إلى جنب اللغات الهندية الحديثة من الجوانب الصوتية والإحصائية والصرفية ونحن ما زلنا بحاجة إلى دراسات مثل هذه تقدم لنا مقارنات حديثة على أسس عريضة ومنهجية ، من أجل تحديد مكان الرومنية فى الأسرة الهندوأرية، ولتضييق الوضع الراهن للخيارات الظاهرة .

(٢٧) G. A. Grierson , Linguistic Survey of India, 20 vols (Delhi, 1903 - 28) , وهو يختص كل لهجة كبرى من كل لغة من لغات شبه القارة بقائمة منتظمة من ٢٤١ لفظة وعبرة ، فضلاً عن موجز لنحوها ومختارات من نصوصها الأدبية .

الفصل الثانى

الهجرات الباكرة

فارس (*)

فى فارس تلوح لنا أخيراً نصوص قليلة ، ربما تفيدنا على نحو ما فى تقصى المرحلة الباكرة من تاريخ الفجر ^(١) ، بيد أننا لانقيم وزناً كبيراً لها ، لأن اللغة تظل خير عون لنا فيما يأتى من أيام .

يروى المؤرخ العربى حمزة الإصفهاني (ت حوالى ٩٥٠ م) ^(٢) أن الملك الفارسى بهرام جور ^(٣) (الصيد الكبير فى رباعيات الخيام) والذى يمتد حكمه حتى سنة ٤٣٨م ، بعد أن أمر رعاياه بأن يكدحوا نصف اليوم ، ويقضوا سائره فى تناول الطعام والشراب والاستماع إلى الموسيقى ، إلتقى ذات يوم بجماعة منهم لديهم نبيذ، ولكن ليس لديهم موسيقى ، وعندما عاب عليهم ذلك ، طرحوا أنفسهم أرضاً، وقالوا : إنهم بذلوا مالديهم من جهد ، كى يقفوا على عازف واحد ، ولكن حبطت مساعيهم ، عندئذ

(*) الإقليم الإيرانى الذى يقع لدى البر الشرقى من الخليج العربى (الفارسى) وغالباً ما كان يقصد به كل الأقاليم الإيرانية ، من منطلق تغليب الجزء على الكل (المترجم) .

(١) ربما كان الأوفق مراجعة كتابنا «الزُط والأصول الأولى لتاريخ الفجر» القاهرة ١٩٩٤ فى الفصلين الأول والثانى ، حيث نتعرض بالتفصيل للمرحلة الباكرة من تاريخ هؤلاء القوم (المترجم) .

(٢) أبو عبد الله حمزة بن الحسن الإصفهاني (ت حوالى ٣٦٠هـ) كاتب ومؤرخ إيراني وإن كتب بالعربية، وكتابه فى التاريخ هو «تاريخ سنن ملوك الأرض والأنبياء» طبع فى برلين فى ١٣٤٠هـ. والنص الذى يعتمد عليه المؤلف يرد فى ص ٢٨ من هذه الطبعة (المترجم) .

(٣) أبهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٨) من ملوك الأسرة الساسانية (المترجم) .

نجح الملك فى إقناع ملك الهند، بأن يبعث إليه باثنى عشر ألفاً من العازفين « ففرقهم على بلدان مملكته ، فتناسلوا بها ، وأولادهم باقون وإن قلوا وهم الزُّط » .

بعد نصف قرن نصادف روايةً أخرى للأسطورة فى الملحمة الوطنية الفارسية، التى تحكى تاريخ البلاد فى ستين ألف بيتاً من الشعر ، هذه الملحمة هى الشاهنامه (أى كتاب الملوك) للفردوسى^(٤) وقد أتمها فى سنة ١٠١٠ م . ويشير الفردوسى بدوره إلى ماطلبه بهرام جور من شنكل Shanguī ملك الهند ، بأن يبعث إليه بموسيقيين وملهين فيقول : «إن الطبقات المعوزة عندى تتعاطى النبيذ ، دون أن تتعاطى معه الموسيقى ، وهى حال لايرضى عنها الأغنياء ، لذا فعليك أن تنتخب من هؤلاء اللورية عشرة آلاف من الرجال والنساء ، وتبعث بهم إلى ليعزفوا على العيدان» وما أن أتى هؤلاء ، حتى أعطاهم بهرام جور قمحاً وماشيةً وحُمراً ، وفرقهم فى أقطار مملكته ، بعد أن فرض عليهم أن يكدحوا فى الأرض ويزرعوها ويعزفوا لفقرائها ، وخلال عام كان اللورية قد أتوا بحماقة على كل مالديهم من قمح فضلاً عن الدواب ، وقد عنفهم الملك لتبذيرهم «وعندئذ صرفهم، وأمرهم بأن يأخذوا حمرهم، ويحملوا عليها أمتعتهم ، ويعتمدوا فى معاشهم على الغناء والعزف ، وعليهم فى كل عام أن يرتحلوا عبر البلاد ، ويغنوا لتسلية الكبار والصغار ، وقد صدع اللورية لهذا الأمر ، وهم الآن يطوفون الدنيا صحبة ذئابهم وكلابهم ، يلتمسون رزقهم يوزاولون السرقة على الطريق ليل نهار»^(٥) .

(٤) شاعر الفارسية الأكبر أشهر من أن يُعرف ، وهو أبو القاسم منصور بن أحمد بن فرخ (ت ٤١١هـ) . أما عن الشاهنامه فقد ترجمها (أو بالأحرى معظمها) إلى العربية الفتح بن على البندارى ، وحققها عبد الوهاب عزام ، ونشرها بالقاهرة فى ١٩٣٢ . والنص الذى يعتمد عليه المؤلف ورد فى الجزء الثانى من الترجمة العربية ص ١٠٥ (المترجم) .

(٥) النص الفارسى الأصيل مصحوباً بترجمة نجده فى مقال له أهميته فى زمانه لـ J. S Harriot . هذا المقال هو : 'Observations on the oriental origin of the Romnichal', Transactions of the Royal Asiatic Society, 2 (1830). p.p. 518 - 58.

ونلاحظ ثم اختلافات بين النصين خصوصاً ما يتصل منها بأعداد الزط ، ونجد من الأوفى أن نأتى هنا بهذه الرواية كما وردت بنصها فى الترجمة العربية القديمة .

«ثم كتب إليهم الملك قال : أخبرونى عن أحوال الرعية ، حتى إذا وقفنا على خلل فى أمورهم تلاقيناها وتداركناها ، فكتبوا وقالوا : قد انتظمت أمور العالم واستوسقت أحوال الرعية ، وعمت العمارة جميع البلاد ، وشمل الأمن والراحة جميع العباد ، سوى أن أهل الثروة ، إذا حضروا مجالس الأنس والطرب ، يلبسون أكاليل الورود والرياحان ، ويشربون على أصوات القيان وأغاريد المسمعات الحسان ، ومن عداهم من المقلين يشربون بلا غناء ، وهم من ذلك فى تعب وعناء ، فضحك بهرام من ذلك ، فكتب إلى شنكل ملك الهند =



شكل (٤) منظر من مخطوط فارسي مصور يعود إلى القرن السادس عشر . بهرام جور يكرم وفادة شنكل
ملك الهند : نعيد نشرها بتصريح من مدير مكتبة جامعة رايلاند John Rylands
بمانشستر Manchester

غالباً ما يستخدم هذا الزعم في تقصى آثار الفجر ، حتى إنه أدخلت في جملتهم جماعات من غيرهم ، لمجرد أنها زاولت مهناً شبيهةً بمهنتهم ، وربما كان هؤلاء القوم إحدى هذه الجماعات . ويصعب أن يتوافق خروج الفجر مع زمن بهرام جور ، لكن المسميات التي دعى بها هؤلاء العازفون لها دلالتها ، وقد يصير معقولاً من الناحية التاريخية أن تؤدي بنا أسطورة بهرام جور إلى نتيجة ، مؤداها أن هذه الجماعة من العازفين الهنود الموصوفين بأنهم زط أولورية ، لا بد وأن كانت أقدامهم قد صارت راسخةً في فارس قبل القرن العاشر ، مما أتاح للمأثور الشعبي وقتاً كافياً ، كي يحظى بقبول من حمزة الأصفهاني ، وأن يعود به إلى زمن بهرام جور .

زُطَى (وتجمع زُطاً) ولولى أولورى ماتزال مسميات فارسية للفجر في سورية وفلسطين ومصر ، ونجد لورى في مشتقة هي نورى (وتجمع نَور) وزط تعريب لجت jat (٦) ، ومسألة أن الفجر الأصليين مماثلون للجت الهنود (شعب له حضوره الواضح في البنجاب) مسألة احتدم حولها السجال لما يزيد على المائة عام ، وهو ما نوهنا إليه قبلاً (ص ٤٣ - ٤٤) ، وما يزال الفرض الجاتى يجد أنصاراً له ، وإذا ما اطمأن المرء إلى أن الإشارات الباكراة إلى الزط (٧) هي إشارات أيضاً إلى الفجر ، يصير المشهد

= رسالة أن ينتخب من الهنود ألفى نفس من الذكور والإناث، من المخصوصين بحسن الصوت وجودة الصنعة في الغناء ، وينفذهم إليه ، فامتثل شغل أمره ونفذهم إليه ، فلما حصلوا عند بهرام أمر بأن يعطى كل واحد منهم بقرة وحماراً ، وفرق عليهم ألف حمل من القمح برسم البذر ، وفرقهم في القرى والضياح ، ليزرعوا ويحرثوا ويغنوا فقراها بغير أجر ولاكفة ، فلما حصل البذر في أيديهم أكلوه وذبحوا البقر ، وحملوا رجالهم على الحمر ، وتفرقوا في البلاد ، واشتغلوا بالتلصص والانتهاج والتخطف وتناسلوا ، وهم إلى الآن موجودون في أقطار الأرض ذات الطول والعرض ، وهم جيل يسمون اللورية ، وهم الزط والعشرية ، ولهم انتشار في كل صوب» (المترجم) .

(٦) فصلنا في كتابنا المنوه إليه قبلاً كيف عربت جت فصارت زط (ص ٢٣-٢٦) وما يذكره المؤلف من أن هذا المسمى زط ما يزال يستخدم في سورية وفلسطين ومصر للإشارة إلى الفجر ، ليس صحيحاً اليوم، وإن كان صحيحاً في السابق ، وصارت للفجر مسميات أخرى ، عرضنا لبعضها في كتابنا (ص ٩٥ - ١٠٠) ، على أن هذا المصطلح يستخدم - أحياناً - في بلاد الشام كشتيمة ، ليس لها مضمون سلالى ولا عرقى ، ولانجد هذا المضمون في أيامنا هذه إلا في سلطنة عمان ، فيقال زطى وتجمع زطوطاً (المترجم) .

(٧) متضمنة بالتفصيل في كتاب دى خويه M. j. de Goeje «هجرات الفجر عبر القارة الآسيوية» Mémoire sur les migrations des Tsiganes à travers l'Asie (leiden, 1903) وسبق أن تضمنت موضوعه عن أن الجت يمثلون الفجر مع ترجمة وتعليق طويلين بكتاب ماكريتشي

D. MacRitchie, Accounts of the Gypsies of India (London, 1886), pp.1-26.

وقسم الفجر في كتاب سير ريتشارد بيرتون Sir Richard Burton's the Jew, the Gypsy and El Islam (London, 1898) وفيه يبدى اهتمامه الفائق بالتماثل ويدعى الأسبقية في اكتشافه .

التاريخي للهجرات الفجرية الأولى واضحاً ، ولدينا معلومات في كتب الحوايات والجغرافيا عن مناسبات عديدة ، كان يستقدم فيها أناس من وادي السند إلى فارس وما وراءها ، وخدمت مفارز عديدة من السنود في الجيش الفارسي إبان الفتح العربي في القرن السابع . وعندما مالت الريح عكس ما يشتهي ملك الملوك ، فإن هؤلاء السنود مالوا إلى جانب العرب وأسلموا ، واستقروا في مدينة البصرة ، كما أقيمت مستوطنات زطية أخرى في أماكن متفرقة ، وحالما وصل المد العربي في آسيا إلى غايته شرقاً بفتح السند في أوائل القرن الثامن ، فقد تم ترحيل أعداد كبيرة من الجت ، وغيرهم من السنود إلى شواطئ دجلة ، وفي مناسبات أخرى رحلت أعداد أخرى لها وزنها إلى مستوطنات في شمالي سورية ، وسجل أول دخول للفجر إلى أراض مسيحية ، من خلال حادثة وردت عند المؤرخ العربي الطبري^(٨) فهو يروي ما حدث في سنة ٨٥٥ ، حين أغار البيزنطيون على سورية ، وأسروا أعداداً كبيرة من الزط ، حملوهم معهم ونساءهم وأطفالهم وجواميسهم^(٩) .

بيد أن لدينا صعوبة تكمن في أن مسمى زط كان يستخدم في النهاية دون تحديد واضح ، في الإشارة إلى أي امرئ ينتمي إلى وادي نهر السند ، وهذه الروايات تحكي لنا عما جرى لشرانم من الناس من أصل هندي - خصوصاً الجت - وأي شيء تخبرنا به عن الأصول الأولى للفجر بعد أمراً ملتبساً ، وواقع أن العرب أطلقوا على هؤلاء القوم مسمى زط ، يحتمل أنه لم يكن يعنى أكثر من أنهم أعطوهم اسم هذا الشعب الهندي الذي ارتبطوا به على نحو متواتر (مثلاً يستخدم مصطلح جت في أفغانستان المعاصرة في الإشارة بازدراء إلى جماعات من أصل مختلف أو هي في وضع اجتماعي أدنى ، مع أن هذا المصطلح ذاته كان يستخدم في السابق لدى الإشارة إلى أقوام رحل من أصل هندي - باكستاني)^(١٠) .

(٨) ليس عربياً إنما هو إيراني (من طبرستان) عاش معظم حياته في بلاد العراق إلى أن مات في ٢١٠هـ، وكتابه في التاريخ هو أهم كتاب صنفه مؤرخ مسلم على منهج الحوايات ، وليس في إمكان مؤرخ معاصر أن يكون في غنى هذا الكتاب (المترجم) .

(٩) يقول الطبري «وفيها (أي في سنة ٨٥٥/٢٤١) أغارت الروم على عين زرية ، فأسر من كان بها من الزط ، مع نساءهم وذرائعهم وجواميسهم وبقريهم» تاريخه ج ٩ ص ٢٠١ (المترجم) .

(١٠) Cf. Rao , Note Préliminaire sur les Jat d'afghanistan ' , Studia Iranica, 8 (1979), no. 1, pp. 141- 9.

والدليل اللغوي العائد إلى الهند لا يدعم كثيراً الفرض الجاتى ، وهناك إعتراض آخر أكبر هو أن التأريخ لهجرات تركزت فى جنوبى فارس لايتماشى مع خطوط الانتشار التى يمكن الاستدلال عليها من الطريقة التى تطورت بها الرومنية فى الأراضى الفارسية ، ومع ذلك فمن الواجب القول بأن الاستقرار اللغوى تعوقه حقيقة هامة هى أن معلوماتنا عن اللغات الهندوأرية الناشئة ظلت ولقرون عديدة تتسم بالندرة ، ويصعب تحديد طبيعة نموها وانتشارها ، وهو ما يحتمل أن يكون قد تم حين كان الفجر مقيمين فى فارس ، والفتح العربى فى سنة ٦٤٢ (١١) لم يستتبع بالنسبة للفارس مجرد تغيير لدينهم ، وإنما تغييراً فى لغتهم ، فلم تعد اللغة الفارسية لغة رسمية ولا لغة أدبية ، وبدأ عصر جديد امتصت خلاله الفارسية من العربية عنصراً يضاهى فى كنه ونوعه مثيله اللاتينى (والفرنسى) فى الإنجليزية الحديثة ، ولم يكن ذلك قبل النصف الثانى من القرن العاشر ، حيث أضحت الفارسية - المكتوبة بحروف عربية - لغة أدبية راقية ، وإن بدت مختلفة إلى حد كبير عن سابقتها ، وتعود النصوص الباكورة من هذه اللغة إلى منتصف القرن التاسع الذى تتحدد معه البداية الرسمية للفارسية الحديثة ، ويعد الانقطاع بين الفارسية الوسطى والفارسية الحديثة من الأمور اللافتة للنظر ، لكن ما أخفت كتب التاريخ فى كشفه ، هو كيف كان عمق المؤثرات العربية وسرعة انتشارها فى مختلف الأقاليم وعند مختلف الطبقات .

فى فارس كان الفجر طارئين ، وكان عليهم أن يتعلموا لغة جيرانهم ، بهدف التواصل معهم ، وكان لابد وأن تكون صلاتهم بلهجات الفلاحين البسطاء أقوى من صلاتهم باللغة الأدبية الباقية فى المعاجم ، على أنه ليس من واجبنا أن نغالى فيما ترتب على ازدواجيتهم اللغوية من آثار ، فالصلات بين بائعين لسلع وخدمات وبين زبائنهم أكثر سطحية من الصلات التى نلمسها فى مجتمعات ثنائية اللغة ، ومع ذلك فقد جرت تطورات فى بعض الملامح الهامة للرومنية وخصائصها .

فى امكاننا أن نقسم العائلة الجامعة للهجات الرومنية إلى ثلاثة فروع أساسية ، رومنية أوربية ، رومنية أرمنية ، رومنية آسيوية (سوى الأرمنية) ، ويذهب تيرنر إلى أنه من المناسب أن نطلق عليها مجموعة الروم Rom ، مجموعة اللوم Lom ومجموعة الدوم

(١١) هذا التحديد غير دقيق ، فقد استغرق الفتح عدة سنوات ، إلى أن كانت النهاية بقتل يزيد جرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان فى ٦٥١/٣١ (المترجم) .

Dom ، وذلك وفقاً لتعاملها الصوتي مع هذه الكلمة المشتقة من السنسكريتية دومبا dōmba ، ويمكن أن نطلق على النوعين غير الأوربيين من الرومنية Lomavren (الرومنية) Domari (الآسيوية) ويوضح سامسون كيف أن الرومنية الأوربية واللوماقرين حولتا الأصوات السنسكريتية الأصلية المجهورة (أي المنطوقة بأوتار صوتية مهتزة) bh, dh, gh, džh إلى أصوات غير مجهورة (أي المنطوقة بدون اهتزاز للأوتار الصوتية) ph, th, kh, čh (والـ h تمثل نفسية الأصوات المصحوبة بنفخ النفس أنظر ص ٢٩) في حين إن هناك مبدأ مغايراً تماماً هو عدم نفسية bh, dh, gh, džh فتنتطق b, d, g, dž وتلك سمة أساسية في الرومنية الآسيوية ، وربما وقع التغيير السابق (الذي كان في اللوماقرين أقل انتظاماً مما يلمع إليه سامسون) بسبب تأثير الأرمنية ، فعدد من لهجاتها بها أصوات غير مجهورة وليس أصواتاً مجهورة ، ويعتقد سامسون أن هذه التطورات ، إنما هي نتيجة للافتراق الذي وقع في الأراضى الفارسية، مما أدى إلى نشوء مجموعة يطلق عليها مجموعة البن ben (أي الدوماري) ومجموعة الفن phen (أي الرومنية الأوربية واللوماقرين) على أساس صيغ كلمة أخت في الرومانيات الثلاث .

Sanskrit	Domari	Lomavren	Eur, Romani	English
bhagini	ben	phen	phen	sister
bharatr	bar	phal	phral ^(١٢)	brothor

في الوقت الحالى يصير من الملائم أن نأخذ بتحديدات سامسون ، ولو أن تصوره عن وحدية مجموعة الفن ما يزال موضعاً للتساؤل ، وتتضمن لغة الفجر البن (أي الدوماري) لهجات النور (فلسطين وسورية) والكوربات (شمالى سورية) والقرج Karači (آسيا الصغرى وماوراء القوقاز وفارس) ، وقد أصاب التدهور لهجات الدومارية على نحو أسرع مما أصاب قريناتها الأوربيات، ويتبين لنا أنها اختلطت بشدة بالعربية ،

(١٢) صارت Phral في الرومنية الإنجليزية pal ، وهى واحدة من الكلمات الرومنية القليلة التى اقتحمت اللغة الانجليزية (حيث إنه تم رصدها للمرة الأولى فى ١٦٨١ - ١٦٨٢) ، وربما يفسر ذلك ما قد نواجهه من صعاب فى تعرف المشتركات اللفظية .. هل يمكن أن نفترض فى غياب معلومات إضافية وعلى أساس التشابه فى النطق فحسب أن frater اللاتينية و pal الرومنية و brother الإنجليزية و brat السلافية جميعها مشتركات لفظية ، علاوة على أنها تعود جميعها إلى الهندو أوربية الأولى bhrater

وتحول ما تبقى منها في معظمه إلى شتيت متناثر ، (١٢) ، ورغماً عن إصرار سامسون على أن المجموعتين نبعتا من أصل واحد ، إلا أننا نلاحظ قدراً من عدم التماثل بين الدومارية والرومنية الأوربية ، مما يثير الشك حول ما يدعيه من التماثل بينهما في الأصول .

حالما تنقسم لغة أصلية إلى لغات فرعية جديدة ، فإن هذه بدورها يمكن أن تسلك على تفاوت في سرعتها طرقاً متماثلة أو متخالفة ، ولسنا على يقين من سرعة التغيرات التي لحقت بمجموعتي البن والفن ، أو متى جرى الانفصال الباكر بينهما ، ولا المدة التي عاشتها كل مجموعة منها في فارس ، على أن التباين بين الاثنتين من الاتساع بما يكفي لأن ينوه إلى وقوع انفصال نسبي بينهما في فترة باكرة ، وعدم وجود بعض من الكلمات الهامة المستعارة من الفارسية (١٤) في لهجات الفجر البن ، ربما يدل على أن هؤلاء هم أول من غادروا فارس ، أما كيف وصلوا إلى سورية ومتى ؟ فهو ما نجهله ، بحيث أننا لانسمع عنهم شيئاً محدداً قبل القرن التاسع عشر ، وذلك رغماً عما ورد عنهم في بعض الأحيان من إشارات ملتبسة كتلك التي نجدها في كتاب «مسالك الأبصار» الذي يعود إلى القرن الرابع عشر لصاحبه العمري الذي كان موظفاً رسمياً في الإدارة المملوكية فهو يتحدث في هذا الكتاب عن طوائف متعددة من اللور في مصر (وبالأخص في سورية) ويصف مهاراتهم كبهلوانات (١٥) .

يستدل من العناصر الفارسية في لهجات الفجر الأوربيين على إقامة طويلة بعض الشيء في فارس .. من بين هذه العناصر (في الرومنية الويلزية) čakano (نجم) و darīav (بحر) و kiś (حرير) و kišti (حزام) و koro (كفيف) و pošúm (صوف)

(١٢) أشمل دراسة لهذا الموضوع نجدها في :

R.A. Stewart Macalister, the Language of the Nawa or Zutt, the Nomad Smiths of Palestine, GLS Monograph no.3 (London, 1914); previously published in JGLS (2). 3 (1909 - 10), pp. 120-6, 298-317' 5 (1911-12), pp. 289-305.

(١٤) تعبير مستعارة أو دخيلة تعبير ملتبس إلى حد بعيد ، حيث إن اللغة المعيرة لاتسترد ما سبق أن أعارته ، لكن هذا هو المصطلح المعتمد في هذا الخصوص .

(١٥) عاش ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) في العصر المملوكي ، وكتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأعصار» أحد الموسوعات التي زخر بها هذا العصر ، هو مصدر هام لموسوعة أخرى هامة هي «صبيح الأعشى» للقلقشندي (ت ٨٢١هـ) ومن جملة ما نقله هذا الأخير خبر هؤلاء اللوريين (ويدعو بعضهم بالنورة ، وهي أصل كلمة نور الداريجة في الشام ومصر) وكيف فتك السلطان صلاح الدين الأيوبي (١١٧٤/٥٦٩ - ١١٩٢/٥٨٩) بعدد منهم ، «خشية مما لهم من قوة التسور» صبيح الأعشى، القاهرة ١٩٨٥ ج ٤ ص ٣٤٣ ، وانظر أيضاً كتابنا الموسوم بالزط ص ٩٨ - ١٠٠ (المترجم) .

و veš (غابة) وبين هذه الكلمات فإن كلمتي كفيف وصوف فقط توجدان في قائمة ماكاليستر Macalister للغة الدوماري (وهنا وفي أحوال أخرى يمكن للمرء أن يمتد بقائمة الكلمات المتشابهة أو المستعارة ، ولكن مقابل قدر كبير من الاجتهاد ، فلدينا مثلاً الكلمة الرومنية baxt وتعنى الحظ أو الفأل الحسن ، فهي تعد على نحو عام كلمة مستعارة من الإيرانية بخت وتعنى الحظ أو السعادة ويمكن أن نتلمسها كذلك في بخشيش ، لكنها جاز - مع ذلك - أن تكون أصلية، فحيث إن اللغات الإيرانية والهندوأوروبية هي لغات متقاربة ، وتشترك جميعها في عديد من السمات المميزة ، فليس من البساطة بمكان أن نفصل في أصول الكلمات المتناظرة ، وبالمثل فداخل العائلة الايرانية يحار المرء فيما إذا كانت الاستعارة من الفارسية أم الكردية أم الأوسيتية Ossetic أو حتى من الأرمنية الى لاتعد لغة إيرانية ، لكنها احتوت عدداً كبيراً من الكلمات المستعارة من الإيرانية).

أما بالنسبة للزمن الذي فارق خلاله الفجر فارس ، فإن قليلاً من الباحثين يحاجون منذ السبعينيات بأن أسلاف الفجر الأوربيين ، يجب أن يكونوا قد غادروا فارس قبل الفتح العربي^(١٦) ، وذلك لعدم توافر كلمات عربية في الرومنية ، وهو ما يعنى بالتالى أنهم غادروها قبل أن ينتصف القرن السابع ، أى فى تاريخ سابق لما يدعيه الآخرون . على أن حجة مثل هذه لاتصمد أمام الحقائق الثابتة ، فمن التبسيط الشديد فى العملية اللغوية الادعاء بأنه حالما سيطر العرب على فارس ، فإن لغتهم انتشرت على كل المستويات ، بحيث صارت ذات تأثير قوى فى الرومنية ، وعلى أية حال فهناك كلمات عربية قليلة استعيرت فى الرومنية الأوربية ، مثل berk أى صدر (مع أنه لدى الرومنية كلمة هندية مرادفة هي čuč) و xumér و xumél أى خمير و kisí أى كيس ، وربما جاز أن يضاف إلى هذه القائمة lav أى كلمة (مثلاً فى كتاب لافنجرو lavengro لجورج بورو George borrow باعتبارها مشتقة من (أو متأثرة ب) العربية «لفظ» وهي كلمة صارت دارجة فى فارس ثم فى الهند بعد ذلك ، ومع أن هذه قضية خلافية ، لكنه ربما كان لدينا ما يكفى لأن نفترض بأن أسلاف الفجر الأوربيين لايمكن أن يكونوا قد غادروا فارس قبل الفتح العربى ، وأنهم آثروا لغتهم بقدر لا بأس به من الكلمات السامية .

(١٦) فى الأصل الغزو العربى ، والصحيح ما أثبتناه فالعرب المسلمون فى الصدر الأول لم يقوموا بغزو بلاد، إنما هم فتحوها (المترجم) .

أرمينية

كانت أرمينية حيث استقر الغجر الفن بعد مغادرتهم فارس قد صارت تحت السيادة العربية فى القرن السابع ، ولو أن اللغة الأرمينية لم نتعرض للاختراق من قبل العربية ، مثلما هى الحال مع الفارسية ، ولا يمكن أن تكون إقامة الغجر فى أرمينية قصيرة الأمد ، فقد احتوت اللهجات الأوربية من الرومنية على عدد من الكلمات المستعارة من الأرمينية منها böv «فرن» و dudúm «بطيخ» أو «قرع» džolano «بغل» و kotör «قطعة» و kočo «زرار» و mortsi «أدم» (=جلد) وربما كذلك grai «جواد» (من الأرمينية grast أى دابة حمل) ، ومن الأوستية المتحدث بها فى شمالى أرمينية ، ربما أتت كلمة vordon أى عربية ، وبعد سنوات طويلة سوف تصبح هى الكلمة الغجرية المعبرة عن الكراخان التى يجرها حصان ، والتى غالباً ما ارتبطت - وماتزال - فى المخيلة الشعبية بالغجر ، ولم يحدث شيء من ذلك فى لهجات البن بآسيا ، ولا لما تبقى من اللوماقيرين ، أى لهجة الغجر المعروفين بالبوشا Boša الذين سوف نراهم بعد عدة قرون يزاولون الترحال فى أرمينية وتركيا وفارس وجنوبى القوقاز ، وعندما بدأت دراسة الرومنية التى يتحدث بها البوشا (الذين يدعون أنفسهم لوم) فى القرن التاسع عشر ، فإنها كانت قد صارت فى حال يرثى لها ، ومع أنها وقعت تحت تأثير الأرمينية ، إلا أن عدم اشتراكها مع الرومنية الأوربية فيما اشتقته هذه الأخيرة من مفردات أرمينية ، يترجح معه إمكانية أن يكون الانفصال بين الغجر الفن قد وقع قبل أن يقعوا جميعهم تحت تأثير الأرمينية ، والحقيقة أن ماجرى من تطورات فى اللوماقيرين والرومنية الأوربية ، إنما تم على نحو مستقل لكل منهما^(١٧).

ليس فى إمكاننا سوى اللجوء إلى الحدس لمعرفة السبب فى خروج الغجر من أرمينية ، لكننا مع ذلك لانفتقر إلى معلومات عن الظروف التى صاحبت هذا الخروج،

(١٧) هناك تطورات لغوية أخرى يصعب أن تتوافق مع فكرة سامسون عن وحدة مجموعة الفن التى لم تنفصم عراها كما يذهب إلا بعد دخول أرمينية . أنظر :

J. Bloch, review of The Dialect of the Gypsies of Wales, JGLS (3) , 5 (1926), pp. 134 - 41, esp. pp. 136 - 8 ; R.L. Turner, 'The position of Romani in Indo - Aryan, JGLS (3) 5 (1926)' pp.145-89, esp. pp. 177-8, and ' Transference of aspiration in European Gypsy', Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 22 (1959) pp. 491-8 esp.p 491.

فولوج الغجر إلى أراضى الامبراطورية البيزنطية^(١٨)، ربما كان عملية تدريجية ، دفعت إليها فى البداية حال من عدم الاستقرار الناجم عن الصراع الدائب بين البيزنطيين والعرب ، ثم تعرضت أرمينية لغزوات متكررة من قبل البيزنطيين ، إلى أن تم ضمها على نحو تدريجى فى أوائل القرن الحادى عشر ، لكن السيادة البيزنطية كانت قصيرة الأمد ، لأن أرمينية مالبثت أن تعرضت لغزو السلاجقة - وهم فصيل من الأتراك ، هذا الشعب الذى يعود فى أصله إلى أواسط آسيا - ولم يتبق فى حوزة الأرمن سوى كيليكيا Cilicia^(١٩) الواقعة على البحر المتوسط .

التماسك الاجتماعى

حالنا حين نتعقب الرومنية حتى سفوح أراراط ، هى حال كوپر Couper حيث يقول :

علماء الفيلولوجيا حين يتعقبون
مقطعاً لاهثاً عبر المكان والزمان
يبدأون لدى الدار ويطاردونه فى الظلام
إلى بلاد الغال واليونان وإلى فلك نوح

من الحكمة - إذن - أن نضع فى اعتبارنا التبسيط الشديد الذى ربما يحفزنا إليه التناول اللغوى ، ومكمن الخطر هو أن الحديث عن انشطارات فى لغة ما ، وتوزعها إلى عصب متفرقة ، قد يخلق صورةً لاشعورية عن الهجرة الغجرية ، بأنها كانت مؤلفةً من قطعان من البشر ، تغادر الهند ، ولدى نقاط معينة على طول طريقها كانت تنقسم إلى فصائل أصغر ، تمضى كل واحدة منها متباعدةً عن غيرها، ولكن فى اتجاه عام نحو الغرب ، وقد جرى التأكيد على هذه الصيغة بخرائط رسمت عليها أسهم ، تبين

(١٨) ويدعوها العرب بنوالة الروم ، وملكها ملك الروم (المترجم) .

(١٩) وتدعى فى المصادر العربية قاليقلا ، وتساوى تقريباً لواء الإسكندرية السورى ، الذى جرى ضمه إلى تركيا فى ١٩٣٩ والأراضى المجاورة له (المترجم) .

الخطوط المحتملة للهجرة الفجرية الباكرا ، فى حين أن الأمر لايمكن أن يكون كذلك لدى الممارسة .

لسنا على يقين من التنظيم الاجتماعى والثقافة لدى الفجر الأوائل ، ولانملك سوى الحدس .

وليس من قبيل الوهم أن نبني تصورنا على فرضين ؛ أولهما أن هؤلاء الفجر سوف ينعكس لديهم نمط هندي للتعايش الاجتماعى ، والآخر أن من لم يألف منهم حياة الاستقرار ، سوف تكون لديهم خصائصهم المميزة التى يمكن ملاحظتها فى كثير من الرجل ، وأحد الملامح الهامة للتعايش الاجتماعى الهندي فى هذا الإبان كما هو اليوم - هو غلبة الطوائف السلالية الفرعية أو الـ Jatis (= جَتي) التى كانت وشائجها بالعمل اليومى فى المجتمع الهندي أقوى مما كانت لدى الطوائف الأساسية (varnas) ، وقد قامت العلاقات داخل الطائفة الفرعية على التخصص فى العمل ، ويؤدي الطابع المهني الواحد للطائفة الفرعية إلى اعتماد اقتصادى متبادل ، وربما يؤدي كذلك إلى تحركات منتظمة لها داخل الإقليم ، أو تشتت بهدف الحصول على طلب كاف لمهاراتها ، وليس من الصعب أن نجد نظراً للفجر بين الجماعات الكثيرة المتنقلة فى شبه القارة الهندية^(٢٠) ، هناك ملمح آخر مميز للطبقة الفرعية هو زواج اللّحمة en-dogamy أى الزواج الداخلى ، مما كان يفضى إلى توثيق العرى داخلها ، ومن شأنه أن يفضى كذلك إلى الحفاظ على الحواجز بينها وبين غيرها من الجماعات ، وربما يستدل من النموذج الهندي على نقاوة صارمة وأيديولوجية نجاسة (قد تكون عاملاً هاماً فى رسم هذه الحدود) .

فى ضوء ذلك وفى ضوء تطورات لاحقة ، يبدو من المحتمل أن العديد فى الجماعات الأصلية قد لعبوا دوراً اقتصادياً هاماً ، يتجلى فى توفير سلع وخدمات ، ومارس هؤلاء أعمالهم فى مجموعات صغيرة نسبياً ، تنتقل من مكان إلى آخر ، حيث إنه لم يكن فى إمكانها أن تفرق الأسواق من ناحية ، كما أنها فى حاجة إلى قاعدة عريضة من الزبائن من ناحية أخرى ، وليس من الحكمة تحديد ما إذا كان هؤلاء

Cf. P. K. Mistra and K.C. Malhotra (eds), Nomads in India (Calcutta, 1982); (20) and J. C Berland, 'parytan: "native" models of peripatetic strategies in Pakistan', Nomadic Peoples (1986), nos. 21/22, pp.189-205.

الزبائن سكان مدن أو قري أو فلاحين قراريين أو رعاة رحل أو كل هؤلاء جميعاً . ويبدو أن أسلوب الفجر في الترحال كان أمراً معتاداً لدى الأغيار ؛ ففي إيران والأقطار المجاورة ظلت البداوة منتشرة على نطاق واسع ، وحتى منتصف القرن العشرين كان ما يزال حوالى عُشر سكان إيران من الرحل ، وذلك رغماً عن الجهود التي بذلت لتوطينهم ، ومع ذلك فهناك فارق أساسى بين الفجر وغيرهم من الرحل ، وهو أن الرحلة عند الفجر ، كانت تعنى أن ينتقلوا من مكان إلى آخر ، يبيعون سلعهم ويزاولون مهنتهم ومهاراتهم ، بينما كانت تعنى عند غيرهم حركة موسمية ، انتجاعاً لمواطن الكلا أو الزراعة ، ومن الممكن أن يتعايش الرحل والرعاة باطمئنان ، وحتى الآن لاتزال توجد جماعات كبيرة من الرعاة فى تركيا وإيران وبلوچستان ، لدى كل واحدة منها جماعة مترحلة ، يرتبط أفرادها بها كباة للسلع الصغيرة ، وأحياناً ما كانت هذه الجماعة تجد زبائن لها بين القراريين من سكان الريف .

هذا النمط من الحياة أياً ما كان .. بداوة ، شتاتاً ، أعداداً قليلة ، وما قد يترتب عليه من ضعف فى الروابط المجتمعية داخل الجماعة ، يجعلنا نتساءل عن الكيفية التى حافظ بها كثير من هؤلاء الفجر على هويتهم الاجتماعية والثقافية المشتركة ، خلال أحقاب طويلة من الحركة الدؤوب تجاه الغرب .. بطرح هذا التساؤل فإن المرء ما فتىء يعجب لتماسكهم غير العادى ، وشتات الفجر يقارن أحياناً بشتات اليهود ، مع أن شتاتهم هذا كان شتاتاً لشعب ليست لديه هيئة كهنوتية ، ولا مستوى معترف به للغتهم ، ولا متون تحفظ نسق معتقداتهم ، ولا قواعد أخلاقيه ، ولا سدنة لتقاليدهم ، ويوصفهم مجتثين من الهند ، ومعتادين على الترحل يصير من المحتمل أن تتبدل هويتهم ، وكان لابد من أن يعاد قولبتها ، بسبب ما تعرضوا له من متغيرات هائلة داخلية وخارجية ، فقد تمثلوا عناصر عدة ليست لها علاقة بالهند ، وهم فى واقع الحال توقفوا عن أن يظلوا هنوداً ، ومع ذلك - ويصرف النظر عن أية تحولات - تظل هويتهم وثقافتهم متميزتين على نحو حاد عن الأغيار الذين يجاورونهم ، ويعتمدون عليهم فى معاشهم ، بيد أنه ليس للفجر أرض موعودة يتطلعون إليها كمحط لأحلامهم ، وهم فى الوقت نفسه نسوا أسلافهم الهنود ، ولم يعودوا يعيرون تاريخهم القديم سوى اهتمام ضئيل ، وناطوا بالأغيار بعد عدة قرون مهمة استعادة ماضيهم والتعرف إلى أصولهم .

الفصل الثالث

فى الإمبراطورية البيزنطية وبلاد البلقان

بيزنطة وبلاد اليونان

كانت شهية السلاجقة للحرب فائقة ، وتنامت قوتهم على نحو ظاهر ، وترتب على غزوهم لأرمينية فى أواسط القرن الحادى عشر أن اقتلع الشعب الأرمنى من أرضه ، مما يؤدىنا لأن نفترض بأن هذا الغزو دفع حشود الغجر إلى الشطر الغربى من الامبراطورية البيزنطية - القسطنطينية وتراقيا - ومن هناك انتشروا فى بلاد البلقان وأوربا بأسرها (١) ، وأضحت الامبراطورية البيزنطية على شفير منحدر من عصر مجيد، تحكمت خلاله فى أوفر الممالك المسيحية ثراءً ، وفى سنة ١٠٧١ انكسر جيش بيزنطى على يدى قوة عسكرية سلجوقية فى معركة ملازكرد Manzikert ، على مقربة من بحيرة وان Van فى أرمينية ، وضاعت معظم بلاد الأناضول (٢) .

يلاحظ أن الثقافة اليونانية السائدة فى بيزنطة ، ظلت حيةً لآماد متباعدة فى الأقاليم التى تخلت عنها هذه الامبراطورية ، بل إن اللغة اليونانية نفسها لم تنحسر عن الشطر

(١) يوجد تحليل واف للمرحلة البيزنطية من تاريخ الغجر فى بحث لسوليس G.C Soulis عنوانه :

' The Gypsies in the Byzantine Empire and the Balkans in the late Middle Ages ' Dumbarton Oaks Paper, no. 15 (1961), pp. 142-65.

(٢) معركة ملازكرد فى سنة ١٠٧١/٤٦٣ من المعارك المفاصلة فى التاريخ ؛ ففيها انتصر الأتراك السلاجقة يقودهم سلطانهم ألب أرسلان (١٠٦٣/٤٥٥ - ١٩٧٢/٤٦٥) على جيش الروم (البيزنطيين) يقودهم إمبراطورهم رومانوس ديوجينيس Romanus Diogenes (١٠٦٨-١٠٧١) . وقد أسر هذا الإمبراطور ، ولم يطلق إلا بعد أداء فدية كبيرة ، ولم تلبث أن تساقطت المدن البيزنطية الواحدة تلو الأخرى فى أيدي السلاجقة ، بحيث أضحت القسطنطينية نفسها مهددةً ، مما دفع الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس Alexius Comen-nus (١٠٨١-١١١٨) إلى طلب معونة إخوانه من النصارى الأوربيين ، خصوصاً بابا روما ، مما أفضى إلى نشوب الحروب الصليبية التى دامت نحواً من مائتى سنة (المترجم) .

الاسلامى من بلاد الأناضول ، وتعرض الفجر لتأثيرها قبل أن يعبروا الدردنيل بفترة طويلة ، وقد كان تأثير اليونانية فى الرومنية أقوى بكثير من تأثير الفارسية ، ومما يجدر ذكره غياب التركية - المتأثرة بدورها بالفارسية - عن أن تكون عنصراً فاعلاً فى الرومنية الأوربية ، هذا إذا استثنينا بعض الكلمات المستعارة التى تسربت بعد فترة طويلة ، وعلى نحو محدود ، إلى لغة الفجر الذين اقتصر نشاطهم على بلاد البلقان .

يترجح لدينا أن أقدم إشارة إلى التواجد الفجرى فى القسطنطينية ترد فى النص الكرجى (الجورجى) ^(٣) لسيرة «حياة القديس جورج الناسك» التى تم تصنيفها حول سنة ١٠٦٨ ^(٤) بدير إبيرون Iberon على جبل أثوس Athos ، فنقرأ فيها أن الإمبراطور قسطنطين مونو ماخوس Monomachus ^(٥) انزعج لما راعه من حيوانات متوحشة تقترب الطرائد فى حديقة فيلوبياتيون Philopation الإمبراطورية بالقسطنطينية ، فالتمس عون «السامريين من نسل شمعون الساحر الذين يدعون بالأدسنكانيين Adsin-cani ، واشتهروا بالكهانة والسحر الأسود» ، وقد دفع هؤلاء الأدسنكانيون إلى هذا الضواري يقطع من اللحم ، سرعان ما فتكت بها . واسم أدسنكانى الوارد فى هذا النص هو الصيغة الكرجية لـ Atsínganoi أو Atzínganoi ، وهو مصطلح يونانى عادةً ما كان يشير عند البيزنطيين إلى الفجر . وكلمات Zigeuner الألمانية و Tsiganes الفرنسية و Zingari الإيطالية و Czigányok المجرية وصيغ أخرى مماثلة فى لغات أخرى مختلفة ؛ جميعها مشتقة من هذا الاسم البيزنطى ، وقد ظل أصل الـ Atsínganos مثاراً للجدل ، وما يزال موضعاً للشك ، والرأى المقبول عند الكثيرين أنه تحريف لاسم طائفة متهرطقة تدعى Athínganoi ، استخدمه اليونانيون للدلالة على الفجر ، لأن كلتا الجماعتين صارت لها شهرة مماثلة فى قراءة الطالع والسحر الأسود ، وقد تناقصت أعداد الأثنجانيين بدرجة كبيرة، وربما انقرضوا تماماً بعد ماتعرضوا للاضطهاد فى القرن التاسع .

(٣) نسبة إلى جورجيا ببلاد القوقاز ، وعرفت عند العرب ببلاد الكرج ، وعند الفرس والآراك بگرجستان، وهى الآن إحدى الجمهوريات السوفيتية السابقة (المترجم) .

(٤) D. M. Lang (ed), Lives and Legends of the Georgian Saints. Selected and translated from the original texts (London, 1956), p. 154; Latin version in P. Peeters, 'Histoires monastiques georgiennes,' Analecta Bollandiana, 36-7 (1917-19), pp. 102-4.

(٥) وهو قسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٥) (المترجم) .

والإشارة الثانية إلى الأثنجانيين فى معنى الفجر تعود إلى القرن الثانى عشر ، وترد بوضوح فى شرح الفقيه ثيودور بالسامون Theodore Balsamon (ت. حوالى ١٢٠٤) للقانون الكنسى رقم ٦١ الصادر عن مجمع ترولو Trullo فى سنة ٦٩٢ ، فهو فى هذا الشرح يهدد بحرمان مدته ست سنوات ، عقوبة لكل من ينتمى إلى الكنيسة ، ثم يستغل العامة باستعراض الدبة وغيرها من السوائى بزعم تسليتهم ، وكذا بقراءته للطالع ، ويقول «هؤلاء الذين يقودون الدبة يدعون بالدبابة ، وهم يضعون خيوطاً مصبوغة على رأس الحيوان وعلى بدنه كله ، ثم يقطعون هذه الخيوط ، ويقدمونها مع أجزاء من شعره كتعاويز وعلاج لأمراض ودفع لعين الحسود ، وقد تكون لدى الآخرين الذين يدعون بالأثنجانيين ، أفاع تسعى حولهم ، ويخبرون شخصاً ما بأنه ولد تحت نجم نحوس وآخر تحت نجم سعود ، وربما أمكنهم أن ينبئوا بما سوف يحدث من حظوظ حسنة أو سيئة » (٦) .

يعاود بالسامون الإشارة مرة أخرى إلى الأثنجانيين فى شرحه للقانون رقم ٦٥ للمجمع المذكور ، وفى تفسيره لطبيعة المقامقين (٧) كتب يقول : «المقامقون والسحرة هم كل من يلهيهم الشيطان ، ويتظاهرون بالرجم بالغيب مثل الـ Kritriae والأثنجانيين والمتنبئين والنسك الوثنيين وغيرهم» ، وقد تكرر مثل ذلك بعد قرن أو نحوه عند أثناسيوس الأول بطريرك القسطنطينية فى كتاب وجهه إلى رجال الكنيسة ، يحضهم فيه على نصيحة رعاياهم ، بأن لا يخالطوا قراء الطالع والدبابة والحواة وخاصة ألا يسمحوا للفجر (Adsingánous) بولوج منازلهم ، لأنهم يعلمون الناس كثيراً من الشرور ، وبعد عدة عقود فإن العالم جوزيف برينيوس Joseph Bryennius (حوالى ١٣٤٠ - ١٤٣١) فى أطروحته عن أسباب النحوس الذى أصاب الامبراطورية ، فإنه يأسى لحال هؤلاء الذين عقدوا صلات حميمة «مع السحرة والعرافين والأثنجانيين Ath-ingánous» .

على أن متغيراً هاماً طرأ على هذا المسمى ، فنجد قانوناً كنسياً ، يعود إلى القرن الخامس عشر ، يقرر حرماناً مدته خمس سنوات عقوبة «لهؤلاء الذين يسألون النسوة

(٦) المقتبسات فى هذه الفقرة مأخوذة من مقال سوليس The Gypsies in the Byzantine Empire. pp. 146-7.

(٧) أى الذين يتحدثون من بطونهم Ventriloquists (المترجم) .

المصريات Aigyptíssas قراءة طوالعهم» وهؤلاء الذين يأتون بعراف إلى منازلهم ، ليمارس السحر الأسود بينهم ، حين يمرضون أو يعانون من علة أو أخرى « وكون لفظة Aigyptíssas تعنى الفجريات المشتغلات بقراءة الطالع وليس المصريات توافقه الترجمة السلافية للقانون ، حيث ترد مكانها كلمة Ciganki ^(٨) ، ولسنا على ثقة من أن كتاباً بيزنطيين آخرين كانوا يضعون الفجر فى أذهانهم ، عندما يشيرون إلى المصريين ، ولو أنه من الشائق أن نفسر بهذا المعنى وصف نقفور جريجوراس Nicephorus Gre-goras المسهب ^(٩) لحشد هائل من البهاليل والمشعوذين من المصريين الذين ظهروا فى القسطنطينية فى العقود الأولى من القرن الرابع عشر ، وارتحلوا منها إلى تراقيا ومقدونيا ، بل أنهم وصلوا إلى إسبانيا ، مع ذلك فواضح أن أسطورة الأصل المصرى (المدعومة بلا ريب بارتباط مصر بالغموض والعيافة) أضحت دارجة فى بيزنطة فى القرن الخامس عشر أو قبله ، والاسم اليونانى الحديث للفجر وهو Gúphtoi يعود إلى هذا التقليد .

هناك إشارات أبعد إلى الفجر كمصريين أو بأسماء أخرى، نجدها فى أشعار شعبية ، ربما تعود إلى القرن الرابع عشر ، وهى تكشف عن أنهم اشتهروا عند البيزنطيين بالدبابة وصناعة المناخل ، كما تكشف كذلك عن أن هذه المسميات بدأت تستخدم كشتيمة .

هكذا بدأت تنبثق صورة متشظية وانطباعية عن حياة الفجر وأصولهم فى الإطار العام للمجتمع البيزنطى ، وهم حين ظهروا لأول مرة فى بيزنطة كان قد فشا فيها على كل المستويات بما ذلك الأباطرة التصديق بالخرافات ، فليس غريباً إذن أن يفيد الفجر بذلك فى الكهانة وقراءة الطالع ، كما اشتهروا بكونهم ملهين - دبابة وحواة ومروضى حيوانات وبهاليل ومشعوذين - وربما نستخرج من الإشارات الازدراكية إليهم فى الأدب الشعبى أنهم لم يحظوا بسمعة طيبة ، وبطبيعة الحال فهذه صورة أحادية الجانب ، ولن يتسنى لنا أن نعرف على نحو دقيق نظرة المجتمع البيزنطى إلى الفجر ، وأى نوع من المعاملة تلقوها منه .

ibid. pp. 147-8.

(٨)

Quoted in full, ibid, pp. 148-9.

(٩)

فى هذا الإبان كانت بيزنطة تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ ففى بداية القرن الخامس عشر تقلصت مساحة هذه الإمبراطورية ، ولم يعد لها سوى القسطنطينية وسالونيكيا وبلاد المورة Morea أو البلوبونيز Peloponnese ، وهى الشطر الجنوبى من بلاد اليونان ، وأضحى الأتراك بعد أن تم لهم فتح آسيا الصغرى يطوقون العاصمة من كل وجه ، وهم منذ أن تطرقوا إلى أوربا لأول مرة بأن وضعوا أقدامهم قريباً من غاليبولى Gallipoli فى عام ١٣٥٤ وشرعوا فى الهيمنة على بلغاريا ، واستولوا على معظم بلاد اليونان ، وأدخلوا صربيا والأفلاق فى تبعيتهم ، كان الغجر قد استقروا فى هذه الأقطار جميعها لمدى طويل قبل الفتح التركى ، ويتضح لدينا أنهم انتشروا فى جماعات كثيرة من تراقيا وعبر مقدونيا إلى بلاد اليونان وجزرها ، وشمالاً إلى الأقاليم التى سوف تصبح بعد سنوات طويلة يوغوسلافيا ورومانيا ، وربما واكبت بعض هذه الهجرات الزحف المتواصل للأتراك العثمانيين .

استقرت الحال بالغجر فى البلوبونيز وجزر يونانية خلال القرن الرابع عشر ، ففى كتيب ألفه فى سنة ١٤١٦ شاعر الهجاء البيزنطى مازارىس Mazaris دعاه «مقام مازارىس فى الجحيم» يورد خطاباً أرسله من البلوبونيز فى ٢١ سبتمبر ١٤١٥ إلى من يدعى هولوبولوس Holobolos ، ومستقره بالعالم السفلى ، يصف فيه الحال الراهنة فى شبه الجزيرة ، فيقول : «فى البلوبونيز أخلط من الأمم التى ليس من اليسير ولا من الضرورى تقصيتها ، لكن بإمكان الأذن أن تتعرف إليها بلغاتها ، وهاك أجدرهم بالذكر : اللاكديمونيون Lacadaemonians والإيطاليون والبلوبونيزيون والصقالبة والإليريون والمصريون (Aigúptioi) واليهود (وبينهم عدد لا بأس بهم من الهجناء من هذه الأمم السبع^(١٠))» ، وإذا جاز لنا أن نقبل بأن هؤلاء المصريين هم فى واقع الأمر غجر ، من وجهة نظر المصادر الأخرى المعاصرة لوجودهم فى البلوبونيز ، فإنه ليس من المبالغ فيه أن نقرر بأن أعدادهم كانت كبيرة باعتبارهم إحدى الأمم الأساسية التى كانت تعيش هناك إذ ذاك .



خريطة ٢ شرقى أوربا حوالى سنة ١٣٦٠

يتضح لدينا أن الفجر كانوا يفضلون الاستقرار فى الأقاليم الخاضعة للبنادقة فى
البلوبونيز ، وماجاورها من جزر ، والسبب فى ذلك يعود إلى أن المستعمرات التى
استولت عليها البندقية - وهى أكثر القوى الأوربية نجاحاً فى التهام الامبراطورية
الشرقية - تمتعت باستقرار نسبي وأمن ، بينما عانت أقاليم أخرى أشد المعاناة من
الغارات التركية المتواصلة ، ويطالعنا وصف يشى بهؤلاء الفجر ، فيما كتبه راهب
فرانسيكاني يدعى سيمون سيميونيس Symon Simeonis ، زاركانديا Candia^(١١)
(وهى إيراكليون Iraklion) فى جزيرة كريت فى سنة ١٣٢٣ .

(١١) هى الخندق ، مدينة أسسها مسلمون أندلسيون لدى استيلائهم على الجزيرة فى ٨٢٧/٢١٢
(المترجم) .

يقول : «شاهدنا كذلك قوماً يقيمون خارج أسوار المدينة ، ويتبعون الطقوس الدينية اليونانية ، وهم يؤكدون أنهم من نسل تشايم Chaym (حام) (١٢) ، ونادراً مايتوقفون أو هم لايتوقفون في مكان واحد أكثر من ثلاثين يوماً ، فدائماً مايترحلون ويهرولون ، كما لو كانوا قد أصابتهم لعنة الله . وبعد الأيام الثلاثين يتنقلون من ساحة إلى ساحة أو بين كهف وكهف ، مصطحبين خيامهم المستطيلة السوداء المنخفضة التي تشبه خيام العرب» (١٢) .

إلى الغرب من بلاد اليونان كانت الجزائر الأيونية – الخاضعة كذلك لحكم البنادقة – قد استقبلت أعداداً كبيرة من الفجر ، فيصف جاك لوسيج Jacques le Saige من شاهدهم في ١٥١٨ بجزيرة زانتى Zante من حدادين ، لديهم أساليب في ممارسة أعمالهم ، أشبه بأساليب الحدادين الفجر في بلاد اليونان الأصلية ، مما يفترض معه هجرة مباشرة من البلوبونيز (١٤) ، كما تتوافر رواية ضافية عن وجود فجرى في جزيرة كورفو Corfu ، بدأ في الشطر الثاني من القرن الرابع عشر ، أى قبل أن تسقط هذه الجزيرة في أيدي البنادقة في سنة ١٣٨٦ ، وعندما بدأنا نسمع عن هؤلاء الفجر الكورفيين ، كان ما يؤدونه من مكوس كافياً ، لأن يستدل منه على وجود إقطاع مستقل عرف بإقطاع الفجر Feudum acinganorum (وقد تواصل حتى القرن التاسع عشر) ، فلا بد إذن أن يكون حلولهم بكورفوقد وقع في فترة باكرة ، وربما ازدادت أعدادهم بتوافد إخوان لهم في جملة التيار الدافق من مهاجرين غصتهم المسغبة (homines vageniti) والذين كانوا في أخريات القرن الرابع عشر ومطالع القرن الخامس عشر يتدافعون عبر البحر إلى كورفو من إبيروس Epirus ، حيث كان الفجر موجودين بأعداد كبيرة ، وقد شكل الإقطاع الهيئة العامة للحكم البندقي في كورفو ، ويستدل من المرسوم الصادر في سنة ١٤٧٠ والخاص بمنح إقطاع الفجر لميخائيل دو هوجو Mi-chael de hugot (١٥) ، على أن البارون الإقطاعي كانت لديه ولاية قضائية واسعة ،

(١٢) الذي لعنه ولده أبوه نوح ، حسبما ورد في سفر التكوين إصحاح ٩ ، آية ٢٥ - ٢٧ (المترجم) .

(١٣) مترجمة عن اللاتينية ومقتبسة من

F.H.Groome, Gypsy Folk-Tales (London, 1899), p. xix.

J. Le Saige, Voyage de J. Le Saige de Douai à Rome, Venise, Jerusalem, (١٤) et autres saints lieux (Douai, 1851), p. 74, quoted in Soulis, 'The Gypsies in the Byzantine Empire', p. 156.

(١٥) النص اللاتيني كاملاً في كتاب سوليس ص ١٦٤ - ١٦٥ .

ليس فقط على الفجر المقيمين في كورفو ، ولكن أيضاً على هؤلاء الذين يعيشون في الممتلكات البندقية بساحل إبيروس ، وكان منصبه مجزياً ، فقد توجب على الأقبان أن يؤدوا لسيدهم أجوراً نقدية وعينية كثيرة ، وكان من حقه أن يحاكمهم ويعاقب أيّاً منهم في الأحوال المدنية والجنائية باستثناء جرائم القتل ، ولم تتوافر هذه الامتيازات لبارونات إقطاعيين آخرين ، فضلاً عن إنه فرض على أي فجر أجنبي (Cinganus Fo- rensis) أن يؤدي رسماً نظير دخوله الإقليم الخاضع لولاية الحاكم البندقي والخروج منه ، إلى جانب أدائه مكوساً سنوياً في حال الإقامة .

في بلاد اليونان (الأصلية) تواجد الفجر بكثافة في محيط مدينة ناوبليون -Naup- lion التابعة للبندقية في شرقي الپلوبيونيز ، كما تواجدوا كذلك في مودون (Methoni) Modon ، وهي مستعمرة بندقية أخرى تطل على الساحل الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة ، ففي ناوبليون بدا الفجر جماعةً منظمة لها قائد عسكري ، وفي مرسوم أصدره مجلس الأربعين البندقي في ٢ أغسطس ١٤٤٤ (١٦) ، تقرر معاودة تنصيب من يدعى يوحنا الفجري Johannes Cinganus مقدماً للفجر drungarius acinganorum (تعني drungarius مقدماً لجماعة من الجنود) ، وكان الحاكم البندقي قد سبق له أن عزل هذا الفجري من منصبه ، وتم نقض قراره باعتباره «لايتفق مع الامتيازات التي سبق أن منحها لأسلاف المذكور كل من حكومتنا والنبل أوتافيانوبونو Ottaviano Bono» (حاكم ناوبليون ١٣٩٧ - ١٤٠٤) ، وإذا كان يوحنا هذا غجرياً حقاً يصير هذا المرسوم أول تسجيل رسمي لأي امتياز منح لرعيم من الفجر ، وإذا كان ذلك ضرباً من الإقطاع - كما قد تبدو الحال في كورفو - فإن هذا قد يعني إن هذه الامتيازات كانت شخصية بالنسبة ليوحنا ، أما إذا كانت عامةً ، فيمكن أن يستنتج منها أن البنادقة كانوا في وضع حرج في ناوبليون ، بسبب الغارات التركية المتتابة ، وكانوا يتوقعون في المقابل عوناً عسكرياً من الفجر في حال الهجوم ، وربما كانوا يأملون في أن يزاول هؤلاء زراعة الأراضي التي هجرها سكانها .

أما عن ميناء مودون ، حيث استقرت أعداد معتدلة من الفجر ، فكان يقع لدى منتصف الطريق بين البندقية ويافا ، كما كان محطة لرحلات الحج على هذه الطريق الأشهر إلى الأراضي المقدسة ، ودون كثيرين منهم في يومياتهم ماشهدوه من أحياء

غجرية^(١٧) ، ويقرر ليوناردودي نيكولو فرسكو بالدي -Lionardo di Niccolò Frescobaldi- الذي زار مودون في سنة ١٣٨٤ أنه شاهد عدداً من الروميتي Romiti يقيمون خارج أسوار المدينة ، وحسبهم تائبين يكفرون عن خطاياهم^(١٨) وتؤكد شهادات رحالة لاحقين على أنهم غجر ، وربما تعرف الغجر بالحاج في أماكن مثل مودون هو الذي دفع بهم فيما بعد ، لأن يتخذوا هيئتهم ، حين صاروا بحاجة الى ذريعة يتوسلون بها ليتيسر مقامهم في غربي أوربا .



شكل ه مودون في بلاد المورة والمستوطنة الغجرية.
رسم لابيهارد رويش في كتاب رحلة حج بريدنباخ

See. E. O. Winstedt, ' The Gypsies of Modon and the " Wine of Romeney " , (١٧) JGLS (2), 3 (1909 - 10) , PP. 57 - 69 .

Viaggio di Lionardo di Niccolò Frescobaldi in Egitto, e in Terra Santa, ed . (١٨) G. Manzi (Rome, 1818), PP. 72 - 3; " Pilgrimage of Lionardo di Niccolò Frescobaldi to the Holy Land' (trans. T. Bellorini and E. Hoade), in Publications to the Studium Biblicum Franciscanum n. 6 (1948), PP. 29 - 90 .

بعد فرسكوبالدى بمائة عام تتوافر لدينا روايات عديدة لشهود عيان من حجاج
ألمان وسويسريين ، وكان هؤلاء قد عرفوا الغجر فى أوطانهم الأصلية ، وبذا صاروا
يشيرون بوضوح إلى هؤلاء القوم الذين يعيشون فى مودون على أنهم Zigeuner ،
وتأثروا فيما كتبوه بمواقف أوطانهم فى هذا الإبان منهم فيتهمهم برنهارد فون
بريدنباخ Bernhard von Breydenbach فى ثانيا كتابه عن حجته فى عام ١٤٨٣ بأنهم
« ليسوا سوى خونة وأصوص ، يدعون لدى دخولهم الأراضى الألمانية أنهم أتوا من
مصر » (١٩) ، وكان فى صحبة بريدنباخ رسام يدعى إيبهرارد رويشيش Eberhard
Reüwich ، وإليه ندين برسم لمدينة مودون ، يبدو الحى الغجرى إلى خلفها (انظر شكل
٥) . ويؤكد كونراد جرينمبيرج Konrad Grünemberg فى سنة ١٤٨٦ بأن الغجر
جميعهم « يعودون فى أصولهم إلى هذا المكان » ويتحدث كل من ديتريتش فون شاختن
Dietrich von Schachten (١٤٩١) وبيتر فاسبندر Fassbender (١٤٩٢) عن الغجر
كحدادين ، ويصف الكسندر كونت بالاتاين Palatine على الراين تلاً يقع قريباً من
مودون يدعى جايب Gype ، كان به فى سنة ١٤٩٥ نحو من مائتى كوخ يقطنها غجر
فيقول : « يدعو بعض الناس هذه التلة وماجاورها مصر الصغرى » ، على أن أوفى
رواية هى رواية أرنولدفون هارف Arnold von Harff من أهل كولونيا ، وتعود إلى سنة
١٤٩٧ .

يقول : « توجهنا إلى الضواحي ، حيث تقيم أعداد كبيرة من قوم سود فقراء عراة ،
يعيشون فى بيوت صغيرة مسقوفة بالبوص .. كانوا نحو ثلاثمائة أسرة ويدعون بالغجر
(Suyginer) وندعوهم حين يأتون إلى بلادنا بالمصريين الكفرة ، ويمارس هؤلاء القوم
مهناً مختلفة ، مثل صناعة الأحذية والإسكافة وكذلك الحدادة ، ومما يدعو للعجب أن
نرى سندان حداد قائماً على الأرض ، ورجلاً يجلس إليه ، كما يجلس الخياط عندنا ،
وإلى جانبه تجلس زوجه تغزل والنار بينهما ، وإلى جوارها كيسان جلديان أشبه
بمزمارى عربية ، تكاد النار تأتى عليهما ، وبينما تجلس المرأة وهى تغزل ، فإنها بين
وقت وآخر ترفع أحد الكيسين وتضغط عليه ، مما يؤدى إلى دفع الهواء عبر الأرض
إلى النار ، حتى يزاول الرجل شمله ، ويأتى هؤلاء القوم من أرض تدعى جايب Gype ،
تقع على مبعده أربعين ميلاً من مدينة مودون ، وكان الامبراطور التركى قد استولى

(١٩) مترجمة عن الألمانية ، ومقتبسة فى : Winstedt "The Gypsies of Modom" P. 60.

على هذه الضاحية قبل ستين عاماً ، لكن بعض من بها من لوردات وكونتات أبوا أن يدخلوا في طاعته ، ولأنوا ببلادنا والتمسوا العون من أبينا المقدس البابا ، فمنحهم خطابات توصية موجهة إلى الامبراطور الرومانى وأمراء الامبراطورية كافة ، يشدد عليهم بأن يمنحوهم عونهم وجوازات مرور ، لأنهم طردوا من بلادهم بسبب عقيدتهم المسيحية ، وقد أبرزوا هم بدورهم هذه الخطابات لكل الأمراء ، لكن لا أحد منحهم عونه ، ولم يلبثوا أن هلكوا ، بعد أن خلفوا هذه الخطابات لخدمهم وأولادهم الذين مايزالون حتى يومنا هذا يتجولون فى هذه البلاد ، ويزعمون أنهم من مصر الصغرى ، لكن هذا كله هراء ، لأن أسلافهم ولدوا فى أرض جايب التى تدعى سوجنين Suginien والتى تقع لدى منتصف الطريق بين بلدنا كولونيا ومصر ، ولذا فهؤلاء المشردون ما هم إلا أوغاد يستطلعون أحوال البلاد» (٢٠) .

وقصة خطابات التوصية هذه مبتسرة بعض الشيء ، لكنها لصيقة بالفصل التالى الذى يختص بحلول الفجر بأوريا الغربية .

وماورد عند هارف حقيق بأن نتأمله ، لأن أسماء مثل جايب ، وعلى نحو خاص مصر الصغرى ، هى أسماء ادعاها الفجر لدى حلولهم بغربى أوريا فى أوائل القرن الخامس عشر ، بزعم أنها وطنهم الأسمى ، بيد أنه يتضح لنا أن هذا الاسم ليس مصدر الأسطورة الخاصة بالأصل المصرى ، لكنه بالأحرى صدر عن هذه الأسطورة ، وقصد به المستعمرة التى أقام بها الفجر قريباً من مودون .

عندما مر السويسرى لودفيج تشودى Ludwig Tschudi بمودون فى سنة ١٥١٩ ، لم يجد بها سوى ثلاثين كوخاً فقط يقيم بها غجر ، ويمكن أن نفسر هذا التدهور الذى أصاب المجتمع الفجرى فى هذه المدينة برحيلهم المتواصل عنها ، بسبب الهجمات التركية ، وما ترتب عليها من تدن فى نشاطها التجارى وفى حركة مرور الحج ، وقد وصل هذا التدنى إلى أوجه بالاستيلاء على مودون نفسها فى سنة ١٥٠٠ .

ترتب على إقامة الفجر الطويلة فى أقاليم تتحدث باليونانية أن تطورت لغتهم إلى حد كبير ، فمن ناحية النطق تحولت m فى وسط الكلمة إلى v (مثل náman

(٢٠) مترجم عن الألمانية من كتاب :

Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff, ed . E. von Groote (Cologne, 1860), PP. 67 - 8 .

السنسكريتية وهي nām الهندية ، وتعنى اسماً ، فصارت فى الرومنية الأوربية (nav واختفى الصوت h فى بداية الكلمة ووسطها ، وغالباً ما صارت تحل محله v أو y(مثل hásta السنسكريتية وهى hath الهندية وتعنى يداً ، فصارت فى الرومنية الأوربية (vast كما دخلها الصوت f وذلك من خلال الكلمات المستعارة من اليونانية (مثل foros فى الرومنية الأوربية وتعنى مدينة) ، ومايزال رصيد الكلمات اليونانية التى حملها الفجر معهم فى رحلتهم الطويلة يشكل قسماً هاماً فى اللهجات الرومنية جميعها ، هذا فضلاً عن التعبيرات التى وجدت فى لهجات بعينها ، ويترجح أنها اصطبغت بصبغة محلية فى مرحلة لاحقة ، وبين الرصيد الباكر من اليونانية استعار الفجر كلمات جديدة لأسماء الأسبوع ويوم الأحد ويوم الجمعة وأسماء الأوزة والحمامة والغراب والعقرب والطاوس والكرز والتوت وألفاظاً أخرى لعظام ومرق ورصاص ونحاس وغرفة وكرسى ودمية ومهد ومفتاح وهراوة وملقاط ومنشار ومسمار ولوح خشب وغلاية وطبق وصابون ومدينة ومنتجع ، وتعد كل من petalo أى حدوة الحصان و paramísus أى حكاية من أهم هذه الكلمات المستعارة ، فواحدة منها تتصل بالعمل ، والأخرى تتصل بالتسلية ، والطريف أن الفجر استعاروا كلمة zeravò لتعنى عندهم اليسار وليس اليمين ، وكلمة komí لتعنى أكثر وليس أقل ، وقد اشتقت الكلمة التى تعنى عندهم ملكاً kralls من اليونانية التى استعارتها بدورها من السلافية ، كما أخذ الفجر بالترقيم اليونانى بالنسبة للأعداد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ (ولو أن الرومنية الانجليزية والرومنية البولندية تخلتا معاً عن هذا الترقيم بعد خمسة قرون ، ولجأتا الى تعبيرات غير مباشرة، مثل ٣+٤ ، ٢×٤ ، ٤+٥ ، ٣×١٠) ، وبدأ الفجر يتخذون كلمات ذات لواحق يونانية ، باستخدام mos للأسماء المجردة و os كنهاية للمذكر فى الكلمات المستعارة و men أو mé فى بناء أسماء المفاعيل المبنية للمجهول ، وأحد أسماء المفاعيل المبنية بهذه الطريقة هو marimé من فعل يونانى يعنى ينجس ، صار تعبيراً عن مفهوم أساس فى النظام الفجرى الخاص بمحرقات النجاسة ، وإذا كان هذا التعبير قد ظهر فى أقاليم تتحدث باليونانية، فقد صار شيئاً مختلفاً تماماً ، واستعاروا بالمثل الكلمة التى تدل على محكمة وهى kris (من كلمة krisis أى حكم قضائى وهى الأصل فى crisis الإنجليزية) وسوف يصير لهذه الكلمة بعد خاص عند الفجر الأفلاق ، كوصف لأسلوبهم فى تسوية نزاعاتهم ، وعقاب من ينتهك منهم قانونهم الخلقى ، وإذا كان الفجر قد أخذوا التعبير اليونانى الخاص بضفدع ، فالسبب فى ذلك أن الكلمة الهندية

التي لديهم وهي beng (ماتزال تعنى ضفدعاً فى الرومنية السورية) صارت تعنى عندهم الآن الشيطان ، وربما نشاهد هذا - كما يفترض پاسپاتى (٢١) - فى التصاوير البدائية للقديس جورج (٢٢) ، وهو يصرع التنين ، ولا بد وأن يكون الفجر قد صادفوا هذه التصاوير فى كل مكان حلوا به فى الأراضى البيزنطية .

هذه وغيرها من الكلمات الدخيلة تعنى أن نصيب اليونانية فى المفردات الرومنية ، سوف يظل ولدى طويل أكبر من نصيب غيرها من اللغات ، سوى الهندو آرية الأصلية ، ومع أنه من المفروض أن تكون هذه المرحلة هى الأخيرة فى تطور الرومنية ، إلا إنها ماكادت تغادر الأقاليم المتحدثة باليونانية حتى بدأت تبتعد عن كونها واحدة اللهجة ، ومع أنه ليس مفروضاً على المرء أن يطالع الكثير فى هذا الموضوع ، إلا أنه من الشائق ملاحظة أنه باستخدام منهج التأريخ اللغوى الإحصائى (ص ٤٥ - ٤٧ أعلاه) ، وتطبيقه على الرومانيات اليونانية والويلزية والكالديراشية ، يتضح لدينا أن الوحدة فى المفردات الأساسية للغة الرومنية الأصلية ، بدأت فى التصدع حول سنة ١٠٤٠ ، مع انشقاق لاحق حول سنة ١٢٠٠ بين هؤلاء الذين ارتحلوا إلى البلقان .

إلى جانب المفردات ، فقد صارت للفجر ألفة بالعالم المسيحى ، وذلك إبان مقامهم فى بيزنطة وبلاد اليونان ، فعلى الطرق وفى الموانئ التقوا برحالة من كل أنحاء أوروبا ، وربما تعلموا لغات إضافية ، ومن المؤكد أنهم سمعوا عن الأراضى المقدسة ، كما شاهدوا ما كان يحظى به الاحترام ، هذه المعلومات سوف تصبح لها ذات يوم فائدتها ، عندما اعتزموا مواصلة هجراتهم إلى عالم المسيحية الغربية .

صربيا وبلغاريا والأفلاق والبغدان

صار هذا التمايز واضحاً قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، حين صار وجود الفجر واضحاً فى ولايات البلقان ، وفى صربيا حيث استطاع السلاف الجنوبيون أن يقيموا أخيراً إمبراطوريتهم ، الواسعة على يدى اصطفان بوشان Stefan Dushan (٢٢) ،

(٢١) A. Paspati, Études sur les Tchinghamianés (Constantinople, 1870), P. 169.

(٢٢) وهو مارى جرجس فى المسيحية المصرية (القبطية) (المترجم) .

(٢٣) (١٢٣١-١٢٥٥) وله مكانة كبيرة فى تاريخ الصرب ، وبلغ به طموحه إلى محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ذاتها ، واتخذ لقب الإمبراطور فى سنة ١٢٤٩ (المترجم) .

فإننا نطرح جانباً كون الفجر هم الـ Cingarije الذين يرد ذكرهم بين الحرفيين في مرسوم اصطفان الصادر بمناسبة تأسيس دير القديسين ميخائيل وجبرائيل في بريزرين Prizren في سنة ١٣٤٨ ، فهي تسمية مضللة ، وتعنى في هذا السياق وببساطة حذائين^(٢٤) .

لكنه يرد في وثيقة صدرت في سنة ١٣٦٢ بجمهورية راجوزا Ragusa (دوبروفنيك Dubrovnik) المجاورة أنه بناءً على التماس تقدم به مصريان هما قُلاكوس Vlachus وقيتانوس (ad petitionem Vlachi et Vitani Egyptiorum, Vitanus) ، فقد صدر الأمر لأحد الصاغة ، بأن يرد لهما ثمانى قطع فضية ، كان هذان المصريان قد استودعاه إياها ، وفي ١٣٧٨ ، تنازل إيفان شيشمان Ivan Shishman آخر قياصرة بلغاريا لدير ريلا (Rilski Manastir) عن عدة قرى يقيم بها غجر مستقرون.

في هذه الأثناء كان العثمانيون في زحفهم يلتهمون بلاد البلقان واحدةً تلو أخرى ، واضطر إيفان شيشمان لأن يعلن في سنة ١٣٧١ تبعيته للسلطان .. حينذاك وضع الأتراك أياديهم على غالب مقدونيا ، وفي سنة ١٣٨٩ صارت صربيا بدورها ولايةً تابعة ، وفي سنة ١٣٩١ أرغمت البوسنة والأفلاق على أن تؤديا جزيةً سنويةً ، وفي سنة ١٣٩٦ تم ضم بلغاريا بأسرها .

تحتل الأفلاق والبغدان مكاناً فريداً أو بالأحرى مخزياً في تاريخ الفجر ، إذ تحولوا في هاتين الولايتين ، وعلى نحو منظم إلى أرقاء ، وكان الأفلاق المتحدثون باللاتينية والذين يعيش أخلافهم في رومانيا الحديثة ومولدوفا Moldova ، قد هاجروا في الأصل من ترانسيلفانيا Transylvania في القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى الأفلاق ثم إلى البغدان ، وقد أصبحت هاتان إمارتين مسيحيتين مستقلتين ، وكانتا معاً أورثوذكسيتين ، وإن مالت الأفلاق في أحيان إلى روما ، لكن استقلالهما الحقيقي لم يدم سوى فترة قصيرة ، ففي معظم تاريخهما كانتا تحت هيمنة قوى مجاورة ، لكن كلاهما ابتكرتا أسلوبيهما الخاص والمتماثل في التعامل مع سكانهما من الفجر ، ويتمثل هذا الأسلوب في المحافظة عليهم كقوة عمل ثمينة .

(٢٤) Cf. E. X. Miklosisch, Über die Mundarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas (Denkschriften der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - historische Klasse, Vienna) vol. 23 (1874), p. 6 .

يتضح لنا من المصادر الباكورة أن الفجر فرضت عليهم العبودية ، وأضحوا ملكاً للأمير الحاكم أو الأديرة ، وأول ذكر لهم في الوثائق الرومانية ، يرد في وثيقة أصدرها في عام ١٣٨٠ Voivode (أى الأمير) دان الأول Dan. 1 أمير الأفلاق لصالح دير العذراء مريم فى تيسمانا Tismana ، ففيها يصادق على الهبة التى سبق أن أعطاهها عمه الأمير فلاديسلاف Vladislav لدير القديس أنطونيوس فى فوديتسا Vodit-za ، والتابع لدير تيسمانا ، وتتمثل هذه الهبة فى أربعين عائلة من الفجر (atsingani) . وفى سنة ١٣٨٨ حصل ديركوتسيا cozia على هبة من خليفته الأمير ميركيا Mircea العجوز ، تتمثل فى ثلاثمائة عائلة من الفجر ، أما فى البغدان فقد سجلت بها هبة فى وثيقة تعود إلى سنة ١٤٢٨ ، تتضمن إحدى وثلاثين خيمة من الـ tsigani وثلاثة عشرة خيمة من التتار ، منحها ألكسندر الطيب لدير بيستريتا Bistrita ولدينا عدد وافر من الوثائق الرومانية المكتوبة بالسلافية، تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وجميعها تؤكد على أن استرقاق الفجر فى هاتين الإماراتين الدانوبييتين ، يعود إلى مرحلة باكورة فى أعقاب وصولهم .

اكتسب الفجر أهمية اقتصادية جعلت الحكام راغبين عن تركهم يفارقونهم ، فقد فقدت هاتان الإماراتان ماكان لهما ذات يوم من رغد عيش ناجم عن موقعيهما على طرق تجارية هامة ، ووجدت الكنائس والأديرة ثم البويار Boyars (أى ملاكو الضياع) أنهم ليسوا فى غنى عن الفجر ، فقد صار الفلاحون الفقراء يبيعون أراضيهم، ويتحولون إلى أقنان يكدحون فى الأرض ، فشغل الفجر الفجوة بين الفلاح وسيده ، وأضحت لهم أهميتهم الفائقة كحرفيين متخصصين فى حرف بعينها - حدادين وقفالين وصفاحين وما إلى ذلك - وحيث إنهم كانوا رحل ، وصار من غير الممكن الاعتماد على جاهزيتهم ، ولنعهم من الهرب ، فقد أعلنوا عبيداً للبويار والكنيسة ، وحتى يصبح هذا الإعلان عاماً ، فقد تقرر أن أى غجرى يتضح أنه بدون سيد تتول ملكيته إلى الدولة (٢٥) .

كان على الفجر التابعين للتاج أن يؤدوا جزية سنوية ، لكنهم لم يرغبوا على الارتباط بمكان واحد بعينه ، فغالباً ماكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر ، فيعيشون صيفاً فى خيام ، ويعيشون شتاءً فى أكواخ تحت مستوى سطح الأرض ، أو فى

Cf. P. Panaitescu, " The Gypsies in Wallachia and Moldavia : a Chapter of (٢٥) economic history ' , J GLS (3), 20 (1941) , PP. 58 - 72 .

مهاجع يتخذونها فى الغابات على مقربة من القرى ، أما عبيد الأديرة البوبار ، فكانوا رهن تصرف ساداتهم ، ولم تكن لديهم حقوق ، كما كان أطفالهم أشبه بالسائمة ، يباعون ويستبدلون أو يتم إهداؤهم ، وأى رومانى أو رومانية يتزوج معهم يصير عبداً مثلهم ، وعاش بعضهم فى القرى وما جاورها ، يزرعون أراضى ساداتهم ، ويزاولون العمل كحلاقين وخياطين وخبازين وبنائين وخدم منازل ، وكان يستعان بالنساء فى صيد الأسماك والأعمال المنزلية ، مثل تبييض الكتان وتفصيل الملابس والتطريز .. هذا ولم تتحقق للفجر حریتهم فى الأفلاق والبغدان حتى سنة ١٨٥٦ (٢٦) .

Cf. M. Kogalniceanu, Esquisse sur l'histoire ... des Cigains (Berlin, (1837) . (٢٦)

الفصل الرابع

الخديعة الكبرى

فى نهاية القرن الرابع عشر صارت مملكة المجر ، هى القوة الأوربية الأساسية فى مواجهة العثمانيين ، وكانت هذه المملكة تمتد إلى ماوراء الحدود الحالية للمجر ، فضمت ترانسيلفانيا ومعظم ما عرف فى القرن العشرين بيوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، وليس من الواضح تماماً متى ظهر الفجر فى هذه الأنحاء ، ففى مدينة أجرام Agram (زغرب Zagreb) ^(١) ظلت سجلات محاكمها تنوّه لمدى يصل إلى الثمانين سنة ابتداءً من سنة ١٣٨٨ إلى العديد من القصابين المشاغبين الذين يدعون Cigan أو Cygan أو Chikan أو Czyganychan ^(٢) ، وفى أنحاء أخرى منذ سبعينيات القرن الرابع عشر ، نجد المسمى المجرى الفجر Cigány فى بعض الوثائق كمسمى لعائلة أو مسمى لقرى ^(٣) ، ووصل إلينا خطاب يعود إلى سنة ١٢٦٠ موجه من أوتوكار Ottocar الثانى ^(٤) ملك بوهيميا إلى الباب أدريان الرابع ^(٥) ، بمناسبة انتصار هذا الملك على بيلا Bela الرابع ^(٦) ملك المجر ، ويتضمن الـ Cingari بين الشعوب التى انخرطت فى جيش بيلا ^(٧) .

(١) العاصمة الحالية لدولة كرواتيا (المترجم) .

(٢) L. Wiener, 'Ismaelites', JGLS (2), 4 (1910), pp. 83 - 100.

(٣) See J. Vekerdí, 'Earliest archival evidence on Gypsies in Hungary', JGLS (4), 1(1977), no. 3, pp. 170-2.

(٤) (١٢٥٢-١٢٧٨) من أقوى ملوك بوهيميا ، فتح النمسا ، وشارك الفرسان التيوتون فى غزوهم لبروسيا ، مما جعلهم يدعون المدينة التى أسسوها هناك فى سنة ١٢٥٥ بمدينة الملك Königsberg كنايةً عنه (المترجم) .

(٥) ليس صحيحاً أنه أدريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩) والصحيح أنه الإسكندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١) (المترجم)

(٦) (١٢٣٥-١٢٧٠) وفى عهده أصاب المغول معظم بلاد المجر بالتخريب (المترجم) .

(٧) Quoted by F. Predari, Originee Vicende dei Zingari (Milan, 1841), p. 63.

بداءةً فإن تواتر كلمات مثل *cigány* أو *cingari* يحفز الباحث لأن يمضى فى بحثه إلى أن يصطدم بواقع أن المسميات الجغرافية التى تبدو مفاتيح ثمينة له ، ترتبط بنطاق محدود فى شمالى غرب ترانسيلفانيا وما جاورها ، وإذا شئنا الدقة فقد كانت توجد هناك عائلة نبيلة تدعى *Zygan* لها أسلاف يعودون إلى زمن الغزو المجرى فى القرن التاسع (٨) ، أما بالنسبة لـ *cygan* وما شابهها من أسماء مرتبطة بكرواتيا ، فليست لدينا إشارات مقنعة تماماً ، فالقوم المنوه إليهم كانوا مستقرين أصحاب حرف ، ولديهم ولع بإقامة الدعاوى ، وربما كان القصد منها هو صرف الانتظار عن بعض سلوكياتهم ، أما إذا كانت لهم صلة بعائلة *Zygan* النبيلة أم لا ، فهذا ما لا يمكن قوله ، أما بالنسبة للملك أوتوكار ، فالزعم بوجود جنود من الفجر فى جيشه سرعان ما يتبدد ، إذا ما أمعنا النظر فى خطابه ، فيتكشف لنا أن *Bulgarorum* حلت محلها *Cingarorum* .

لندع ماهو غير محتمل جانباً ، ليتبين أن أول سجل واضح للوجود الفجرى فى بلاد المجر ، يعود إلى عهد متأخر نسبياً (٩) ، فقد ورد فى سجلات مدينة براسو *Brassó* (كرونشتات) *Kronstadt* سابقاً وهى براسوف *Brasov* فى رومانيا الحالية) فى جنوبى شرق ترانسيلفانيا ، أنها زودت فى سنة ١٤١٦ «السيد إماوس *Emaus* المصرى وصحبه المائة والعشرين» بالطعام والمال .

وليست لدينا معلومات أخرى عن إماوس وأتباعه ، ولا أين كانت وجهتهم ؟ فإذا كنت غربياً ، فربما كانوا طلائع لما جرى فى العام التالى من وقائع ، تعد نقطة تحول فى

See J. Vekerdi, ' La parola "Zingaro" nei nomi medievali', Lacio Drom (1985), (٨) no. 3., p.31.

(٩) هناك مقالان مايزالان أساسيين بالنسبة لتاريخ الفجر الباكر فى أوربا ولو أنهما تعرضا للتعديل والتفصيل فيما بعدهما :

P. Bataillard, ' Beginning of the immigration of the Gypsies into Western Europe in the fifteenth century', JGLS (1), (1888-9), pp. 185-212, 260-86, 324-45; 2 (1890), pp. 27-53; and. Eo. Winstedt, Some records fo the Gypsies in Germany, 1407 - 1792', JGLS (3), 11 (1932) pp.97-111; 12(1933), pp. 123-41, 189-96; 13(1934), pp.98 - 116.

R. Gelsenbach, 'Quellen zur Geschichte der في بعض المفاهيم الخاطئة فى Roma and ihrer Interpretation, dargestellt an Bespielen aus dem 15. Jahrhundert', Giessener hefte für Tsiganologie (1985), 1, 85, pp. 8-16; 2+3/85 pp.3-11

التاريخ العجري ، ومرحلة جديدة بدأت بسلسلة من الموجات المتلاحقة ، وصلت بهم إلى أواسط أوروبا وغربيها ، وبدا العجر خلالها كجماعة منظمة من الحاج ، يلتمسون العون ويحصلون عليه . وعندما جرى هذا ابتداءً من عام ١٤١٧ ، فإن ما صاحبها من صخب ، يدفع إلى القول بأن العجر أتوا كظاهرة جديدة في أوروبا إلى الغرب من البلقان .

على أنه من المستبعد أن يكون التدفق العجري مفاجئاً وكثيفاً ، ولدينا مثال على ذلك فيرد في سجلات مدينة هيلدزهايم Hildesheim بسكسونيا السفلى أنه أعطيت منحة في عام ١٤٠٧ إلى «التتار في مكتب أمين سجل المدينة بعد أن فحصت خطاباتهم » ، ويلاحظ أن تعبير تتار تعبير ألماني شمالي ، صار يستخدم في الإشارة إلى العجر في عصور تالية ، وربما استخدم هنا في المعنى نفسه ، وبالمثل فإن سجلات مدينة بازل بسويسرا تشير إلى أنها منحت الصدقة في سنة ١٤١٤ لشخص من الهايدن Heiden «كما يوصينا الرب» وهايدن تعبير يعنى همجاً أو وثنيين ، وهي كلمة استخدمت كثيراً فيما بعد لدى الإشارة إلى العجر في الأقطار المتحدةة بالألمانية والهولندية ، وغالباً ما كانت لها دلالتها العامة شأنها شأن Zigeuner ، وهناك مدونات أخرى ، وإن كان لايعول عليها كثيراً تشير إلى وجود العجر في هسه Hesse في سنة ١٤١٤ ومايسين Meissen وبوهيميا في سنة ١٤١٦ .

وليس هن الدليل حجة بالضرورة ضد تسرب بعض العجر إلى الغرب ، وربما يمكن القول باختصار ، أنه طالما كانت أعداد هؤلاء قليلة في المراحل السابقة لسنة ١٤١٧ ، كما لم يكن لهم حضور واضح ، فإنهم لم يحظوا باهتمام كاف من الجهات الرسمية ، ومع ذلك فلا شيء في هذه المراحل مبنياً على نتف من المعلومات ، يجعلنا ننتهي لما جرى في سنة ١٤١٧ والسنوات التالية ، وتعنى O xonxanó baró في الرومنية الإسبانية «الخدعة الكبرى» ويشير هذا التعبير إلى أسلوب معين يتبعه العجر لتجريد أحد المغفلين من أمواله ، وأكبر حيلة لهم طيلة تاريخهم هي تلك التي قاموا بها لدى حلولهم بأوروبا الغربية في أوائل القرن الخامس عشر .

فجأةً نشاهد العجر يسلكون مسلكاً لم يسبق له مثيل ، ولم تعد المسافة بعيدةً بينهم وبين غيرهم من الناس ، بل إنهم غالباً ماكانوا يحظون بعناية الحكام ، كما لم يعودوا جماعات متناثرة ، إنما صاروا يتحركون في اتجاه محدد ، يقودهم زعماء لهم

ألقاب نوات رنين ، وفى البداية لم يكن ثمة من يطاردهم أو يضايقهم ، بل هم عوملوا بقدر من الاحترام ، وبدا الأمر كما لو إنهم أدركوا الفوائد التى أتاحتها المناخ الدينى السائد فى ذلك الزمان ، فابتكروا استراتيجيات للإفادة منه ، عززت لديهم الفرص فى البقاء .

يصعب علينا اليوم أن نفهم موقف أهل العصور الوسطى تجاه التائبين ، لأننا نفتقد إحساسهم الفائق بالخطيئة واليقين فى العقوبة ، وخارج الكنيسة - أى خارج جماعة المؤمنين - لا يوجد سوى الوثنية والشيطان وجهنم التى تتخذ هيئة مادية ، وتتربص هؤلاء الذين يشردون عن رحمة الله ، وبالنسبة للفجر فما يهمنى هو أنه حتى بعد أن خفت ما لفكرة الحج من بريق ، فإن واجب إكرام الحاج ومساعدتهم فى رحلتهم كان ما يزال قائماً ، وعلى هذا كان فى إمكان الأتقياء أن يشاركوهم فى الثواب وما يفوزون به من غفران ، كما كان فى إمكان الحكام كذلك أن يشجعوا الحاج بأن يمنحوهم خطابات توصية ، وقد جعل شارلمان Charlemagne (١٠) نفسه من الواجب أن يتهيا للحاج أينما ارتحلوا المسكن والمرقد والدفع ، وبإدعائهم أنهم تائبون وحجاج ، أمكن للفجر أن يحظوا بحفاوة لم يصادفوا مثلاً من قبل ، وربما سعى البعض للتحقق من خطابات الحماية التى لديهم (مثلما شاهدنا فى هيلدزهايم انظر ص ٨٣) . والآن فيبدو أن بعضهم طمح لأن يحصل على خطابات مثل هذه من مستويات أعلى ، وليس لدينا - إذناك - اسم أكبر من الإمبراطور زيغيزموند Sigismund .

أضحى زيغيزموند (١٣٦٨-١٤٣٧) ملكاً للمجر فى سنة ١٣٨٧ ، ولم يلبث أن قلده المجمع الانتخابى تاج ألمانيا ، فصار بمثابة إمبراطور للدولة الرومانية المقدسة (١١) (ولو أنه لم يتوج رسمياً على يدى البابا إلا فى سنة ١٤٣٣) ، ولم يلبث هذا الحاكم الداهية أن انغمس فى شئون بوهيميا والإمبراطورية ، ولم يعد يعير مملكته المجرية ولا الزحف التركى المتواصل ، ما يستحقانه من اهتمام ، وزار بين سنتى ١٤١٤ و ١٤١٨ عدداً من الأقطار داخل الامبراطورية وخارجها ، كما زار مدينة كونستانس Constance ، وكانت هذه المدينة ولعدة سنوات محطةً لأنظار العالم المسيحى ،

(١٠) أكبر ملوك أوروبا فى العصور الوسطى (٧٦٨ - ٨١٤) توج إمبراطوراً رومانياً فى عام ٨٠٠ (المترجم).

(١١) المقصود بها النولة التى ترمز إلى وحدة المسيحية الغربية وقد وضع أساسها شارلمان ، ودامت حتى أزالها نابليون فى سنة ١٨٠٦ ، وكانت تنهض بها فى الأساس عناصر ألمانية (المترجم) .

بسبب المجمع المسكوني الذي عقده زيجيزموند هناك كمحاولة منه للهيمنة، باعتباره باعناً إلى وحدة الكنيسة بإنهائه الانقسام البابوي^(١٢)، ولدى انعقاد هذا المجمع في سنة ١٤١٤ استقر بهذه المدينة عدد كبير من الأمراء ومقدمي الأديرة والأساقفة، بل إن زيجيزموند نفسه أقام هناك معظم سنتي ١٤١٧-١٤١٨، وقد وفق هذا المجمع في إعادة الوحدة إلى الكنيسة، لكنه أخفق في الحد من انتشار الهرطقات البوهيمية رغمًا عن إدانة جون هوس John Hus بعد أن نكث زيجزمووند بعهد الأمان الذي منحه إياه^(١٣).



شكل ٦ قارئ طالع فجرى في كتاب «عجائب الكون» لسباستيان مينستر ١٥٥٠.

(١٢) ضعفت حال البابوية خلال القرن الرابع عشر، وتدخل الملوك في شئونها، مما ترتب عليه أن صار لدينا ثلاث بابوات في وقت واحد في روما وأفينيون وبيزا وهو ما يطلق عليه الانقسام الكبير، إلى أن عادت الوحدة إلى البابوية في مجمع كونستانس (المترجم).

(١٣) ظهرت في إنجلترا في أواخر القرن الرابع عشر حركة إصلاحية قام به جون ويكليف Jon Wy-cliff (١٣٢٨-١٣٨٣) استهدفت إصلاح الكنيسة وتخليها عن ممتلكاتها الواسعة، وأن يعتمد المسيحي في إيمانه على الكتاب المقدس، وليس على رجال الكنيسة، ورغمًا من البطش بهذه الحركة بعد موت صاحبها، إلا أنها وجدت أنصاراً لها في بوهيميا، أهمهم جون هوس (١٣٧٠-١٤١٥) الذي صدر ضده قرار بالحرمان، وانتهى الأمر إلى استدعائه إلى مجمع كونستانس وإدانته وإعدامه حرقاً لكن الهوسية لم تمت بموته، إذ استمرت رغمًا عن الحرب الصليبية التي شنها زيجيزموند ضد الهوسيين، بل إن بعض خلفائه دانوا بالهوسية، وظلت الحال كذلك حتى ظهور مارتن لوتر في مطلع القرن السادس عشر (المترجم).

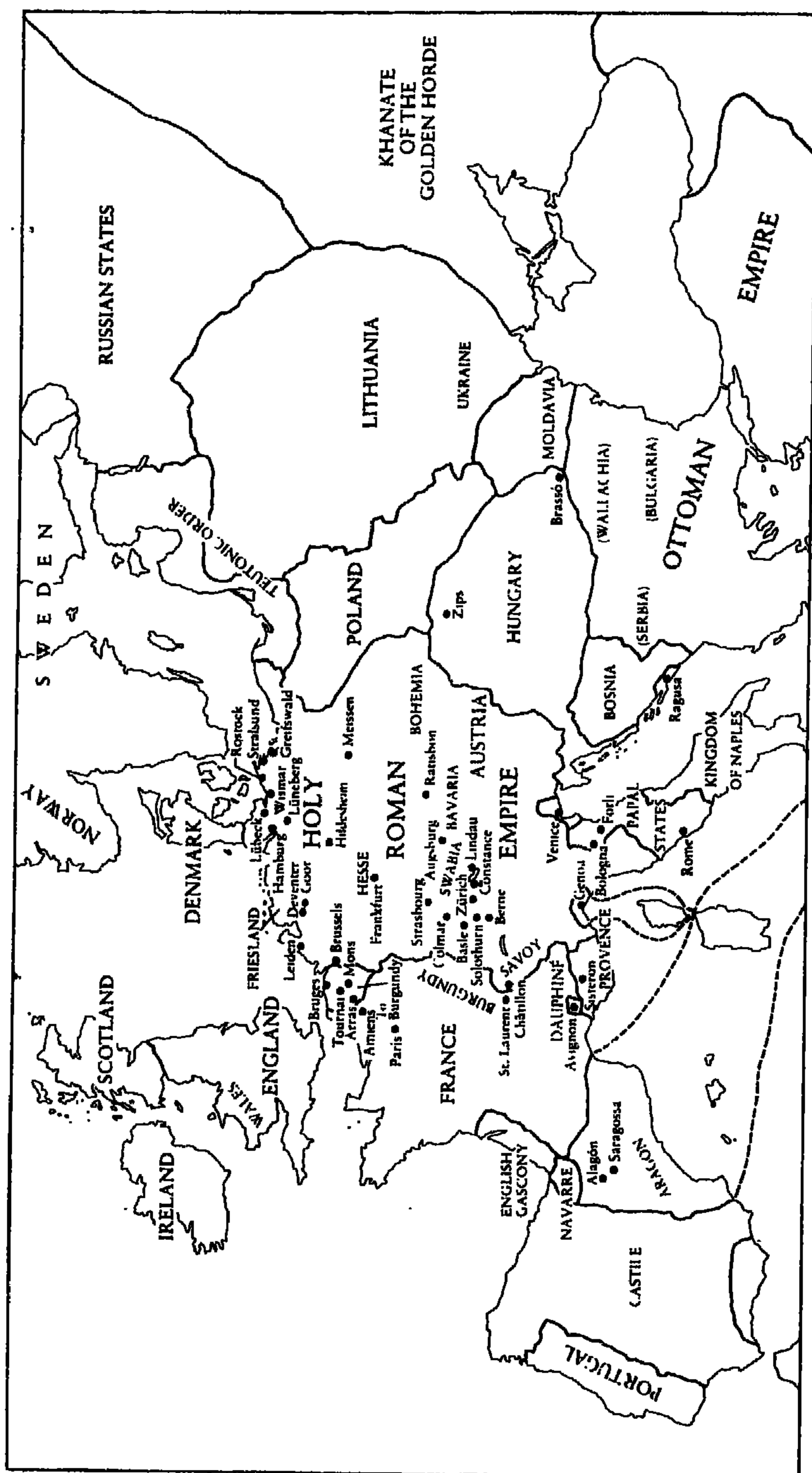
عهود الأمان الإمبراطورية

استدار بعض الفجر نحو كونستانس ويبدو أن ذلك حدث عند لنداو Lindau على بحيرة كونستانس ، حيث حصلوا على الخطابات التي يحتاجونها من زيغيزموند (ربما أراد أن يراهم ليعرف أخباراً عن مملكته المجرية) ، أو حصلوا عليها من أحد موظفيه الرسميين ، ولايبدو أن تم ذلك بطرق ملتوية . واصدار عهود الأمان كان ظاهرة واسعة الانتشار في العصور الوسطى ، وهى السلف البعيد لجوازات السفر التى نعرفها اليوم ، ووثائق مثل هذه كانت تصدر لفرد معين (وأتباعه) ، ولكن الفجر وجدوا من الحكمة أن تكون لديهم نسخ متعددة منها ، وعلى أية حال فيروى سباستيان مينستر Sebastian Münster بعد سنوات طويلة فى كتابه «عجائب الكون» *Cosmographia universalis* (١٥٥٠) أن بعض الفجر أبرزوا له قرب هيدلبرج Heidelberg نسخة من خطاب كانوا قد حصلوا عليه من الامبراطور زيغيزموند فى لنداو ، يسمح لهم بمقتضاه بالمرور الحر ، وتوضح الوثيقة التى شاهدها مينستر أن السبب فى ترحالهم ، ورغماً عن متغيرات وقعت فيما بعد ، هو السبب نفسه الذى صار لصيقاً بهم لسنوات أخرى تالية ، وتوجد أوجه شبه بين هذه الوثيقة وبين ماورد عند أرنولد فون هارف .

يقول مينستر : « يحكى أن أسلافهم فى مصر الصغرى (in minori Aegypto) تخلوا لعدة سنوات عن المسيحية ، وتحولوا إلى الوثنية ، وبعد توبتهم فرضت عليهم عقوبة هى أن ينتقلوا لسنوات طويلة حول العالم تكفيراً عن خطيئتهم» (١٤) .

يستخرج مينستر مما قالوه أن وطنهم الأصلي ، يقع بعيداً وراء الأراضى المقدسة وبابل ، وكان عليهم من أجل أن يصلوا إلى هناك أن يعبروا بلاداً يسكنها الأقزام . وعندما رد عليهم : «إذن قمصر الصغرى ليست فى إفريقيا على مقربة من النيل ، إنما هى فى آسيا على نهر الجانج أو نهر السند» فإنهم أضافوا المزيد من الطرائف

(١٤) يوجد النص اللاتينى لمينستر فى D. M.M. Bartlett, ' Münster's Cosmographia universalis JGLS (3) (1952) pp.83-90. وأفضل نص ألماني نجده فى R.Gronemeyer, Zigeuner im Spiegel Früher Chronikon und Abhandlungen (Giessen 1987) ويرد فيه بإسهاب إشارات عديدة إلى الفجر فى المدونات التاريخية إلى آخره (ولكن ليس فى السجلات البلدية) .



خريطة ٢ أوروبا حوالي ١٤١٧ موضحة بها الأماكن التي زارها غجر ١٤٠٧ - ١٤٢٧

ويسجل مينستر كذلك أن لديهم لغة خاصة بهم ، اعتبرها رطانة كرطانة اللصوص
الألمان Rotwelsch (١٥)

وقنوه سجلات بلدية هيلدزهايم في سنة ١٤١٧ إلى زيارة «اللتتار» وقعت قبل عشر
سنوات ، وتعلن بوضوح عن منح الصدقة «اللتتار المصريين لوجه الله» لكنها ارتأت في
الوقت نفسه أنه من الأفضل مراقبتهم ، وربما كان هؤلاء الغجر أعضاء في الجماعة
التي تتحدث عنها أقدم وثيقة معاصرة ، بعد أن زودوا أنفسهم بالوثائق الإمبراطورية ..
هذه الوثيقة هي المدونة التاريخية الجديدة Chronica nouella لهرمان كورنيروس
Hermann Cornerus التي تم استكمالها في ١٤٣٥ ، فيكتب كورنيروس وهو من
مواطني ليبيك Lübeck بشأن عبورهم الأقاليم الشمالية من ألمانيا ، وهي هولشتاين
Holstein ومكلنبورج Mecklenburg وپوميرانيا Pomerania فيقول :

«قوم غرباء جوالون ، لم يشاهدوا من قبل ، أتوا من الشرق إلى ألمانيا Aleman-
nia (شفابيا Swabia) ، يتنقلون عبر البلاد ، حتى قاصيتها شمالاً ، كما نجدهم في
المدن الكائنة لدى الساحل الممتد من لينبرج Lüneberg إلى پروسيا مروراً بها مبورج
وليبك وفيزمار Wismar وروزتوك Rostock وشتراالزوند Stralsund وجريفزفالد Grief-
swald ، وكانوا يرتحلون في جماعات صغيرة ، ويعسكرون ليلاً في الحقول خارج المدن ،
خشيةً من أن يقبض عليهم داخلها لتعاطيهم السرقة ، وتقدر أعدادهم بحوالى ثلاثمائة
من الرجال والنساء سوى الصبية والأطفال كما كانوا غاية في الدمامة سوداً كاللتتار ،
وإن كانوا يدعون أنفسهم سيكاني Secani ، وكان لديهم كذلك زعماء يحمل بعضهم
لقب دوق (ducem) وكونت (comitem) يقضون بينهم ويمتثلون هم بدورهم لأوامرهم .
ومع ذلك كانوا - خصوصاً نساءهم - لصوصاً بارعين ، وقد ألقى القبض على العديد
منهم في أماكن مختلفة وأعدموا ، وكانوا يحملون خطابات توصية من بعض الحكام
لاسيما زيغيزموند ملك الرومان ، ويمقتضاها توجب على الكافة من نول وأمراء
وحصون ومدن وأساقفة وقساوسة أن يعترفوا بهم لدى تحولهم إليهم ، وأن يعاملوهم

(١٥) تقع النظريات الباكرة المتعددة عن أصول الغجر خارج نطاق هذا الكتاب وقد نهض على هذه
المهمة بجدارة فيما يختص بالفترة ١٤٦١ - ١٤٨١ ل. پياسير L. Piasere في كتابه :
De origine Cinganorum; Études et documents balkaniques et méditerranéens,
14 (1989), pp. 105-26 .

معاملةً طيبةً ، وكان بعضهم يمتطون صهوات جيادهم ، بينما البعض الآخر يسيرون على أقدامهم ، ويقال إن السبب في ترحالهم إلى بلاد أجنبية وتجوالهم ، هو أنهم تحولوا عن المسيحية إلى الوثنية ، وقد عاقبهم أساقفتهم بأن حكموا عليهم بالتنقل في أقطار أجنبية لدى سبع سنوات» (١٦) .

يزودنا هذا النص الهام بقدر طيب من المعلومات عن تنظيمات الفجر ، وكيف كان استقبالهم ، فيبدو إنه كان مألوفاً لديهم أن ينقسموا إلى جماعات أصغر ، لكنها جميعاً تخضع للزعيم نفسه ، وكانت هذه الجماعات تتتابع الواحدة تلو الأخرى في توافق وانسجام ، ويبرز أفرادها خطابات الحماية . بيد أنه كان ينظر إليهم بعين الشك ، لسبب واحد هو أن الألمان رأوهم غايةً في القبح ، بسبب لون بشرتهم ، فضلاً عن شهرتهم بخفة اليد ، وفي مدونة أخرى لليك يروي روفوس Rufus القصة نفسها ، فيما عدا إنه يصف الفجر بأنهم تتار (مسمى ظهر في شمالي ألمانيا وإسكندنافيا) ويقدر عددهم بأربعمائة .

صادف تدافع الفجر إلى مدن البلطيق نجاحات متفاوتة ، فلم تعد خطابات الحماية كافيةً لتفادي العقوبات العنيفة التي أنزلت بهم ، لتورطهم في سرقة من السرقات ، سواء صدرت هذه العقوبات من قبل السلطات الحاكمة ، أو من قبل أهل المدن الذين لم يكن فهمهم للعدالة واضحاً . والحقيقة إن الفجر لم يجدوا في معظم المدن الهانزية (١٧) ما يشجعهم على البقاء مدةً أطول ، لذلك فإن ما وصلنا عنهم في العام التالي ١٤١٨ يقع إلى مسافة أبعد جنوباً ، ففي يونيو منحت مدينة فرانكفورت أم ماين Frankfurt am Main «هؤلاء القوم المعوزين من مصر الصغرى» أربعة جنيهاً وأربعة شلنات كي يبتاعوا طعاماً ولحماً ، وتلك هي أقدم إشارة إلى مصر الصغرى كوطن أصلى لهم ، وهناك روايات أخرى لوجود الفجر حول ذلك الوقت في الأكراس ،

(١٦) مترجم عن النص اللاتيني لهرمان كورنيروس Chronica novella usque annum 1435, in J. G. Eccard, Corpus historicum medii aevi (Leipzig, 1723), vol. 2, col. 1225.

(١٧) وهي مجموعة المدن الألمانية الشمالية التي انصرفت عن الفوضى التي ضربت أطنابها في ألمانيا إلى شئونها الخاصة ، وأسست في منتصف القرن الرابع عشر عصبةً تستند إلى النشاط التجاري الذي يجمعها ، لذا دُعيت بالعصبة الهانزية ، ولم يلبث أن اتسع نشاطها ليمتد إلى أقطار أوروبية أخرى ، كما صارت بأساطيلها قوةً يعمل حسابها ، وظلت على هذه الحال ، إلى أن انتهى أمرها في غضون القرن الخامس عشر (المترجم) .

وإذا كان ثم شك فيما يختص بشتراسبورج Strassburg، لكن الأمر يصير أدق ويمكن التعويل عليه فيما يختص بكولمار Colmar، فحسب ماورد في أقدم مدونة تاريخية للمدينة، يتضح أنه زارها في ١٠ أغسطس ثلاثون من الهائدين مع نسائهم وأطفالهم، وعندما غادروها حل محلهم مائة آخرون، وقد عاودت المدونة التأكيد على بشرتهم القاتمة، وأضافت ملاحظات أخرى عن الحلقان الفضية في آذانهم، وقراءة نسائهم للكف، وارتدائهن خرقاً باليةً أشبه بالحرامات، وتتسارع هذه الإشارات ويزداد عددها في سويسرا، رغماً عما درج عليه كتاب المدونات التاريخية السويسريون من نقل بعضهم عن بعض، وجميع هؤلاء عدا واحداً عاشوا في مرحلة متأخرة، تجعلهم أبعد من أن يكونوا شهود عيان، وقد تردد الفجر بزياراتهم على زيوريخ وبازل وزولوتورن Solothurn وفرن، ويصفهم هؤلاء الكتاب بأنهم غرباء داكنو البشرة، لديهم دوقات وكونتات، ويقولون إنهم أتوا من مصر الصغرى (ويضيف أحدهم ينتمي إلى زيوريخ أن بعضهم قالوا إنهم من إجريتس Igritz، وهو مايدعو إلى الدهشة، حيث إن إجريتس مدينة صغيرة تقع إلى شمالي المجر على مقربة من ميشكولتس Mis-kolc). وهم يزعمون أن الأتراك طردوهم، وفرضت عليهم عقوبة بأن يظلوا فقراءً لمدة سبعة أعوام، وكانوا يتبعون الطقوس المسيحية، فيما يختص بالعماد والدفن، كما كانت ملابسهم بائسة، لكنهم كانوا يمتلكون مقادير كبيرة من الذهب، ويأكلون جيداً ويشربون جيداً، وينفقون نقودهم كذلك جيداً، وتواجهنا ملاحظة لكونراد يوزتنجر Conrad Justinger، وهو كاتب حولية كان معاصراً لهذه الأحداث، فيقول إنه في سنة ١٤١٩ (ربما كان الصحيح ١٤١٨) وصل أكثر من مائة معمد من الهائدين إلى سويسرا، ونصبوا خيامهم في الحقول، أمام مدينة برن، إلى أن أمرت السلطات بإبعادهم، بسبب خفة أيديهم التي أضجرت الأهليين منهم.

يبدو أن الفجر فارقوا سويسرا في سبتمبر ١٤١٨، وجماعات مثل هذه كان في الإمكان مشاهدتها في غربي أوربا، خلال السنوات التالية، لم تكن ذات أعداد كبيرة، وربما كانت في مجملها نواةً واحدةً، يقودها عدد قليل من الزعماء، وتظل هذه النواة في أحيان واحدةً، وأحياناً تتوزعها شرائم أصغر وهكذا، وحسبما ورد في حولية ميليش Mülisch أن جماعة من الفجر أتت في نوفمبر ١٤١٨ إلى أوجسبورج Augsburg، وكانت تضم «اثنين من الدوقات صحبة خمسين رجلاً وعدد كبير من النساء وقالوا إنهم أتوا من مصر».

عندما تتاح لنا معلومات أوفر ، فإننا نقف على الغجر في فرنسا ، حيث ظهرت جماعة من «السراسنة»^(١٨) Saracens في ٢٢ أغسطس ١٤١٩ لدى مدينة شاتيون - إن - دومب Châillon - en - Dombes (وهي Châtillon - sur - Chalaronne الحالية) ، وكانت آنذاك تابعة لساقوى Savoy . وأبرز هؤلاء الغجر خطابات من دوق ساقوى وخطابات أخرى من الامبراطور ، ويظهر أن الخطابات الأولى صحيحة^(١٩) ، وقد تم الترحيب بهم ، واعطاؤهم نبیذاً وشوفاناً وثلاثة فلورينات ، وبعد يومين وصل «أندرو Andrew دوق مصر الصغرى» ومعه مائة وعشرون أو أكثر من أتباعه إلى سان لوران St. Laurent قرب ماسون Mâcon على مبعدة ستة فراسخ^(٢٠) فقط من شاتيون ، وقد زودتهم المدينة بالخبز والنبیذ ، وفي عبارة غريبة تصفهم الوثائق بأنهم «قوم لهم مظهر مخيف في هيئتهم وشعورهم وما إليه» ، وقد عسكروا في الحقول ، ومارس الرجال والنساء جميعاً قراءة الكف والسحر ، وعندما تستطرد الوثائق ، فتتحدث عن خدعهم وأكاذيبهم ، فإنها تصف الدوق بأنه «أندرو الذى يدعو نفسه بدوق مصر الصغرى» . وبعد خمسة أسابيع (في الأول من أكتوبر ١٤١٩) نشاهد الغجر لدى سسيترين Siste-ron في پروقانس Provence بالاسم نفسه «سراسنة» ، وقد رفض السماح لهم بالدخول ، فعسكروا يومين في حقل «كالجنود (لاشك في أنهم عسكروا في خيام) وبعث بالطعام إليهم وإلى جيادهم» .

تمر ثلاثة شهور ونعاود اللقاء بدوق يدعى أندرو وصحبه من الغجر ، لكن هذه المرة في البلاد الواطئة ، ويترجح أن يكونوا هم أنفسهم الذين لاقيناهم في فرنسا في العام السابق ، وإن كنا على غير يقين من ذلك ، ويبدو أنه لم يصعب على الغجر أن يؤمنوا أنفسهم بعهود أمان . وبخصوص أندرو وهو الاسم الذى يتردد في الوثيقتين على أنه زعيم هؤلاء الغجر ، فلا يبعد أن كان هناك اثنان حملاً معاً هذا الاسم ، وعلى أية حال فيرد في سجلات مدينة بروكسل في يناير ١٤٢٠ أن الجماعة التى كان يقودها «دوق من مصر الصغرى يدعى أندريس Andries» حصلت من الأهلين على كمية من

(١٨) تعبير قديم أصله يونانى ، شاع في أوربا في العصور الوسطى ، وكان يقصد به العرب وأحياناً المسلمون (المترجم) .

(١٩) Cf. M. Pastore, 'Zingari nello Stato Sabauda', Lacio Drom (1989), nos 3-4, pp. 6 - 19, esp. p. 7.

(٢٠) الفرسخ ثلاثة أميال (المترجم) .

الجعة والنبيذ والخبز وبقرة وأربعة خراف وخمس وعشرين قطعة ذهبية ، كما يرد في سجلات مدينة ديفنتر Deventer ذكر هبة ، منحها شيوخ المدينة في مارس ١٤٢٠ ، «للورد أندرياس Andreas دوق مصر الصغير» - Hoefschied Heren Andreas Her- toch von Cleyn- Egypten الذي طرد من وطنه بسبب عقيدته المسيحية ، فأتى إلى مدينتنا صحبة مائة من الرجال والنساء والأطفال ، ومعهم أربعون فرساً ، ولديهم خطابات من ملك الرومان ، تتضمن دعوته لأن يمنحوا الصدقة ، وأن يعاملوا بإحسان في كل الأقطار التي قد يتوجهون إليها » وقد حصل هؤلاء بالفعل على خمسة وعشرين فلورينا نقداً ، فضلاً عن الخبز والجعة والرنجة والتبن ، وتكبدت المدينة كذلك نفقات تنظيف الأهراء التي ناموا فيها ، وكذا نفقات رحيلهم شرقاً إلى جور Goor .

هناك افتراضات بتواجد الفجر في السنة نفسها بفريزلاند Friesland ، على مقربة من لايدن Leiden ، لكن هذه الافتراضات لا يوثق بها ، ولدينا أخبار عن دوق وكونت يقودان جماعة من «المصريين» لدى بروجز Bruges في الفلاندرز Flanders في سبتمبر ١٤٢١ ، ولم يصل إلينا اسماهما ، لكننا أسعد حظاً فيما يتعلق بهينو Hai- nault وأرتوا Artois المجاورتين ، وفي ٣٠ سبتمبر ١٤٢١ تداول أعضاء المجلس البلدى بتورناى Tournai فيما يجب عمله مع «المصريين» الذين حلوا ببلدهم ، وكانت المحصلة السخية هي «إهداء السيد ميكيل Miquil أمير لاتنجم Latinghem في مصر» اثنتى عشرة قطعة ذهبية وخبزاً ويرميلاً من الجعة « برأ به ورفاقه الذين طردهم السراسنة من ديارهم ، لأنهم تحولوا إلى العقيدة المسيحية» ، وهذه هي أول مرة نسمع فيها عن «السيد ميكيل أمير لاتنجم» وهو اسم مكان يذكرنا بالفلاندرز أكثر مما يذكرنا بمصر . لكن دوقاً يدعى ميخائيل - وهم اسم يشك في أنه مماثل - يظهر بعد وقت قصير قريباً من مون Mons التي استقبلت بالفعل زيارتين في أكتوبر، الأولى تضم ثمانين يقودهم دوق أندرو ، والثانية تضم ستين ، يقودهم دوق ميخائيل الذي يقال إنه أخوه ، وقد عاد المصريون إلى تورناى في العام التالى ، واتخذوا مهاجعهم في ساحة السوق . ويقول كاتب المدونة «إن هؤلاء المصريين لديهم ملك ولوردات يدينون لهم بالطاعة ، كما يتمتعون بامتيازات ، فلا أجد يستطيع عقابهم سواهم» ، ولا يحدد الكاتب أسماءً ، لكنه يعطينا تفاصيل عن سرقات وقراءة طالع تقوم بها النساء (يصحبهن صبية يقومون بالنشل) ، ورجال لديهم مهارة في العناية بالخيول .

وتعطينا السجلات البلدية لرأس Arras البرجندية تفاصيل رائعة عن ثلاثين «من الأجانب المصريين» ، وصلوا في ١١ أكتوبر ١٤٢١ ، يقودهم كونت يحمل خطابات من الإمبراطور ، وأقاموا ثلاثة أيام ينامون ليلاً في الحقول ، دون أن يبدلوا ثيابهم ، وكان الرجال شديدي القتامة ، شعورهم طويلة وذقونهم طويلة ، بينما كانت النساء يلففن حول رعوسهن ثياباً أشبه بالعمامة ، ويرتدين قمصاناً طويلة ، تغطيها ملاءات خشنة مربوطة إلى أكتافهن ، والنساء والأطفال حلقان في أذانهم ، وهذا كله يختلف عما كان شائعاً في أزياء الأوربيين المعاصرين ، وقد منحهم أهل المدينة وهم مشدوهين كميات من الجعة والفحم .

خطابات حماية جديدة

منذ مقدمهم في سنة ١٤١٧ ، ظل الفجر يرددون أن حجتهم سوف تستغرق سبع سنوات ، وحالما انقضت خمس سنوات ، بدأت خطاباتهم تتقادم وتفقد فعاليتها ، وتقرب من وقت نهايتها ، وأضحوا بلا مندوحة من السعى في تمديدتها ، الأهم أن إرادة زيجيزموند لم تكن لتسرى خارج حدود إمبراطوريته الرومانية المقدسة ، وقد شاهدنا الفجر بالفعل (كما في حالة شاتيون) يتخذون احتياطاتهم ، فيبرزون خطابات من حكام آخرين ، على أن الحماية الوحيدة الأعم ، سوف تكون قمينةً بالبابا نفسه . وأول ذكر لرسائل بابوية في أيدي الفجر يعود إلى ١٨ يوليو ١٤٢٢ ، فيرد في مدونة سويسرية أنه في هذا اليوم أبرز دوق ميخائيل المصري وأصحابه لسكان مدينة بال «عهود أمان صادرة من البابا ومولانا الملك وغيره من الحكام» ، وكان ذلك نذير شئوم «فلم يأت لهم بخير ، ولم يرحب بهم» كما تقول المدونة ، وإذا كان التاريخ دقيقاً فإنه دوق ميخائيل أرسل إلى القاتيكان طالعةً على رأسها زعيم غجري آخر يدعى دوق أندريا ، فيذكر أنه وصل إلى بولونيا Bologna صحبة مائة منهم في ١٨ يوليو ١٤٢٢ ، حيث أمضوا أسبوعين ، وحسبما ورد في مدونة بولونية كانت القصة كما حكاها دوق أندريا ، هي إنه حين ارتد عن الديانة المسيحية صادر ملك المجر أرضه ، وعندما رغب في أن يعود إلى المسيحية فقد عمّد ونحو أربعة آلاف رجل ، أمرهم الملك بأن يرتحلوا حول العالم لسبع سنوات ، وأن يتوجهوا إلى البابا في روما ، وحينئذ فقط يصير في إمكانهم أن يثوبوا إلى ديارهم ، وقد ذهب الفجر في زعمهم إلى أنهم لدى حلولهم

ببولونيا ، كانوا قد أمضوا خمس سنوات فى رحلاتهم ، هلك خلالها مايربو على الشطر من عددهم الأصلي ، وتوسلوا بمرسوم جديد سمح لهم بمقتضاها ملك المجر ، بأن يزاولوا السرقة خلال هذه السنوات فى أى مكان يمضون إليه ، دون أن تطالهم يد العدالة ، وقد أوى دوق أندريا إلى نُزل الملك (nell' albergo del re) بينما أوى أتباعه إلى جوار إحدى بوابات المدينة .

«توجه إليهم جمع غفير من الناس ، بعد ماسمعوا من أن فى إمكان زوج الدوق أن تقرأ طوالعهم ، وتتكهن بما سوف يقع فى حياة امرئ ما ، فضلاً عما هو واقع الآن بالفعل ، وكم عدد أطفاله ، وما إذا كانت زوجه طيبة أم غير طيبة ، وأشياء أخرى كثيراً ما كانت صحيحة ، وبين هؤلاء الذين أرادوا أن يعرفوا طوالعهم ، قليل فقط هم الذين لم يختلس ما فى جيوبهم من نقود ، كما أن من النساء من مزقت ثيابهن ، وصارت النسوة الغجريات يجسن فى طرقات المدينة ، ست أو ثمانية معاً ، يدلفن إلى بيوت أهليها ، يحكين حكايات تافهة ، بينما تقوم بعضهن باختلاس أى شيء فى إمكانهن اختلاسه ، واتبعن النهج نفسه لدى اختلافهن إلى بعض الحوانيت، بزعم شراء بعض الأشياء ، فريما أقدمت إحداهن على السرقة ، وهكذا فقد وقفت سرقات كثيرة بهذه الطريقة فى بولونيا مما يتضح معه ، أن هؤلاء القوم هم أكثر لصوص العالم براعة ، وعليه فقد نودى فى المدينة بحظر الذهاب إليهم ، وإلا فغرامة قدرها خمسون جنيهاً ، فضلاً عن النفى ، بل إنه سمح لهؤلاء الذين سرقوا ، بأن يسرقوا سراقتهم ، بما يعدل قيمة ما سرق منهم . وبذا فقد تسلل كثير من الرجال ليلاً إلى الحظيرة ، حيث توجد خيولهم ، وانتخبوا منها أحسناً ، وحتى يسترد هؤلاء الغرباء خيلهم ، وافقوا على إعادة قدر كبير مما سرقوه ، ولما تبين لهم أنه لم يعد يوجد ما يمكن سرقة ، سارعوا بالتوجه إلى روما . ويلاحظ أنهم كانوا أقبح صنف من البشر يشاهد فى هذه الأنحاء ، فقد كانوا نحلاء وسوداً ياكلون كالخنازير ، وكانت نساؤهم يتناوين التجوال مرتديات دثارات سميقة ، تلتف حول أكتفاهن ، ولديهن خواتم طويلة فى آذانهن ، وخمارات طويلة على رعوسهن ، وقد وضعت إحداهن طفلاً فى ساحة السوق ، ويعد ثلاثة أيام رحلت مع غيرها من النساء» (٢١).

(٢١) مترجماً عن الإيطالية بتحرير L. A. Muratori .

Rerum Italicarum Scriptores, Vol. 18 (milan, 1730), P. 611.

في ٧ أغسطس ١٤٢٢ نشاهد الغجر في فورلي Forli على مبعدة خمس فراسخ من بولونيا على الطريق إلى روما ، ويقدر الراهب هيرونيموس Hieronimus صاحب مدونة فورلي عددهم بمائتين أو نحوها ، ومن المدهش أن البعض قالوا إنهم أتوا من الهند (٢٢) (aliqui dicebant, quod erant de India) ، ومن المحتمل - رغماً عن أن الأمر ليس واضحاً تماماً - أن الذين قالوا بذلك كانوا من جمهور المتفرجين ، وليسوا من الغجر ، فلم يؤثر عن هؤلاء ادعاء مثل هذا ، والأفكار عن الهند وجغرافيتها كانت إذ ذاك باهتة (وهو ما سوف يظهره لنا كوليبوس) ، وقد استخدم هذا الاسم أحياناً للدلالة على إثيوبيا ، وبعد يومين غادر هؤلاء الغجر وهم يرددون أنهم ذاهبون لرؤية البابا ، وسرعان ما يختفون من المسرح ، لكنهم بين حين وآخر ولدى عقود ، كان في الإمكان رؤية زعمائهم ، وهم يعرضون رسائل بابوية ، وهو ما حدث في باريس وأميان Amiens (١٤٢٧) ودواي وروتردام وأوترخت (١٤٢٩) وميدلبورج Middelburg بجزيرة فالشيرين Walcheren (١٤٣٠) وغيرها ، ولم تكن تلك الرسائل تنسب دائماً إلى الشخص نفسه ، ولم تكن جميعها تحمل التاريخ نفسه ، وأكثر الروايات إسهاباً بخصوص هذه الرسائل ، نجدها في يوميات فرنسي ، يشار إليه عادةً ببرجوازي باريس ، فهو يصف شزيمة من الغجر أقامت في لاشابيل La Chapelle على مقربة من باريس (وكانت ماتزال في أيدي الإنجليز) من ١٧ أغسطس إلى ١٨ سبتمبر ١٤٢٧ ، وقد أتى في طليعتهم دوق وكونت وعشرة رجال ، جميعهم على جيادهم ، وقالوا أنهم مسيحيون طيبون، قدموا من مصر الدنيا ، وحكوا القصة المعتادة عن ارتدادهم عن المسيحية ، عندما قهرهم السراسنة ، وما تلا ذلك من رد الإمبراطور وغيره من الحكام المسيحيين عادية هؤلاء .

«وقد أمر الإمبراطور وغيره من الحكام - بعد روية وتفكير - بمنعهم من حيازة أراض في وطنهم دون الحصول على موافقة البابا ، وإذا فعلتهم التوجه إلى الأب المقدس في روما ، فذهبوا جميعهم شيباً وشباباً ، وكانت رحلة شاقة للأطفال ، وعندما وصلوا إلى هناك ، اعترفوا اعترافاً جماعياً بخطاياهم ، وبعد أن أنصت البابا إلى اعترافهم فكر ملياً ، وتشاور مع غيره ، ثم فرض عليهم العقوبة الآتية ؛ وهي إنهم ولدى سبع سنوات ، عليهم أن ينساحوا في أقطار الأرض ، ولا يناموا ألبتة على سرير

ورغبةً منه في عونهم ، فقد جعل من واجب كل أسقف ومقدم دير لديه صولجان ، أن يعطيهم ولرة واحدة عشرة جنيهاً من جنيهاً تورناي ، ويوزدهم برسائل تفيد ذلك موجهةً إلى قساوسة الكنيسة ، ثم منحهم بركته وهكذا فارقوه» (٢٣) .

ما الذي نستنتجه من ذلك ؟ هل أصغى البابا مارتين الخامس (٢٤) في عام ١٤٢٢ إلى شعث من الغجر أو شعثن متتابعين (الأول يقوده دوق ميخائيل ، والآخر يقوده دوق أندريا) ؟ وهل استمع إلى قصتهم ، وفرض عليهم سبع سنوات أخرى عقوبةً لهم مصحوبةً بخطابات حماية (٢٥) ؟ . لا يتوافر لدينا تسجيل لهذا الحدث العجيب في وثائق القاتيكان ، وقد أجرى بحث في عام ١٩٣٢ لم يسفر عن شيء لكنه في الوقت نفسه لم يحسم الأمر ، فهناك وثائق كثيرة مفقودة ، على أنه يترجح لدينا إمكانية أن الغجر قرروا ألا يزعجوا قداسته ، أو أن تصرفهم عنه حاشيته ، فانصرفوا إلى مزيف بارع، صنع لهم رسالة بابوية مؤثرة .. وصناعة تزيف المراسيم البابوية وغيرها ، كانت صناعةً زاهرةً في العصور الوسطى ، وأفضت إلى تجارة ناشطة.

بحصولهم على عهد أمان جديدة أياً كانت الوسيلة ، صار على الغجر التأكد من توافر العديد منها تحت تصرفهم وقد تضمن بعضها اسماً ، وتضمن بعضها الآخر اسماً آخر ، وتناهت إلينا واحدة منها ، تتمثل في ترجمة فرنسية لرسائل منحت لأندرو دوق مصر الصغرى ومؤرخة بـ ١٥ ديسمبر ١٤٢٣ (وليس ١٤٢٢) ، ومن عجب أن البابا يمنح فيها هؤلاء التائبين عفوه عن شطر خطاياهم ، وتلك صيغة غير أرثوذكسية لغفران لانظير له في ذلك الزمان ، والنسخة بهذا الشكل مشكوك فيها ، ولا بد أن تكون أصولها مشكوكاً فيها كذلك .

(٢٢) 'Journal d'un Bourgeois de Paris (1405 - 49), ed. A. Tuetey, (Paris, 1881)' وهي مأخوذة من ترجمة شيرلي J. Shirley لليوميات ١٤٠٥-١٤٤٩ (اكسفورد ١٩٦٨) ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢٤) (١٤١٧-١٤٣١) وهو أول بابا يلي منصبه بعد إعادة الوحدة إلى الكنيسة المسيحية في الغرب (المترجم).

(٢٥) لدينا مقالان يتصلان بهذا الموضوع هما :

R.A.Scott Macfie, 'The Gypsy visit to Rome in 1422', JGLS (3), 11 (1932), pp. 111-15; and F. de Vaux de Foletier, ' Le pèlerinage romain des Tsiganes en 1422 et les Lettres du Pape Martin V', Études Tsiganes (1965), n. 4, pp. 13 - 19.

فى العام التالى تظهر وثيقة أخرى جديدة للحماية ، نقلها إلينا شاهد عيان معاصر ذو اهتمامات واسعة هو أندرياس Andreas كاهن راتيزبون Ratisbon (هى الآن ريغنز بورج Regensburg) فى بافاريا ، يسجل فيها وصول الغجر (Cingari وعند العامة Cigāunär) فى يومياته لسنة ١٤٢٤ .

يقول : «كانوا على مقربة من راتيزبون ، حين بدأوا يتوافدون رجالاً ونساءً وأطفالاً فى جماعات صغيرة ، يصل عددهم فى كل جماعة إلى الثلاثين أو نحوها، وحيث إنه لم يكن مسموحاً لهم بدخول المدن لبراءتهم فى اختلاس ما لا يخصهم ، فقد نصبوا خيامهم فى الحقول ، وقد أتى هؤلاء القوم من المجر ، وهم يزعمون بأن قد تم نفيهم ، استذكراً لرحلة المسيح إلى مصر ، حين لاذ بها هرباً من هيروود الذى سعى إلى ذبحه ، لكن العامة يذهبون إلى أنهم جواسيس» (٢٦) .

يثير هذا النص عديداً من التساؤلات كالإشارة إلى الخيام ، وتفسير نفى الغجر لعلاقة ما بينه وبين رحلة العائلة المقدسة والارتياح فى كونهم جواسيس (وهو هاجس ظل يصاحب وجودهم فى ألمانيا ، لمدى يزيد على الخمسة قرون ، كمبرر لتصفيتهم جسدياً) ، لكن الأهم من هذا كله أن أندرياس يأتى به حتى خطاب للملك زيجيزموند مؤرخ فى ٢٣ أبريل ١٤٢٣ ، كان الغجر يحتفلون به ، فبعد الديباجة يستطرد الملك : «أتى إلى حضرتنا هنا فى زيپس Zips لاديسلاوس Ladislaus أمير الغجر Waynoda Ciganorum صحبة آخرين ، وأبدوا خضوعهم الذليل لنا وتوسلهم إلينا ، واقتناعاً منا بما قالوه ، وجدنا من المناسب أن نمنحهم هذا الامتياز ، وهو أنه فى كل مرة يأتى فيها الأمير لاديسلاوس المذكور وقومه إلى ممتلكاتنا ، سواء كانت مدناً حرة أو حصوناً ، فإننا ثقةً منا فى أمانتك ، نأمرك بأن تشمل الأمير المذكور وقومه بحمايتك ، ومهما كلفك ذلك، وتحفظهم من كل سوء ، وفى حال النزاعات التى قد تنشأ بينهم ، فلا أحد سيمس الأمير لاديسلاوس يناط به حلها» .

صدر جواز المرور هذا فى زيپس شمالى المملكة المجرية (تقع اليوم فى سلوفاكيا) إبان مقام زيجيزموند بها ، ويبدو أن قد حصل عليه غجر يختلفون عن إخوان لهم

(٢٦) مترجم عن اللاتينية من كتاب :

Andreas, Presbyter Ratisbonensis, Diarium sexennale, Which is in A. F. Oefelius, Rerum biocarum scriptores (Augsburg , 1763), vol. 1, P. 21 .

سبقوهم فى الهجرة غرباً ، فلا يوجد ذكر لحج ولا لقوم غرباء ، بل إنه لايرد ذكر لاديسلاوس كرعية لزيجيزموند ، والأدهى أنه كان يحمل اسماً شائعاً فى المجر وبولندا، بينما حمل زعماء سبقوه أسماء مثل أندرو وميخائيل ، وهى أسماء ذوات صلة بالديانة المسيحية ، لابد وأن يكون مقامه فى المجر (إن لم يكن كذلك مقام أتباعه) قد دام بعض الوقت ، وهم يبدون فى واقع الحال طليعةً لموجة ثانية من الهجرة ، لكنه يتعذر علينا متابعة مصائرهم ، حيث إن لاديسلاوس لايلبث أن يختفى ولايرد له ذكر بعد ذلك .

يعاود أندرياس الحديث عن وجود غجرى فى راتيزبون فى ١٤٢٦ وفى ١٤٣٣ (ويلاحظ أنهم فى هذه المرة « كانوا يقولون أنهم أتوا من مصر ») لكنه لم يحظ بكبير انتباه ، وسوف تظل تحركات المهاجرين الأصليين ولمدى سنوات هى مايمكن أن يسجل تفصيلاً .

من المؤكد أن كانت الحال كذلك فى إسبانيا ، حيث أصدر ألفونسو الخامس ملك أرغونة بمدينة سَرْقُسْطَة Saragossa (٢٧) أول جواز مرور وقد منحه «لدون جوهان من مصر الصغرى» Don Johan de Egipte menor بتاريخ ١٢ يناير ١٤٢٥ ، على أن يسرى لمدة ثلاثة شهور ، وقد أثبت ألفونسو الذى عرف بكنيته وهى «الشهم» (٢٨) تعاطفه الواضح تجاه هؤلاء الحجاج الوافدين حديثاً ، فبعد عدة شهور أصدر جواز مرور آخر لكونت توماس Tomás من مصر الصغرى وصحبه ، وعندما سرق أهل ألجون Alagón القريبة من سرقسطة كلب صيد وكلباً آخر للحراسة من هذا الكونت ، أمرهم ألفونسو بإعادتهما إليه فى الحال ، وقد حافظ كونت توماس على جوازه بعناية ، وسوف يستخرج منه نسخة أخرى ، وفى سنة ١٤٣٥ ، وبعد يسير من حصوله على هبة تقدر بثلاثة وعشرين فلوريناً ، منحها إياه بلانش Blanche ملكة نبرة Navarre (٢٩) حل

(٢٧) (١٤١٦-١٤٥٨) وفى عهده بلغت ملكة أرغونة Aragón مكانةً عالية ، وآلت إليها مملكة نابولي، فانتقل ألفونسو إليها ببلاطه ، وصار ملكاً إيطالياً أكثر منه ملكاً إسبانياً ، وكان محباً للعلوم والفنون وأعان على نقل النهضة الإيطالية إلى وطنه الأول إسبانيا (المترجم) .

(٢٨) بالاسبانية el magnánimo (المترجم) .

(٢٩) مملكة إسبانية صغيرة تقع لدى سفوح جبال البرتات ، تقاسمتها إسبانيا وفرنسا فى غضون القرن السادس عشر (المترجم) .

بكانفرانك Canfranc ، وهى نقطة حدودية ، تقع إلى الشمال من ممر سومبور Som-port ، وهناك طالبه مأمور الجمارك بأداء ما توجب من رسوم ، لكن السيد المبجل muyt honorado et inclito كونت مصر الصغرى ، أعلن أنه وقومه يقومون برحلة للحج عبر العالم من أجل العقيدة المسيحية ، وأن الملك ألفونسو منحه الإذن بالمرور حسبما يشاء فى أراضيه صحبة قومه وأفراد عائلته دون أداء أموال أياً كانت . والواقع إن التصريح الملكى صيغ بهذه العبارات ، وما يزال موجوداً حتى اليوم بمدينة وشقة Huesca ، مما يؤكد وثاقته، ومع أن الكونت العجربى لم يؤد أموالاً ، إلا أنه كان عليه أن يعلن عما لديه من ممتلكات ، وكانت تتضمن خمسة جياذ قيمة الواحد منها عشرون فلوريناً ، وخمسة أثواب من الحرير ، وأربعة أقداح من الفضة ، زنة الواحد منها حوالى ماركاً واحداً (ثمانى أوقيات تقريباً) .

كانت تلك هى الإشارات الأولى التى توافرت لدينا عن زعماء باسمى توماس وجون ، ولايلبث أن يعاودنا كونت توماس آخر ، وربما كان - أو لم يكن - هو الكونت العجربى غير المسمى الذى شاهدناه يعرض رسالة بابوية فى لاشابل بضواحي باريس فى سنة ١٤٢٧ ، لكن لدينا بالتأكيد كونت توماس نصادفه بعد يسير لدى أميان ومعه رسائل بابوية باسمه . ويعد وصف برجوازي باريس فى يومياته للعجربى فى لاشابل أو فى ما كتب عنهم فى تلك السنوات الباكرة ، ويبدون فيه قوماً غرباء ببشرتهم القاتمة وحلقانهم الفضية فى آذانهم ، وهم يشدون انتباه الناس الذين احتشدوا حولهم وهم مشدوهون ، وكانت النساء يرتدين قمصاناً مغطاة بدثارات أشبه بالحرامات ، وهو ماسبق أن شاهدناه فى أراس فى ١٤٢١ وبولونيا فى ١٤٢٢ ، وقد أفضت قراعتهم لطوالع الناس إلى مشكلات عائلية بين الأزواج ، ويستطرد برجوازي باريس قائلاً : «من الواجب القول بأننى ذهبت لأتحدث معهم ثلاث مرات أو أربع ، ولم أكتشف أننى فقدت بنساً واحداً ، كما لم أرهم يتفحصون فى أيادى أحد ، لكن من شاهدوهم أجمعوا على أنهم كانوا يفعلون ذلك» . وقد أمر أسقف باريس فى نهاية الأمر بحرمان كل من قراء الطالع ومن قرئت طوالعهم ، ولم يجد العجربى ندحاً من الرحيل . وخلال ثلاثة أسابيع بقيت من شهر سبتمبر ١٤٢٧ حل بأميان أربعون منهم، يقودهم كونت يدعى توماس ، وقد منح ثمانية جنيهات باريسية Livres parisis ، بعد أن أعطى انطباعاً طيباً عن قومه ، وكيف تم نفيهم من وطنهم «الغريب جداً والبعيد» لأنهم أبوا أن يتخلوا عن الديانة المسيحية ، وبعد عام ونصف العام أى فى مارس ١٤٢٩ نصادف

لدى تورناى كونت آخر من مصر الصغرى ، لاندرى ما اسمه ؟ يصحبه ستون يبدو من مظهرهم أنهم هؤلاء الذين سبق أن صادفناهم فى أميان . وصدرت تعليمات من أعضاء المجلس البلدى إلى أهل مدينتهم، بعدم التعرض لهم بأذى ، وحفزهم على الإحسان إليهم ومنحهم الصدقة، وهم بدورهم أرسلوا إليهم نبيذاً وقمحاً وجعةً ورنجةً وحباً .

تكبدت المدن نفقات طائلة نظير إيواء هؤلاء الفجر ، فقد اضطرت مدينة هيلدزهايم لأن تنفق أموالاً فى مايو ١٤٢٨ لقاء تنظيف الدار التى حط بها الفجر رحالهم ، وكذا كانت حال فلاندرز ، عندما حل الفجر بدارة الصوف فى بروجز بدفنتر فى سنة ١٤٢٩ ، فقد تحملت المدينة مصاريف مرافقتهم شمالاً إلى نقطة توقفهم التالية ، كما أنفقت روتردام أموالاً فى ١٤٢٩/١٤٣٠ «لتنظيف مبنى المدرسة بعد أن حل به الدوق وحاشيته» ويعد سجل دفنتر الأول من نوعه فى البلاد الواطنة الذى يدعو الفجر هايدن (أى وثنيون) ، وهو الاسم الذى استمروا يعرفون به فى هذه البلاد ، كما سُجل وجود دوقات وكونتات لمصر الصغرى فى نيميچين Nijmegen وأوترخت وأرنهايم Arnheim (١٤٢٩) وميدلبورج وتسوتفن Zutphen ولايدن (١٤٣٠) ، وفى بعض هذه المناسبات تحيل الوثائق إلى خطابات بابوية ، ولكن عندما عاود «دوق لمصر» زيارته لميدلبورج فى سنة ١٤٣١ فقد أبرز وثيقة أصدرها فيليب البرجندى - الذى كان حاكماً لمعظم البلاد الواطنة - وكان هذا الدوق لدى حلوله بروتردام فى العام الفائت قد أمّن نفسه بأن أبرز «رسائل صادرة من البابا ومن مولانا الأعز حاكم برجنديا» .

ويبدو معقولاً الادعاء بأن الفجر الذين أتوا إلى متس Metz وكونستانس فى ١٤٣٠ وتورناى فى ١٤٣١ وهامبورج هم جماعة «كونت جون من مصر الصغرى» وكان الذين أتوا إلى فرانكفورت أم ماين فى ١٤٣٤ وبروجز فى ١٤٣٤/١٤٣٥ قسماً من هذه الجماعة ، لكنه يصير من غير المؤكد تحديد من أين أتى هؤلاء الفجر الذين تردوا على سكسونيا البعيدة شرقاً (إرفورت Erfurt فى ١٤٣٢ وماينجن Meinigen فى ١٤٣٥) ، ويحتمل أنهم وفدوا حديثاً من المجر ، ولم يحسن أهل ماينجن وفادة هؤلاء الفجر الذين أقاموا بمدينتهم أحد عشر يوماً ، يسعون إلى خطب ودهم ، والترفيه عنهم بألعابهم البهلوانية التى قاموا بها فى سوق مدينتهم ، فقد بدوا فى عيونهم غرباء غير متحضرين ذوى بشرة قاتمة ، وفى النهاية أمر القس بطردهم .

رصيد متجدد

فى هذه الأثناء بدأت هذه المرحلة الاستطلاعية - إذا جاز التعبير - تقترب من نهايتها ، وصار لدينا الآن ما يكفى لأن نقرر بأن الحياة فى الغرب أضحت لها جاذبيتها لقوم كان يعوزهم وطن ، كما أضحى وجودهم على نحو أو آخر مألوفاً فى ألمانيا وسويسرا والبلاد الواطئة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، لكنه لا يوجد مايدل على أنهم انتشروا إلى مسافة أبعد من ذلك شمالاً أو شرقاً أو أنهم عبروا القناة الإنجليزية أو بحر الشمال .

وأية نتيجة نصل إليها بناءً على ماجرى فى العقدين اللذين يبدآن بسنة ١٤١٧ تستلزم فرضيات مرنة ، ومالدينا حتى الآن من مؤشرات ، لا تدل على هجرة معمرة، بل كان الفجر - على العكس - جماعات مترابطة بعضها ببعض ، وترتحل إلى مسافات بعيدة فى هيئة شرازم ، تنتظمها أحياناً سلطة إشرافية لعدد قليل من الزعماء وكان بين هذه الجماعات قدر من الوحدة فى العمل وصلات قوية بين بعضها البعض ، وبدأ أفرادها يرددون القصص نفسها ، ويبرزون النمط نفسه من وثائق المساعدة الصادرة من الامبراطور وغيره من الحكام ، وبعد ذلك من البابا نفسه ، وكانت القصة التى يرددونها دائماً فى هذه المرحلة أنهم ببساطة يكفرون عن ردتهم ، نستثنى هنا ما ورد فى يوميات أندرياس الراتيزبوني ، لما بها من تلميح عن تطهير ، يقومون به لاختفائهم فى عون العائلة المقدسة ، فى رحلتها إلى مصر ، لكن هذا التلميح لم يكن قد استوى عوده بعد وماتزال هناك بعض الجوانب الهامة لطريقتهم فى الحياة غامضة ، فمما يدعو للغرابة أنه لم يذكر شيء - حتى بداية القرن السادس عشر - عما إذا كانت لديهم لغة خاصة بهم ، ولانسمع عن صعوبات فى تواصلهم مع سكان الأقطار التى كانوا يختلفون إليها لأول مرة ، وليست لدينا سوى تفصيلات قليلة عن عرباتهم ومهاجمهم ، كما أنه نادراً ما ذكرت خيامهم ، وماذكر هو أنهم مهاجرون لديهم عدد قليل من العربات ، يعسكرون فى العراء ، أو فى مهاجع مؤقتة، عندما يخفون فى إقناع الأهلىن بالإقامة فى مدنهم .

بيد أن ما هو أوفر غموضاً من هذا كله هو التنظيم الاجتماعى - السياسى ووسائل الاتصال بين بعضهم بعضاً إبان ارتحالهم ، وحتى نهاية القرن نكون قد صادفنا نيفاً وعشرين اسماً من الأسماء المختلفة لرؤساء الفجر ، وبعض هذه الأسماء

حملها شخص واحد ، والبعض الآخر حملها أكثر من شخص ، ولنا أن نتساءل عن هوية هؤلاء الدوقات والكونتات الذين كانوا يرتدون فاخر ثيابهم ، وهم يمتطون صهوات جيادهم .. ما الذى حفزهم إلى غزواتهم تلك ، وما إذا كانوا ببساطة يؤدون دوراً ما ؟ .. ومن الممكن أحياناً أن يحمل قائد الجماعة الفجرية دماً غجرياً ، وتكون له زوج غجرية ، وقد شاهدنا فى بولونيا أن دوق أندريا الذى أقام فى نزل الملك كانت له زوج اشتهرت بكونها عرافة ، ويفترض أن مساعديه لابد وأن يكونوا كذلك من الغجر ، بيد أنه فى أقطار أخرى بأواسط أوروبا وشرقيها صارت القاعدة ألا يلى زعامة الغجر غجر ، ونقف على شواهد لذلك فى بولندا وليتوانيا وترانسلفانيا وغيرها . ونحن نسمع فى مرحلة من مراحل تاريخهم فى اليونان وبلاد البلقان كيف كان يتم تعيين حكامهم ومشرعهم الذين يؤدون إليهم أموالهم ، وكان فى كورفو إقطاع غجرى ، حظى بارونه بامتيازات ، خصوصاً فى مجال القضاء (انظر ص ٧٢) ، وفى أصقاع واسعة من أوروبا كان وجود الغجر منوطاً ببعض الشخصيات الهامة ، وربما كان لاديسلاوس زعيمهم الذى أنعم عليه الامبراطور زيجيزموند بجواز مرور فى سنة ١٤٢٣ واحداً من هؤلاء ، ويلاحظ أن هذا التمايز بين الغجر أنفسهم ظل مشاهداً ، لدى زحفهم فى اتجاه الغرب ، ويتبين من السجلات التى تتابعت لزياراتهم ابتداءً من سنة ١٤١٧ أن بها تمييزاً واضحاً فى المعاملة بين الدوق والكونت الذى يتهيا له مأوى يليق برجل ذى مكانة عالية وبين المعاملة التى يحظى بها أتباعه الذين فرضت عليهم إقامة متواضعة .

وقد تلازم الدور الخاص بالزعماء مع القبول الواسع بأن للغجر الحق فى أن يديروا شئونهم الخاصة ، وهو امتياز تم التأكيد عليه فى جواز المرور الذى منح لاديسلاوس فى سنة ١٤٢٣ الأنف ذكره ، بل تم التأكيد عليه قبل ذلك أثناء مرور جماعة من الغجر بتورناى فى سنة ١٤٢٢ ، هذا الامتياز إلى جانب الامتيازات التى تتيح لهم الفرصة للاستجداء ، من حيث وضعهم كحجاج مسيحين ، يؤكد على أنهم ماداموا قد صاروا مقبولين ، فبمقدورهم البحث عن سبل للبقاء ، فى حال ما إذا ضعف الآخرون عن عونهم ، الأمر الذى قد يفضى بهم إلى الجنوح ، وفى هذه الحال فمن الواجب ألا يؤخذوا بشدة ، ومع ذلك فلم يكن ثمة حل دائم لمشاكلهم بسبب البنية الاقتصادية للبلاد التى كانوا يمرون بها ، وما اتسم بها أهلها من تعصب، الأمر الذى كان من شأنه أن لا يضمن لقوم درجوا على عدم الاستقرار أن يكونوا دائماً موضعاً للترحيب ، فطوائف الحرف كانت منظمةً تنظيمياً جيداً ، ولم يكن من عادة الفلاحين أن

يستخدموا عمالة مؤقتة ، وهكذا فلم يترك للفجر من وسائل العيش ، سوى مساحة محدودة من الخدمات الصغيرة والحرف الدنيا والتسلية.

أما عن الدافع إلى هذه الهجرة غرباً ، فقد أتاح تيمور لذك (٣٠) الفرصة لأوروبا في مطلع القرن الخامس عشر ، لأن تستريح - مؤقتاً - من الضغط العثماني ، وذلك بهجمته على الأتراك في بلاد الأناضول (٣١). لكن العثمانيين مالبثوا أن استأنفوا زحفهم في عام ١٤١٥ ، واستعادوا ماسبق أن فقدوه من أراض في اليونان وبلاد البلقان ، كما نهضوا بفتوح جديدة ، فأرغمت الأفلاق في سنة ١٤١٧ على الإذعان وإن احتفظت بسلالتها الحاكمة وإقليمها وديانتها المسيحية ، وسوف تعاني ترانسيلفانيا وجنوبى المجر منذ الآن من هجمات متلاحقة . ويبدو من المعقول أن نربط بين الهجرات الغجرية والزحف التركى ، وأن نعاود هذا الربط في مراحل تالية ، بيد أنه مما يجدر ذكره في هذا الشأن أن كثرة الفجر الأوربيين ، تواصلت حياتهم في الأراضى الخاضعة للسيادة العثمانية ، التى ضمت فى الأخير الجانب الأكبر من أواسط المجر وجنوبيها ، وإذا كان بعضهم قد سعى لأن يبحث عن أراض بديلة ، وهو ما قاموا به بالفعل ، فليس من المحتمل أنهم فعلوا ذلك لأسباب دينية ، رغماً عن تأكيدهم على هذه الأسباب لدى تحركهم غرباً (على أية حال كان سجل الأتراك المسلمين تجاه المسيحيين واليهود أفضل بلاشك من سجل الإسبان المسيحيين تجاه المسلمين واليهود) وما ذكر عن ترد فى أحوالهم على المدى الطويل ، إنما هو من الأمور الخلافية ، فحالما تمت الفتوح ، لم تصبح الشعوب الخاضعة - فى معظمها - أسوأ حالاً مما كانت عليه فى عهد حكامها السابقين ، وبوجه عام فقد ترك الأتراك السكان المدنيين أحراراً ، شريطة أن يؤدوا ما عليهم من أموال ، ولم يكن فى هذا بدع بالنسبة للفجر ، كما لم يكن من عادة المجتمع المسلم أن يميز بين الناس حسب العرق أو اللون ، على أن ما صادفه الفجر من مخاطر ناجمة عن توالى الحروب هو أمر آخر ، فقد أشعل الغزاة النار أينما ذهبوا وأعملوا سيوفهم ، وفى أنحاء متفرقة من بلاد البلقان نهبت المدن والقرى

(٣٠) (١٣٧٠/٧٧١ - ١٤٠٥/٨٠٧) حفيد بعيد لجنكيزخان ، أقام امبراطورية واسعة امتدت من بلاد الهند إلى أطراف أوروبا (المترجم) .

(٣١) وانتصاره على بيازيد الأول (١٣٨٩/٧٩٢ - ١٤٠٢/٨٠٥) المعروف بالصاعقة فى معركة أنقرة ١٤٠٢/٨٠٤ وتهافت الامبراطورية العثمانية إلى أن تم بعثها على يدى ولده محمد الأول (١٤١٣/٨١٦ - ١٤٢١/٨٢٤) (المترجم) .

والأديرة ، وتحولت أقاليم واسعة إلى بلاقع ، ويصبح من المعقول الادعاء بأن كثيراً من الغجر هرعوا للنجاة بأنفسهم من هذه المناطق المضطربة ، ولدينا شواهد على ذلك من رواية أرنولد فون هارف القلقة عن الهجرة الأخيرة بعد زيارته لمودون (انظر ص ٧٤ - ٧٥ حيث يعزو هذه الهجرة إلى «أن بعض اللوردات والكونتات أبوا أن يزاووا مهامهم تحت سيادة الإمبراطور العثماني ») ويحتمل أن بارونات الاقطاعات الغجرية ومن يناظرهم ، وجدوا أن خسارتهم أكبر من خسارة رعاياهم ، وقد تكون هذه الرحلات الارتيادية قد صدرت في بدايتها عن مصالحهم الخاصة .

ربما كان في إصرار الغجر على أنهم أتوا من «مصر الصغرى» وذلك في معرض حديثهم عن أصولهم لأبناء الغرب المشدوهين ، مايدل على أن الطلائع الباكورة منهم كانت صلاتها قريبة العهد ببلاد البلويونيز ، ولم يكن هؤلاء الغجر وحدهم النازحين من هذه الأنحاء ، فمع أن كثيراً من النبلاء أثروا البقاء وصاروا مسلمين ، فإن تواصل الزحف التركي جعل نبلاء غيرهم وقساوسة وعامة يلوذون بالغرب ، بحثاً عن مأوى ، ويعيشون على أموال الصدقات ، ويتضح من السجلات البلدية ، أن بعض هؤلاء انتقلوا في جماعات ، يقودها زعماء اتخذوا ألقاباً كالتي اتخذها الغجر ، وعوملوا بمثل ما عاملوا به ، فيرد في سجلات بروجز (٣٢) التي تعود إلى بدايات القرن الخامس عشر ، ماينص على أدائها أموالاً لجماعات يونانية متجولة ، تنتظم بعض الكونتات ، كما تتضمن أداء أموال لكونت من الأفلاق ، طرده الأتراك من بلاده وفارس من المجر . بينما تدفقت صنوف عديدة من أناس من مراتب شتى ، قادمة من الامبراطورية اليونانية القديمة ، في أعقاب سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ ، وإن كانت أعدادهم أقل نسبياً ، وربما كانت المعاملة الطيبة التي حظيت بها هذه الجماعات من اللاجئين عاملاً من جملة العوامل التي أوعزت للغجر بالانسياح غرباً ، كما أوحى لهم بأن يتخذوا هيئة الحاج .

في ضوء الافتقار إلى يقين بشأن مكان المغادرة ، ربما يتوجب علينا هذه المرة ، أن نستخرج من لغة الغجر معلومات تاريخية أوفر عنهم بعد فراقهم لبلاد اليونان ، ومن الناحية العملية يتبين لنا أن كل اللهجات الرومنية في غربي أوروبا خضعت لتأثير السلاقية الجنوبية ، وكثير منها تأثرت ، وإن كان على نحو أقل

Cf. EO. Winstedt, ' Gypsies at Bruges' JGLS (3), 15 (1936), pp. 26-34 . (٣٢)

بالرومانية (٣٢) ، وليس لدى كل هذه اللهجات مستوى واحد من المفردات المستعارة من السلاقية ، لكن بعض هذه المفردات كانت واسعة الانتشار بينهم ، فلدينا على سبيل المثال baba «فول» būinō «فخور» mačka «قطعة» mižak «وقح» puška «بندقية» skorni «حذاء طويل» stanya «اسطبل» و trūpos «بدن» . وهذه الصيغ من الرومانية الويلزية لها نظائرها في معظم اللهجات الغربية (وأيضاً تلك التي في فنلندا) ، وأكثرها انتشاراً dosta «كاف» Kircíma «نزل» و lovína «جعة» و Smenténa «قشدة» ، وواحدة منها وهي lovina هي واحدة من الكلمات التي جمعها أندروبيورد ، وكل منها و smentena تشكلان إحدى الصعوبات التي نواجهها في تحديد الأصول الاشتقاقية ، لما في بلاد البلقان من خليط لغوي ، حيث تعبر الكلمات الحدود اللغوية ، وهاتان الكلمتان ربما كانتا مستعارتين عن طريق الرومانية، فهناك لامشاحة ألفاظ رومانية مستعارة في الرومانية الويلزية ، مثل bauri «قواقع» manč «طب نفساً» mūra «توت» و vare- «أبدأ» (مثل varekál أني) ، ولدينا كذلك احتمالات تثير قدراً أكبر من الجدل ، ومن ناحية أخرى فلم يكن للمجرية تأثير ذو بال على لغة الغجر، وربما يعود هذا التأثير إلى مرحلة متأخرة ، ويرتبط باللهجات التي وقعت بها تطورات في أواسط أوروبا . هل نستنتج من ذلك أن الغجر الذين اتخذوا طريقهم الى الغرب في القرن الخامس عشر ، لم يقيموا فترة طويلة في المجر ؟ بل يجب أن يكونوا قد أنفقوا وقتاً أطول في بلاد صقلية الجنوب ، كما قضوا فترة - وإن كانت أقل - في الأقاليم المتحدثة بالأفلاقية (نستثنى منهم هؤلاء الذين ارتحلوا عبر البحر مباشرة من بلاد اليونان إلى جنوبي إيطاليا ، حيث لم تتأثر لغتهم كثيراً بالسلاقية) .

ربما ليس من الحكمة أن نكون قطعيين dogmatic هكذا ، فما جرى من استعارات مختلفة من السلاقية والرومانية ، وما جرى كذلك من هجرات متلاحقة تجاه الغرب ، وما نجم عنها من اختلاط قمين بأن يجعل اللهجات الحالية محصلة لانصهار لهجات مختلفة ، والغجر الذين كانوا قد التقوا في بداية الأمر حول السلاقية والرومانية قد يكون قد لاحقهم تأثيرهما في مرحلة تالية .

(٣٣) أفضل دراسة عن الاستعارات في اللهجات الأوربية (ولو أنها تستند إلى ماكانت عليه اللغويات الرومانية منذ مايزيد على مائة عام) تظل هي الدراسة التي قام بها ميكوريش F.X.Miklosich über die Mundarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas (Denkschriften der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch- historische Klasse, Vienna, 1872-81), esp . part 3 (Die Wanderungen der Zigeuner) in vol. 23 (1874), pp. 1-46.

الفصل الخامس

حوّل المد

منذ ثلاثينيات القرن الخامس عشر فصاعداً ، فإن الغجر وقد اجتذبتهم حكايات ، ربما سمعوها من أسلاف لهم سبقوهم على الطريق ، بدأوا ينتشرون تدريجياً من شرقى أوربا ، واتسع مدى الروايات التاريخية عنهم ، بيد أن على المرء أن يتوخى الحذر فى التعامل مع روايات كتبت بعد سنوات طويلة من وقوع الأحداث التى تصفها ، دون أن تكون لأصحابها صلات مباشرة بالغجر ، وغالباً ماكانت مشتقات تكرر على نحو أعمى المعلومات نفسها عن كل مكان حل به الغجر ، وقد اصطبغت هذه الروايات بمواقف أصحابها وخيالاتهم الخصبية ، وحيثما كان ممكناً يصير من الأفضل معاودة الوثائق العامة والمحلية ، لما يتوافر بها من مواد أولية عن تاريخ الغجر ، احتفظ بغالبها قبل أن يتعرض هذا التاريخ للتحريف بفعل مؤثرات خارجية .

وتعد إضافة الإخبارى الألمانى أفينتينوس Aventinus (يوهان تورماير Johann Thurmaier) التى كتبت حوالى سنة ١٥٢٢ رائدة ، فيما يختص بالمرحلة التالية من تاريخ الغجر ، فقد ورد فى المدونة البافارية بشأن سنة ١٤٣٩ مايلي:

«فى ذلك الوقت فإن جيلاً من اللصوص ينتمون إلى حثالة من شعوب ، تعيش على التخوم بين الامبراطورية التركية والمجر (وهم من ندعوهـم Zigeni) شرعوا ينساحون عبر ولاياتنا بزعمامة ملكهم تسنديلو Zindelo ، يبحثون عما يقيم أودهم بالسرقه والتلصص والانتهاـب وقراءة الطالع ، ويلوكون حكايات مزيفة عن انتمائهم إلى مصر وأن آلهتهم^(١) أكرهتهم على النفى ، ويدعون بوقاحة أنهم أمروا بالتكفير عن خطايا أسلافهم الذين تخلوا عن العذراء المباركة ويسوع الطفل ، وذلك بتغريبهم سبع سنوات .

(١)الأصل اللاتينى هو superis ، وله أكثر من ترجمة واحدة ، وربما يقصد به هنا حكامهم .

ومن خبرتي الخاصة علمت بأنهم يتحدثون بالثندية Wendish ، وأنهم جواسيس وخونة ، ويشهد على ذلك آخرون خصوصاً الإمبراطور ماكسيميليان Maximilian وألبرت أبو أمرائنا في مراسيمهم العامة ، لكن الخرافات القافهة شأنها شأن بلادة الذهن تأخذ بعقول الناس ، لدرجة أن يصدقوا بأن هؤلاء القوم عوملوا بالفعل معاملة سيئة ، دفعتهم إلى السرقة والاحتيال» (٢) .

تحدد هذه الفقرة معالم قرن كامل من التحول في علاقة الأغيار بالغجر ، فأوضحت هذه العلاقة أسوأ ماتكون في زمن أفينتينوس ، لأنه حين كتب هذه الفقرة كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وعلى مدى يزيد على العقدين تطبق على الغجر عقوبات جزائية ، وفي عهد الإمبراطور ماكسيميليان الأول (٣) الذي كان موضعاً لإطراء أفينتينوس ، أصدر الدايط (٤) Diet ثلاثة مراسيم (في ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٥٠٠) ، يتهم فيها الغجر بالتجسس ويأمر بإبعادهم ، ودفعت هذه القرارات إلى قرارات أخرى ، أصدرها أمراء ودوقات ومن إليهم من متنفذين في أنحاء الامبراطورية . والارتياح في كونهم جواسيس (وهو ماسبق أن رددته بالفعل أندرياس الرايتزبوني) صار شغلاً ألمانياً منذ فترة باكرة ، وكان الغجر عرضةً له على نحو خاص، بسبب اضطرابهم للحصول على معلومات عن بلد ما وسكانه ، من شأنها أن تفيدهم لدى حلولهم به . ومما تجدر ملاحظته اعتراف أفينتينوس بلغة غجرية خاصة، ولو أنه يدعواها ثندية (٥) ، وهي لغة سلاقية كانت محكيةً في شرقي ألمانيا (وربما كان يقصد أنهم تعلموا لغةً أجنبية ، تسمح لهم بأن يكونوا مراوغين) ومما تجدر ملاحظته كذلك تفسيره للهجرات الغجرية ، على أنها نفى لمدة سبع سنوات ، لعودهم عن نجدة العائلة المقدسة في هربها إلى مصر . وإذا كان الغجر أنفسهم هم الذين اختلقوا هذه القصة ،

(٢) مترجم عن اللاتينية من كتاب يوهان تورماير.

Analium Boiorum libri septem (Ingolstadt, 1554).

(٣) (١٤٩٢ - ١٥١٤) كان امبراطوراً واسع الثقافة حظى بتقدير مكيافيللي ، حاول توحيد الدويلات الألمانية تحت سيادة الهابسبورج ، لكنه أخفق في مسعاه . في عهده بدأ مارتين لوثر دعوته الإصلاحية (المترجم) .

(٤) أي المجلس التشريعي (المترجم) .

(٥) وهو تعبير ألماني أطلقه الألمان على من جاورهم من صقالبة ، كانوا مايزالون على الوثنية ، وذلك حين توجهت إليهم حملة صليبية في ١١٤٧ ، أسفرت عن القضاء على وثنياتهم وجرمنة بلادهم حتى حوض الأودر Oder (المترجم) .

فلكونها تتفرد بقابليتها للانتشار من حيث ارتباطهم فى الذهن الشعبى بمصر ، ولم يكن أحد ليدرى فى ذلك الزمان (٦) ، أنهم لم يكونوا قد غادروا الهند بعد، بيد أن هذه القصة هيأت للأوربيين ذرائع مناسبة لاضطهادهم، على غرار تلك التى عززت فكرة معاداة السامية ، بزعم تورط اليهود فى صلب السيد المسيح ، وتورطهم كذلك فى التضحية بالأطفال المسيحيين فى عيد الفصح اليهودي.

تاريخياً ، فإن أهم ملاحظة يأتى بها أثينتينوس هى ادعاؤه بأن هجرة الفجر العامة إلى باقاريا بدأت فى أدنى تقدير فى عام ١٤٣٩ ، وكان يقودهم ملكهم تسينديلو Zindelo أو تسيندل Zindel ، وهذه هى المرة الوحيدة التى يرد فيها ذكر ملك بهذا الاسم ، ومع ذلك فربما تهيأت معلومات وافرة ، اعتماداً على معلومة واحدة ، وهناك ما يغرينا للربط بين ظهور جماعة غجرية وبين عدد مسمى من الزعماء القلائل ، وفى حالات نادرة يمكننا أن نرسم بدقة على الخريطة الطريق التى يفترض أن اتخذها واحد من هؤلاء ، وربما يتوافر المثال على ذلك فى كتاب Gili Zingari لأدريانو كولوتشى Adriano Colocci (١٨٨٩) ، حيث يضم خريطة ، تبدو فيها خطوط رحلات الملك زيندل Sindel ودوق ميهالى Mihali ودوق أندراش Andrash ودوق پانويل Panuel . وتبدأ الخطوط المختلفة الملونة من الأفلاق ، ثم تفترق فى المجر ، ويعزى إلى الدوق پانويل (الذى نصادفه الآن فقط) وبدون سبب ظاهر قيادته فى سنة ١٤١٧ لجماعة من الفجر ، عبر بها مدن البلطيق ، ثم اختلف على لايبتيسيج Leipzig (١٤١٨) وميتس (١٤٣٠) ، أما الدوقان ميخائيل وأندرو فقد وصلا بعيداً معاً إلى سويسرا ، ثم انحرف أندرو فى اتجاه الجنوب ، ومر على بولونيا وفورلى وروما (١٤٢٢) ، وعاد عبر پروقانس إلى باريس (١٤٢٧) ، وشوهد لآخره مرة على الطريق الواصلة إلى إنجلترا ، أما عن جماعة الدوق ميخائيل ، فقد انشطرت إلى قسمين ، اتجه أحدهما شمالاً بغرب إلى شتراسبورج (١٤١٨) وأوجزبورج (١٤١٩) ومينستروكاسل Cassel (١٤٢٤) ومايسن (١٤٢٦) ، بينما اتجهت الأخرى جنوباً بغرب إلى لوسيرن وسيسترون Sisteron (١٤١٩) وبرشلونة (١٤٤٧) ، ورغمما عما يبدو فى ذلك من خيال ، فإن أقصى ما كان يمكن أن يفعله كولوتشى مع الملك تسندل ، هو أنه يجعله على رأس جماعات اتجهت إلى الإقليم المحيط براتيزيون (١٤٢٤ ، ١٤٢٦ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٩) ، وفيما عدا ذلك

(٦) أى فى زمان المسيح عليه السلام (المترجم) .

وإشارات قليلة من هؤلاء الذين يعتمدون على أقيئتينيوس ، فإن تسنديل يختفى من المسرح دون أن يترك أثراً .

مع ذلك سوف نلتقى بدوقات وكونتات يحملون أسماء عدة ، بعضها مألوف وبعضها مستحدث ، لكننا عند هذا الحد نتوقف عن التعامل مع غربيى أوروبا وشماليتها ككل ، ويصير من الأفضل أن نتعامل مع كل بلد على حدة ، ونتقصى فى كل واحدة منها ، ما جرى من تطور متدن فى حظوظ الفجر ، ثم نحدد وضعهم حول منتصف القرن السادس عشر ، فى ضوء المناخ الذى يعكسه أقيئتينيوس (٧) .

ألمانيا والنمسا وسويسرا

كان ذلك فى ألمانيا حين مالت المواقف تجاه الفجر نحو التشدد ، ولو إن خطابات الحماية الامبراطورية حافظت على بعض من قوتها لبعض من الوقت ، بل إن كونتاً يدعى ميتشيل Mitchell انتهز الفرصة ، ونجح فى أن يؤمن لنفسه واحداً منها منحه إياه الإمبراطور فردريك الثالث (٨) . ويغلب أن هذه الوثيقة صحيحة ، حيث إنها صدرت فى زيفيلد Seefeld فى أبريل ١٤٤٢ ، وهو ما يتسق مع مسيرة فردريك المعروفة إلى أخن Aachen ، حيث توج إمبراطوراً ، وبعد عام نشاهد كونت متيشيل أو ميخائيل فى بينز برج Bensberg على مقربة من كولونيا ، لدى القلعة التى كان يقيم بها دوق بيليش - برج Jülich-berg ، حيث غادر ومعه جواز مرور، تشبه بنوده بنود سابقه ، وإن اشترط فيه على المستفيدين أن يسلكوا سلوكاً طيباً ، وتستخدم كلتا الوثيقتين تعبير Czygenier بمعنى الفجر ، وسوف يمنح دوق بيليش - برج خلال حياته

(٧) هنا كما فى أى مكان آخر استخلصنا مادتنا من كم هائل من المصادر التى تحتوى ثروة من الوثائق المتوافرة فى دوريات متخصصة ، وفى هذا الفصل الذى يتضمن بوضوح شامل الموارد التاريخية المعروفة عن الفجر حتى خمسينيات القرن السادس عشر ، فإن الاقتباس من كل واحدة منها قمين بأن يجعل الصفحة تنوء بها . لذلك أثرنّا أن نركز فى الاستشهادات على ما يتسم منها بالاتساع ، وكثير من الأعمال التى اقتبسنا منها فى الفصل السابق تظل لها فائدتها هنا ، ومن أهم الكتب عن تاريخ الفجر حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ويعد وثيق الصلة بموضوعنا هو كتاب :

F.de Vaux de Foletier's Mills ans d'histoire des Tsiganes (Paris, 1970).

(٨) (١٤٣٩ - ١٤٩٣) وفى عهد الطويل ضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء امبراطوريته ، ونشط من يعرفون بالفرسان اللصوص (المترجم) .

جوازين آخرين إلى من يدعى كونت ديديريتش Dederich (ديريك Derrick) أولهما في ١٤٤٨ والآخر في ١٤٥٤ (٩) .

ورغمًا عن ذلك ، فقد صادف الفجر مواقف متفاوتة من المدن التي حلوا بها ، فقد تواصل العطاء لهم في هامبورج (١٤٤١-١٤٦٨) وهيلدزهايم (١٤٤٢-١٤٥٤) ، دون ثم مايدل على بغضاء ، في حين لم يتم الترحيب بهم في مدن أخرى ، ويرد في وثائق زيجمبورج Siegburg إلى الشمال قليلاً من بون إشارات إلى هبات متتالية الفجر ، تبدأ من عام ١٤٣٩ ، لكنها كانت في حقيقتها رشاو ، لحفزهم إلى الرحيل ، ودرجت فرانكفورت أم ماين منذ عام ١٤٤٩ على عدم السماح لهم بدخولها ، أو تمنعهم بالقوة من دخولها ، وفي عام ١٤٦٣ أعطتهم بامبرج Bamberg في فرانكونيا Franconia أموالاً من أجل أن يغادروها ، أما في بافاريا فنلمس فيها ذريعة من أغرب الذرائع لطردهم في عام ١٤٥٦ ، فقد ألح معلم يدعى يوهان هار تليب Johann Hartlieb له كتاب في قراءة الكف ، ألح على الدوق بأن يتخلص منهم ، لافتقادهم إلى المنهجية العلمية في قراءة الكف .

وأحياناً ، يكون تغير الحكام عليهم مفاجأة يصعب تفسيرها ، ففي مارس ١٤٧٢ منح فردريش كونت بالاتين خطاباً يتضمن البنود المعتادة إلى كونت بارثولوميو Bartholomeus ، لكننا نجده في ديسمبر من العام نفسه ، يأمر بمنع أى غجرى من عبور أراضيه ، وهناك أمير آخر يبذل قصارى جهده بعد عشر سنوات لإبعادهم هو الأمير ألبر يشث أشيليش Albrecht Achilles مركيز براندنبورج .

ظلت لدى النبلاء من الفجر تشكيلة متنوعة من الأسماء ، وكان موت أحدهم يعنى أحياناً تسجيل اسم نبيل جديد في ألمانيا ، مثل دوق مانويل في سنة ١٤٤٥ (قرب فيرستناو Fürstenau بسكسونيا السفلى وكونت پتروس في ١٤٥٣ (قرب باوتنا Bautna) وكونت

See O. Van Kappen, 'Four early safe-conducts for Gypsies; JGLS (3), (٩)
44 (1965), pp. 107-15

ولدينا ثلاثة كتب توجد بها روايات عامة عن تاريخ الفجر في البلاد المتحدة بالألمانية هي :

H. Arnold, Die Zigeuner, Herkunft und Leben in deutschen Sprachgebiet (Olten, 1965), esp. pp. 33-63' H. Mode und S. Wölffling, Zigeuner, Der weg eines Volkes in Deutschland (Leipzig, 1968), esp. 141-66; and R. Gronemeyer and G.A. Rakelmann, Die Zigeuner, Reisende in Europa (Cologne, 1988), esp. pp. 23-78.

أنتوني في ١٥٥٢ (في بریتسنجن Brötzingen) هؤلاء النبلاء جميعهم وغيرهم زينت قبورهم بشعارات النبالة ، والحال نفسها مع كونت يوهان الذي دفن في بفورتسهايم Pforzheim في ١٤٩٨ ، وبين الأحياء فإن دوقاً يدعى إرنست وكونتاً يدعى أمبروزيوس Ambrusius ألقى بهما إلى السجن في هوهنجيرولدزك Hohengeroldseck بالپلاتينات في سنة ١٤٨٣ لجرم نجهله ، لكنهما وجدا مخرجاً لمشكلتهما ، بأن أكدا على أهميتهما ووعدا ألا يثارا لسجنهما، وولتقى في سنة ١٤٨٨ بسكسونيا باسم جديد هو كونت نيكولاوس كاسبار Nicolaus Caspar من مصر الصغرى، وقد حصل على خطاب حماية^(١٠) من يوهانا كونتييسة لايسنيك Leissnigk بأن نسج الحكاية المعتادة عن العقاب .

في عام ١٤٩٧ وجد المجلس التشريعي للإمبراطورية الرومانية المقدسة (الدايط) أنه لامندوحة من تدخله ، فاتهم الغجر بالتجسس ، وشرع في اتخاذ مايلزم للتخلص منهم، وقرر في العام التالي أنهم جواسيس يتحتم إبعادهم ، وتجدد هذا المرسوم في عام ١٥٠٠ ، وسمح لهم بأن يرحلوا من الأراضي الألمانية ، خلال مدى لايجاوز عيد الفصح ، تستحل بعدها دماؤهم وأموالهم ، وباختصار فقد جعلهم خارجين على القانون ، لكن هذه الاجراءات لم يتوافر لها سوى قدر محدود من الفعالية ، ولم تحل دون إصدار جوازات مرور جديدة ، مثل الجواز التي منحه الدوق البولندي بوجيسلاف Bogislaw العاشر حاكم غربي پوميرانيا ووسطها للودفيج فون روتنبورج Ludwig von Rothenburg كونت مصر الصغرى (١٥١٢) عوناً له في طريقه إلى دانتسيج (جدانيسك Gdansk) ، صحبة رفاقه من الـ Zyganisch . ولم تحقق التشريعات التي أصدرها الدايط في عامي ١٥٤٤ و ١٥٤٨ الغاية المرجوة منها ، لكنه في قراره الصادر في سنة ١٥٥١ يسعى لسد الثغرات بإعلان أن أى جواز سبق أن حصل عليه أى غجرى يعد لاغياً ، وحظر إصدار وثائق جديدة في المستقبل ، وكان هذا هو آخر القرارات العامة التي أصدرها الدايط الامبراطورى ، لكنه لم يكن آخرها بالنسبة لقواعد النظام العام التي صدرت ابتداءً من سنة ١٥٠٠ ، فضلاً عما صدر من قوانين بلدية مشابهة في

(١٠) النص كاملاً في C. von Weber , ' Zigeuner in Sachsen 1488 - 1792, in Mitteilun- gen aus dem Hauptstaatsarchiv zu Dresden (Leipzig. 1857-61), vol 2, pp.282-303.

أقاليم ألمانية بعينها ^(١١) ، على أن كون ألمانيا تضم نحو ثلاثمائة دولة ، لم يكن يعنى تكاثراً فى القوانين فحسب ، إنما كان يعنى فى الوقت نفسه عدم فعاليتها فى كثير من الأحيان ، وذلك لتراخى الإمارات الصغيرة ، وإخفاقها فى أن تعمل معاً ، ونقف بين حين وآخر على مؤشرات لاستخدام القوة ، مثلما حدث فى سنة ١٥٣٨ ، حين عين كل من كبير أساقفه كولونيا وأسقف مينستر ودوق كليفس - يليش - برج Cleves-Jülich berg - خمسة وعشرين دركياً - لاتخاذ مايلزم ضد مثيرى الشغب والقائمين بإعادة العماد والفجر وغيرهم ، وبينما كانت كليفس ييليش برج غايةً فى الكرم مع الفجر قبل مائة عام ، فإنه صار فى إمكانها الآن أن تقوم بدور أكثر فعاليةً من معظم القوانين التى أصدرتها بين عامى ١٥٢٥ - ١٥٥٨ والتى حظرت على الفجر دخول الدوقية . ويتضح لدينا إلى أى حد كان تأثير أى قرار إمبراطورى ضئيلاً فى حد ذاته ، مما جرى فى نورمبرج فى عام ١٥٤٩ ، فقد ظهرت جماعة من الفجر لدى هيديك Heydeck وهى قرية تقع على مبعدة أميال إلى الجنوب ، وأمرت البلدية الموظف المسئول ، بأن لايتخذ أى إجراء ضدهم ، ولكن عليه فقط أن يقنعهم بالرحيل ، وعندما عاودوا الكرة فى العام التالى خولت له السلطة لاستخدام القوة ضدهم فى حال ما إذا أخفق فى إقناعهم .

تتابعت الأحداث على نحو مشابه فى الأقاليم السويسرية التى كانت تشكل ولدى طويل جزءاً صغيراً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لكنها صارت تناضل الآن فى سبيل استقلالها واتحادها ، وفى سنة ١٤٧١ قرر الدايط Tagsatzung المنعقد فى لوسيرن منع الفجر من أن يقيموا بالاتحاد السويسرى ، ولا أن يلوذوا به ، بل إن مدينة جنيف التى كانت خارج الاتحاد آنذاك ، قامت فى عام ١٤٧٧ ، بإبعاد عدد من السراسنة ، وفى عام ١٥١٧ وللمرة الثانية وبعد أن تكررت الشكاوى بأن هؤلاء القوم يسرقون وأنهم خطرون ، تقرر فى لوسيرن إبعاد الـ Zegynen من الاتحاد ، على أن يكون جزاؤهم الشنق إذا ماعادوا ، ومع ذلك فقد تواصلت الشكاوى منهم ، وصدرت تعليمات من دايط عقد فى برن فى عام ١٥١٦ باتخاذ الاحتياطات اللازمة لإبقائهم خارج الحدود ، وقبل ذلك بشهور قليلة قامت جنيف بإبعاد كل السراسنة ، على أن هذه

Cf. A. Scott Macfie, 'Gypsy Persecution : a survey of a black chapter in European history ' , JGLS (3), 22 (1943), pp.65-78. (١١)

الاجراءات لم تثبت فعاليتها بوضوح ، حيث إنه في سنة ١٥٢٥ جددت لوسيرن قرارها بإبعاد الغجر من الإتحاد ، ووجوب أن يعاقبوا على السرقة، شأنهم شأن غيرهم من اللصوص ، ثم أعيد تجديد هذا القرار ، وقد استرعى اهتمام الحضور في دايط عقد في بادن في سنة ١٥٣٠ أن الغجر صاروا يترحلون في كل مكان ، وصدر الأمر إلى السلطات المحلية ، بأن لاتدعهم يدخلون ، وتم التشديد على إمكانية شنقهم ، في حال ما إذا قبض عليهم ، وهم يحتالون على الناس ويسلبونهم أموالهم ، وبعد سنتين فقط صارت المشكلة الغجرية على جدول الأعمال وبالنتيجة نفسها ، أى أينما يوجدون يلقي القبض عليهم ، ويعاقبون وفقاً للقانون ، وإنه يجب ردهم عند الحدود .

أما عن الروايات عن مقاومة عنيفة على الجانب الغجري فقد كانت نادرة ، ولدينا في جنيف مثال واحد من الأمثلة القليلة ، فقد نشب عراك في عام ١٥٣٢ بين جماعة كبيرة من الغجر وبين موظفي المدينة الذين كانوا يحاولون منعهم من دخولها ، ومع أن الغجر وجدوا ملاذاً لهم في أحد الأديرة ، إلا أن أهل المدينة سعوا إلى تنفيذ العدالة الناجزة فيهم ، ولم تتدخل السلطات حين قبض على عشرين منهم، لكنهم التمسوا العفو وحصلوا عليه «لوجه الله» Propter Deum ويبدو أن بعضاً من عباق الحاج كان مايزال عالقاً بهم .

منذ القرن السادس عشر بدأ الإخباريون السويسريون (ونخص بالذكر برنثالد Brennwald (ت حوالى ١٥٣٠) وشتومبف Stumpf (١٥٣٨) وفورز تيزن Wurstisen (١٥٨٠) بدأوا يقارنون بين الزوار الغجر في السنوات الخالية (كما في وصف شتومبف) وهؤلاء «الأنذال عديمي الفائدة الذين يترحلون في هذا الزمان، وأن أعلاهم مكانة لص ، لأنهم يرتزقون من السرقة فحسب» (١٢) . ويعد هذا واحداً من الإرهاصات الباكورة «عمن هم الغجر الحقيقيون» ، وهي جدلية مايزال يصر عليها البعض ، مفترضين أن الادعاء بصلة حقيقية بين غجر اليوم وبين وطن هندي أصلى إنما هو مجرد وهم (١٣) ، وفي القرن التالي ، سوف يقوم إخباريون سويسريون

(١٢) مترجم عن الألمانية من كتاب :

Johann Stumpf, Schweytzer Chronik (Zürich, 1606), fol. 731.

E.G.J. Okley, The Traveller- Gypsies (Cambridge, 1983)' ; N. Martinez, Les (١٣)

Tsiganes (Paris, 1986).

آخرون (جولد ١٦١٦ Guler وشبريشر ١٦١٧ Sprecher) بتصعيد هذه الفكرة إلى حد الاحتجاج بأن الغجر الأصليين أبوا في نهاية المطاف إلى وطنهم ، بعد نفي كتب عليهم ، وحل محلهم حشارة غريبة من اللصوص (١٤) .



شكل ٧ أسرة غجرية لفنان مجهول حوالي سنة ١٤٨٠

المكتبة الاملية باريس

فرنسا

في عام ١٤٥٣ وصلت حرب المائة عام (١٥) إلى نهايتها ، وتم طرد الانجليز من الاراضى الفرنسية - عدا كاليه Calais - لكن معظم هذه الاراضى المستردة ، ظلت خارج السلطة المباشرة للملك ، إلى أن بدأت سلسلة من المصادرات دامت نحواً من

(١٤) Cf. A.M., Fraser, 'Counterfeit Egyptians', Tsiganologische Studien 1990, no. 2, pp. 43-69.

(١٥) دامت بالتحديد ١١٦ عاماً (١٣٣٧ - ١٤٥٣) ، والسبب الاصلى لها هو النزاع بين ملوك فرنسا وانجلترا على ممتلكات التاج البريطانى فى الاراضى الفرنسية التى تعود فى بداياتها إلى زمان الغزو النورمندى لانجلترا فى عام ١٠٦٦ (المترجم) .

خمسین سنة ، حتى أدمجت أراضی دوقات ، برجنديا وأنجو Anjou وبريتانی Brittany وبوربون Bourbon ، ويعنى هذا أن مايعرف اليوم بفرنسا كانت تتوزعه مجموعة من الوحدات السياسية المختلفة .

لم تكن تلك الأحداث يلا مزية بالنسبة للفجر (١٦)، فكان فى استطاعتهم فى البداية أن يترحلوا فى معظم أنحاء البلاد مطمئنين ، وكانت نيثر Nevers فى سنة ١٤٣٦ ماتزال عاصمة لإقطاع مستقل ، حين التمس «الأمير النبيل توماس كونت مصر الصغرى» noble prince messire Thomas comte de Gipte la Menor وثلاثون من أتباعه من أهل المدينة أن يمنحوهم الصدقة ، وبعد خمس سنوات ، رحبت المدينة نفسها بأمر نبيل آخر ، فقد حل بها كونت فيليب وأربعون من أصحابه ، وربما كان هو فيليب نفسه الذى أعطاه كهنة كنيسة سان أندور فى جرينوبل Grenoble بعد عام اثنين من الفلورينات ، وربما كان الأول هو نفسه الذى حضر فى العام نفسه (١٤٤٢) إلى تروى .

وكانت پروفانس وهى كونتية مستقلة إقليمياً محبباً إلى الفجر ، رغماً عن تضائل ما سبق أن أبدته تجاههم من كرم ، فحين أتى واحد من دوقات مصر الصغرى إلى Arles فى سنة ١٤٨٣ أعطى عشرة فلورينات ، وبعد بضع سنوات حصل اثنان آخران من الزعماء هما جون وجورج على صدقات من المدينة نفسها ، لكن المبلغ تناقص إلى ستة فلورينات ثم أربعة ، أما الألزاس واللورين ، التابعتان للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فقد أبديتا خلال القرن الخامس عشر تعاطفاً واضحاً تجاه الفجر ، لكنهما لم تلبثا أن تعرضتا فى مرحلة لاحقة لما تعرضت له سائر الامبراطورية فى موقفها منهم ، ففي سنتى ١٤٤٢ ، ١٤٤٤ لم تكتف كولمار بأن توزع الخبز على «السراسنة» ، لكنها وجدت من الحصافة فى المرة الأولى أن يشهد كل من العمدة والبلدية على أن أندور دوق مصر الصغرى وأهله قد غادروا مدينتهم بسلام ، وفى سنة ١٤٥٠ منحت

(١٦) توجد تفاصيل عن تاريخ الفجر فى فرنسا حتى عصر الثورة الفرنسية فى

F. de Vaux de Foletier, Les Tsiganes dans l'ancienne France (Paris , 1961).

ومن الكتب الهامة التى تختص بموقف السلطات الفرنسية من الفجر , H. Asséo and J. P. Vittu,

Problèmes Socio - Culturels en France au xvle siecle (Paris,1974), PP. 9 - 87 , and

J. P. Liégeois , " Bohémiens et Pouvoirs Publics en France du xve au xix siècle",

Études Tsiganes (1978) , n.4,PP. 10 - 30 .

السلطات ذاتها كونت فيليب جواز مرور ، يشهد بأنه وصحبه سلكوا سلوكاً طيباً يتفق والأخلاق المسيحية ، وإذا صدقنا يوميات جان أوبريون Jean Aubrion نجد ما لا يقل عن مائتين من «المصريين» قد نصبوا خيامهم لدى متس^(١٧) على ضفاف الموزيل Mossle في سبتمبر ١٤٩٤ ، وبعد يومين لحق بهم ثلاثمائة من إخوانهم يقودهم دوق ، وعندما أنجبت زوجه بنتاً ، فقد تم تعميدها في كنيسة سان جوليان ، وأضحى لها ثلاثة عرابين وعرابتان من الأسر النبيلة في المدينة ، وقد تكشفت للفجر المزايا الناشئة عن أن يكون لأطفالهم عرابون من الأغيار ، لما في ذلك من إضفاء للحماية ومجربة للهبات ، وسوف تصبح لدينا وفرة من مناسبات أخرى ، اتبع فيها النهج نفسه.

ولم تكن الصلات داخل ممتلكات التاج الفرنسي أقل اتساقاً ، ففي سنة ١٤٤٧ منحت دوفينية Dauphiné الصدقات عن طيب خاطر (لكونت بارتليمي) Barthélemy ، كما تكرر منحها له في أورليان ، وفي سنة ١٤٥٧ حظيت ميلو Milau في الجنوب بزيارتين على الأقل لفجر ، استقبلتهم استقبلاً حسناً ، وفي الزيارة الثانية كان يقودهم كونت يدعى توماس ، وهو اسم صار شائعاً ، وكان اللقب الذي عرف به فريداً من نوعه وهو «كونت مصر الصغرى في بوهيميا» وقد أوضحت بوهيمي Bohémien فيما بعد مرادفةً لفجرى ، كما سجلت استقبالات ودية أخرى في بايون Bayonne (١٤٨٣) وريسيل Riscle في أرمينياك Armagnac وبيتون Béthune في أرتوا Artois (١٥٠٠) ، لكن لدينا أخباراً عديدة عن صدامات فكانت الكنيسة تسعى أحياناً لمنع أبناء أبروشياتها من استشارة السراسنة ، الذين كانوا في شوق لأن يضطلعوا بهذه المهمة ، ففي إبروشية تروى (١٤٥٦-١٤٥٧) فرضت الكنيسة عدة عقوبات على هؤلاء الذين تركوا أكفهم ليطالعوها الفجر ، أولجئوا إليهم ليعالجوهم من علل أصابتهم ، وفضلاً عن ذلك كانت لدى الشعب الفرنسي أسبابه العديدة ، كي يتوخى الحذر من جماعات كبيرة من الناس تتنقل من مكان إلى آخر في بلادهم ، فقد ترتب على حرب المائة عام أن ظهرت عصابات من المتشردين والجنود المسرحين تبتث الرعب أينما حلت ، وتثير زعر الفلاحين والمزارعين وسكان المدن ، وقد عانى الفجر بدورهم كذلك ، ففي عام ١٤٥٣ شوهدت جماعة تضم نحو خمسين من «المصريين أو السراسنة» عند لاتشيب La Cheppe علي مقربة من شالون سورمارن Chalons-sur-Marne في

Journal de Jean Aubrion, bourgeois de Metz (Metz, 1857), p. 348 .

(١٧)

شمبانيا Champagne ، وقد حملوا الرماح وغيرها من الأسلحة ، وهرع أهل المدينة إليهم بالهراوات والمناخس والرماح والنبال ، وخاطب الوكيل الملكى هؤلاء الأغراب ، معترضاً على مقدمهم ، حيث إنهم أوقوماً يشبهونهم كانوا فى لاتشيپ مؤخرأ ، وخلفوا ذكريات غير طيبة ، فقد اختلسوا الطعام والأموال وأى شىء آخر أمكتهم اختلاسه ، وإنه من الأفضل لهم - أى الفجر - أن يرحلوا إلى النواحي المجاورة ، وسوف تقوم المدينة باطعامهم وخيلهم قبل رحيلهم ، وبعد مناقشة حامية انسحب الفجر ، لكن واحداً من أهل المدينة كان فى أعقابهم ، واشتبك مع أحدهم فى عراك مسلح وقتله بأن أغمد رمحه فى بطنه ، وهرب القاتل بعد أن سمع بأن الفجر مشمولون بحماية الملك ، ويعث من مخبئه يلتمس الدفاع عن نفسه ، ولم يلبث أن منح خطابات ملكية بالعفو.

كان مايزال هناك قدر كبير من الشك فى سنة ١٤٦٥ ، حين توافدت أعداد من الفجر لثلاث مرات على كارپنترا Comtat - Venaissin Carpentras وهى مقاطعة بابوية قريبة من أقينيون ، وعادت بوهيميا ارتباطها بزعيم هؤلاء الفجر «دوق أمة بوهيميا» و «كونت البوهيميين من مصر الصغرى» و «كونت مصر الصغرى فى بلاد بوهيميا» . وأعلن عن شكاوى من سرقات وجرائم أخرى غير محددة ، وقررت سلطات المدينة منح رئيسهم بعض المال ، شريطة أن يذهب بقومه بعيداً... وبذا صار أسلوب إعطاء الفجر نقوداً لصرفهم تقليداً متبعاً فى إقليم الرون .

حتى أوائل القرن السادس عشر توجب على مسئولى البلديات أن يلجئوا إلى وسائل عدة فى تعاملهم مع الفجر ، وكانت ردود أفعال كبار المتنفذين مفعمة بالتناقضات ، ولم يتفقوا على سياسة واحدة تجاه الفجر ، وهو ماحدث بالفعل فى أنجر Angers فى سنة ١٤٩٨ ، حين أمر رئيس الشرطة نيابةً عن رئيس البلدية بإغلاق أبواب المدينة أمام حشد من الفجر ، ومالبت أن احتدم النقاش بينه وبين نائب القاضى الذى كان قد منحهم الإذن بدخولها .. وهكذا صارت القرارات الملكية والأحكام القضائية تتفاوت فى تحديد المعاملة المناسبة لهم ، وفى يوليو ١٥٠٤ أرسل لويس الثانى عشر ^(١٨) إلى مأمور روان Rouen يأمره بالتفتيش عن المصرين المشردين

(١٨) (١٤٩٨-١٥١٥) وفى عهده تم توحيد فرنسا ، وحاول أن يدخل إيطاليا فى طاعته ، لكنه أخفق فى منسغاه (المترجم) .

وطردهم ، وحتى وإن كانت في حوزتهم جوازات مرور ، وفي سنة ١٥١٠ وفي سياق فرض عقوبة النفي على سبعة من الغجر أدينوا لدى محاكمتهم ، قرر المجلس الكبير أن تمتد هذه العقوبة إلى سائر الغجر في المملكة الفرنسية ، ومع ذلك فكان يتم أحياناً غض البصر عن الأوامر الملكية ، ففي سنة ١٥٠٩ هرع مواطنو روان ومعهم القس إلى الغجر ليقرأوا طوابعهم ، مخاطرين في ذلك بأرواحهم ، بينما لدى الطرف الآخر من نورماندى لم يجد الغجر ما يمنعهم من أن يشقوا طريقهم نحو ضريح مون سان ميشيل Mont-Saint-Michel المقدس ، وقد تمتعوا بحماية دوقة بريتانى لدى اجتيازهم بأراضيها .

بعد مضي قرن على العقوبة التي فرضتها البابوية (ص ٩٥ - ٩٦) ظلت هذه العقوبة تمارس بعضاً من سحرها ، على الأقل بين السلطات الكنسية ، ففي سنة ١٥٢٨ منح نائب الكاهن في Comtat - Venaissin خطابات حماية للكونت جان بابتيست رولان Jean - Baptiste Rolland من مصر الصغرى مساعدة له في رحلته لزيارة الأضرحة المقدسة ، وفي الحصول على الصدقات من المؤمنين ، وعلى العكس من ذلك ماجرى في سنة ١٥٣٣ ، حين أمر نائب الملك في لانجدوك Languedoc المجاورة من لديه من غجر تزايدت أعدادهم ، بأن يغادروا إقليمه في الحال ويأقصر طريق .

وفي سنة ١٥٣٧ فإن روبردوكروي Robert de Croy أسقف ودوق كامبريس Combresis وأمير الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، أحسن وفادة كونت مارتين من مصر الصغرى ، وأخيراً وفي سنة ١٥٣٩ قرر فرانسيس الأول^(١٩) بأنه أياً كان ماتعتقده الكنيسة ، فقد حان الوقت لتطبيق إجراءات معينة في سائر أنحاء المملكة ضد «أشخاص معينين غير معروفين يدعون أنفسهم بوهميين» يتجولون «تحت قناع ديني زائف ، ويدعون أنهم تائبون يكفرون عن ذنوبهم بالارتحال حول العالم» ، وقرر أنه «منذ الآن فصاعداً يحظر على أي من هؤلاء البوهيميين المذكورين أن يدخل أو يمر أو يبقى في مملكتنا ولا في الأقطار الخاضعة لنا» .

(١٩) أوفرانسوا Francois الأول (١٥١٥-١٥٤٧) أنشأ الكلية الملكية في باريس لتعنى بالدراسات الإنسانية ، ومن نبغ في عصره رابليه Rabelais ومونتاني Montaigne ، كما اهتم بفنون العمارة، وفي عهده بديء في إنشاء متحف اللوفر . شارك في الحروب الإيطالية، وتحالف مع العثمانيين ضد الإسبان (المترجم) .

وحتى الآن كانت الجزاءات باهتةً بعض الشيء ، رغمًا عن وجود عقوبات بدنية لكل من لا يذعن للأوامر ، لكن شارل التاسع (٢٠) تشدد في هذه الجزاءات فأمر في سنة ١٥٦١ بطرد الغجر خلال شهرين ، وإلا عوقبوا بتسخيرهم للعمل مجذفين في سفن الأسطول وتوقيع العقوبات البدنية عليهم ، وكل من يوجد أو يعود بعد هذين الشهرين تحلق رعوسهم (واحاهم في حال الرجال) ويسخر الرجال للعمل مجذفين ثلاث سنوات . واتخذت نبرة نهجاً مماثلاً حين قررت في عام ١٥٢٨ التخلص من كل المتشردين خلال أربعة أيام، ومنع الغجر من دخولها ، وكل من يوجد منهم يجلد ، وكل من يهين لهم ملجأ ، أو يتعامل معهم ، يجازف بأن يؤدي غرامةً كبيرةً ، وقد تجددت هذه الاجراءات عدة مرات بعد ذلك .

مع كل هذا فلم يبدُ أن الغجر عانوا كثيراً من هذا الفيض من المراسيم ، فلم يلجئوا إلى التخفى ، وواصل زعمائهم تلقيب أنفسهم بكونتات ، بل ظهر بينهم لقب جديد هو كابتن ، وعرفوا أيضاً كيف يحصلون على جوازات مرور بطريق التملق، كما ظلوا يرددون القصة المعهودة ، التي كان ما يزال لها سحرها ، وبعد خمس سنوات من إصدار فرانسيس الأول لمرسومه الأنف الذكر ، منح حمايته لأنطوان موريل Antoine Moreul «الكابتن المحبوب لمصر الصغرى» ، وأمر موظفيه بأن يسمحوا بالسفر « للنبييل المذكور موريل وصحبه ، وما بحوزتهم من ذهب وفضه ومنقولات وخيل وأى شىء آخر» وأن لهم أن يرتحلوا نهار سيراً على الأقدام أو على صهوات الجياد ، ليقوموا بحجبتهم إلى كومپوستيلا (٢١) ، أو غيرها ، وأن لهم أن يقيموا في أى مكان يحلون به ثلاثة أيام أو حتى سنة ، إذا دعت الضرورة» واعترف رسمياً بحق موريل في إدارة شئون جماعته ، ويدوره كان هنرى الثانى (٢٢) كريماً مع كونت بالك Palque فى عام ١٥٥٣ وبذا لم تنقض تماماً صفحة هؤلاء الحجاج الغرباء .

(٢٠) (١٥٦٠ - ١٥٧٤) فى عهده وقعت مذبحه سان بارتليمى الشهيرة ١٥٧٢ التى ذبح فيها عدد كبير من الهيجونوت (البروتستانت الفرنسيون) (المترجم) .

(٢١) سانتياجو دى كومپوستيلا Santiago de Compostela المعروفة عند الأندلسيين المسلمين بشنتيأقب ، تقع فى قاصية إسبانيا شمالاً قريبة من خليج بسكاي ، وبها أقدس مشهد دينى فى إسبانيا، وكان يؤمه الحاج من أقطار أوروبا كافة (المترجم) .

(٢٢) (١٥٤٧-١٥٥٩) وفى عهده خاض حرباً سجالاً ضد ألمانيا وإنجلترا واستردكاليه من الانجليز كما إن فى عهده انتهت الحروب الإيطالية (المترجم) .

إسبانيا والبرتغال

معاملة مثل تلك التي حظى بها كونت توماس من ألفونسو الخامس الأرغوني (ص ٩٨ - ٩٩) امتدت لعدة عقود (٢٣)، ولدى اقتفاء آثار الغجر تكون البداية بأرغونة وقطالونيا، فنقف على «دوق» و«كونت» وعدد كبير من أتباعهما في برشلونة في سنة ١٤٤٧، ثم تطالعنا زيارات متعددة لهم لكاستيون دي لابلانا Castillón de la Plana، تعزى واحدة منها لكونت مارتين، فضلاً عن زيارات أخرى وقعت في سنتي ١٤٧١ و ١٤٧٢، وفي عهد جون الثاني (٢٤) الذي خلف أخاه ألفونسو على عرش أرغونة، أفاد الغجر بمجموعة من جوازات المرور، حصل على واحد منها في سنة ١٤٦٠ كونت مارتين، وحصل على ثلاثة كونت جاكوبو وذلك بين سنتي ١٤٦٠-١٤٧١، وكان هذا الأخير قد حصل على خطابات من هنري الرابع ملك قشتالة (٢٥) في الفترة ١٤٥٤-١٤٧٠، كما حصل كل من دوق پاولو في سنة ١٤٧١ وكونت ميغيل في سنة ١٤٧٢ على جواز واحد، بينما حصل كونت خوان ١٤٧٤-١٤٧٦ على ثلاثة جوازات. وماتزال هذه الوثائق تذكرنا بمثيلاتها البابوية، وتؤكد على حق الزعماء في ممارسة القضاء بين جماعاتهم، بل إنها تنص في أحيان على أنه يجب منح الزعيم مساعدة عسكرية في حال الضرورة، حيث يقال إن بعض الأغنياء دأبوا على أن يلتحقوا «بالمصريين»، مما كان يتوقع معه وقوع متاعب كما إن جواز المرور الذي منح في سنة

(٢٣) يعد تاريخ العلاقات بين الغجر والسلطات العامة في إسبانيا، حتى نهاية القرن الثامن عشر، هو الموضوع الرئيسي في كتابين هما :

B. Leblon ; Les Gitans d'Espagne (Paris 1985). G. Borrow's The Zincali (London, 1841). ويحفل هذا الكتاب بالكثير، لذا فما يزال مناسباً وتوجد مقالتان موثقتان توثيقاً جيداً، تختصان بالقرن الخامس عشر هما :

Amalia Lopéz. de Meneses, ' La inmigración gitana en España durante el siglo xv,' in Martínez Ferrando, Archivero. Miscelánea de Estudios dedicados a su memoria (Barcelona, 1968), pp. 239-63; and ' Noves dades sobre la immigració gitana a Espanya al segle xv,' in Estudis d'història Medieval (Barcelona, 1971), vol 4, pp. 145-60.

ومن المصادر الهامة عن التشريعات من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر .

A. Gómez Alfaro's doctoral thesis, 'El Expediente general de Gitanos' (Madrid, 1988).

(٢٤) وهو جوان الثاني Juan II (١٤٥٨ - ١٤٧٩) (المترجم).

(٢٥) وهو إنريكي Enrique IV (١٤٥٤-١٤٧٤) وفي عهده تم الاستيلاء على جبل طارق من المسلمين

(المترجم).

١٤٧٦ لكونت خوان وهو فى طريقه إلى الضريح المقدس بكومبو ستيلاً كان فريداً من نوعه ، فى تصويره لنزاع وقع بين الفجر أنفسهم، لكون هذا الكونت عدواً لدوداً للكونتات مارتين وميجيل وخايمه .

فى الأندلس (٢٦) بمملكة قشتالة قوبلت طلائع الفجر بترحيب كبير ، وكان ذلك فى نوفمبر ١٤٦٢ ، حين استضاف صاحب شرطة قشتالة ومستشارها كونت ميجيل لوكاس دى إيرانتو Miguel Lucas de Iranzo فى مستقره بمدينة جيان Jaén كلاً من كونت توماس وكونت مارتين من مصر الصغرى ، وقد تناولوا وزوجاهما العشاء على مائدته ، ومنحاً وأصحابها قدرًا كبيراً من الخبز والنبىذ والدجاج والسّمك والفاكهة والشعير والتبن ، وكان بانتظارهم لدى توديعهم هدايا من الملابس الصوفية والحرير وقدر محترم من المال ، وقد تطف دون ميجيل بمرافقة ضيوفه لنصف فرسخ على الطريق ، وفى عام ١٤٧٠ عاد ليقوم بدور المضيف السخى ، ولكن هذه المرة فى منتجعه بآندوخر Andujár ، فاستضاف على مدى خمسة أيام أو ستة كونت ياكوبو من مصر الصغرى وزوجه لويزا Loyza وخمسين آخرين ، ثم استضاف بعد أسبوعين دوق پاولو ورفاقه ، وسوف يظل عدد غير يسير من النبلاء الإسبان حماةً للفجر يشملونهم بعنايتهم ، حتى فى الأوقات الصعبة ، وسوف تعطى لتصرفات مثل هذه تفسيرات من قبل من أدانوها فيما بعد ، وذلك فى تلميحات مأكرة عن غوايات النسوة الفجريات ، ومواهب الرجال الفجر فى تزويد اسطبلات أصدقائهم بجياد كريمة ، وفى الوقت نفسه قام كونت ياكوبو ودوق پاولو بزيارة لمرسية Murcia - ويظن من اسميهما ولقبيهما أنهما اللذان أتينا على ذكرهما آنفاً - ، وقد حصلا على مبلغ من المال يصل إلى ألفى مرابطى Maravedis (٢٧) لياكوبو وألف لپاولو ، الأمر الذى اضطر رجال البلدية لأن يقترضوه من أجلهم (٢٨).

(٢٦) المقصود بها السهل الواقع إلى الجنوب الشرقى من إسبانيا وقصبتة إشبيلية (المترجم) .
(٢٧) عملة إسبانية أطلق عليها هذا الاسم تشبهاً بعملة المرابطين المغاربة الذين سبق لهم حكم الأندلس (المترجم) .

(٢٨) D. Creades, "Les premiers Girtans à Murcie", Études Tsiganes (1974), nos 2/3, pp. 5-7.

على أنه فى العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر ، بدأ الصدود عن إعطاء
الغجر صدقات بلا حدود ، فمنذ السبعينيات صار هناك سعى للتخلص من ابتزازهم ،
كما صاروا يصرفون حين يظهرون ، وفى هذه الأثناء وفدت موجه جديدة منهم عبر
البحر المتوسط ، ولم يعد أصحابها يدعون أنهم من مصر الصغرى ، بل يعرفون
أنفسهم بأنهم يونانيون ، هربوا من وجه الأتراك ، ولم يتخذ زعداؤهم ألقاباً مثل دوق
أوكونت ، بل اتخذوا ألقاب سيد أو فارس أو حتى كابتن ، وعرفوا ببساطة بأسمائهم
الأولى ، وأضحت النسبة الجغرافية للأسماء محيرة ، فكان يشار إليهم فى سنة ١٥١٢
إبان تشريعات الاضطهاد بقطالونيا على أنهم «بوهيميون وبوهيميون يونانيون حمقى
ومصريون » Boemians et sots nom de Boemians grechs, e Egiptians .

حالما اتحدت قشتالة وأرغونة فى عام ١٤٧٩ بدأ فرديناند وإيزابلا (٢٩) فى
استعادة القانون والنظام ، وتدعيم سلطة الدولة ، بعد سنوات من الحرب الأهلية ،
وهما لم يقدمتا على إلغاء خطابات الحماية السابقة فى الحال ، بل على العكس أصدرتا
بعضاً منها ؛ مثل الخطاب الذى منح لكونت فليبو من مصر الصغرى Felippo de
Egypto la Menor فى عام ١٤٩١ ، لكن مثل هذه الخطابات لم تدم طويلاً ، وبدأ
التخفيف من إعطاء الصدقات ، وتحول الاهتمام إلى حقهم فى ممارسة مهن شريفة
وشرعية طلباً للرزق ، وفى ٤ مارس ١٤٩٩ أى بعد سبع سنوات من طرد اليهود وقبل
ثلاث سنوات من التنصير القسرى للمسلمين ، صدر بمدينة دل كامپو Medina del
Campo قرار من الملكين الكاثوليكين ، يشترط فيه على الغجر أن يختاروا الاستقرار ،
ويصير لهم سادة أو يطردوا بعد ستين يوماً ، وفى عام ١٥١٩ عندما صار شارل الأول
إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس (٣٠) ، قام بتجديد هذه البنود
عدة مرات ، وأضاف إليها بأن هؤلاء الذين يتم ضبطهم يتجولون للمرة الثالثة ، يقبض
عليهم ويسترقون إلى الأبد ، أما هؤلاء الذين لم يستقروا أو لم يغادروا البلاد خلال
ستين يوماً ، فيتم إرسالهم للعمل مجذفين فى سفن الأسطول لستة أعوام ، ماداموا

(٢٩) بالإسبانية فرناندو Fernando وإيسابيل Isabel اللذان عرفا بالملكين الكاثوليكين ، وفى
عهدهما سقطت غرناطة Granada آخر المعاقل الإسلامية بالأندلس (١٤٩٢) وهى السنة نفسها التى شهدت
كذلك قيام كولبوس برحلته الأولى من إسبانيا إلى العالم الجديد (المترجم) .
(٣٠) أى شارلكان (١٥١٦ - ١٥٥٦) وبالإسبانية كارلوس حفيد فرناندو وإيسابيل ، وقد بدأ ملكاً
إسبانياً ، ثم صار إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة (١٥١٩-١٥٥٦) (المترجم) .

رجالاً تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسين ، ويعكس هذا البند الأخير ما واجهته الحكومة من صعوبات فى تزويد أسطولها بمجدفين، استجابةً منها لحال الحرب الدائمة بين إسبانيا والإمبراطورية الإسلامية فى البحر المتوسط ، ولذا فقد امتد هذا النظام ليشمل كل من ينتهكون قوانين الدولة كبيرها وصغيرها ، وكان على هؤلاء المجدفين أن يقضوا معظم أوقاتهم مغلولين إلى مجاديفهم.

أما عن البرتغال (٢١)؛ فلم يسمع بها خبر عن الفجر حتى أوائل القرن السادس عشر، حين بدأ يشار إليهم فى النصوص الأدبية ، وربما كان أقدمها إشارة موجزة إلى يونانى Grega فى Cancioneiro geral (١٥١٦) ، ومما له دلالة أكبر كوميدى الفجر Farsa das Ciganas لأكبر مؤلف درامى برتغالى وهو جيل فيسنتى Gil Vicente ، وقد أدت فى حضرة الملك جون الثالث (٢٢) بيابره Evora (١٥٢١) وتصور لنا بعضاً من حياة الفجر ، واللغة التى تتبدى لدى حديثهم بالإسبانية أو البرتغالية (٢٣) ، والمقصود بالفجر هنا فجر ولاية ألينتيخو Alentejo التى كانت تتناسب وطريقتهم فى الحياة (والعجب أن البرتغاليين صاروا يطلقون على الفجر منذ البداية تعبير Ciganos . وهو يتسق مع مقابلاته فى الإيطالية والألمانية وأقطار أوروبا الوسطى وشرقيها ، أى أنه مشتق من atsingános بخلاف Gitanos فى الإسبانية وهى مشتقة من تعبير مصر) . ولدينا فى مسرحية فيسنتى ثمانية شخصيات فقط جميعها فجر ، بينها أربعة من النسوة اللاتى يدعين أنفسهن بأنهن يونانيات يسألن الصدقة «حبا فى الله ، جميعنا مسيحيات ، انظروا !! هاك الصليب» ويلتمسن الخبز والملابس وأى شيء وكل شيء بينما الرجال الأربعة ، يقومون بعرض جيادهم للبيع ، وجميعهم يغنون ويرقصون ، تم تخاطب النسوة جمهور المشاهدين ، يقترحن قراءة أكفهم ويغالين فى تملقهم ويعدنهم بحظ سعيد . وبعد رقصة أخيرة يرحل الجميع مع مفارقة غريبة ، هى ظفرهم بمكافاة هزيلة .

Cf. A. Coelho, Os Ciganos de Portugal (Lisbon, 1892), esp. ch. 3; P. d'Azevedo, 'Os Ciganos em Portugal nos secs xvi e xvii' Archivo Histórico Português, 6 (1908), pp. 460-8, 7 (1909), pp. 42-52, 81-90, 169-77; O. Nunes, O Povo Cigano (Oporto 1981), esp. Part 11, ch. 4', and E.M. Lopes da Costa, 'La minoranza sociale Rom nel portogallo moderno (secoli -XV- XVIII)', Lacio Drom (1984), no. 1, pp. 5 - 23.

(٢٢) (١٥٢١-١٥٥٧) (المترجم) .

(٢٣) وعلى نهجه سار ثريانتس فى روايته الفجرية La Gitanilla (١٦١٢) وملهاته پدرو دى أورديمالاس Pedro de Urdemalas (حوالى ١٦١١) .

وحيث كان من اليسير التعرف على الغجر ، لإقامتهم بالبلاد فترةً تكفى للفت انتباه السلطات لدى تحولها عنهم وما ترتب عليه من اضطهاد ، فقد صدرت تشريعات فى عهد جون الثالث (١٥٢٦ ، ١٥٣٨ ، ١٥٥٧) تقضى بطرد الغجر، ومنعهم من دخول المملكة ، لكنها لم تكن أشد وقعاً من إجراءات مماثلة اتخذت ضدهم فى أقطار أخرى ، وكان الغجر المقصودين بالقانون الصادر فى عام ١٥٣٨ «وكل الأشخاص الآخرين من أى شعب يعيشون كما يعيش الغجر ، حتى وإن لم يكونوا كذلك» ، أما بالنسبة لمن ولد منهم فى البرتغال ، فلا يبعدون من الأراضى البرتغالية، إنما يبعث بهم إلى المستعمرات الأفريقية .

البلاد الواطئة

أقام دوقات برجنديا دولة قوية ، ضمت البلاد الواطئة وبرجنديا ، وأضحى فيليب الطيب الذى حكم بين سنتى ١٤١٩ و ١٤٦٧ سيداً لأراض من أغنى أراضى أوروبا، ولاريب فقد كان هذا الغنى حافزاً لجذب الغجر إليها . بيد إنه ظهرت فى أربعينيات القرن الخامس عشر دلائل لاتخطئها العين بصدود الناس عنهم ، ففي ديسمبر ١٤٤٢ رفضت مدينة تورناى التى كانت سخيّة معهم فى السابق أن تسمح بدخول بعض من يسألون الصدقة منهم ويتوقعون المأوى ، وتسجل محفوظات بروجزبهة قدرها ستة جنيهات باريسية Livres Parisis منحت للغجر فى ١٤٣٩ - ١٤٤٠ ، وفى مناسبة تالية ١٤٤٥-١٤٤٦ سجلت أنه أديت إليهم الصدقات «نظير أن يبقى هؤلاء القوم خارج أسوار المدينة » ، وفى ١٤٥١/١٤٥٢ كانت الصدقة «لأنهم منعوا من البقاء هنا وقتاً أطول» ، وقد اتخذت مدينة دام Damme سياسةً مماثلة ، وربما شعرت المدينتان أنهما حظيتا بزيارات كثيرة ، وورد بدفتر حسابات بروجز أن المدينة دفعت لهم أموالاً ثمانى مرات حتى نهاية القرن ، وكان السبب فى دفعها هو حفزهم فى بعض الأحيان على الذهاب إلى مكان آخر، ووجد أهل المدينة أنه من الأفضل أن يؤمنوا حراسة لدارة الصوف ، حيث أقام الغجر ، خشيةً من احتراقها ، ويمكن تصور ماتعرض له رجال بلدية دام من ضغوط ، وذلك باستقراء سجلات ١٤٦٠ ، حيث قام الغجر بسبع زيارات للمدينة ، فنقرأ فى هذه السنة عن وصول «زعيم من مصر الصغرى يدعى كونت ييهان Jehan » الذى حضر للمرة الخامسة ، وبعد «تهديده بعقوبات معينة بينها فقدته لحياته ،

وعد بأنه لا هو ولا أحد من أهل وطنه سوف يعودون في العام التالي» ، ومع ذلك فقد انقضى على المدينة بعد أيام «زعيم من مصر الصغرى يدعى كونت نيكولاو» وحصل على صدقاته كذلك «شريطة أن يغادر وقومه المدينة ، دون أن يتوقف أو يعسكر » ، وما كاد يرحل ، حتى عاود كونت ييهان الظهور ، ووضعت قيود شديدة على إقامته . ويمكن أن نقف على تطورات مشابهة في أماكن أخرى بجنوبى البلاد الواطئة في لير (قرب أنتويرب Antwerp) ومون Mons ونيمي Nimy ، وتبدأ هذه التطورات ، بمنح الفجر هبات وافرة ، تتطور بعد ذلك إلى أموال نظير أن يذهبوا عنها أو يبقوا خارجها أو يتم طردهم بكل عنف .

عندما صارت الأراضي الواطئة تشكل قسماً من إمبراطورية الهابسبورج الإسبانية النمساوية في عام ١٥٠٤ ، خصوصاً لدى ولاية الامبراطور شارل الخامس صار لها حاكم عام وإدارة مركزية ، ولم يكن لشارل أن يكون متسامحاً مع غجرها أكثر منه في إسبانيا ، لكنه لم يكن في إمكانه أن يتحكم تماماً في إيقاع قمعهم ، فعندما كان يشرع في إصدار قانون يطبقه في كل الولايات، كانت كل ولاية تنفذه بالطريقة التي تناسبها ، مستهدفة في ذلك عرقلة جهوده في توحيد البلاد . ويمكن أن نتحقق من نجاح شارل أو إخفاقه ، إذا نظرنا إلى الولايات الشمالية ، حيث سجلت تحركات واضحة للغجر ، وإذا أنعمنا النظر في ولاية أووليتين هناك ، تتوافر لدينا صورة كافية لما حدث على نحو عام (٣٤) ، ونعتقد أن ولايتي جيلدرز Guelders وأوفريسل Overijssel تفيان بالغرض .

كانت ديفنتر في أوفريسل في طليعة المدن التي شوهدها بها غجر ، وكان ذلك في ١٤٢٠ ، ١٤٢٩ (ص ٩٢ - ٩٣ ، ١٠٠) وكانت هذه البداية لنمط منتظم من الزيارات ، خلال ماتبقى من القرن الخامس عشر ، وفي زيارتين (١٤٣٨ - ١٤٤١) كان لقب الزعيم قد ارتفع إلى «ملك» مصر الصغرى أو ملك الهايدن ، وفي زيارات مختلفة كانت تؤدي للغجر أموالاً حتى يرحلوا بعيداً (كان أهل المدن يتحملون رسوم عبور السفن

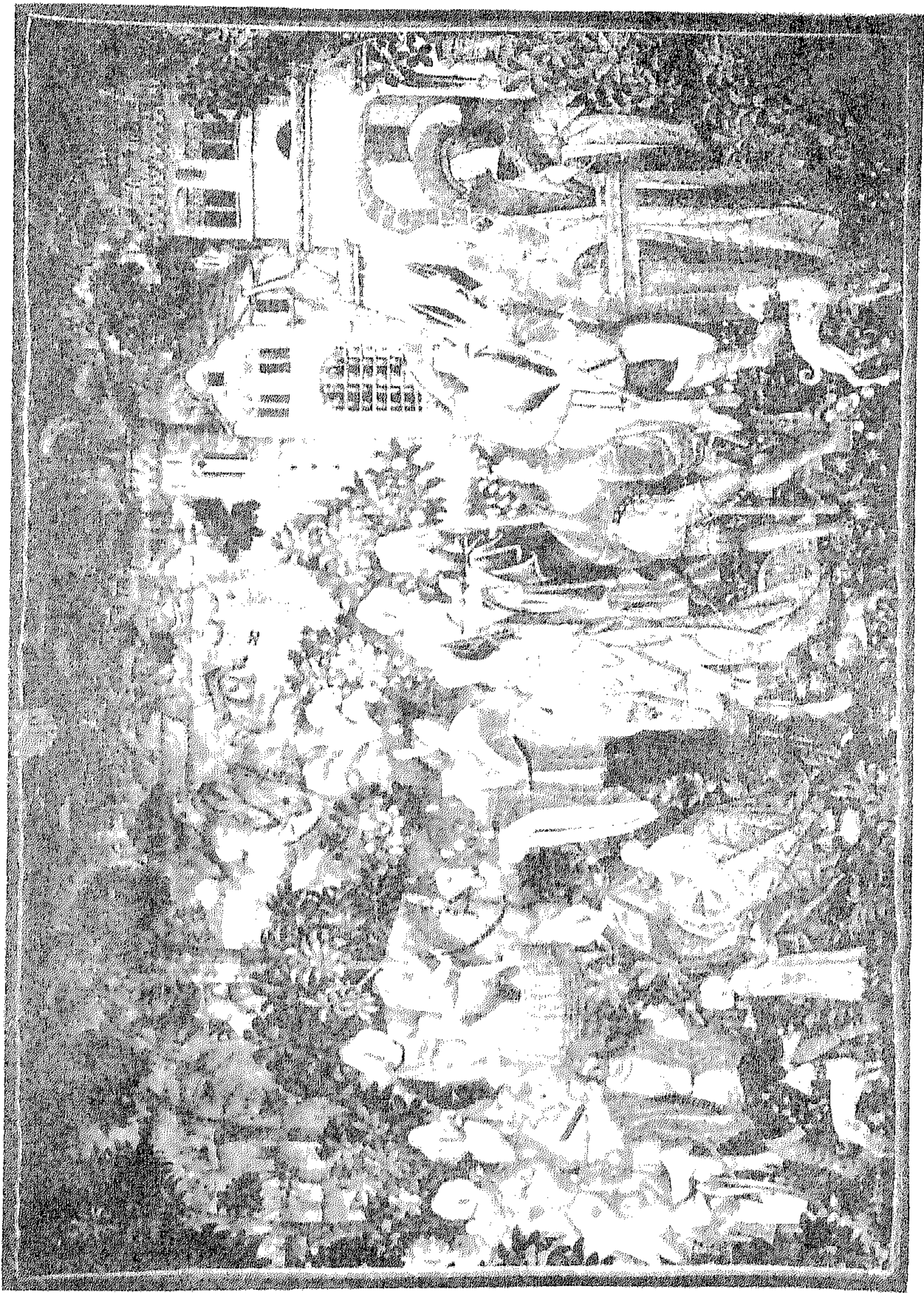
(٣٤) توجد دراسة شاملة للصلات مع الغجر في شمالى الأراضي الواطئة حتى أواسط القرن الثامن عشر في O. Van Kappen, Geschiedenis der Zigeuners in Nederland (Assen, 1965) أما بالنسبة لجنوبى الأراضي الواطئة فانظر للمؤلف نفسه .

Contribution to the history of the Gypsies in Belgium' JGLS (3), 48, (1969), pp. 107-20.

لنهر اليسيل (Ijssel) ، وبدأت الهبات التي كانت تعطى لهم تتناقص تدريجياً ، وخلال عهد شارل الخامس صدر فيض من المراسيم في مختلف الولايات الشمالية ، ترفض السماح للغجر بدخولها أو البقاء فيها ، ولم يلبث أن امتد الحظر إلى أى مغامرين يلتحقون بهم ، وعلى سبيل المثال أصدر الامبراطور فى بروكسل مرسوماً إلى مدينة أوقريسيل يتيح «لأمة مصر» والآخرين الذين يلتحقون بها ويتزيفون بزيها مهلة ، مقدارها أربعة أيام ، ليختفوا من كل ممتلكاته ، وإلا تعرضوا للموت والمصادرة ، وصدرت إجراءات مماثلة فى ولايات أخرى ابتداءً من عام ١٥٢٤ ، ويتضح من الانتظام فى تدفقها كيف كان تأثيرها واهناً لدى الممارسة .

فى ولاية جيلدرز كانت هناك فترة طويلة بين مشاهدة الغجر فى نيمجن وأرنهائم (١٤٢٩) وتسوتفن (١٤٣٠) (ص ١٠٠) وبين ظهورهم مرة ثانية منذ ١٤٤٥ حتى نهاية القرن خصوصاً فى المدينة الأخيرة . وفى أربع مرات على الأقل كان زعيمهم يتخذ لقب ملك ، وفى السنوات الأخيرة من القرن سعى الغجر إلى زيادة رصيدهم من خطابات الحماية ، ونجحوا فى استمالة شارل الماكر من إيجمونت Egmont دوق جيلدرز الذى كان يجاهد ليحتفظ باستقلال ولايته ، بعيداً عن سيادة الهابسبورج ، وقد حاز هذا الدوق شهرةً واسعة من تصديقه بالخرافات ، وغالباً ما كان يلجأ إلى قراء الطالع والسحرة ، ومع ذلك فربما كان متردداً فى منح الغجر مساندته الكاملة فى جواز المرور الذى أصدره فى سنة ١٤٩٦ ، فقد حظر عليهم البقاء أكثر من ثلاثة أيام فى مكان واحد ، ومن ناحية أخرى فقد صدق القصة التى حكيت له من أن «كونت مارتن جنوجى Martin Gnougy المولود فى مصر الصغرى فصل لنا كيف أن أبانا قداسة البابا عاقبه هو وأسرته وصحبه فأوجب عليهم القيام برحلة إلى روما وسانتياجو فى جليقية Galicia^(٣٥) وغيرها من المشاهد المقدسة » وبذا قدر له أن يكابد مشقة السفر دون كلل ، وفى عام ١٥٠٦ أسدى الدوق معروفاً مماثلاً إلى كونت فيلهم Wilhem من مصر الصغرى ، وكان قد أتى صحبة خمسة عشر من أبناء قومه ، لكن الدوق يتحفظ فيضيف «وأن عليهم أن يتصرفوا على نحو لائق حتى لانسمع عن شكاوى أو اضطهاد يصيبهم » ، وربما كان الجواز الثالث الذى منحه فى عام ١٥١٨ هو الأخير الذى يمنح «للهايدن» فى الأراضى الواطنة ، ويشار فيه إلى «أنطونيوس النبيل - كما يزعم - من مصر الصغرى» كما أن الجواز تمت صياغته ، كما لو كان توصيةً إلى السلطات فى الولايات المجاورة ،

(٣٥) ولاية تقع فى قاصية الشمال الغربى من إسبانيا (المترجم) .



شكل ٨ من مطرزة صوفية من عمل فنان مجهول (ربما من تورناي) ٥٠٢٩x٣٥٠ سم تؤرخ زيارة للعج،
قاعة كاريير للفنون : مانشستر ، نيوهامشاير ، ربيع كاريير ١٩٣٧



شكل ٩ منظر من لوحة هيرونيμος بوش عربة القش حوالى ١٥٠٠. متحف دل برادو الوطنى مدريد .

أكثر منها إلى السلطات فى ولايته ، ولم تكن تلك هى جوازات المرور الوحيدة التى صدرت فى جيلدرز ، فقبل عدة سنوات أعلى حاكم نيمجين واحداً منها إلى كونت يدعى أنطون Anthon ، لكنه حين عاود الغجر الظهور أمام بواباتها فى عامى ١٥٣٦ و ١٥٤٣ ، فقد تم طردهم فى الحال ، واتبعت تسوتفن نهجاً مماثلاً فى سنتى ١٥٣٨ ، ١٥٤٢ .

ويعود تاريخ أول إجراء اتخذ ضد الغجر في جيلدرز إلى سنة ١٥٤٤ ، أى بعد قليل من نجاح شارل الخامس في إخضاع الولاية ، وتتماثل بنوده مع بنود القرار الذى صدر فى أوفريسيل فى ١٥٣٧ ، فيما عدا أنه لم يسمح لهم بمهلة تزيد عن يومين، ثم تصاعدت نبرة القوانين فى السنوات ١٥٤٨ ، ١٥٥٣ ، ١٥٦٠ ، وفى الوقت نفسه واصل الغجر ترحالهم على نحو أو آخر ، وبدأوا يتخذون احتياطاتهم ، بأن يترحلوا فى جماعات صغيرة حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم ، وعندما يرد ذكرهم فى الوثائق بعد ذلك ، فإنهم لم يعودوا يظهرون بمظهر الحجاج ، وانتزعت من رؤسائهم ألقاب النبالة .

إيطاليا

يرتبط ما توافر لنا من مادة فى البداية بشمالى إيطاليا ، ولم يتهيا مثل ذلك لما يليها جنوباً حتى روما ، قبل منتصف القرن السادس عشر (٣٦) ، ولم تكن إيطاليا فى القرن الخامس عشر أكثر من تعبير جغرافى ، فكانت تضم خمس قوى أساسية قلقة وعدداً من الدويلات التى كانت تسعى على نحو متفاوت للحفاظ على استقلالها ، وكان ذلك فى دوقية ميلان - وهى واحدة من الكيانات الكبيرة - حين عاد الغجر إلى مسرح الأحداث بعد خمسة وثلاثين عاماً من ظهورهم لآخر مرة ، إبان كانوا فى طريقهم من فورلى إلى روما ، (ص ٩٥) وعندما يرد ذكرهم فى الوثائق مرة أخرى ، فقد كان السبب هو ما جرى من عنف ذى طابع دموى ، ففى يونيو ١٤٥٧ قتل كونت ميكيلي Mi-chele المصرى وزوجه وابنته على يدى غجرى يدعى فيليپو Filippo ، ولم تحدد الوثائق لماذا قتلوا ؟ على أن الأحداث ظلت هادئة طيلة الشطر الأعظم من القرن الخامس عشر ، ويرد فى دفتر الحسابات الخاص بدوق فرار Ferrara ، أن دوقية مودينا Modena وهى واحدة من الكيانات الصغرى فى إيطاليا ، أدت أموالاً فى عام ١٤٦٩ لغجرى Cingano نظير عزفه على السيتولى Citole (آلة وترية منقرعة) ، وتعد تلك أول إشارة باكرة

(٣٦) عن التشريعات الباكرة الخاصة بالغجر فى الدول الإيطالية أنظر :

M. Zuccon, " La Legislazione sugli Zingari negli stati italiani Prima della rivoluzione ", Lacio Drom (1979), nos 1-2 , PP.1 - 68; A. Campigotto, " Ibandi bolognesi contro gli Zingari (Sec. XVI - XVIII) " Lacio Drom (1987), no. 4, pp. 2 - 27 ; and A. Arlati, ' Gli Zingari nello stato di Milano " , Lacio Drom (1989), no . 2 , PP. 4 - 11 .

لارتباط الفجر فى الذهنية الأوربية بالموسيقى ، وكما جرت العادة نشاهد جوازى مرور، أصدرهما حكام كاريبي Carpi، واحداً فى السبعينيات لكونت ميخائيل من مصر الصغرى وصحبه ، والآخر فى عام ١٤٨٥ لكونت جوائيس Joannes ، كما منح دوق ميلان الشاب جيان جلياتسو Gian Galeazzo الثانى وثيقة مماثلة لكونت مارتينو من مصر الصغرى فى عام ١٤٨٠ .

على أن هذه الصلات لم تثبت أن تدهورت فى العقد الأخير من هذا القرن ، ففى بيدمونت Piedmont الخاضعة لحكم دوق سافوى ، يرد ذكر أموال أدت أربع مرات خلال الفترة ١٤٩٤ - ١٤٩٩ « لسراسنة أو غجر » Saraceni sive Cingari حتى يظلوا خارج أسوار بارجي Barge وكوريني Couorgne إلى شمالى تورينو وجنوبيها . وكانت ميلان أوضح فى صدهم ، بحيث تعد الرائدة بين الدول الإيطالية فى اتخاذ إجراءات صارمة ضدهم ، ففى سنة ١٤٩٣ أصدر دوق لودوفيكو إيلمورو Ludovico il Moro مرسومين ، يستدل منهما على ما جرى من تحول نحو القمع الفورى فى الدول الإيطالية ، وهو فى المرسوم الثانى على نحو خاص ، يأمر الفجر المقيمين بالدوقية بمغادرتها على الفور ، وذلك بعد أن تنامت أعدادهم ، كما تنامت سرقاتهم ، وباستيلاء فرنسا على ميلان تصاعد هذا القمع ، فصدر مرسومان فى سنة ١٥٠٦ يعلنان الفجر مصدراً للزعاج ، ويحظران عليهم الإقامة بالدوقية ، ويقرنانهم بالمتسولين كناقلى أوبئة محتملين ، وكان من جملة الجزاءات المنصوص عليها ثلاث عمليات لآلة تعذيب تدعى بـ tratto di corda (وهى آلة تقوم برفع الضحية بيديه وهما مغلولتان إلى ظهره ، وبذا تصير كتلة الجسم كلها محملة على الرسغين) ويتجدد ذكر هذه العقوبة فى القرار الذى أصدره فرانسيس الأول فى سنة ١٥١٧ ، ويأمر فيه كل الـ Cinguli et Cadegipti بأن يغادروا الدوقية خلال ثلاثة أيام كما تتجدد كذلك فى القرار الذى أصدره فى سنة ١٥٢٣ فرانسيسكو سفورتزا Francisco Sforza آخر دوقات هذه الأسرة ، وكان ألعبوبة فى يدى فرانسيس ، وقد أضاف إلى العقوبة البدنية غرامة قدرها خمسة وعشرون من الدوكات الذهبية ، وأخيراً وفى سنة ١٥٣٤ ، أى خلال الفترة بين طرد الفرنسيين من ميلان واستعادة التاج الإسبانى لها ، أمر الدوق بطرد كل الـ Egiptii المعروفين بالسينجالى Cingali « بعد تهديدهم بالشنق » .

لم تلبث أن امتدت حمى التشريع من ميلان جنوباً وشرقاً ، وفي مركيزية مانتوا Mantua فإن الحظر الوحيد المعروف ، لا نقف عليه في أية مجموعة قانونية ، إنما في ملحمة هزلية Baldus للراهب البندكتي تيوفيلوفولنجو Teofilo Folengo ، ومن حسن الحظ إنها محض خيال ، لكنها بأسلوبها الهمجي تفوق أى إجراء اتخذته ميلان في هذه المرحلة ، فقد ورد بها « كل من يحمل اسم Cingar محتال وسفاح وقاطع طريق ولص ووغد يزيف النقود ويفسد الجيد منها ، وسوف يتم إبعاده من كل الأقاليم التابعة لما نتوا ، وكل من يقدم على قتله يربح مائة وخمسين من الدوكات»^(٣٧) ، وكانت مودينا جنوبى مانتوا أول من يحاكي نموذج ميلان ، وذلك بما اتخذته من إجراءات في الفترة ١٥٢٤ - ١٥٦٠ ، لطرد الغجر ، واقتدت بها بدورها بعض الدويلات البابوية في قراراتها الصادرة بين ١٥٣٥ - ١٥٥٣ ، مثلما فعلت بولونيا ابتداءً من عام ١٥٥٠ ، وصار الحظر صارماً في كل الدويلات البابوية، بعد المرسوم الذى أصدره جيرولامودى روسى Gerolamo di Rossi في سنة ١٥٥٢ ، فيرد به الخبر عن فظائع وسرقات ارتكبها الغجر الذين اعتادوا الذهاب إلى روما ، والإقامة فيما جاورها من كهوف وبساتين كروم وغيرها ، كذلك أدلى مجلس الشيوخ بجمهورية البندقية بدلوه في قوانينه التى أصدرها منذ ١٥٤٠ ، كما أن دوقية تسكانيا (فلورنسا) استكملت في ١٥٤٧ رصيدها في رفضهم .

المجر وترانسيلفانيا

في المجر قوبل الغجر بتسامح غير مسبوق ، ولو أن بعضهم عانى شكلاً من أشكال الاسترقاق ، خصوصاً في ترانسيلفانيا (حيث لم تزل القنية حتى سنة ١٨٤٨) واتضحت فائدتهم في صناعة الأدوات المعدنية والأسلحة فأعلنوا خداماً للملك ، وكان من اللازم الحصول على موافقته ، إذا تم تشغيلهم في ضياع خاصة ، وهو ما فعله سكان مدينة هيرمانشتات Hermannstadt (سيبيو Sibiu الحالية في رومانيا) في سنة ١٤٧٦ ، حين حصلوا على تصريح

Cf. A. Compigotto and L. Piasere, " From Margutte to Cingar : the archaeology of an image" , in 100 years of Gypsy Studies , ed . M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990) , PP. 15 - 29 .

من الملك ماتياش كورفينوس Mathias Corvinus (٣٨) ، مقابل تشغيلهم الفجر في ضواحي مدينتهم . وفي سنة ١٤٩٦ منح خليفته فلاديسلاس Vladislas (٣٩) الثاني جواز مرور لتاماش پولجار Tamás Polgár أمير الفراعنة vayvodam Pharaonum (وهو لقب كان يستخدم أحياناً في الوثائق المجرية الباكراة) ، وبمقتضى هذا الجواز سمح له وقومه - خمس وعشرون خيمة من الحدادين - بحرية الحركة ، وأن يستقروا في أى مكان يحلو لهم . وكانوا إذ ذاك يعملون في خدمة أسقف بيتش Pécs ، ويزودونه بطلقات البنادق وقذائف المدافع وغيرها من الأسلحة (٤٠) ، وفي عهد فلاديسلاس هذا صارت لمهارة الفجر في هذا المجال جدواها في انتفاضة الفلاحين التعساء ضد سادتهم في عام ١٥١٤ ، يقودهم جيرجي دوجا György Dózsa ، وقد تم قمع هذه الانتفاضة بوحشية على يدى يانوش تساپوليا János Zápolya أمير ترانسيلفانيا الذى سوف يصبح ذات يوم ملكاً ، ثم عهد إلى فجر تيمشفار Temesvár (تيمشوارا Timisoara) بصنع عرش وتاج وصولجان من الحديد ، واشعلت النار فيها جميعاً ، وأجلس دوجا على العرش ، ووضع التاج على رأسه والوصولجان فى يديه ، ثم أرغم أصحابه على أن ينهشوا لحمه المحترق ، على أن تورط الفجر مع تساپوليا سوف يصيبهم بعد عشرين سنة بأضرار جسيمة ، فأبان صراعه للوصول إلى عرش المجر، صار الفجر موضعاً للشك والريبة ، من قبل الزمرة المعارضة له ، بسبب استخدام تساپوليا لهم فى أغراض شائنة ، وجرى تعذيب بعضهم إلى أن اعترفوا بإشعالهم حرائق وتم خوزقتهم ، وبين القرارات الأولى التى أصدرها تساپوليا بعد ارتقائه عرش المجر موافقته على التماس تقدم به الفجر ، بأن يستعيدوا حرياتهم القديمة (antiquis libertatibus) (٤١) .

درجت الحال فى المجر (وكذا فى بولندا وليتوانيا) خلال القرن السادس عشر ، على أن يكون للفجر زعيم تختاره السلطات من بينهم ، وتمنحه لقب egregius أى «مميز» ، يليه فى كل كونتية توجد بها جماعة غجرية زعماء أدنى مرتبةً ، يزاولون

(٣٨) (١٤٥٨ - ١٤٩٠) هو ابن البطل المجرى الشهير هونياد Hunyadi ، وخاض مثله حرباً ضد الأتراك ، وفى عهده انتقلت النهضة إلى بلاده (المترجم) .

(٣٩) ملك المجر وبوهيميا معاً (١٤٩٠ - ١٥١٦) (المترجم) .

(٤٠) G. Pray (ed.) , Annales Regum Hungariae ab anno Christi CMXVII. ad annum MDLXIV (Vienna, 1764 - 70), vol. 4 , p. 273 .

(٤١) E. O, Winstedt, " some Transylvanian Gypsy documents of the Sixteenth Century " , JGLS (3), 20 (1941) , PP. 49 - 58 .

القضاء بين أبناء قومهم ومما يدعو إلى الحيرة أن هؤلاء الزعماء كانوا يستخدمون بدورهم لقب أمير voivode وبذا صار من الملح تمييزهم عن الأمراء الذين يعودون في أصولهم إلى أسر مجرية وترانسيلفانية نبيلة (كان في المجر أربعة أمراء وفي ترانسيلفانيا اثنان) ، وكان يعهد إلى هؤلاء الأمراء بجباية الضرائب من أبناء قومهم .

إلى جانب مهاراتهم في صنع الأدوات المعدنية ، كانت للفجر شهرتهم ، كموسيقيين^(٤٢) ، وأول ذكر لهم في هذا الشأن ، يرد على نحو مقتضب في دفتر حسابات ، سجل فيه : « إنه في سنة ١٤٨٩ أدت أموالاً إلى الفجر الذين يعزفون على العود بجزيرة الأميرة » ، ويقصد بها جزيرة تشييل Cspel جنوبي بودابشت ، والأميرة هي بياتريس الأرغونية الزوج الثانية لماتياش كورفينوس ، وورد في سجلات لايوش Lajos الثاني^(٤٣) ، « إنه في مايو ١٥٢٥ أدى اثنان من الفلورينات إلى فراعنة Pharaones كانوا يعزفون على القيثارة Cithara في حضرة جلالته بمضمار الخيل الملكي » ، ويرجح أن الفجر الذين أتى بهم إلى الدايط المنعقد في هاتقان Hatvan في العام نفسه ، كانوا كذلك من الموسيقيين . وجدير بالذكر أن الأسماء التي أطلقت على الآلات الموسيقية في تلك الأيام لم تكن دقيقة ، فالقيثاريون الفجر Cytharedos الذين طلبهم أحد الفرسان في خطاب له باللاتينية ، موجه إلى أرستقراطي يدعى تاماش ناداشد Tamás Nadasdy في سنة ١٥٢٢ ، ربما يشير إلى عوادين أو مغنين ، (وكلمة Cithara أو Kithara اتسع معناها إلى ما هو أبعد من معنى القيثارة ، وأطلقت على آلات موسيقية مختلفة كالجيتار والقانون) وبعدما أضحى فرديناند هابسبورج حاكماً على قسم من المجر ، فقد ورد في خطاب من بلاط الملكة إيزابيلا إلى فيينا بتاريخ ١٥٤٣ « لدينا هنا أمهر العازفين المصريين أخلاف الفراعنة » ويستطرد الكاتب فيلاحظ أن عازفي السيمبالون Cimbalom الفجر « لا يوقعون الأوتار بأصابعهم ، لكنهم يوقعونها بأعواد خشبية ، ويتغنون بأعلى أصواتهم » (والسيمبالوم آلة أشبه ببيانو صغير ذي أوتار مكشوفة) .

بعد الهزيمة الساحقة التي منى بها لايوش الثاني في موهاتش Mohács على أيدي الأتراك في عام ١٥٢٦ سقطت معظم البلاد في أيديهم ، وتكيف الفجر سريعاً

(٤٢) See Bálint Sárosi, Gypsy Music (Budapest, 1978) , PP. 55 ff.

(٤٣) ملك المجر وبوهيميا (١٥١٦ - ١٥٢٦) وفي عهده انتهت الحرب مع العثمانيين إلى هزيمته وقبلة وسقطت معظم البلاد في أيديهم (المترجم) .

معهم ، فعمل كثير منهم كحدادين فى جيشهم ، بينما عمل اخرون كموسيقيين وحلاقين ورسل وجلادين ، ومما يحمد للوثائق العثمانية ما ورد بها من إحصائيات بدائية عن غجر ذكور ، استقروا فى بودا فى أواسط القرن السادس عشر ، وقدر عددهم فى عام ١٥٤٦ بستة وخمسين ، وكان ثلاثة أرباعهم مسيحيين (أما سائرهم فكانوا يحملون اسم عبد الله الذى يحمله عادةً حديثو العهد بالإسلام) ، وبعد ثلاثين سنة يرتفع عددهم إلى تسعين معظمهم مسلمون(٤٤) .

بوهيميا وپولندا – ليتوانيا وأكرانيا

يرد ذكر الغجر فى هذه الأقاليم على نحو متناثر ، ففى عهد فلاديسلاس Vladislas الثانى ملك بوهيميا (١٤٧١ - ١٥١٦) - وهو نفسه فلاديسلاس الذى حكم فى المجر - اشتهر الغجر كصناع لأدوات معدنية وعهد الملك إليهم بصنع الأسلحة وغيرها من أدوات الحرب ؛ أما بالنسبة للمملكة الواسعة المتحدة لپولندا وليتوانيا ، فإننا نتبين أسماء لعائلات أو أماكن مثل Cygan أو Czygan بجنوبى پولندا بين ١٤١٩ - ١٤٣٦ لكنها كانت قليلة ، إلى أن نصل إلى سنة ١٥٠١ ، فنقف على بعض من خطابات الحماية ففى هذه السنة منح ألكسندر ملك پولندا ودوقية ليتوانيا الكبرى جوازى مرور لپولجار أمير الغجر Vojevoda Cyganorum ، وهو بلا شك توماس پولجار الذى تمتع بحماية ملك المجر قبل خمس سنوات ، كما أقر فى فيلنو Vilno إمتيازات فاسيلى Wa-sill أمير Cyhany ومنحه الحق فى الفصل فى النزاعات بين أبناء قومه ، كما منح الغجر « حرية التنقل فى بلادنا ... طبقاً لما جرى عليه أسلافنا طيبو الذكر دوقات ليتوانيا الكبرى ، وطبقاً للقوانين السابقة والأعراف ومراسيم الدوقية » ، والعهد بذلك لم يكن الأول من نوعه . وفى سنة ١٥١٣ كان لدى زيجيزموند(٤٥) أخى ألكسندر الذى خلفه غجرى يعمل فى خدمته كحداد ، وكان هذا الغجرى يدعى مكسيداريوس وانكو دى أو پاڤيا MixidariusWanko de Oppavia . وفى غضون القرن السادس عشر ارتحلت

(٤٤) L. Mészáros, " A hódoltsági latinok, görögök és cigányok történetéhez . 16 sz, - i oszmán - török szórványadatok' { On the history of Latins, Greeks and Gypsies under Ottoman rule . Documents Form Ottoman archives of the Sixteenth Century } Századok, 110 (1976) , no. 3, PP. 474 - 89 .

(٤٥) (١٥٠٦ - ١٥٤٨) حقق سيادة پولندا على بروسيا الشرقية وكان محباً للفنون الجميلة (المترجم) .

أعداد كبيرة من الغجر إلى بولندا من بوهيميا وألمانيا ، بينما يبدو أن أول من أتى من الغجر إلى أوكرانيا ، إنما أتوها من بولندا ، وهم من نشاهدتهم في فولهينيا Volhynia حول سنة ١٥٠١ .

صدر أول قرار بطرد الغجر من هذه الأقاليم في عام ١٥٣٨ بموراخيا (وكانت إذ ذاك من أملاك الهابسبورج النمساويين) ، وتجدد هذا القرار في العقود التالية واتخذت بوهيميا (وهي أيضاً من أملاك الهابسبورج) خطوات مماثلة في سنتي ١٥٤١ و ١٥٤٩ (وذلك إثر اشتعال حرائق في براغ ، وألقيت تبعاتها على الغجر) . وفي سنة ١٥٥٧ أصدر الدايط البولندي Sejm أول قانون لقمعهم (٤٦).

إسكتلندا وإنجلترا

يعود أول ذكر للغجر في بريطانيا (٤٧) إلى سنة ١٥٠٥ ، فيرد في دفتر حسابات خازن بيت المال الإسكتلندي : « إنه في ٢٢ من أبريل أمر الملك بمنح المصريين Egiptianis عشرة كرونات فرنسية أى ما يعادل سبعة جنيهات إسترلينية » (٤٨) وفي المرحلة السابقة لهذا العطاء الذي نهض به جيمس الرابع (٤٩) في سترلينج Stirling كانت معلوماتنا عن الغجر في إسكتلندا غامضة ، بما في ذلك قصة السراسنة «والمور» Moors (٥٠) الذين ابتليت بهم جالواى Galloway في منتصف القرن الخامس عشر ، والذين كان

Cf. J. Ficowski, Cyganie na Polskich drogach, 2 nd edn (Kraków, 1985), (٤٦)
PP. 16 - 25 and The Gypsies in Poland (nd. {Warsaw, 1990}), PP. 11 - 13 .

(٤٧) راجع فيما يخص بالتاريخ الباكر للغجر في إسكتلندا وإنجلترا :

inter alia , W. Simson, A History of the Gypsies (London, 1865); H. T. Crofton, "Early annals of the Gypsies in England ", JGLS (1), 1 (1888 - 9), PP. 5 - 24 , and "Supplementary annals of the Gypsies in England, before 1700 ", JGLS (2) , 1 (1907-8) , PP. 31 - 4 , D. MacRitchie, Scottish Gypsies under the Stewarts (Edinburgh, 1894) ; ' E. Winstedt , Early British Gypsies' , JGLS (2) 7 (1913 - 14) , PP. 5 - 37 ; and B. Vesey - FitzGerald, The Gypsies of Britain (London , 1944) .

Accounts of the Lord High Treasurer of Scotland, ed. Sir James Balfour (٤٨)
Paul (Edinburgh , 1901) , vol. 3. P. 136 .

(٤٩) (١٤٨٨ - ١٥١٣) (المترجم) .

(٥٠) تعبير غالباً ما كان يقصد به المسلمون (المترجم) .

جيمس الثاني^(٥١) تواقاً إلى تشتيتهم ، ولا نزاع في أن إسكتلندا كما في غيرها من الأقطار وجدت بها قبل مقدم الغجر جماعات من الصفاحين المتنقلين والباعة الجوالين والدجالين وغيرهم ، وأضحى من اليسير الخلط بين جماعة وأخرى .

لم يكن ثمة ما يعكر صفو العلاقات بين الغجر والملك في عهد جيمس الرابع ، وربما كان السبب في ذكر أدائه عشر كرونات فرنسية لهم ، هو ما قاموا به من ترفيه عن الملك الذي كان في الثانية والثلاثين من عمره إذ ذاك ، وعرف بالإسراف ، فضلاً عن شغفه بالموسيقى والراقصين والبهلوانات والمشخصاتية والحكواتية ، أو ربما كان عطاؤه هذا إحساناً منه إليهم باعتبارهم حجاجاً ، ومهما يكن من أمر ، فقد كان مبلغاً محترماً في ذلك الزمان لأن جنيهاً استرلينياً واحداً كان يمثل راتب عام كامل بالنسبة للكثيرين . وبعد شهور قليلة وقع جيمس في قصر لينليثجو Linlithgow خطاباً ، يوصى فيه خاله جون ملك الدنمارك بأنطونيوس جاجينو Anthonius Gagingo إيرل مصر الصغرى ex parva egipto Comes ، وكان جاجينو فيما يذكر قد وصل مؤخراً إلى إسكتلندا صحبة بطانته في رحلة حج عبر العالم المسيحي ، وأبدى رغبته في العبور إلى الدنمارك ، وحيث إن جيمس نفسه كان يطمح في الحج إلى الأراضي المقدسة ، فإنه كان مشوقاً بلا شك بهذا الطرف من قصة الغجر .

ويحتمل إن أول ذكر للغجر في إنجلترا جرى في عهد هنري الثامن^(٥٢) ، وهو ما يتضح من محاوراة الفارس Knight لسير توماس مور Thomas More^(٥٣) ، فيحكي المؤلف باعتباره كان حاضراً التحقيق الذي أجري في برج لولارد Lollard's Tower في عام ١٥١٤ بشأن موت ريتشارد هن Richard Hunne ، فيقول : إن أحد الشهود أشار إلى امرأة مصرية ، Egypcyan ، كانت تقيم في لامبيث Lambeth ، لكنها رحلت الآن إلى الخارج ، وكيف كان باستطاعتها أن تنبئ بأشياء عجيبة لدى مطالعتها كف أحدهم^(٥٤) .

(٥١) (١٤٣٧ - ١٤٦٠) (المترجم) .

(٥٢) ملك إنجلترا (١٥٠٩ - ١٥٤٧) اشتهر بقطع علاقاته بالبابوية وقتل زوجاته أو تطليقهن ، جعل من نفسه رئيساً للكنيسة في إنجلترا (المترجم) .

(٥٣) رجل الدين والمفكر الإنجليزي (ت ١٥٣٥) صاحب « المدينة الفاضلة » Utopia ، أعده هنري الثامن في سياق تحوله من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (المترجم) .

(٥٤) Sir Thomas More, A dialoge of Syr Thomas More, Knt. (London , 1529) (٥٤) book 3 ch. 15 .

وما يزال ما يذكره صحيحاً رغم إتيان مور برواية محرقة Cf. A. Ogle, The Case of the Lollards Tower (Oxford , 1949) P. 95 .

وبعد ذلك يصف إدوارد هول Edward Hall فى حواريته التاريخيه عن الملك هنرى الثامن ، المنشور فى سنة ١٥٤٨ يصف سيدتين فى مسرحيه صامته أدبت فى سنة ١٥١٧ ببلاط الملك ، وكيف كانت «رأس كل منهما ملفوفة بكتان ناعم وإفراع مطرزة بالذهب كالمصريات » ، والإشارة إلى لباس رأس أشبه بالعمامة ، نجد مثيلاً له فى القارة . ونعلم كذلك أن الفجر صاروا منتشرين بوضوح فى إنجلترا ، فبين سنتى ١٥١٣ و ١٥٢٣ نزل بعض الـ « Gypsions » فى ضيافة إيرل سرى Surrey بتندرينج هول Tendring Hall فى سفواك Suffolk ، وفى سنة ١٥٢١ أعطى رجل يدعى وليم تشوملى William Cholmeley مبلغاً كبيراً ، يقدر بأربعين شلناً لمصريين Egyptians فى ثورنبرى Thornbury قرب بريستول ، بينما تقاضى وكلاء الكنائس فى سراتون Stratton بكورنول Cornwall عشرين بنساً من مصريين EGYPTIANS ، نظير استخدامهم فناء الكنيسة. ويستدل على شيوع قصة الحج فى إنجلترا ، شيوعها كذلك فى إسكتلندا من وثيقة مؤرخة فى ٧ أغسطس ١٥٣٠ ، تشهد بالقبض على فجر فى هيريفورد Hereford ، للشك فى تورطهم فى سرقة « من يدعى أنتونى ستيقن من بلاد مصر الصغرى ، كان رئيساً لتسعة عشر من الرجال والنساء والأطفال الذين يقبون أنفسهم بحجاج ».

ربما ازدادت أعداد الفجر على نحو ملحوظ فى أواخر العشرينيات من القرن السادس عشر ، ويقدر كل من وليم هاريسون وصمويل ريد فى عامى ١٥٨٦ و ١٦١٢ على الترتيب^(٥٥) بأنه فى هذا الزمان اجتاح الفجر إنجلترا ، ونحن نفتقر إلى الوثائق المعاصرة التى تعيننا فى هذا الخصوص ، على أنه بعد فترة قصيرة ، بدأت طلائع الإجراءات القمعية ضدهم^(٥٦) ، فصدر مرسوم فى عام ١٥٣٠ كان المقصود به «الأغراب وكثيرون من الأجانب الذين يدعون أنفسهم مصريين » « dyverse and many outlandysse People Callynge themselves Egyptians » وأنهم « لا يزاولون حرفة ما ولا تجارة ، وأتوا إلى هذه المملكة ، ينتقلون من مقاطعة إلى مقاطعة ، ومن مكان إلى مكان ، فى أعداد كبيرة ، ويحتالون على الناس - رجالاً ونساءً - بوسائل مأكرة وخبيثة ، ويوحون لهم بقدرتهم على قراءة طوالعهم ، وأمكن لهم فى مرات عديدة أن يسلبوهم أموالهم ، إلى جانب أنهم ارتكبوا جرائم شنيعة وسرقات ، أفضت إلى إصابة من اتصل بهم بأضرار جسيمة » .

W. Harrison , A Description of England (Prefixed to Holinshed's Chronicles, (٥٥)
London, 1587), book 2 ch. 10 ; S.Rid, The Art of Juggling or Legerdemain (London, 1612).

(٥٦) عن تشريعات مثل هذه انظر :

C. J. Ribton -Turner, A History of Vagrants and Vagrancy (London, 1887).

ومن أجل إيقاف المزيد من الهجرات ، تقرر أنه « منذ الآن فصاعداً ، ليس لأحد من هؤلاء أن يأتي إلى هذه المملكة » ، فإذا أقدموا على ذلك تصادر متاعهم لصالح التاج ، ويؤمرون بمغادرة البلاد خلال خمسة عشر يوماً وإلا سجنوا ، والموظف المنوط به مصادرتهم أن يحتفظ بالشرط من أموالهم ، ويؤول الشرط الآخر لخزانة الدولة . وحرّمهم المرسوم كذلك من الإفادة بما يعرف بـ *per mediatem linguae* المتضمن في تشريع عمره مائة سنة ، يعطى للأجانب المتهمين في جناية ، الحق في أن يمثلوا أمام هيئة من المحلفين ، تضم عدداً متساوياً من الإنجليز ومواطنيهم ، على أنه للأسف لا توجد لدينا سابقة واحدة مسجلة ، يتضح منها إن الفجر سبق لهم الإفادة من هذا الحق .

عندما أمهل پول فا Paul Fa (أو فاو Faw) في سنة ١٥٣٧ خمسة عشر يوماً ليرحل ، كان السبب هو أنه قتل غجرياً آخر ، وهذه هي أول مرة يتردد فيها اسم Faa أو Faw الذي سوف يصبح مألوفاً في إسكتلندا ، وعرف به عدد من الفجر ، فعندما حقق مأمور ستافورد شاير Stafford shire في سنة ١٥٣٩ مع كل من جورج فاي George Fae ومايكل متشي Michael Meche ، وجد في حوزتهما عدة خطابات ، بينها واحد موجه من ملك الاسكتلنديين وصك من مقدم دير هوليرود Holyrood ، وفي العام نفسه نجد موظفاً آخر رسمياً يلتبس المشورة من توماس كرومويل Thomas Cromwel^(٥٧) ، حول ما يجب عمله مع فجر قام باعتقالهم في رومني مارش Romney Marsh أبرزوا براءة من الملك ممهورة بخاتمه الكبير لصالح جون ناني John Nany « فارس مصر الصغرى وصحبه » .

ربما لم يحقق مرسوم عام ١٥٣٠ الغاية المنشودة منه ، لكن الدولة توخت الشدة في تطبيقه ، ففي مايو ١٥٤٠ قامت بترحيل عدد من الفجر بحراً من بوسطن ولنكولنشاير إلى النرويج ، ويمكن أن نرصد خلال الفترة ١٥٣٠ - ١٥٥٤ نحو أربعة عشر ترحيلاً للفجر وعائلاتهم مشفوعةً بإيعاز من مجلس شوري الملك إلى مأمير النواحي والسلطة القضائية بتوخي الحذر معهم ، وفي عام ١٥٤٤ قبض على جماعة من الفجر في هنتنجدون شاير Huntingdonshire لديهم سبعة عشر فرساً ، وحكم بإبعادهم ثم ترحيلهم بحراً (فيما عدا الخيل التي بيعت بأبخس الأثمان) إلى كاليه ، وكانت ما تزال في قبضة الإنجليز ، ويبدو أن هؤلاء الفجر كانوا ينتمون إلى الجماعة نفسها التي أثارت اهتمام هنري الثامن ، عندما كان غائباً ، في فرنسا ، يسعى إلى الاستيلاء على المزيد من الأراضي الفرنسية ، ففي سبتمبر ١٥٤٤ التمس رئيس مجلس

(٥٧) ت ١٥٤٠ كبير وزراء هنري الثامن ومهندس الإصلاح الديني في إنجلترا (المترجم) .

اللوردات حكم الملك فى قضية ترتبط بغجر ، قبض عليهم لقطعهم الطريق حول هنتجدون ، وكان رئيس مجلس اللوردات هذا عندما قبض عليهم قد أعلم بدوره كبير القضاة أن عملاً مثل هذا جدير بأن يكون جنائيةً تستدعى المحاكمة ، وأن هؤلاء الذين يقال إنهم إنجليز « يجب أن يجلدوا جيداً كالمتشردين ، ويعادون إلى موطنهم » أما سائرهم فيبعث بهم إلى لندن ، ومن ثم يبعدون من المملكة ، وقد تبينت إدانة اثنين منهم كمبتزمين ، وعرض عليهم أن يدفعوا ثلاثمائة جنيه نظير العفو عنهما - وهو مبلغ جسيم إذا قدرناه بقيمته اليوم - وقد تم أداء الأموال ، وعرف رئيس مجلس اللوردات متى يخفف الأحكام بقدر معقول من الجشع ، وأشار إلى « إن الأمر بدا كعبرة لمن لا يعتبر ، وربما كان من الصعب الحصول على هذا القدر من المال بطريقة أخرى ، وقد اتخذنا هذا الحكم بإبعاد قوم فجرة مثل هؤلاء إلى خارج المملكة ، عبرة لهم ولأمثالهم ، حتى لا يفكروا فى معاودة القدوم إلى البلاد » ، وحيث إنه كان على ثقة من رد الملك ، فإنه كان يتطلع إلى رضاه فى وقت كانت الخزانة فى حال سيئة ، بسبب الحرب التى استغرقت السنوات الأخيرة من حكم هذا الملك ، وبعد يسير جاعته الإجابة من فرنسا «بالعفو عن المصريين المذكورين فى كتابك وسائرهم يبعدون» .

رغمًا عن هذه « الأمثلة الطيبة » ، فإنه يستدل من تشريع مضاد للفجر صدر فى عام ١٥٤٥ ، أى عند نهاية عهد هنرى على تواصل الهم الرسمى بشأنهم ، وقد امتد هذا الهم ليشمل ظاهرة التشرد التى أضحت مشكلةً ضاغطة فى إنجلترا التودورية، وجعل منها توماس مور نقطة البداية فى تحليله للأمراض الاجتماعية فى كتابه اليوتوبيا (١٥١٦) ، فقد تنامت أعداد المتشردين لسنوات طويلة ، كنتيجة لتسييج المزارع وانهيار النظام الزراعى القديم (بحيث صار آلاف العمال عاطلين عن العمل) فضلاً عن زيادة أعداد السكان واتساع المدن والمضاعفات الناجمة عن حل هنرى للأديرة ، وأضحى علاج هذه الأمراض أولويةً قومية ، فبينما كان من المفترض أن يتخذ القادرون بدنياً من الفقراء لأنفسهم أسياداً فإن هذا العدد الكبير من العاطلين والمعدمين صار يشكل خطراً جسيماً للطبقات الحاكمة ، ويعد التشريع الذى صدر فى سنة ١٥٤٧ أى فى السنة الأولى من حكم إدوارد السادس^(٥٨)، هو أشد هذه التشريعات قسوةً ، فتوقع سنوات طويلة من حكم الملك الطفل ، كان يخشى معه من تفسخ المجتمع ، وأضحت أية زيادة فى أعداد المتشردين أمراً بالغ الخطورة .

(٥٨) (١٥٤٧-١٥٥٢) ولى طفلاً ولم يعمر سوى سنوات قليلة (المترجم) .

ونلمس فى ديباجة هذا التشريع ما من شأنه أن يشجب « الرحمة والشفقة الغيبتين » ، ثم ينص على وسم صدور المتشردين القادرين على العمل بحرف^(٥٩) V ، وأن يتم استعبادهم سنتين لدى أحد السادة ، فربما يصبحون أكثر جدوى « بضربهم وتغليلهم وإجبارهم على العمل » على أن هذا المرسوم كان من القسوة ، بحيث لم تتوافر فعالية لدى تنفيذه ، والأهم أن البرلمان لم يكن فى إمكانه أن يحدد من الذين من شأنهم أن يفيدوا بهؤلاء العبيد ، وبذا تم إبطاله بعد عامين ، وأعيد العمل بالتشريع السابق^(٦٠). وفى السنة نفسها (١٥٤٩) نجد الملك الشاب يدون فى يومياته : أنه « تم فى سسكس مطاردة دعوب للمتشردين والفجر والمتأمرين والمتنبئين والموسيقيين ومن يشاكلهم » ، بينما حدث فى دُرَم Durham أن اتهم غجرى يدعى جون رولاند عدداً من أفراد عائلة فاو (بابتيسست وآمى وجورج) بأنهم قاموا بتزييف الخاتم الملكى الكبير ، ووجدت بحوزتهم ما يبدو أنها وثائق مزورة .

احتاج الأمر إلى فترة أطول ليصل إلى مثل ذلك فى إسكتلندا ، ولو أن الفجر واجهوا صعوبات على نحو ما ، فنطالع فى سجلات بلدية أبردين Aberdeen بتاريخ ٨ مايو ١٥٢٧ أنه قد ثبت تورط المصريين فى سرقة ملعقتين فضيتين من منزل توماس واطسن ، وصدر الأمر لزعيمهم ويدعى إيكن جاكس Eken Jaks (وهو اسم مستعار من أهل أبردين) باعتباره مسئولاً عن جماعته ، بإعادة الملعقتين أو ما يساويهما من قيمة ، وعندما عاود الفجر الظهور فى المناطق المجاورة فى سنة ١٥٣٩ ، كانوا عرضة لاتهامات مماثلة ، فقد اتهمت امرأتان منهم بالسرقة ، لكن هيئة المحلفين برأتهمما بالإجماع .. هاتان المرأتان هما هيلين أندرى Helen Andree وبربارا ديا بابتيسستا Barbara Dya Baptista ، وأندرى لقب محلى ، لكن بابتيسستا (وهو لقب دارج عند الفجر الفرنسيين) ليس لقباً إسكتلندياً ، وربما كان ديا هو الكلمة الرومنية التى تعنى أمّاً ، واستخدم هذه المرة ، ليميز هذه المرأة عن امرأة أخرى تدعى باربارا بابتيسستا ، وكان المدافع عنهما فى المحكمة جورج فاو « زعيمهم والمتحدث باسمهم » ، ويعد هذا أقدم ذكر لفجرى بهذا الاسم فى اسكتلندا ، ولو أن فاو نفسه لقب إسكتلندى قديم ، وحدث بعد فترة قصيرة أن تورط جورج فاو وأخوه جون فى شجار ، ترتب عليه

(٥٩) هو الحرف الأول من كلمة Vagrant أى متشرد (المترجم) .

(٦٠) Cf. C. S. L. Davies, 'Slavery and Protector Somerset ; the Vagrancy Act of 1547', Economic History Review (1966), pp. 533-49.

أن أمرتهما البلدية بمغادرة المدينة مع أهلها وأمتعتيهما ، وربما كانا هما نفسيهما بابتيس و جورج فاو اللذين سوف يتهمان بالتزوير فى درم فى عام ١٥٤٩ .

على العكس من موقف رجال بلدية أبردين كان موقف جيمس الخامس^(٦١) الذى كان طقلاً عند وفاة أبيه فى عام ١٥١٣ بفلودين فيلد Flodden Field ، وكان على صلات حميمة بالغجر فى معظم سنوات حكمه ، ففى مايو ١٥٢٩ ، تسلم «المصريون الذين رقصوا أمام الملك فى هاليردهاوس Halyrudhous » مبلغاً مقداره أربعون شلناً^(٦٢) ، وفى مارس من العام التالى أصدر جيمس جواز مرور «لكونت مارتن المواطن من مصر الدنيا وأتباعه»^(٦٣) ، وفى ١٥ فبراير ١٥٤٠ وقع على براءة سامية لمجلسه الخاص بمنح امتيازات كبيرة لجون فاو « لورد وايرل مصر الصغرى » Lord and erle of Litill Egipt ، ومن شأن هذا أن يحيلنا إلى خطابات سابقة مهتت بخاتمة تلزم رجال دولته بمساعدة جون فاو فى مزاولة القضاء بين أصحابه « وفقاً لقوانين مصر » Conforme to the Lawis of Egipt ، ومعاقبة كل من يتمردون ضده ، وتستطرد فتقول بأن أفراداً من جماعة فاو قاموا بذلك فعلاً ، ويعد أن سلبوه أمواله فارقوا جماعته ، وأسماء هؤلاء الأوغاد المسجلة هى Sebastiane Lalow , Anteane Donea , Satona Fingo , Nona Finco, Phillip Hatseyggow , Towla Bailzow , Grasta Neyn, Geleyr Bailzow, Bernard Beige, Demeo Matskalla, Not - Faw Lawlowr, Martyn Femine .

بين هذه الأسماء فإن Faw و Bailzow (تنطق Bailyow أى Balliol أو Baillie) فقط لها صلة بإسكتلندا ، أما سائر الأسماء عدا الاسم الإنجليزى Lalow/ Lawlowr (Lawlor) فتبدو أجنبيةً إلى حد كبير ، نستثنى Not-Faw Lawlor ، فإنه يجب أن يعود إلى عدم دقة الكاتب الذى دون حرفياً تصحيحاً لغجرى حين قال : لست فاو بل لاولر . وطبقاً للبراءة فإن جون فاو رفض أن يعود إلى وطنه ، دون أن يكون معه هؤلاء المارقون من جماعته لكونه « ملتزماً بأن يعود إلى وطنه ، ومعه كل أصحابه الأحياء وشهادة بمن مات منهم » ، ويقال أن زعيم المنشقين سياستيان لاولر نجح عن طريق الخديعة فى أن يحصل على خطابات ملكية تعفى أصحابه من ولائهم لجون فاو ، وقد منعت البراءة أى عون عن هؤلاء ، وقررت أن أية خطابات ملكية مزورة « سوف يتم تجاهلها ، ويجب أن يعتقل هؤلاء المتمردون، ويتم تسليمهم لقائدهم الشرعى » ،

(٦١) (١٥١٣-١٥٤٢) إشتهر بين ملوك إسكتلندا بتصديه للنبلاء الإقطاعيين (المترجم) .

(٦٢) Paul (ed.), Accounts, vol. 5 (1903) , P. 379 .

(٦٣) Ms. Register of the Privy Seal of Scothand, vol. 8, Fol. 153 .

كى يعاقبوا على خطاياهم ويمتثلوا لأوامره ، «وعلى ربابنة السفن أن يقوموا بنقل جون فاو وصحبه لى رحلتهم بحراً » ويذهب بعض الشراح إلى أن ما ورد فى هذه الوثيقة ، يمثل ذروة الرضاء الملكى عن الغجر ، بينما يشكك البعض الآخر فى ذلك ، ويذهب إلى أن جيمس صار مقتنعاً الآن فقط بأن يتخلص من الغجر ، وأن إلحاح جون فاو بضرورة اصطحاب القبيلة كلها حال رحيله ، إنما كان الهدف منه كسب الوقت لتأخير هذا الرحيل .

على أية حال فقد كانت هذه التسوية قصيرة الأمد ، فبعد أقل من عام (٦ يونية ١٥٤١) أمر مجلس شورى الملك بسحب كل خطابات الحماية وما إليها من امتيازات ، وإبعاد الغجر من المملكة فى غضون ثلاثين يوماً وإلا فالموت ، وأعلن أنه على علم «بالسرقات الكبيرة والشُرور التى أقدم عليها من يدعون بالمصريين» ، والفرض القائل بأن هذا التراجع ناجم عن حادثة وقعت للملك ، بينما كان فى صحبة الغجر وحيداً فى بعض رحلاته معهم ، أقرب إلى أن يكون حكاية شعبية من أن يكون سيرة أو تاريخاً ؛ وتقول هذه الحكاية « إن الملك المتكرر حاول أن يمارس الحب مع امرأة غجرية ، لكن واحداً من الغجر قرع رأسه بقارورة ، كما إنه تعرض لإهانات شديدة » . ومع أن ما قرره المجلس فى سنة ١٥٤١ لم ينجح فى طرد الغجر من إسكتلندا، إلا أنه فيما يبدو تم طرد فاو وجماعته لبعض الوقت إلى إنجلترا ، وذلك رغماً عن التشريعات العنيفة ضدهم هناك . ثم جرت تحولات تبعث على الحيرة (وأهمها هنا خطاب تم منحه بعد ثلاثة شهور فقط من براءة عام ١٥٤٠ إلى من يدعى « جون وان John Wanne ولد المرحوم جون فال John Fall إيرل مصر الدنيا ووريثه » وتم الاعتراف به حاكماً على جميع الغجر فى إسكتلندا وتخويله السلطة فى معاقبة أى منهم) ، وفى عام ١٥٤٢ مات جيمس الخامس وخلفته ابنته القاصر ماري^(٦٤)، وخلال فترة الوصاية عليها ، وبينما كانت الملكة ما تزال فى فرنسا ، فقد قامت فى سنة ١٥٥٣ بتجديد البراءة التى سبق أن صدرت فى سنة ١٥٤٠ لصالح «عزيزنا جون فاو لورد وإيرل مصر الصغرى» "oure lovit Johne Faw, lord and erle of Litill Egipt" وضد سياستيان لالو وصحبه المنشقين ، ولم يكن ذلك قبل سبعينيات القرن السادس عشر ، حين تحولت قوانين مجلس شورى الملك وقرارات البرلمان الإسكتلندى إلى قوانين عقابية منتظمة .

(٦٤) (١٥٤٢ - ١٥٦٨) عزلت واعتقلت فى إنجلترا نحو عشرين سنة إلى أن أعدمتم فى ١٥٨٧ بأمر من ملكتها إليزابيث الأولى (المترجم) .

لدينا لغز محير يعود إلى هذا العصر ، ويتمثل في صورة شخصية (انظر شكل ١٠) تشكل واحدة من مجموعة الرسوم التخطيطية العائدة إلى القرن السادس عشر ، والمحفوظة في رأس Arras بشمالى فرنسا (٦٥) ومكتوب عليها بالفرنسية «المرأة المصرية الحاذقة التى ردت ملك إسكتلندا عافيته ، بعد أن عجز عنها الأطباء» (٦٦) 'L' Égyptienne quy rendist santé part art de médecine au roy d' Escoce abandonné des médecins . وحتى الآن ماتزال هوية المريض الملكى قيد التخمين ، ولا يدرى المؤرخون ماذا كان نوع العلاج ؟ ويلوح لنا أن جيمس الرابع أو جيمس الخامس هو المرشح الأكثر قبولاً ، وكان جيمس الخامس حين اقترن بزوجته الأولى ، وهى الابنة الكبرى لفرانسوا الأول قد تغيب ثمانية شهور ونصف الشهر فى فرنسا ١٥٣٦ - ١٥٣٧ ، وحادثة مثل هذه ربما تفسر لنا هذا التعاطف الملكى مع الغجر فى إسكتلندا ، فى وقت كان معظم الملوك الآخرين أقل تسامحاً معهم .

إسكندنافيا

يبدو أن الغجر توافدوا إلى الأقطار الإسكندنافية من إسكتلندا وإنجلترا (٦٧) ، فقد كان جيمس الرابع ملك إسكتلندا ابناً لأميرة دنماركية هى مارجريت ، وهو الذى أوصى خاله جون ملك الدنمارك (٦٨) بأنطونيوس جاجينو فى سنة ١٥٠٥ . وأول

(٦٥) The Recueil d'Arras or Arras collection, no. 266 among the Mss in the municipal library of Arras.

(٦٦) See A.M.Fraser and FA de Vaux de Foletier, 'The Gypsy healer and the king of Scots; JGLS (3), 51 (1972), pp. 1-8.

(٦٧) A. Etzler, Zigenarna och deras avkomlingar i Sverige (Uppsala, 1944), ويشتمل على مسح شامل لتاريخ الغجر الباكر فى السويد وإسكندنافيا بوجه عام ، كما يمكن أن نجد مادة تتصل بالسويد فى :
A. Heymowski, Swedish Travellers and their Ancestry (Uppsala, 1969)

ويتصل بالنرويج فى : E. Sundt, Beretning om Fante = eller Landstrygerfolket i Norge (Christiana, 1850) ويتصل بالدنمارك فى F. Dyrland, Tatere og Natmands folk i Danmark (Copenhagen, 1872) ويتصل بفنلندا فى : R. Vehmas, Suomen Romaaniväestön Ja Ak-kulturoituminen (Turku, 1461).

(٦٨) (١٤٨٥-١٥١٣) (المترجم) .

عجری نتعرف عليه بوضوح فى السويد حمل الاسم ذاته أنطونيوس ، فقد سجل فى دفتر حسابات إستكهولم « إنه فى ٢٩ من سبتمبر ١٥١٢ أتى إلى هذه المدينة ستون تترياً tatra ، يقال إنهم من مصر الصغرى ، يقودهم كونت أنطونيوس ، وقد منحوا عشرين ماركاً » ، وهذا بدوره يتفق مع ماورد فى «الأخبار السويدية» لأولوس پترى Olaus Petri من أنه فى هذا العام (١٥١٢) حط الرجال فى استكهولم لأول مرة قوم يدعون بالتتر . وقد ظل تعبير تتر Tattare أكثر مسميات الفجر شيوعاً فى السويد حتى القرن السابع عشر، حين بدأ استخدام تعبير Zigenare نتيجةً للتأثير الألمانى ، وترادف هذا التعبير مع تترى ، ثم مالبث أن حل محله .

على أن التسامح الدنمركى مع الفجر تلاشى بعد نيف وثلاثين سنة ، ففى سنة ١٥٣٦ ثم فى سنة ١٥٥٤ أمر كريستيان الثالث^(٦٩) ملك الدنمرک والنرويج كل الفجر بمغادرة مملكته خلال ثلاثة شهور ، وجدد ولده فردريك الثانى^(٧٠) أمر الطرد فى سنة ١٥٦١ ، وشدد العقوبات ضدهم ، ولم يعد ممكناً للفجر الذين طردوا بحراً من بوسطن فى لنكولنشاير (١٥٤٠) أن يحظوا بترحيب هناك ، ولم يحتج الأمر وقتاً أطول فى السويد ، حتى تتدهور العلاقات مع الفجر ، فبدأ جوستاف الأول^(٧١) الذى تحقق على يديه استقلال بلاده عن الدنمارك فى سنة ١٥٢٣ فى اتخاذ إجراءات معتدلة نسبياً ، لكنه فى أربعينيات القرن السادس عشر بدأ فى طرد الفجر ، وهى سياسة سار عليها خلفاؤه بعد موته فى سنة ١٥٦٠ ، وفى هذه السنة نفسها وافق كبير الأساقفة لاورنتيوس پترى نيريكيوس Laurentius Petri Nericius على مواد تحظر على القساوسة التعامل مع الفجر ، بل إنه حظر عليهم كذلك أن يعمدوا أطفالهم ، ولا أن يواروا موتاهم .

ويعتقد الكثيرون أن بعض الفجر هاجروا من السويد إلى فنلندا التى ظلت لفترة طويلة تشكل جزءاً من المملكة السويدية ، وهو اعتقاد تدعمه إمكانية أن يكون المسمى الفنلندى للفجر وهو Mustalainen (أى أسود أو قاتم البشرة) ماهو إلا صيغة فنلندية من التعبير السويدى Svart Tattare «التتار السود» ، ويدعم هذه الفرضية بقوة حقيقة

(٦٩) (١٥٢٤-١٥٥٩) وهو مؤسس الكنيسة اللوثرية هناك (المترجم) .

(٧٠) (١٥٨٨-١٥٥٩) (المترجم) .

(٧١) (١٥٢٣-١٥٦٠) (المترجم) .

إنه لدى ذكر الفجر لأول مرة فى السجلات الفنلندية ، يرد فيه أنهم فى رحلتهم عبر البحر ، توقفوا مدينة بجزيرة ألاند Aland الفنلندية ، وكان ذلك فى سنة ١٥٥٩ ، حين أعيد إرسالهم إلى السويد ، وربما سبق هؤلاء المنبوذين آخرون قدموا براً فى سنة ١٥١٥ عن طريق إستونيا Estonia ، ولدينا شاهد على ذلك فى أحد مصادر التاريخ الفنلندى الوسيط^(٧٢) ، وما يبدو واضحاً لدينا هو أنه حين تلتقى فى سنة ١٥٨٤ بفجر ممانين فى الأراضى الفنلندية ، كانوا قد سجنوا فى قلعة أبو Abo نجدهم يحملون على نحو غامض أسماءً سويدية .

الصور والقوالب

بعد أن تقصينا الزحف العجربى على أوربا وما أفضى إليه ، فإنه مما يدعو للأسى افتقارنا إلى دراية واسعة بحياتهم الخاصة وعاداتهم ، ومع ذلك فليس الغموض شاملاً ، فقد بدأنا - كمثال - نتعرف على نحو أوفر إلى مظاهرهم ، حتى ولو كان ذلك من خلال وقعها على مجتمع مستقر ، فهم ببشرتهم القاتمة صاروا غايةً فى القبح وأجدر بالازدراء ، وهم كذلك بشعورهم الطويلة والحلقان فى آذانهم ولباسهم الغريب ، أصبحوا مصدر إزعاج لغيرهم ، وبين نسائهم على نحو خاص كان هناك نمط متفق عليه من الملابس العجربة ، ومن حسن حظنا أنه كان مدعاةً للفت أنظار الفنانين فى أقطار مختلفة ، وعبروا عن ذلك فى لوحاتهم القماشية والورقية ، كما أن لدينا حفراً على المعدن من ألمانيا (حوالى ١٤٨٠) لفنان مجهول (أنظر شكل ٧) ، ولدينا فى مرحلة تالية حفر على الخشب فى كتاب العجائب لـ لينستر حوالى ١٥٥٠ (انظر شكل ٦) ، وفى الأراضى الواطئة ، حيث انتعشت الفنون بفضل رعاية دوقات البرجندين ، نكتشف فى عربة القش لهيرونيموس بوش Hieronymus Bosch (حوالى ١٥٠٠) أقدم نموذج لقارئ طالع عجربى لدى ممارسته عمله (شكل ٩) ، وهو موضوع صار دارجاً كذلك فى عديد من المطرقات التى نسجت فى مشاغل تورناى ، وأعجب مثال عليها ، يبدو فى مواكب للفجر لدى أبواب مدينة أو قلعة ، وقد اختلطوا بأهلها (شكل ٨) ، وتبدو نسائهم وقد ارتدين عمامات ، وهو ما يتوافق مع وصف المدونات لهن ، فترى إحدى

E. Altonen, review in JGLS (3), 42 (1963), pp. 64-7.

(٧٢)

سيدات الطبقة الراقية ، وقد تركت يدها لهن لتتعرف على طالعها (شكل ١١) ، بينما ترى سيدة أخرى وصبي غجري يسلبها كيس نقودها ، وفي تطريز آخر بتورناي ، يتوافر لدينا أقدم صورة مرسومة لرقصات غجرية (أنظر شكل ١٢) .

أضحى زى الغجر نموذجاً لكل ماهو عجيب وغريب ، وهو ما نلمسه في تصاوير دينية وأعمال حفر بالأراضي الوطنة (مثلما نجد في أعمال لوكاس فان لايدن Lucas van Leyden) وتتضمن وجوهاً شبيهةً بوجوه الغجر ، عندما يتطلب الموضوع نساءً شرقيات (بخاصة مصريات) ، وهناك موضوعات مماثلة شاعت بين مصورين إيطاليين ، خلال الشطر الأول من القرن السادس عشر ، تشهد عليها لوحة الغجرية والجندي لجيورجيوني Giorgione (قبل ١٥١٠) والغجرية La Zingarella لتيتيان Titian (حوالي ١٥١٠) ولوحة جاروفالو Garofalo بالاسم نفسه (حوالي ١٥٢٥) ولوحة العذراء الغجرية Gypsy Madonna لكوريغيو Corregio (حوالي ١٥٣٠) ، وهذه كلها معالجات نمطية ذات قيمة وثائقية محدودة ، لكنها تتوافق إلى حد كبير مع غيرها ، كما تتوافق مع الرسم الخاص بالمرأة الغجرية المتطببة (شكل ١٠) فيما يتصل بملبس النسوة



شكل ١١ من عمل فنان مجهول فرنسي فلمنكي (ربما من تورناي) زيارة للغجر حولي سنة ١٤٩٠

(تفصيل) تطريز من الصوف ٥٠.٢٩×٣٥.٠٥ قاعة كاريير للفنون مانشستر ، نيوها مشاير ، رصيد كاريير

١٩٣٧٧



شكل ١٢ راقصة غجرية تفصيل من مطرز بتورناى حوالى سنة ١٥٠٠ متحف جازيك بلجيكا

الغجريات ، فقد صورت مرتدية عمامة على نحو تلقائي (كانت تثبت أحياناً بأملود) وقميصاً يغطيه حرام على هيئة عباءة مربوطة إلى أحد الكتفين ، وفى الوقت نفسه بدت النماذج التصويرية أميل لأن تكون لها أنماط ثابتة، فغالباً ما يرتبط منظر قراءة الطالع بصبي نشال ، هذه النماذج سرعان ما تصبح قالباً ثابتاً فى الذهنية الشعبية (٧٣) .

فى المسرح صار للفجر كذلك قالب نمطى ، فنشاهد فى هزلية جيل فيسنتى التى تعود إلى سنة ١٥٢١ عرضاً لنسوة غجريات كقارئات طالع محتالات ، والتجار كتجار خيول محتالين ، بل إنه فى فترة سابقة أدخلت شخصية قارئ الطالع الغجرى فى مسرحية سويسرية مجهولة المؤلف ، كتبت فى لوسيرن حوالى سنة ١٤٧٥ (٧٤) ،

(٧٣) درس هذا الموضوع مصحوباً برسوم توضيحية فى كتاب كوزان J. P. Cuzin :

Catalogue La Diseuse bonne aventure de Caravage (Paris, 1977)

Schauspiele des Mittelalters, ed. F. J. Mone (Karlsruhe, 1846), vo. 12, pp. (٧٤)

378 ff.

وتبدأ هذه المسرحية بمزارع ينادى زوجته بأن تسارع وتحكم رتاج بوابات أهراء الحبوب وتأتى بالدجاج ، حيث إن الهايدن قادمون ، وفى مسرحية أخرى لهانز زاكس Hans Sachs تعود إلى منتصف القرن السادس عشر (٧٥) ، وهى مسرحية أخرى حافلة بالمواقف الهزلية والساخرة ، تصل سمعة الفجر إلى الحضيض ، فهى تربط بينهم وبين التخلص وفتح الأغلاق والنشل وسرقة الخيل ووضع الرقى والسحر والاحتيال .

أما بخصوص الإخباريين الذين أسهبوا فى كتاباتهم عن بدايات الوجود الفجرى بعد مضى قرن كامل على هذه البدايات ، فقد أضافوا المزيد من عندهم ، بحيث أضحى التباين واضحاً بين ما كتبه هؤلاء وبين ما سبق أن سجله شهود العيان المعاصرين ، ومع ذلك فما كتبه الإخباريون يشكل اليوم قسماً هاماً من فهمنا التقليدى للفجر ، وقد استهللنا الفصل الحالى باقتباس من أقينتينوس ، وقد سار على نهجه أحد معاصريه وهو كرانتيوس Kranzius (ألبرت كرانتز Albert Krantz) من أهل هامبورج ، ويعطينا فى كتابه ساكسونيا Saxonia (٧٦) ، تعقيبات لاذعة على طريقة الفجر فى الحياة ، ويوهمنا بأن لها علاقة بالجماعة الأصلية (عام ١٤١٧) ، لكنه كان يستند بلاشك إلى مشاهدات ومواقف تعود إلى عصره هو ، وعلى نهج كثيرين غيره يركز على بشرتهم القاتمة وملابسهم العجيبة ، وكونهم عبثاً على الفلاحين ، ويندد بسرقاتهم الصغيرة التى تنهض بها نساؤهم ، كما يذكر أنهم يتحدثون بلغات عديدة ، ولكن ليس لهم وطن حقيقى ، لأنهم ولدوا وهم يترحلون ، أما العقوبة المزعومة ، فهى محض هراء ، وهم لا يمارسون فى الواقع أى دين ، ويعيشون من يوم ليوم كالسوائم ، ينتقلون من ولاية إلى أخرى ، ثم يعودون بعد أعوام قليلة ، ولكن بعد أن يكونوا قد انقسموا إلى جماعات صغيرة ، حتى لا يبدو أنهم القوم أنفسهم الذين سبق أن أتوا إلى المكان نفسه ، وترتحل نساؤهم مع صغارهم فى عربات تجرها الدواب ، ولدى نبلائهم كلاب صيد ، وغالباً ما يستبدلون خيلهم ، أما سائرهم فيسيرون على أقدامهم ، وهم يحترمون الدوق والكونتات والجنود ، وليس من الواضح ما إذا كان هؤلاء الجنود من

Die 5 elenden wanderer, in Hans Sachs' Werke (Berlin, 1884), Vol. 2 (٧٥)
pp.58-68.

A. Krantz, Rerum Germanicarum historici clariss. Saxonia (Frankfurt am (٧٦)
Main, 1580), pp. 354 ff.

الفجر أم الأغيار الذين أدرجوا في حملتهم بهدف حمايتهم ، لكن كرانيس يقول إنهم كانوا يدخلون في زميرتهم من يشاء أن يلحق بهم من الرجال والنساء ، وهو أمر يدعو إلى الشك ، حيث إنه كان يصعب على كثير من هؤلاء الشراح المتأخرين أن يتفقوا على مفهوم محدد «للمصريين» ، لكنه كان من الواضح حتى ذلك الحين نزارة حالات التزاوج بين الفجر وغير الفجر .

ومما توافر لدينا من معلومات عرفنا ، أن كانت أهم وسيلتين لطلب الرزق عندهم هي السؤال والعرافة وقراءة الطالع ، ويأتى بعد ذلك الإتجار بالخيول وصنع الأدوات المعدنية والطبابة والموسيقى والرقص ، كذلك كانت السرقة موضوعاً متواتراً ، ولو أنها لم تكن تجاوز في معظمها سرقة طعام أو ملابس أو نقود إذا ما سنحت لهم فرصة . أما عن أحوالهم الداخلية من قضاء ونظام ، فكانت في أساسها شائناً خاصاً بهم ، ولدينا دلائل وافرة على أن الجماعة الفجرية كان معترفاً بها كدولة داخل الدولة Imperi-um in Emperio ، وعندما كانت تشجب نزاعات بين بعضهم البعض ، لم تكن الدولة تبذل جهداً كبيراً للبحث عن الجاني وعقابه ، تاركاً ذلك للفجر ، يفعلون مايجدون ضرورياً .

وقد استمر تعبير «مصر الصغرى» مستخدماً على نحو رتيب لوصف الأفراد ، لكنه الآن وبعد عدة أجيال من بداية الهجرة صوب الغرب ، تحول إلى مقولة مبتذلة ، وأضحى الفجر مرتبطين بأقطار معينة ، حتى ولو لم يستقروا فيها تماماً ، وعندما كان يحدث بين وقت وآخر ، ويحقق مع بعض أسلافهم في محكمة فإنهم - ورغماً عن هذا التعبير - يدعون أنهم ولدوا (وربما عمدوا) في القطر الذي يحاكمون فيه ، أو أنهم اقترنوا بنساء من مناطق ليست بعيدة (٧٧).

النماذج الأوربية

ركزنا في هذا الفصل على التفاعل بين الفجر وبين الحكام والنبلاء والمتنفذين والمواطنين بالقدر الذي يتيح لنا ماتوافر من مادة ، وحتى في هذا المجال ، فليست

(٧٧) محاكمات مثل هذه في الأراضي الواطئة في سنة ١٥٥٣ أنظر :

Van Kappen, Geschiedenis, pp. 128-30.

الصورة واضحة تماماً ، لأن ما كان يتم تسجيله فى دور المحفوظات البلدية والقومية هو الأحداث التى كان يستهدف فيها المال العام ، وبذا يتساعل المرء عن الأحداث الأخرى الأوفر عدداً ، والتى لم تلتفت إليها أنظار الجهات الرسمية حيث إنهم حصلوا على ما يريدون ، من خلال تبادل السلع والخدمات ، أو ربما لأنهم غادروا أو ردوا على أعقابهم خالين الوفاض .

بالنظر إلى ما نشأ من صلات ، فربما يتبين لنا نمط متساقق لدى انتشار الغجر فى كل أوربا ، والاشارات المتفرقة للإعراض عنهم أو نبذهم تبدأ فى الظهور فى أعقاب حلولهم بقطر ما ، فيصاب القرويون وأهل المدن بالضجر من منحهم صدقات ، وأضحى من المتعاد بعد عشر سنوات أو عشرين سنة وقوع صدامات ، وبدئ فى إصدار مراسيم ضدهم خلال فترة تتراوح بين عدة عقود إلى القرن وربما أكثر بعد وصولهم ، حتى قبل أن يصبح القمع سياسة عامة فى كل أوروبا .

ظلت حكاية الغجر المعتادة عن حجة مدتها سبع سنوات متجددة ، واستمر لها حضورها ، ولو أنها فقدت بمضى الوقت سحرها ، وليس من الواضح ما إذا كانت قد استخدمت على نحو دائم أو متقطع ، فقد كان يرد ذكرها فى الوثائق بين حين وآخر ، لكنه غالباً ما كان فى سياق تسجيل أحداث تختص بمنح الصدقة لهم ، ولم تعد فى الوقت نفسه أمراً سهلاً ، فبعد الزيارات الأولى القليلة ، صار أكثر الناس تقوى يجدون صعوبات متزايدة فى حفز مواطنيهم لنجدة هؤلاء الحجاج ، والواقع أن المناخ الدينى بأكمله كان يتغير بسرعة ، ففي عام ١٥٠٠ كانت المسيحية مازال منقسمة بين الكاثوليكية الرومانية فى الغرب والأورثوذكسية اليونانية فى الشرق ، وذلك عدا بوهيميا ومورافيا ، حيث كان الهوسيون يشكلون أكثر من نصف سكانهما ، وخلال أقل من خمسين سنة تحول أربعون بالمائة تقريباً من سكان أوربا إلى المذهب الإصلاحى وفى سنة ١٥٧٠ كان بين كل عشرة من رعايا الإمبراطورية الرومانية المقدسة سبعة من البروتستانت ، وفقدت الرسائل البابوية معظم ما كان لها من فضائل أصلية ، وكان ما يزال للدعاءات التى توصل بها الغجر لدى مقدمهم بعض سحرها لكن التعاطف تجاه الحج عانى من ضربة قاصمة ، فضلاً عن أن التسول الذى كانت تنظر الكنيسة إليه بعين العطف فى أيام التصورات الفرانسيسكانية^(٧٨) عن الفقر ، وظل لزم من طويل

(٧٨) نسبة إلى القديس فرانسيس الأسيسى (ت ١٢٢٦) راهب إيطالى ومبشر ومؤسس جماعة الفرانسيسكان (المترجم) .

يحظى بعناية السلطات ، صار الآن عرضة لهجمة كاسحة من لوثر^(٧٩) وآخرين ، وقد أخذوا على عواتقهم إقتلعه تماماً من العالم المسيحى .

عندما تحول المد وجد الغجر أنفسهم دون وطن بديل ، يجدون فيه ملاذهم ، ووهن أملهم فى أن تكون لهم جذور ثابتة فيه ، وقد أثاروا منذ البداية نزعات التعصب الكامنة بين السكان الحضريين الذين عاشوا على هامشهم ، وكان هؤلاء السكان لا يثقون فى أقوام رحل ، وفى المجتمع الأوروبى حيث كانت الغالبية مرغمة على حياة التقوى والقنية والكد ، صار الغجر يمثلون نقيضاً صارخاً لقيم هذا المجتمع وأخلاقياته ، كما كان هناك تعصب مماثل ، على أساس ما شاع خلال القرن السادس عشر من ترتيبات خاصة بنجدة الفقراء ، من منطلق أن تتكفل كل كنيسة بمساعدة من يعيشون منهم فى دائرتها ، بينما يتوجب عليها إبعاد السؤال الأجانب بغير شفقه ولارحمة إلى مساقط رؤوسهم أو إلى المكان الذى قدموا منه ، ولم يدع هذا المفهوم أية فرصة لقوم ليست لديهم كنيسة محددة ، ومن بلد إلى بلد تواصلت سياسة رفض الغجر ، دون أدنى اعتبار لمكان يذهبون إليه وكيف يذهبون ، وما إذا كان سيسمح لهم بالدخول والبقاء ، إذا ما وصلوا إلى هناك .

(٧٩) مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) مصلح دينى ألمانى كبير ، ورائد للمذهب البروتستانتى ، ترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية (المترجم)

الفصل السادس

وطأة الأغلال

طيلة ما يزيد على المائتي سنة ، من منتصف القرن السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر ، كان هناك ترد مطرد في إستجابة معظم الدول الأوربية لوجود الفجر ، فقد استمر ينظر إليهم على أنهم مجرمون ، لسبب بسيط هو وضعهم داخل المجتمع ، والأهم هو ما نشأ من تعصب عرقى ، جاورته عداوات دينية ، تجاه من تنسب إليهم ممارسات وثنية وسحر ، وقد عانى الفجر فى جملتهم من قمع تنامى فى كل الأنحاء ضد المتشردين والمتسولين ، ولم تستطع السلطات أن تصل إلى حل مع من لا انتماء لهم ولا جذور ولا سادة ولا محل إقامة ، ولا يرجى منهم نفع كقوة عمل . واعتبرت حالهم فى ذاتها مروقاً وشروداً عن النظام العام ، ومن الواجب تقويمهم بقسرهم وإحكام تغليلهم ، وحتى عندما كان الفجر يمارسون مهناً مشروعة كباعة جوالين وحرفيين ، فإنهم كانوا يستعدون للاحتكارات المحلية ، أما عن مهن أخرى مارسوها كصفاحين وملهين ، فإنها كانت موضعاً لاشمئزاز النخبة الحاكمة ، ومر وقت طويل إلى أن لاحت طاقة من الفرج ، فقد خلّف عصر التنوير مساحات واسعة من الضوء وفلسفة وأدباً ، كما خلّف قفزات إلى الأمام فى العلم والموسيقى ، لكن القليل من هذا كله هو الذى قدر له أن يخترق الظلام الدامس الذى خيم على علاقة الأوروبيين بالفجر .

الطرد والدمج والاقتلاع

لو أنه كان قد أتيح للقوانين المعادية للفجر ، أن تطبق بحزم ولو لشهور قليلة ، فإنه كان قميناً بها أن تستأصلهم من معظم أقطار أوربا المسيحية ، خلال مدى لا يتعدى منتصف القرن السادس عشر ، وهو ما لم يحدث بالفعل ، والسمة الوحيدة

المتجددة ، هي أن أشد هذه القوانين صرامة لم توضع فى معظمها موضع التنفيذ ، وذلك بسبب المعارضة الصامتة عند بعض السكان ، ولكن بالتأكيد للضعف الكامن إذ ذاك فى جهاز الشرطة ، بحيث أضحي التفاوت بين الهدف ووسائل تحقيقه ظاهرة عامة فى كل مكان ، فالقوانين كانت عديدة والعقوبات شديدة ، بحيث يصير من الممل رصدها تفصيلاً ، وعلى أية حال فلسنا فى حاجة إلى ذلك ، وإذا تأملنا فى سيرورة الأحداث فى بعض من البلاد ، نلاحظ توافقاً محدوداً فى ردود أفعالها ، خلال المائتين والخمسين سنة التالية ، فأحياناً ما تهدأ العاصفة ، وهو ما حدث تدريجياً فى إنجلترا وإسكتلندا ، وغالباً ما كانت تتدافع دون توان ، ولكن على نحو مهلهل فى الأراضى الألمانية ، لكنها فى أنحاء أخرى ، كما فى فرنسا والأراضى الواطئة ، تصير أكثر صلابة وتماسكاً ، وقليل من الحكومات ، وأخصها الإمبراطورية الهابسبورجية وإسبانيا البربونيه ، هى التى توصلت فى النهاية إلى نتيجة مفادها أن تتحول بتوجهاتها نحو ما هو أكثر عقلانية (ولكن دون أن تدنى من تشدها) بعدما جرى من إخفاقات (١).

تمثل السنوات ١٥٥٠ - ١٦٤٠ الذروة فيما اتخذته الدولة فى إنجلترا ضد من لاسادة لهم ، ففي فترة باكرة تعود إلى سنة ١٥٥٤ أى فى بداية عهد فيليب ومارى (٢) صدر قرار ينوه إلى « شتيت ممن يقال إنهم « مصريون » وأشباههم الذين ما يزالون يغامرون بالقدوم إلى هذه المملكة مستعنين بما اعتادوه من حيل دنيئة ، ويمارسون أعمالاً رديئة ، لا يمكن السماح بها فى أية مملكة مسيحية ، ثم هم لا يعاقبون بعد ذلك على جرائمهم » ، وبذا تم تشديد العقوبات السابق ورودها فى مرسوم هنرى الثامن الصادر فى سنة ١٥٣٠ ، فأضيف إليها غرامة مقدارها أربعون جنيهاً ، يؤديها كل من يثبت تورطه فى استقدام غجر ، وكل غجرى من هؤلاء يأتى إلى البلاد ويبقى بها شهراً يعد مجرمًا ، يعدم وتصادر أرضه وماله ، وقد أضحي بالفعل هذا مصير الفجر الموجودين فى إنجلترا وويلز ، ثم لا يغادرون البلاد خلال أربعين يوماً ، ولم تكن هذه العقوبات لتسرى على الأطفال دون الرابعة عشرة ، كما أنه فى إمكان أى غجرى

(١) كثير من المصادر التى وردت فى الفصلين الرابع والخامس من كتابنا ما تزال مناسبة بالنسبة لبعض الأقطار الأوربية .

(٢) أى فيليب الثانى ملك إسبانيا (١٥٥٦ - ١٥٩٨) ومارى ملكة إنجلترا (١٥٥٣ - ١٥٥٨) وكانا زوجين لعدة سنوات (المترجم) .

تفاديهها ، إذا شاء أن يتخلى عن « حياته التافهة الفاسدة ورفقة السوء ، والتحق بخدمة أحد السكان الأمناء القادرين .. أو أن يكون أميناً في ممارسته عملاً مشروعاً أو مهنة مشروعة » كذلك أعلن عن بطلان كل التصاريح والخطابات والجوازات التي كان يستخدمها « المصريون » في تنقلاتهم داخل إنجلترا وويلز .

وأول ما تم تسجيله من محاكمات طبقاً لهذا المرسوم ، يعود إلى سنة ١٥٥٩ أى فى عهد إليزابيث^(٢) ، ويرتبط بجماعة كبيرة من الفجر كانت تعيش فى دورست Dorset ، فقد كتب نائب اللورد إلى مجلس شورى الملكة ، يسأله عما يجب عمله مع هؤلاء ، فأتته الإجابة بأن الملكة تجد « من المناسب جداً أن يؤخذوا بشدة ، ويعدم عدد كبير منهم » ، أما الباقيون فيتم إبعادهم ، كما أسديت النصيحة نفسها فى العام نفسه لقضاة محكمة هيريفورد شاير Herefordshire . ومع ذلك فقد تمت تبرئة الفجر الذين حوكموا فى دورست ، على أساس أنهم لم ينتقلوا إلى إنجلترا بحراً ، لكنهم أتوا إليها عن طريق البر من إسكتلندا ، واكتفى نائب اللورد ، بأن أمر بأن يبعث بهم إلى مواطنهم الأصلية ، حسبما ينص القانون الخاص بالتشرد (على أن هؤلاء الفجر لم يلتزموا بما أمروا به وعادوا الاصطدام بالسلطات ، فألقى القبض عليهم فى الشهر التالى ، بينما كانوا فى جلوسستر شاير Gloucestershire وحبسوا فى قلعتها ونكل بهم فى شوارع المدينة) . ويبدو أن حالات الأبعاد التى نجمت عن تطبيق مرسوم عام ١٥٥٤ كانت قليلة بالمقارنة .

بمضى الزمن ولم يعد هناك سوى القليل من الفجر ، هم الذين ولدوا خارج إنجلترا ، وعندما صدر مرسوم فى عام ١٥٦٢ بشأن « مزيد من العقوبات للمتشردين الذين يدعون أنفسهم مصريين » كان الهدف منه أن يصبح وضع من من ولد منهم فى إنجلترا أو ويلز أكثر وضوحاً ، مما كان عليه فى تشريعات فيليب ومارى ؛ فقد تم التأكيد على أن أى شخص ولد فى إنجلترا أو ويلز ، لا يرغب على مغادرة البلاد .. فقط عليه أن يطرح حياته التافهة الفاسدة ، وحدد فى الوقت نفسه أن أى شخص جاوز الرابعة عشرة من عمره ، ثم يتبين أنه شوهى « مرة واحدة أو عدة مرات » صحبة متشردين يدعون أنفسهم مصريين « وقلدهم أو تحول إليهم أو صار مثلهم فى ملابسهم

(٣) الأولى (١٥٥٨ - ١٦٠٣) من أعظم ملوك إنجلترا وملكاتهما ، فى عهدهما تم تحطيم الأرمادا الإسبانية ، وصارت لانجلترا ممتلكات واسعة فيما وراء البحار (المترجم) .

وكلامهم ومسلكتهم « فمن الواجب إعدامه ومصادرة أرضه وماله ، ومن المحتمل أن التركيز في هذا السياق على تقليد المصريين لم ينشأ عن الحاجة إلى التعامل مع أغيار صاحبوا غجر ، بقدر ما نشأ عن الرغبة في اجتناب مراوغات بعضهم ممن يدعون أنهم ولدوا في إنجلترا أو ويلز (حتى من أبوين غجريين) فلا يعدون بالتالي « مصريين »^(٤) .

جدير بالذكر أنه اتضح الآن لعدد من « المصريين » أنه من الحكمة لهم التأكيد على أن عقبتهم عمدوا ، ولديهم وثائق تثبت مكان الميلاد ، مثل قيودات التعميد ، وكانت حتى ذلك الوقت قليلة ثم بدأ عددها في الزيادة في إنجلترا وويلز معاً ، وفي القضايا العشر الخاصة بمصاحبة المصريين وتقليدهم والتي نظرت خلال المائة عام التالية لصدور هذا المرسوم ، يتأكد لنا أن كثيراً من المدعى عليهم كانوا من الغجر .

كان مجلس شورى الملكة نشيطاً في متابعة المرسوم الجديد بتعليماته التي بعث بها إلى مسئولى الكونتيات والقضاة ، وفي سنة ١٥٦٩ صار الجميع مكلفين بالبحث دون توان عن الغجر والمتشردين ، وكانت الحال المضطربة التي سادت البلاد في أعقاب تمرد إيرلات الشمال ضد الملكة إليزابيث قد أفضت إلى استياء عام ، أعان عليه المتشردون والمتجولون والمتسولون ، وفي عام ١٥٧٧ أبدى المجلس اهتمامه الفائق بالدعاوى القضائية ضد عديد من الأشخاص في أياالسبرى Ayalesbury ، يبدو أنهم غجر ولدوا في إنجلترا ، وكانت جريمتهم أنهم صاحبوا مصريين ، واتخذوا لباسهم وكلامهم وسلوكوا سلوكهم ، وثبت أنهم جميعاً مذنبون وتم شنقهم^(٥) ، وبعد ذلك بسنتين اعتمد المجلس مفوضين خصوصيين ، للنظر في جرائم أربعين غجرياً ، اعتقلوا في كونتية راندور Randor ، توفيراً لنفقات إعالتهم ، في حال حبسهم حتى الدورات القضائية القادمة ، وليس ثم نقص في السجلات الخاصة بأخرين لاقوا المصير نفسه ، ومع ذلك فلدينا حالة واحدة تختص بمحاولة لتنفيذ مواد مرسوم عام ١٥٦٢ ، والتي تنص على إعادة أفراد جماعة غجرية إلى إبروشياتهم الأصلية ، كي يمارسوا بها عملاً مقبولاً . وكان ذلك في عام ١٥٩٦ حين ألقى القبض بعد جولة تفتيشية في يوركشاير

(٤) Cf. A. M. Fraser, "Counterfeit Egyptians", Tsiganologische Studien 1990 , no. 2, PP. 43 - 69 .

(٥) درست هذه القضية بالتفصيل في :

T. W. Thompson , " Consorting with and counterfeiting Egyptians' , JGLS (3) , 2 (1923) , PP. 81 - 93 .

على ستة وتسعين ومائة غجريا ، ومن يرافقونهم رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وجرت محاكمتهم ، وأدين ست ومائة من البالغين، حكم عليهم بالإعدام فى محاكم يورك الكبرى ، وتسعة منهم فقط أى خمسة بالمائة من المجموع الكلى ، ثبت أنهم ولدوا خارج إنجلترا ، وهؤلاء أعدموا على الفور وسط عويل الآخرين ، بيد أنه تم الصفع عن الباقيين ، وعهد إلى شخص يدعى وليم پورتنجتون William Portington لأن يمضى بهم (أى بسبعة وثمانين ومائة) إلى مواطنهم الأصلية ، وكان مشهد هؤلاء المتشردين واحداً من أغرب ما شوهد على الطريق فى إنجلترا ، ومنح پورتنجتون مهلة ثمانية شهور ، من أجل إنجاز مهمته ، التى وصلت إلى نهايتها فى جلامورجان Glamorgan (٦) (وملاحمتا جلامورجان ورائدورهما أول إشارتين إلى وجود الغجر فى ويلز ، ولو أنه وجدت إشارات لبعضها على الجانب الإنجليزى من الحدود تعود إلى سنة ١٥٣٠) (٧) .

كان المرسوم الذى أصدرته إليزابيث فى عام ١٥٦٢ هو آخر مرسوم من نوعه وجه إلى الغجر فى إنجلترا وويلز ، وظل متضمناً فى سجل القوانين ، ولو أن الوهن أصابه فى مرحلة تالية ، إلى أن تم إلغاؤه فى عام ١٧٨٣ ، بدعوى أنه «قانون غاية فى قساوته» ، وآخر مرة شنق فيها أحدهم لمجرد أنه غجرى رحال ، كانت فى خمسينيات القرن السابع عشر ، وذلك حين أدانت محكمة بيرى سانت إدموندز Bury St. Edmunds ثلاثة عشر رجلاً وتم إعدامهم (٨) ، ومع ذلك فلدينا ما يثبت أنه ولدى طويل ظل الغجر يجدون من المسئولين المحليين من يتسامحون معهم ، ويبتعدون بدرجة أو أخرى عن إزعاجهم ، بل ربما يجدون من يحسن إليهم ، كما تشهد بذلك دفاتر حسابات الإبروشيات فى القرن السابع عشر (٩) .

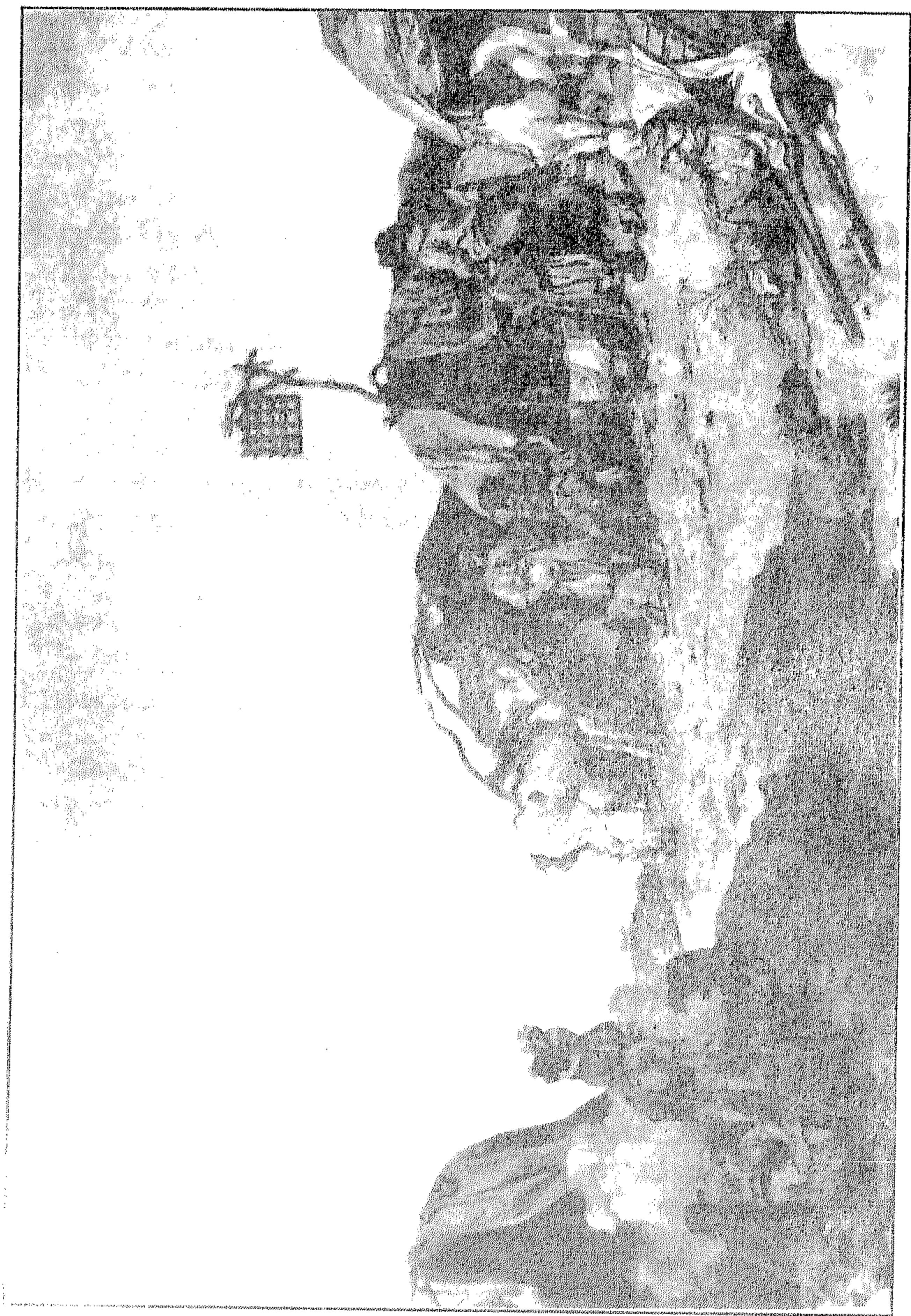
(٦) R. O. Jones " The Mode of disposing of gipsies and vagrants in the reign of Elizabeth", Archaeologica Cambrensis (4th series), 13 (1882), PP. 226 - 31 ; rptd in JGLS (2), (1908- 9) , PP. 334 - 8 .

(٧) لاستكمال هذا الموضوع يجدر ذكر أن الإشارات الباكراة إلى الغجر فى أيرلندا تعود إلى أول مرسوم أيرلندى يذكرهم ، وهو خاص بمعاينة المتشردين (١٦٣٤) ، ويشمل طبقات المصريين ومقلديهم ، ومن المشكوك فيه مع ذلك ما إذا كانت تلك إشارة حقيقية إلى وجود الغجر فى أيرلندا فى ذلك الوقت ، فصيغة هذا المرسوم فى معظمها مأخوذة من مثيله الإنجليزى الصادر فى عام ١٥٩٧ بشأن المتشردين .

(٨) J. Hoyland , A Historical Survey ... of the Gypsies (York, 1816), PP. 86 - 7 .

(٩) T. W. Thompson, " Gleanings From Constables' accounts and other sources" (٩) JGLS (3) , 7 (1928) , PP. 30 - 47 .

كان الغجر فى الوقت ذاته عرضة لأن تطولهم تشريعات التشرد ، فحالما اعترف بهم على أنهم ولدوا فى إنجلترا صار التمييز الرسمى ملتبساً بينهم وبين غيرهم من المتشردين وبين الثلاثة عشر تشريعاً الخاصة بالمتشردين والفقراء السابق إصدارها فى عهد هنرى الثامن ثم فى عهود خلفائه من أسرة تودور ، كان أشملها جميعاً هو التشريع الصادر فى سنة ١٥٧٢ والذى يوصف بأنه « مرسوم » لمعاقبة المتشردين ومساعدة الفقراء وغير القادرين « كما يعد كذلك أقصى ما أصدرته إليزابيث من مراسيم ، فقد صار كل من يبلغ الرابعة عشرة من « متشردين أو متسولين » مجرمين «عرضةً لأن يجلدوا بقسوة ويتم إدخال إبرة حديدية محمية طولها بوصة فى أذن أحدهم اليمنى حتى الغضروف » إلا إذا تعهد شخص يوثق به بأن يلحقهم بخدمته لمدة عام ، ومن ينتهكون هذا المرسوم للمرة الثانية ، يعاملون على أنهم خونة إلا إذا ألحقوا بخدمة أحدهم لمدة عام ، أما من ينتهكونه للمرة الثالثة فليس ثم بديل من أن يعاملوا على نحو نهائى على أنهم خونة ، وما يترتب على ذلك من تبعات ، أما المتشردون ممن لم يبلغوا الرابعة عشرة ، فإنهم يجلدون أو يوضعون فى آلات التعذيب . ومع أن الغجر لا يرد لهم ذكر فى الرواية الطويلة للفئات التى تستوجب العقاب ، فإن كثيراً من الأوصاف الواردة كانت تنطبق عليهم بوضوح ، أما فيما يختص بمديد العون للفقراء ، فقد صدرت التعليمات للأمورى الضبطية القضائية بأن يسجلوا أسماء كبار السن وغير القادرين الذين ولدوا فى أقاليمهم ، أو أقاموا بها ثلاثة أعوام ، ويهيئوا لهم المأوى المناسب على نفقة الأهلين ، وتمثل هذه المساهمات الإيجابية على المستوى القومى وفى مقدمتها الكنيسة مستجدات عظمية ، وأضحى بإمكان أى قادر أن يدخل فى خدمته أطفال المتشردين الذين تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وأربع عشرة ، وتبقى الإناث لديه حتى سن الثامن عشر والذكور حتى سن الرابع والعشرين، وبذا يصير للسيد الحق فى استعبادهم إلى مدى يصل إلى تسعة عشر عاماً.



شكل ١٣ - تخيم الفجر لفرانسيس ويتلي ،أواخر القرن الثامن عشر ، متحف مدينة بومبيجا
وقاعة الفنون

على أنه جرى التخفيف من هذا التشريع فى مرحلة لاحقة ، وتقلص فيه الجانب العقابى ولو أنه يظل وحشياً بمقاييس عصرنا ، وواصل البرلمان إصداره لقوانين التشرد، لكنها فى معظمها لم تأت بجديد ، واعتبار الغجر شأنهم شأن جماعات أخرى كثيرة متشردين - وهو ما يعود فى بدايته إلى مرسوم عام ١٥٩٧ - صار يتجدد من وقت لآخر ، مثلما هى الحال مع القانون الصادر فى عام ١٧١٣ بجعل تعبير متشردين يمتد إلى « كل الأشخاص الذين يتظاهرون بأنهم غجر أو جوالون لهم هيئة المتمصرين وعاداتهم ، أو يدعون مهارتهم فى علم الفراسة أو يتظاهرون بقراءة الطالع وما إليها أو يلجأون إلى الاحتيال أو التلاعب » ، وقد أهم هذا المرسوم القضاة إلى تنظيم حملات دورية للتفتيش عن المتشردين والمتسولين وإعادتهم إلى محال إقامتهم، بعد أن يحكموا بجلدهم أو سجنهم مع الأشغال الشاقة ، إذا تطلب الأمر ذلك . وإذا لم يتوافر لهم محال إقامة يردون إلى محال ولادتهم ، وصار يشار إلى الغجر بالاسم حتى آخر مرة فى مرسوم التشرد الصادر فى عام ١٨٢٢ والذي يعلن أن « كل الأشخاص الذين يتظاهرون بأنهم غجر » أو يقرأون الطالع أو يترحلون فى كل اتجاه أو يقيمون فى خيام أو عربات ، يعدون متشردين عرضة لعقوبة تصل إلى السجن ستة شهور ، وحين استبدل بهذا المرسوم مرسوم آخر للتشرد صدر بعد عامين (ولا يزال معظمه سارياً ويقضى بالغرامة والسجن للمتشردين والمتسولين) فإنه لم تعد هناك إشارة محددة إلى الغجر ، ولو أنه لم يختلف تماماً ، وواصلت تشريعات الطرق العامة تصديدها لتخميم الغجر ، وهو ما يتضح فى مرسوم الطرق العامة الصادر فى سنة ١٨٢٢ (قارن ص ١٥ - ١٧)

هكذا نجد أن أول استخدام لصيغة Gipsy بدلاً من مصرى فى تشريع إنجليزى كان فى مرسوم عام ١٧١٣ ، ولكن المشرعين لم يكونوا مبتكرين فى مجال الألسنيات . والصيغة نفسها صارت دارجة فى بداية القرن السابق^(١٠) ، بعد أن تطورت عن صيغ وسيطة مثل Gipcyan أو Gipson ، وكان أول استخدام لها فى سنة ١٥٩٨ بإسكتلندا ، وهو ما يتضح من شكوى إلى مجلس شورى الملك ، لعب فيها « غجر معينون » " Certane gipsies " دوراً صغيراً .

(١٠) مثل عبارة « اثنان منسجمان كغجريين على حصان " both in a tune like two gipsies on a horse " فى مسرحية شكسبير (ت١٦١٦) كما تهوى . As you like it .

أما في إسكتلندا فقد ازدادت أعداد المتشردين والمتطفلين خلال الاضطرابات التي شبت في عهد ماري ستيوارت ، وفي عام ١٥٧٤ وبينما كان ولدها جيمس السادس^(١١) صبياً تحت وصاية إيرل مورتون بذلت محاولة لوضع قاعدة « لردع المتسولين والمتطفلين ومساعدة الفقراء » ، وهو ما يتضح في مرسوم شبيه بمرسوم ١٥٧٢ في إنجلترا ، ووصلت العقوبات إلى المستوى نفسه من جلد وحرق للإذن اليمنى إلى الإعدام ، كما وصلت الترتيبات الخاصة بمساعدة الفقراء إلى ما كانت عليه في المرسوم الإنجليزي ، وكان توصيف الأشخاص المستهدفين بهذا المرسوم يتضمن الغجر على وجه التخصيص فورد ذكرهم «بالقوم البطالين الذين يدعون أنفسهم مصريين» ، وبوصفهم كذلك صاروا أهلاً للعقاب ، ولم يعد ينظر إليهم على أنهم يشكلون جماعةً منفصلةً لها قوانينها الخاصة وقضاتها (ص ١٤٢) ، ولو أنه ولدى طويل يمتد حتى القرن الثامن عشر ظل الإسكتلنديون لا يبالون في معظم الأحوال بما قد ينشأ من نزاعات دامية بين الجماعات الغجرية المتناحرة .

في هذا الإبان صار الغجر يشكلون مشكلةً خاصة في إسكتلندا ، وهو ما يستدل عليه من تعليمات مجلس شورى الملك إلى ممثلى الحكومة في سنتى ١٥٧٣ و ١٥٧٦ بأن يجدوا في البحث عن « حثالة من المتشردين » من أخلاط شتى يدعون كذباً أنهم مصريون « ويودعونهم السجن في إدنبرة توطئةً لمحاكمتهم ، وأى تقصير من قبل أى منهم يعرضه للمحاكمة ، لكونه أعان لصوصاً وقتلة » ، ورغمما عن ذلك فقد واصل الغجر حياتهم في إسكتلندا ، وفي سنة ١٥٧٩ (وهى السنة التى استحوذ فيها جيمس السادس على كل سلطاته) أصدر مرسوماً أشبه بسابقه ، بل يعد تكراراً له ، ثم ظهرت الحاجة في سنة ١٥٩٧ لإصدار مرسوم آخر ضد المتسولين والمتشردين والمصريين ، وبه تحول استرقاقهم وأولادهم لعدة سنوات إلى استرقاق مدى الحياة ، وتهيأ للكنيسة الوطنية دور في هذا الصدد ، وقد عانى الغجر أشد ما عانوا في أخريات القرن السادس عشر ومطالع القرن السابع عشر ، وذلك بسبب التوجهات الشخصية لجيمس السادس نفسه ، فقد أصدر سيلاً من التشريعات الصارمة ، لم يُشهد لها مثيل قبلها ولا بعدها ، ووصلت إلى ذروتها في سنة ١٦٠٩ ، حين أصدر

(١١) ملك إسكتلندا (١٥٦٧ - ١٦٠٣) ثم ملك بريطانيا العظمى وإسكتلندا باسم جيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) (المترجم) .

مرسوماً بشأن المصريين 'Act anent the Egiptians' ، يؤكد فيه على أمر سبق أن أصدره مجلسه الخاص قبل ست سنوات ، يقضى بتنفيذهم خلال أسابيع معدودات وإلا فالموت ، ويبيح إدانتهم ثم إعدامهم ، فى حال ما إذا ثبت أنهم «يدعون أو يعرفون أو يشتهرون بأنهم مصريون » على أنه لم يتم متابعة هذه البنود من الوجهة العملية ، حتى من قبل مجلس شورى الملك ، ويتضح لدينا أن الغاية منها هى ردع هؤلاء الغجر الذين كانوا فى نظر السلطات يعيشون حياة التشرد ، فحالما يستقر الغجرى ، ويزاول عملاً معترفاً به ، فإنه لا يعد منتهكاً للقوانين ، ويستدل على ذلك من حالة رجل يدعى موزس فاو Moses Faw التمس السماح له بالإقامة فى البلاد ، وأعلن أنه « على يقين من أن البرلمان لا يقصد بهذا القرار أن يجرى تطبيقه على أشخاص شرفاء أو أمناء » ، كما أعلن أنه قطع صلاته « بهذه الجماعة الموصومة » واقترح كفالة قدرها ألف جنيه للتأكد على انفصاله عنهم ، ووافق مجلس شورى الملك على التماسه ، ومن سوء حظه أنه صعب عليه الالتزام بما وعد ، وبعد أقل من ثمانية عشر شهراً أدين بأنه « عاود اللحاق بالمصريين » وسرعان ما اختفى كفيله ، وهو صاحب ضيعة يدعى ديقيد لندسى David Lindsay ولم يؤد الكفالة ، وأعلن خارجاً على القانون ، وبعد أن ثبت لدى محكمة سيلكر كشاير Sil Kirkshire أن معاودة موزس هذا صلاته بأصحابه أفضت إلى وقوع سرقات ، فإنه وثلاثة آخرين من أقربائه شنقوا لانتهاكهم مرسوم عام ١٦٠٩ « لكونهم مصريين أصروا على البقاء فى هذه المملكة » (١٢).

مع ذلك فقد احتال آخرون كثيرون ، ليصيروا بمنأى عن هذه القوانين التى تعكر عليهم صفو حياتهم ، وتخوفت السلطات من إعادة الغجر ترتيب أوضاعهم واحتجابهم لفترة ، الأمر الذى أهم مجلس شورى الملك فى سنة ١٦١٦ لأن يعلن من جديد عن مواد المرسوم الصادر قبل سبع سنوات ، وإذاعتها فى الأسواق ، والتأكيد على العقوبات الخاصة بإعادة ترتيب الأوضاع لتشمل « معظم رعايا صاحب الجلالة الذين يدعى بعضهم النبالة والشرف ، ثم يشملون بحمايتهم فى ضياعهم هؤلاء المتشردين والمتطفلين والمتلصصين والأوغاد ، فيبقون عندهم أياماً وأسابيع وشهوراً ، دون أية رقابة » وظلت الاتهامات بالتستر عليهم تتوالى على نحو متواصل ، ودأب القضاة على

Cf. D. MacRitchie, Scottish Gypsies under the Srewards (Edinburgh, 1894), (١٢)
PP. 81 - 4 .

أن يضعوا القوانين ضد المتشردين والمصريين موضع التنفيذ ، وواصل مجلس شورى الملك والبرلمان والكنيسة ضغوطهم ، مثلما فعل نظام كرومويل Cromwell (١٣) إبان عهد الحماية Protectorate ، وظل الغجر يعيشون فى خطر دائم ، وهو ما توضحه سجلات المحاكم فى عام ١٦٢٤ حكم بالإعدام على ثمانية ، ستة منهم من عائلة فا لمجرد أنهم مصريون ، وتبين بعد عدة أيام أن زوجاتهم وأطفالهم مدانون بالجرم نفسه ، وحكم عليهم بالموت تغريقاً ، لكن مجلس شورى الملك أحال الأمر إلى جلالته الذى قرر أن النفى عقوبة كافية (ومع أن جيمس كان قد أصبح ملكا على إنجلترا واسكتلندا معاً ، إلا إن كل ما كان يحتاجه لتنفيذ هذا الحكم ، هو أن يعبر هؤلاء الغجر الحدود إلى نورثمبرلاند Northumberland أو كمبرلاند Cumberland) ، وفى سنة ١٦٢٦ ألقى مأمور هادنجتون Haddington القبض على بعض الغجر للاشتباه فى قيامهم بالإحراق العمد ، لكنهم نجوا من عقوبة الموت ، بعد أن تبينت براءتهم ، بل إنهم على العكس ، حالوا دون امتداد النيران ، لكن رحمة شارل جعلته يخفف العقوبة إلى النفى مدى الحياة ، وفى سنة ١٦٣٠ أى بعد سنوات قليلة التمس إيرل كاسيليس Cassillis رأى مجلس شورى الملك فيما يجب عمله مع غجر اعتقلوا ، ولكن لم توجه إليهم تهمة محددة، وأجابه المجلس بوجوب التزام تطبيق القانون على من يقعون تحت طائلته، وأصدر أوامره فى سنة ١٦٣٦ إلى رئيس بلدية هادنجتون Haddington وغيره من المتنفذين بأن يتعاملوا مع جماعة أخرى بشنق رجالها وتغريق نساءها ، أما من لديهم أطفال فيجلدن وتحرق خدودهن .

وبصرف النظر عن تشريعات الطرق العامة الصادرة فى القرن التاسع عشر (قارن ص ١٦٢) فقد صدر آخر مرسوم فى إسكتلندا يتعامل مع الغجر (وغيرهم من المتشردين) فى سنة ١٦٦١ ولم تختصهم بالذكر قوانين لاحقة تختص بالمتشردين ، ولم يلبث أن صار مرسوم عام ١٦٠٩ بقساوته فى طى النسيان ، فغالباً ما كانت المحاكم فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشرة تطالب بدليل كاف على ارتكاب جريمة ما ، إلى جانب شهرة المتهم بكونه مصرياً ؛ لكن هذه القاعدة لم تكن عامةً بالنسبة لجميع المحاكم ، وآخر مرة طبقت فيها عقوبة الموت فى اسكتلندا على غجرى لمجرد أنه كذلك

(١٣) أوليفر كرومويل رجل دولة إنجليزى وزعيم المتطهرين Puritans ، نزع تشارلز الأول من عرشه وأعدمه ، ثم حكم إنجلترا باسم « الحامى الأعظم » Lord Protector (١٦٥٣ - ١٦٥٨) (المترجم) .

كانت في سنة ١٧١٤^(١٤) ، ولو أن قاعدة « من يدعون أو يعرفون أو ويشتهرون بأنهم مصريون » ظلت تشكل جزءاً من اتهام حتى وقت متأخر ، يعود إلى سنة ١٧٧٠ ، حين شنق اثنان من غجر لينلثجو Linlithgow لاقتحامهم منزلاً وسرقته^(١٥) ، وعندما تقدمت جين جوردون Jean Gordon ، وهي الأصل في شخصية ميغ ميريليز Meg Merrilies في رائعة سكوت Scott^(١٦) جاي مانرينج Guy Mannering - عندما تقدمت بالتماس في سنة ١٧٣٢ إلى محكمة جيديره سيركيت Jedburgh Circuit تقول فيه أنه جرى اتهامها بأنها مصرية ومتشردة ، وحيث إنها صارت الآن عجوزاً وهن العظم منها ، فهي ترغب في أن تغادر اسكتلندا كليةً ، فأصدرت المحكمة حكمها بنفيها ، وأنها في حال عودتها تعاقب بأن تسجن وتجلد ، وهكذا قضت هذه المرأة ما تبقى لها من عمرها تحوم حول الجانب الإنجليزي من الحدود ، ومع أنها كانت قد فقدت أبنائها التسعة (أغتيل أحدهم وشنق الباقيون) فضلاً عن إبعاد زوجها (انظر ص ١٩٨ أدناه) فإنها احتفظت بصلابتها حتى النهاية التي وافتها ، حين قتلها أحد الغوغاء في كارليل Carli-sle حوالي سنة ١٧٤٦ ، بسبب ميولها اليعقوبية^(١٧) المتطرفة ، لكنها كانت ما تزال تهتف باسم الأمير تشارلي Charlie^(١٨) حتى النزاع الأخير^(١٩).

(١٤) W. Simson, A History of the Gipsies (London , 1865) , P. 120 .

(١٥) Ibid., PP. 133 - 7 .

(١٦) سير والتر سكوت (ت١٨٣٢) روائي إسكتلندي خلف عدداً من الروايات التاريخية من أشهرها ويفرلي Waverley وإيفانهو Ivanhoe وميغ ميريليز هي ملكة الغجر في جاي مانرينج (المترجم).

(١٧) اليعاقبة هم أنصار جيمس الثاني (١٦٨٥ - ١٦٨٨) ملك إنجلترا المعزول وعقبه من بعده ، وقد نشطوا على نحو خاص في الفترة بين ١٦٨٨ - ١٧٤٥ (المترجم) .

(١٨) هو تشارلز إدوارد حفيد جيمس الثاني ، قاد تمرد اليعاقبة في سنة ١٧٤٥ وأخفق في تمرده ، مات في سنة ١٧٨٨ . (المترجم) .

(١٩) W. S. Crockett, The Scott Originals (Edinburgh, 1912), Ch. 16 ; and A. Gordon, Hearts upon the Highway (Galashiels, 1980) , PP. 73 - 4.

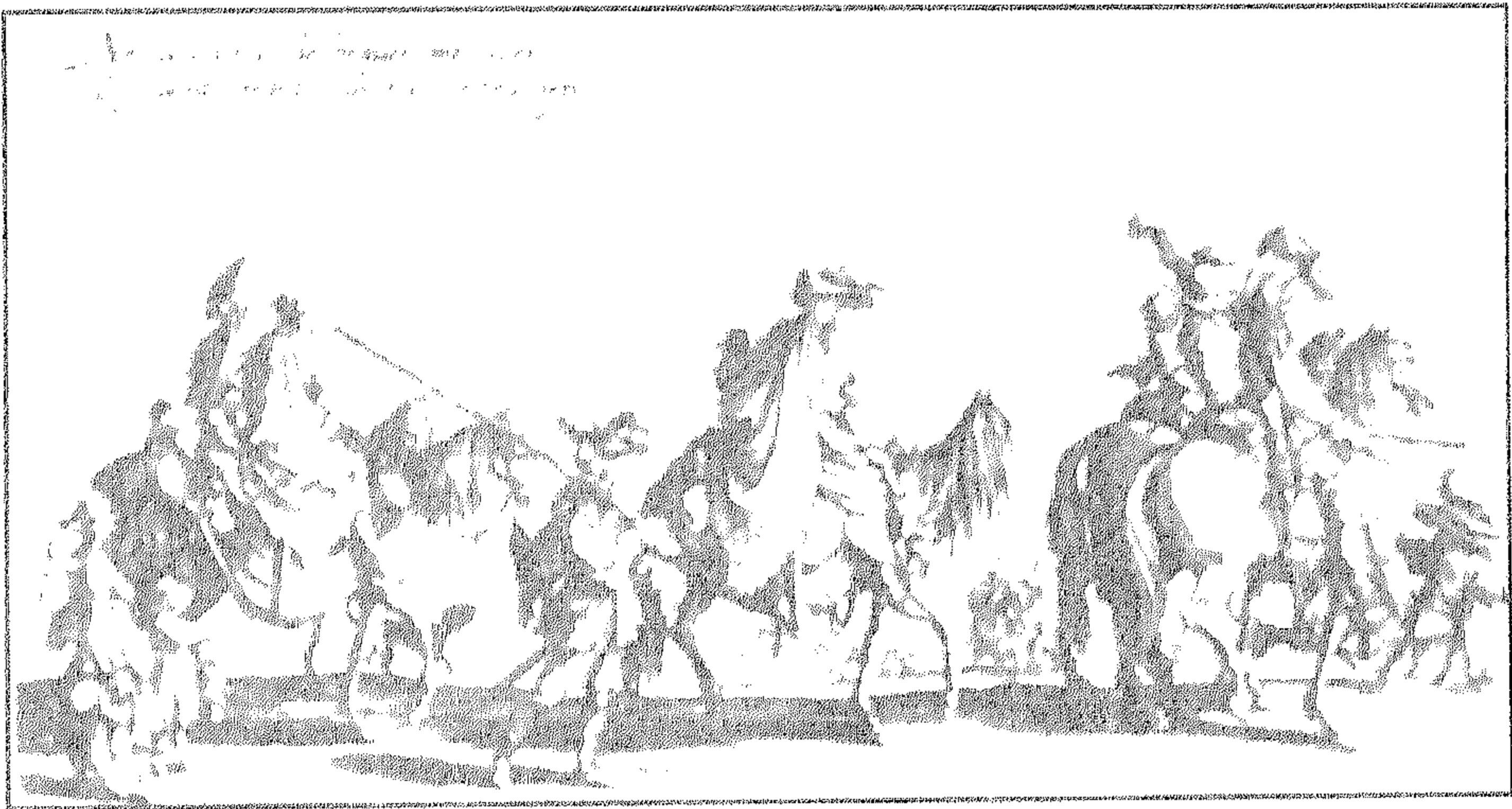
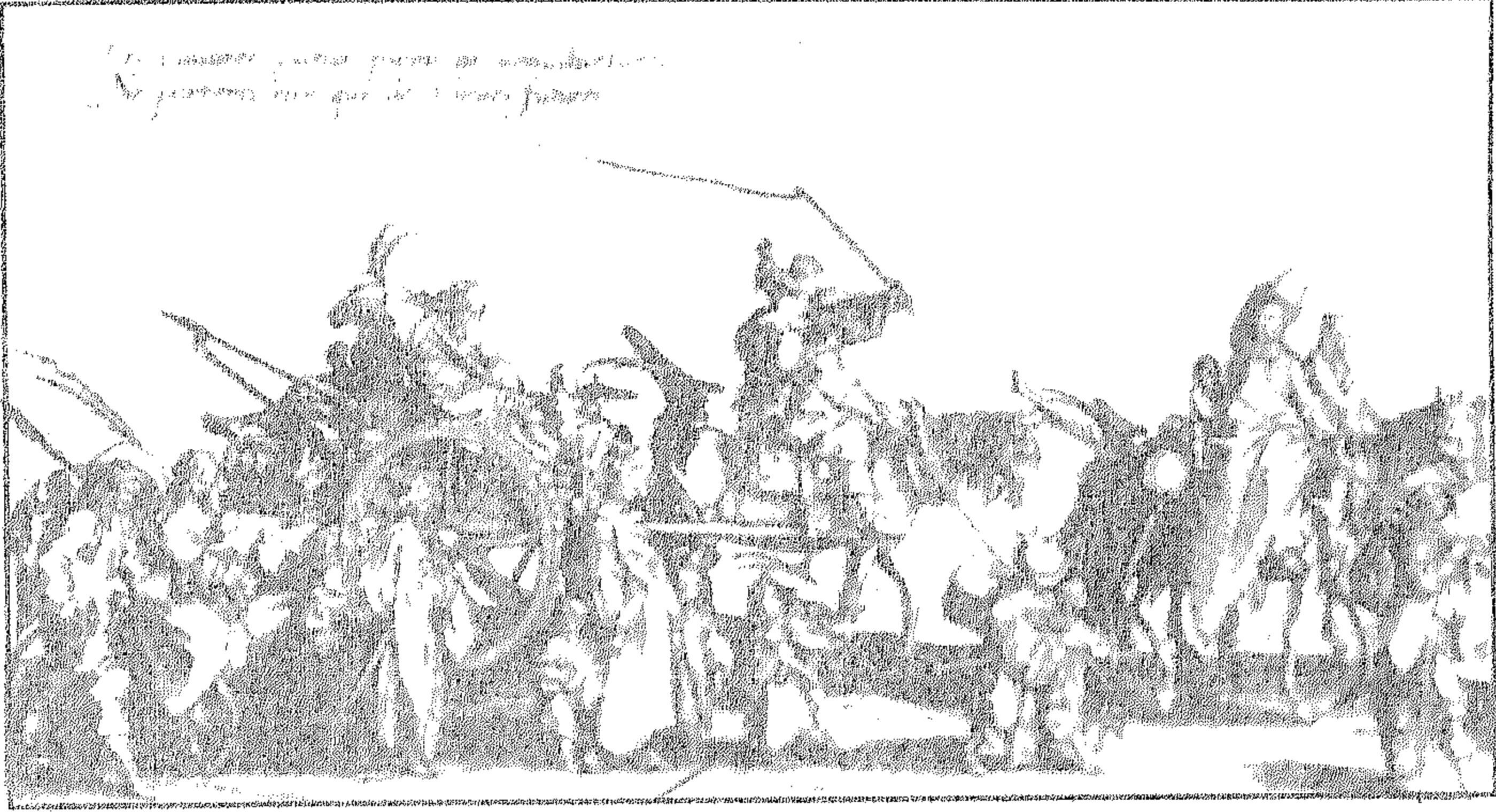


شكل ١٤ تفصيل من لوحة بيتر برويجل لموعظة القديس يوحنا المعمدان ، وهي تعود إلى سنة ١٥٦٥ والغريب أن يظهر فيها عجري يقرأ كف أحدهم ، متحف الفنون الجميلة بودابشت .

تتابعت الأحداث على نحو تختلف في القارة ، فقد احتاج القمع إلى وقت أطول كي يصل في فرنسا إلى ذروته ، لكنه ما كاد يتم له ذلك ، حتى حافظ على قدر وافر من فعاليته ، ورغمًا عن القانون الذي سبق أن أصدره شارل التاسع^(٢٠) في سنة ١٥٦١.

(٢٠) (١٥٦٠ - ١٥٧٤) وكان عصره في معظمه عصر صراعات دينية واضطرابات داخلية (المترجم).

(ص ١٢٠) فإننا كنا ما تزال نقف في السنوات الباقية من القرن السادس عشر وما تلاها على جماعات من الغجر تترحل دون أن تبدى السلطات عظيم هم لها، فصارت الطرق تصطبب بهم ، وهم يصطحبون خيلهم وبغالهم وحميرهم ويعاودون الظهور في أماكن سبق لهم أن توقفوا عندها ، وكانت هذه الجماعات التي يقود الواحدة منها



شكل ١٥ - غجر يترحلون . حفر لجاك كاليو ١٦٢٢ ، تصوير روجيه فيوليه ، باريس

كونت أو كابتن تتفاوت فى أعدادها ، فتضم ثلاثين فرداً أو ستين أو ثمانين أو مائة وربما أكثر ، ولم تكن حوادث العنف شائعة ، رغمًا عما كان ينشأ أحياناً من صدامات ، عندما يعاند الأهليون فى دخولهم مدنهم ، ويتوقفون عن عونهم ، لكنه عادةً ما كان يمكن أن يتوصل الطرفان - الأهلين والغجر - إلى تفاهم من نوع ما .

أضحت زيارات مثل تلك دارجة لدرجة حبطت معها مساعى ممثلى الملك والبرلمانات المحلية لإحياء ما سبق إصداره من تشريعات ، وعندما أمر برلمان لانجدوك فى سنة ١٥٩٧ بتنفيذ الولاية بمنع الغجر من دخول مدنهم وقراهم ، كما أمرهم بالتوقف عن إصدار جوازات سفر حتى للرحلات الداخلية ، وهو أمر سبق لهنرى الرابع أن أصدره ، مشدداً على ضرورة الالتزام بالمراسيم الملكية ذات الصلة ، فإنه لم يترتب على ما طالب به البرلمان شىء ، ويرجع ذلك إلى أن ما اتسمت به القوانين من تشدد ، فإنه كان يدنى من وقعها ، ما اتسمت به الإدارة المحلية من مرونة ، فضلاً عما جرى من تسيير على الغجر وسخاء فى منح زعمائهم جوازات سفر وجوازات مرور، وحتى هنرى الرابع نفسه (٢١) ، فقد خالف هذه القوانين ، حين استقبل جماعة منهم فى عام ١٦٠٧ ، ليرقصوا أمامه ، ومع ذلك فمنذ أواسط القرن السابع عشر حين كان لويس الرابع عشر (٢٢) ما يزال صبيًا بعيداً عن مزاولة مهامه كملك بدأت السلطات تتعامل مع الغجر على نحو أعنف ، كما أن الأحكام التى صدرت ضدهم صارت أشد ، وإن تفاوتت من مكان إلى آخر ، وفى المرحلة ذاتها كان يتم حشد الغجر ، وارغامهم على العمل مجذفين فى سفن الأسطول ، وحين استحوذ لويس على سلطاته كاملةً ، وأصبحت حكومته مطلقة ، كما أصبحت الإدارة المركزية أشد فعاليةً وأكثر انتظاماً ، أوجبت القواعد المنظمة لرجال الشرطة الصادرة فى سنة ١٦٦٦ ضرورة القبض على الذكور من الغجر ، دون الالتزام بأية إجراءات قانونية ، وإرسالهم مصنفدين للعمل مجذفين فى السفن ، وكان كولبير Colbert (٢٣) شديد الحرص على بناء أسطول للملك ، فبعث بجماعات كبيرة منهم إلى مرسيليا وطولون ، ووصلت الأمور إلى مداها بمرسوم

(٢١) (١٥٨٩ - ١٦١٠) هدأ من النزاعات بين الطوائف المسيحية ودعم سلطة الملكية (المترجم) .

(٢٢) (١٦٤٣ - ١٧١٥) الملك الشمس الذى صار رمزاً للسلطة المطلقة ، فى عهده صارت فرنسا أقوى

دولة فى أوروبا (المترجم) .

(٢٣) جان باپتيست (١٦٨٣) رجل دولة فرنسى ووزير المالية فى عهد لويس الرابع عشر (المترجم) .



شكل ١٦ معسكر غجري ، حفر لجاك كالكو ، ١٦٢٢ مجموعة جروسجان ، تصوير جيراردون ، باريس

وقعه لويس الرابع عشر في فرساي في ١١ يوليو ١٦٨٢ (٢٤) ، يكرر فيها باختصار قوانين سبق إصدارها ، ويأسى من واقع أن أسلافه لم يكن في إمكانهم أن يطردوا الفجر من فرنسا ، الأمر الذى من شأنه أن يكون وصمة عار للنبلاء والحكام « فى معظم ولايات مملكتنا » فهم لم يقفوا عند حد التسامح معهم ، بل شملوهم بحمايتهم . وهكذا توالى مراسيم عديدة ، تقرر معها أن يبعث بالرجال للعمل مجذفين بالسفن مدى الحياة ، أما الصبية الذين كانوا أصغر سناً ، فقد تقرر إيداعهم فى نزل الفقراء ، فى حين أمر بحلق شعور نسائهم وبناتهم ، فإذا أصررن على مزاولة حياتهن كمتشردات يجلدن ثم ينفيهن من المملكة دون محاكمة ، وكان المستهدف بهذه العقوبات « كل هؤلاء الذين يدعون بوهيميين Bohemes أو مصريين Égyptiens » لكونهم كذلك وليس لأى سبب آخر (ويلاحظ أنه لا تتوافر لدينا مؤشرات على اهتمام الملك بالمتشبهين بهم ، بصرف النظر عما ورد فى هذه المراسيم بشأن « آخرين فى جماعاتهم ») ، وتوجب على الأعيان والقضاة الامتناع عن إيوائهم ، وأى تهاون فى ذلك يترتب عليه اعفاؤهم من مناصبهم ومصادرة أراضيهم ، والجديد فى هذا المرسوم أنه كان الأول من نوعه التى تحقق له الانتشار فى كل أنحاء فرنسا ، ويعود الفضل فى ذلك إلى ما قام به ريشلييه Richelieu (٢٥) فى عهد لويس الثالث عشر (٢٦) ، من تعيين حكام للولايات in-tendants من بين من لا ينتمون إليها ، وعليهم تمثيل الحكومة المركزية ، وخولهم سلطة التفتيش على المسئولين المحليين ، بل ناط بهم عند الضرورة سلطات قضائية ومالية وسلطات أخرى على الشرطة ... وبذا يتضح أن سياسة الملك الشمس لم يكن من اليسير التحايل عليها .

كان للمرسوم الملكى وقع كبير ، ولم تعد ثم ضرورة لمرسوم آخر يستهدف الفجر ، خلال السنوات الباقية من النظام القديم ancien régime ، ولو أن الحاجة دفعت إلى مراسيم أخرى ضد التشرد والتسول ، ولفترة طويلة امتدت حتى عهد الثورة الفرنسية ،

(٢٤) يوجد النص الفرنسى الكامل فى :

F. C. Wellstood, " Some French edicts against Gypsies " , JGLS (2) , 5 (1911-12) PP. 313 - 16 .

(٢٥) أرمان ريشلييه كردينال ووزير أعظم فى عهد لويس الثالث عشر وأعان على الإغلاء من شأن الملكية (ت١٦٤٢) (المترجم) .
(٢٦) (١٦١٠ - ١٦٤٣) (المترجم) .

تتواتر فى السجلات أخبار عن غجر ثم اصطيادهم على أيدي شرطة الأرياف ، فكانت هذه الشرطة تبادر إلى استخدام بنادقها فى حال المقاومة ، على أن الإفتقار إلى قوة بشرية مناسبة ، كان ما يزال يشكل الحلقة الأضعف فى هجماتها ، فبينما كانت شرطة المدن بدائية ، كانت شرطة الأرياف فى غالب الأحوال غائبة من الناحية العملية . ورغمما عما جرى من إصلاحات فى نظام الشرطة فى ستينيات القرن الثامن عشر ، إلا أن جملة ما توافر منها فى فرنسا بأسرها كان ٣٨٨٢ شرطياً ، بينهم ٤٦٨ ضابطاً ، فى بلد يبلغ تعدادها نحواً من خمسة وعشرين مليوناً ، وهو الأعلى فى كل أوروبا ، ومن أجل التغلب على مخاطر كانت تتعرض لها الشرطة فى حال القبض على عصابات كبيرة من المجرمين ، كان لا مناص من استدعاء مفرزات brigades من شرطة الأرياف أو أن يستدعى الجيش^(٢٧) ، وطالما كان الأمر يختص بالغجر ، فقد لاذت جماعات كبيرة منهم بالآلزاس واللورين الحدوديتين ، بما توافر بهما من جبال وأجام ، والحال نفسها كانت فى إقليم الباسك^(٢٨) ، والأطراف الشرقية من جبال البرتات^(٢٩) الوعرة . وفى غير ذلك من جهات ، فإن الجماعات الكبيرة جرى شردمتها ، حتى تصبح بمنأى عن العيان ، كما اعتادت بعض العائلات الاستقرار عدة شهور من كل عام ، بينما تواصل جماعات أخرى متفرقة تجوالها بعيداً عن الطرق المألوفة ، ولما كانت الدول المجاورة قد صارت تطبق تشريعات قمعية مماثلة على الغجر ، فإنه لم يعد ثم حافز لهم كى يفارقوا ديارهم ، وإذا كان بعضهم قد قام بذلك ، فقد أثرت الغالبية البقاء فى البلد التى خبروها وتمرسوا بها ، وطالما توخوا الحذر يصير لديهم أمل فى ألا تتحدر حالهم إلى ما هو أسوأ ، والواقع أن فرنسا كانت تجتذب إليها لاجئين من كل أنحاء أوروبا خصوصاً من الأراضى الواطئة والراينلاند وسويسرا ، وبذا كان ما يزيد على ربع الغجر الفرنسيين الذين جرى تسخيرهم فى القواديس الفرنسية^(٣٠) فى منتصف القرن الثامن عشر ممن ولدوا خارج فرنسا .

Cf. O. H. Hufton, The Poor of Eighteenth - Century France (Oxford, 1974), (٢٧) PP. 220 - 2 .

(٢٨) Basques وبالإسبانية Vascos شعب يقيم لدى الجهات الغربية من جبال البرتات ، عرف بشدة المراس ، وطموحه إلى الاستقلال خصوصاً عن إسبانيا (المترجم) .

(٢٩) Pyrenees وبالإسبانية Pirineos وتعرب خطأ بالبرانس (المترجم) .

(٣٠) Galleys وهى السفن الشراعية التى تستخدم فيها المجاديف (المترجم) .

ومن نافلة القول الادعاء بأنه لم يكن ثم سوى العداء فبين وقت وآخر كانت توجد مؤشرات على تعاطف تجاه من اجتهد منهم ، كى يصبح مواطناً صالحاً أقل هامشية ، وتواصل هذا التعاطف رغماً عن ازدراء الفلاسفة لهم ، بسبب تريحهم من الخرافات الشائعة لدى العامة ، وجدير بالذكر أن موسوعة ديديرو Diderot (٣١) ، وهى مستودع الحركة الإنسانية العقلانية عرفتهم بأنهم « متشردون يجاهرون بقراءة الكف ، وتكمن مواهبهم فى الغناء والرقص والسرقة » ، وفى اللورين عشية الثورة ، بزغت درجة من الفهم الطيب ، ففى الشمال الشرقى من هذه الدوقية المحاذية لتخوم الإمبراطورية الألمانية ، والتي جرى ضمها مؤخراً ، تبين لبعض متنفذيهـا وغيرهم حقيقة أن الفجر صاروا مزعجين ، وفى أحيان خطرين ، تدفعهم إلى ذلك أن الخيارات الأخرى ظلت موصدةً فى وجوههم ، وسعى هؤلاء إلى الاستعاضة عن الهجمات المكلفة المحدودة ، وشرعوا فى سنة ١٧٨٦ فى التباحث مع عدد من ممثليهم ، ودفع هؤلاء بأنهم مطاردون من الجميع ، ولا سبيل لأن يقيموا أود عائلاتهم إلا بمعونات مالية من السكان المحليين ، كل بقدر استطاعته ، وأعلنوا أنهم يتوقعون لأن يعاملوا كمواطنين ، بل إنهم يقبلون العمل الزراعى فى فرنسا أو وراء البحار ، شريطة ألا يتعرضوا للاعتقال أو يوضعوا فى الأغلال ، وعلى ذلك فقد أحييت هذه الاقتراحات إلى بلاط فرساي ، حيث نظر بعين الاعتبار إلى فكرة الإفادة من الفجر كمستعمرين فى الأراضى الأمريكية ، خصوصاً جويانا Guiana ، لكن هذا المشروع وصل إلى نهاية مفاجئة لدى انفجار الثورة (٣٢) ، وترتب على تغيير النظام أن سارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، وفى مناخ عام مفعم بالشك شعرت السلطات بما لديها من فصائل مسلحة تسليحاً جيداً ، بأنه منوط بها أن تكثف من غاراتها عليهم .

أما عن البلاد الواطنة ، فقد كانت أكثر توفيقاً من فرنسا فى إنجاز سياسة الاضطهاد ، وذلك رغماً عن الضعف الذى ران على حكومتها ، فحين قبلت إسبانيا باستقلالها فى سنة ١٦٠٩ كانت الدولة الجديدة اتحاداً مهلهلاً ، يضم سبع جمهوريات صغيرة لها برلمان مركزى ذو سلطة تشريعية محدودة ، وأتاح الجيشان الذى صاحب

(٣١) (ت ١٧٨٤) فيلسوف فرنسى وكاتب من رواد التنوير (المترجم) .

(٣٢) Cf. F. de Vaux de Foletier, Les Tsiganes dans l'ancienne France (Paris, 1961), PP. 211 - 14, and Les Bohémiens en France au 19 siècle (Paris, 1981), PP. 92 - 3 .

التمرد الطويل ضد إسبانيا للفجر فترةً يلتقطون خلالها أنفاسهم ، بحيث أضحى لهم حضور واضح فى القسم الشرقى من هولندا ، وولايتى جيلدرزو أو قريسيل ، حيث هيات لهم غاباتها ومروجها حمايةً مناسبة .

نقف فى البداية على سلسلة متصلة من التشريعات الملزمة نظراً لا عملاً ، فقد شرعت الولايات فضلاً عن البرلمان فى إصدار مراسيم معادية للفجر ، وقد اتسمت هذه المراسيم بقسوة متزايدة ، لكن ما اعتور جهاز الشرطة من وهن ، وكون نشاطها محدوداً بالولاية الواحدة ، أدى إلى تحايل الفجر عليها بأن صاروا يخيمون فى مناطق نائية قريبة من حدود الولاية ، وفى حال الضرورة كان فى إمكانهم الهرب إلى الولاية المجاورة ، وكانت علامات التحذير المرسومة على الطرق والتي تتضمن نوعية المعاملة التى تنتظرهم فى حال القبض عليهم (انظر لوحة ١٧) ، كانت هذه العلامات كفيلاً بأن تجعل الفجر لا يتوقعون أى قدر من التعاطف معهم من قبل السلطات ، وقد وجدوا هذه العقوبات تتنامى يوماً بعد يوم ، وربما كان فى ذلك تفسير لجرائم كثيرة ارتكبوها حول نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، فما كانوا يتوقعونه من فترة طويلة من الأشغال الشاقة أو انتهاءً إلى حبل المشنقة ، قياساً إلى عقوبات سابقة من جلد ووسم ، كان حافزاً لهم لأن يقاوموا حتى النهاية ، وقد خسروا المعركة ، فقد تنامت قوة الشرطة ، وتغلبت الولايات المختلفة على حساسياتها فيما يتعلق بسيادتها الداخلية ، إلى حد أن عقدت اتفاقات بين بعضها البعض ، أتاحت لها التنسيق فيما بينها فى قمعهم ، بحيث صار ما يعرف بصيد الفجر heiden Jachten المدعوم بالقوة العسكرية منتظماً إلى أبعد مدى ، وامتدت هذه الظاهرة إلى دولتين ألمانيتين حدوديتين (هما دوقية كليفيش Cleves وأسقفية مينستر) وكان آخر صيد لهم هو ما اضطلعت به جيلدرلاند Gelderland فى سنة ١٧٢٨ بالتنسيق مع كليفيش ، ويعدده لم يعد مهماً القيام بالمزيد ، وكان على الفجر الذين لم يهربوا أو يستأصلوا ، أن يختفوا عن أعين السلطات ، بحيث لا تجد من يمكن قنصه ، وكان لابد أن تمر سنون ، قبل أن نجد غجر يجازفون بالعودة إلى مملكة الأراضى الواطئة .

ويستدل من استعداد هاتين الدولتين الألمانيةين للتعاون مع الجمهورية الهولندية على تنسيق فائق بينهما ، لم يكن الأول من نوعه (ص ١١٣) ، كما لم يكن مألوفاً داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت هذه الإمبراطورية فى الفترة بين منتصف



شكل ١٧ : لوحة تحذير هولندية يظهر فيها جلد غجري ووسمه حوالى ١٧١٠ ، مكتوب بها «عقوبة الغجر» ،
تصوير زيتى على الخشب ٥٩ سم × ٤٠ سم ، متحف جيمنتى ، ريرموند (سجل رقم ١٨٦٤) .

القرن السادس عشر حتى سقوطها في عام ١٨٠٦ مجرد اتحاد هش لأمرء ألمانيا - علمانيين وكنسيين - برئاسة بيت هابسبورج ، بيد أنه ظهرت في مطالع القرن السادس عشر آلية دستورية جديدة ، هي فكرة دوائر الإمبراطورية Reichskreise ، وهذه الفكرة هيأت قدراً من التنسيق بين الدول الألمانية ، وذلك بقيام عشر مجموعات منها متقاربة في مجال الضرائب والقانون والنظام العام والتجنيد للجيش الإمبراطوري ، وأعانت على الارتفاع بمستوى التنظيم ، ونتيجة لذلك فقد صار للمراسيم التي نصادفها منذ الآن قدر لا بأس به من الفعالية ، وبعضها كان يتم تطبيقه على مستوى الإمبراطورية بأسرها ، والبعض الآخر على مستوى دائرة من الدوائر ، والبعض الأخير على مستوى الدولة الواحدة ، وبذا أضحت الإمبراطورية تبارى أوربا مجتمعة في حجم تشريعاتها المعادية للفجر ، ويقدر عدد هذه التشريعات بما لا يقل عن ١٣٣ خلال الفترة ١٥٥١ - ١٧٧٤^(٣٣) ، ويتقسيم هذه الفترة إلى أنصاف قرون ، نصل إلى السياق الآتي : ١٥٥١ - ١٦٠٠ ستة عشر ١٦٠١ - ١٦٥٠ أحد عشرة ١٦٥١ - ١٧٠٠ ثلاثون ١٧٠١ - ١٧٥٠ ثمانية وستون ١٧٥١ - ١٧٧٤ ثمانية ، ولا سبيل لدينا لتحليل هذه التشريعات تفصيلاً ، ونكتفي بما له دلالة واضحة منها .

١٥٧٧ : قواعد النظام العام Polizeiordnung الصادرة في فرانكفورت ، وبها تجدد ما سبق أن أصدره الدايط من تشريعات (ص ١١٢ - ١١٣) ، فحظرت على الأمراء الناخبين^(٣٤) والحكومات السماح للفجر بأن يترحلوا ، ولا أن يزاولوا أعمالاً في دولهم ، ولا أن يمنحهم جوازات مرور أو جوازات حماية ، وأية وثائق في الحال والاستقبال تعد لاغية ولا قيمة لها ، ويتطبيق هذه القواعد فإن وصم الفجر الذي يعود إلى تشريعات إمبراطورية باكرة ، جرى تكراره على نحو ممل ، وتقرر نبذهم باعتبارهم خونة ، ينقلون أخبار البلدان المسيحية إلى الأتراك وغيرهم من أعداء المسيحية ، وأن عليهم أن يغادروا الأراضي الألمانية فوراً ، ومتى اكتشف واحد منهم يصير أهلاً للعقاب .

(٣٣) R. A. Scott Macfies, " Gypsy Persecution" , JGLS (3), 22 (1943), PP. 71 - 3 .

وهناك كذلك مادة مناسبة في :

J. S. Hohmann, Geschichte Zigeunerverfolgung in Deutschland (Frankfurt, 1981) , esp. PP. 18 - 47 .

(٣٤) أي الذين لديهم أصوات في انتخاب الإمبراطور (المترجم) .

١٦٥٢ : أصدر جورج الأول ناخب سكسونيا الذى تزعم الأمراء البروتستانت خلال حرب الثلاثين سنة (٣٥) أصدر مرسوماً باعتبار الفجر خارجين على القانون . ويشير المرسوم إلى « عصابات ذات بأس من الناس يمتطون صهوات جيادهم ، أو يسكرون على أقدامهم ويدعون بالفجر ، وبينهم عدد آخر كبير من الجنود المسرحين يتزيفون بزيهم » ، وهم لا يكتفون بفرض أنفسهم على القرويين ، إنما هم يحتفظون بكلاب صيد ، ويجترئون على مناطق الصيد الخاصة بالناخب .

١٦٨٦ : أصدر فردريك وليم ناخب براندنبورج الكبير والأمير البروتستانتي البارز ، أصدر قراراً بعدم التسامح مع الفجر ، فلا يسمح لهم بممارسة أية مهنة ، ولا أن يتوافر لهم أى مأوى .

١٧١٠ : وجد ولده فردريك (٣٦) مؤسس أسرة هوهنتسولرن Hohenzollern الحاكمة فى بروسيا أنه من الضروري أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أبوه ، فأصدر ما عرف بأنه « أغلظ مرسوم ضد الفجر ، وغيرهم من المتشردين اللصوص » .



شكل ١٨ لافتة تحذير للفجر حوالى ١٧١٥ ، متحف نيردلنجن ، بافاريا ،

مكتوب عليها « العقوبة التى تنتظر المتشردين والفجر » .

(٣٥) وهى الحرب التى دامت من ١٦١٨ إلى ١٦٤٨ وعمت معظم أنحاء أوروبا الغربية خصوصاً ألمانيا ، وانتهت إلى صلح فستفاليا Westphalia فى ١٦٤٨ (المترجم) .
(٣٦) أول ملوك بروسيا (١٧٠١ - ١٧١٣) (المترجم) .

١٧١٠ : شعر رودلف فردريك أمير مكلنبورج - شترليتز Mecklenburg - Sterlitz

أن التشريعات التي صدرت في إمارة راتسبورج Ratzburg ما تزال في حاجة إلى المزيد من التخليط ، فتقرر أنه منذ الآن ومادامت لا توجد اتهامات جنائية ثابتة ضد الغجر ، فإنه يتوجب جلد الأصحاء من الذكور القعدة عن العمل والنساء فوق سن الخامسة والعشرين ، ووسمهم ونقيهم في جماعات صغيرة من جهات متفرقة ، على أن يعدموا في حال ما إذا عاودوا الكرة ، أما الفتيات والشباب ممن لا يصلحون للعمل الشاق فيتم إبعادهم ، بينما يجبر صحيحو الجسم منهم على العمل القسري طيلة حياتهم ، ويتم انتزاع الأطفال دون العاشرة من آبائهم ويسلمون إلى مسيحيين طبيين ، ينشئونهم نشأة سليمة ، ولم تكن مكلنبورج - شترليتز الوحيدة بين الدول الألمانية في انتزاع الأطفال بوحشية من ذويهم .

١٧١١ : صدر في فرانكفورت أم ماين تشريع بهدف تطبيقه بدائرة الراين العليا ، جرى التأكيد فيه على أن أية « جماعة غجرية » Zigeunergesindel لا ترحل عن الدائرة في غضون أربعة أسابيع « فإنه ينبغي وبصرف النظر عن الشكليات ضرب أفرادها جميعهم ووسمهم على ظهورهم ، وإبعادهم من أقاليمها كافة » ، ووضعت لدى الحدود لافتات خاصة ، تظهر غجريا وهو يجلد ، وكتب عليها « عقوبة الغجري » Zigeuner Strafe . وروادع مثل هذه الروادع الهولندية الطراز والتي أدخلت إلى البلاطينات Platinen في سنة ١٧٠٩ كان من الممكن مشاهدتها لدى تقاطع الطرق وما إليها في أنحاء مختلفة من ألمانيا حتى نهاية القرن (انظر شكل ١٨) (٣٧) ، وتقرر أن كل من يجرو على تحدى الحظر يشنق ، ويكافأ من يشي به بنصيب من تركته .

١٧١١ : أقر فردريك أوجوستوس الأول ناخب كولونيا (كان ملكاً على بولندا باسم أوجوستوس الثاني) بإطلاق النار على الغجر ، إذا هم قاوموا القبض عليهم . وكان هو ودوق ساكسونيا - حاكم الدوقية التي فصلت عن الناخبية - متفاهمين فيما يجب عمله ضد الغجر الذين يغامرون بدخول أراضيها ، وأصبحت هذه التشريعات من جلد ووسم وموت في حال معاودة الظهور معياراً في كل ألمانيا .

(٣٧) - Cf. R. Andree, " Old warning placards for Gypsies " , JGLS (2). 5 (1911 - 12) , PP. 202 - 4 .

١٧١٤ : صدرت قرارات فى أسقفية ماينتس Mainz بوجوب إعدام الغجر وغيرهم من المتشردين اللصوص دون محاكمة ، وذلك بسبب بسيط هو أسلوب حياتهم المحظور « أما الصبية والنساء ممن لم يسبق إدانتهم بسرقة ، فإنهم يجلدون ويوسمون ومن ثم يبعدون أو يودعون مدى الحياة فى إصلاحيات ، وحيث إن الغجر فيما يقال صاروا يلوذون بالغابات ، ويثيرون الرعب فى نفوس الفلاحين الذين يمتنعون عن إيوائهم ، فمن واجب القوات المسلحة أن تقوم باصطيادهم وتطردهم من البلاد ، فإن قاوموا يطلق عليهم الرصاص حتى الموت ، وكان هناك اتفاق مع الدول المجاورة فيما يختص بحق القوات فى المرور، ومعهم المعتقلون إلى مأمئهم ، وتقرر أن ينادى بمضمون هذا القرار ، ويعرض فى أماكن تجمعات الغجر ومحطات البريد وأبواب الكنائس وينشر نشرأ عاماً .

١٧٢٥ : لم يكن فى إمكان وليم الأول (٢٨) ثانى ملوك بروسيا وأبو البيروقراطية البروسية أن يسكت عن أى شخص أو أى شيء لا يشاركه مفهومه عن الدولة ، وقرر بجواز شئق الغجر - ذكوراً وإناثاً - دون محاكمة -، ماداموا قد بلغوا الثانية عشرة .

١٧٣٤ : فى مرسوم أصدره إرنست لودفيج كونت هسى - دارمشتات - Hesse Darmstadt تقرر اعتبار كل من يبلغ الرابعة عشرة من الغجر خارجاً على القانون . ويذكر أن هسى - دارمشتات وما جاورها ابتليت بهم خصوصاً لدى حدودها ، فكانوا فى الصيف يعيشون فى الأحراج والحقول ، وفى الشتاء يقيمون فى قرى صغيرة ، فيصيبون أهلها بالذعر ، وأمر بأن من لا يغادر منهم البلاد خلال شهر واحد ، يكون عرضةً لأن يفقد حياته وممتلكاته ، وأيما امرئ يطلق عليهم النار أو يسجنهم ، يحصل على مكافأة مقدارها ستة Reichsthaler عن كل غجرى يأتى به حياً وثلاثة عمن يأتى به ميتاً ويحتفظ لنفسه بممتلكاته .

١٧٦٦ : أعلن كارل تودور كونت البلاطين على الراين ، أنه قد ازدادت أعداد الغجر وقطاع الطرق ومن إليهم من متشردين فى دوقيته ، وذلك بعد الإسراع بنفيهم من بافاريا وما جاورها ، وعليه يتحتم مراقبتهم بعناية والقبض عليهم وتعذيبهم ، وإذا ما قبض عليهم مرة أخرى يعلقون دون محاكمة على أعواد المشانق ، ومن يدعى منهم جهله بالقانون يعذب ، وإذا لم يثبت عليهم انتهاك للقانون يضربون - رجالاً ونساءً - ويوسمون على ظهورهم ثم يبعدون .

(٢٨) (١٧١٣ - ١٧٤٠) (الترجم) .

ليس من قبيل المصادفة أن ثلاثة أرباع الإجراءات التي جرى اتخاذها ضد الفجر في الفترة ١٥٥١ - ١٧٧٤ ، إنما تمت خلال المائة عام التالية لحرب الثلاثين عاما ، وهي الحرب التي كانت فيها ألمانيا المسرح الرئيسي لها ، وكان صلح فستقاليا ١٦٤٨ سبباً في تصاعد سلطة الأمراء الألمان وسيادتهم على مئات الدول في أنحاء الإمبراطورية ، كما ترتب على الحرب تخريب شامل، نشأ عن الحملات التي شنتها جيوش الطرفين المتصارعين ، وكانت تضم مرتزقة يائسين صاروا أينما حلوا يسلبون وينهبون ، تاركين المدن والقرى والضياع أثراً بعد عين ، وسعى الأمراء بدورهم إلى إصلاح الحال ، أو في أدنى تقدير القضاء على بعض العلل والأدواء ، مثل تناقص عدد السكان وسقوطهم في وهدة الفقر ، فقد تراوح عدد الذين هلكوا في هذه الحرب بين ثلث السكان إلى نصفهم ، بل إن عددهم وصل في بعض الأقاليم إلى سبعين بالمائة ، وبذا هبط عدد السكان في ألمانيا من حوالي عشرين مليوناً إلى ما بين اثني عشر مليوناً إلى ثلاثة عشر ، كذلك فإن الصراعات التالية مع فرنسا ، جعلت الأراضي الألمانية للمرة الثانية ساحة للمعارك ، الأمر الذي كان من شأنه أن يبرجيء هذه الإصلاحات .

أفاد الفجر إلى أبعد مدى من حال القوضى التي خلفتها الحرب ، فكان بإمكانهم أن يلتحقوا ببعض الجيوش لدى نهبها وسلبها ، ويذكر أن كثيراً منهم رافقوا جيوش فالنشتاين Wallenstein (٣٩) وكثيراً آخرين رافقوا أعداءه السويديين ، وإذا كانت الحرب قد أفنت الملايين ، فإن آلاف وربما مئات الآلاف أضحوا بلا مأوى ، وحالما انتهت الحرب صار الفلاحون المعدمون والجنود المسرحون يجوبون الآفاق يستجدون ويسرقون ، ويبدو أن السراق اتحدوا مع المتشردين Gauner والفجر ، ومن أجل التعامل مع هؤلاء جميعاً ازدادت وطأة القوانين على غرار ما سبق ذكره ، على أنه ترددت أصوات في مجالس الدوائر تعترض عليها ، ففي دائرة الراين العليا احتج أساقفة شبيير Speyer وفورمز Worms وماينتس في العام ١٧٢٦ على المغالاة في هذه العقوبات ، حيث إن الفجر ومن إليهم « هم بعد كل شيء بشر ، ولا يستطيعون أن يعيشوا في العراء » وفي المقابل عبر ممثلو ناساو - فايلبورج Nassau-Weilburg عن وجهة نظر مختلفة هي « إن الرحمة التي قد يسعى البعض لأن يشملهم بها من منطلق

(٣٩) ألبريشت فالنشتاين (ت ١٦٣٤) محارب نمساوي جسر قاد جيوش الإمبراطورية في هذه الحرب (المترجم) .

تعاليم الكنيسة ، تعتبر لدى الممارسة أشد قساوة تجاه الرعايا الفقراء » (الذين عليهم احتمالهم) (٤٠) ، كما أخفقت اقتراحات بديلة بتوفير فرص مناسبة لأن يتعلموا أو يعملوا لعدم توافر المؤسسات المناسبة ، وحيث إنه قد ثبت عدم فعالية حفظة الأمن ، فقد جرى دعمهم بأفراد من الميليشيا أو الفرسان ، ثم تم فى الأخير تشكيل جماعات خاصة (مثل أربعة من الفرسان وكشاف يسير على قدميه) لاصطياد الغجر وأشباههم ، وفى حالة دائرة الراين العليا فقد بدأ نشاط هذه الجماعات ابتداءً من العام ١٧٢٠ (٤١) .

ومنذ أن اعتلى فرديناند الأول (٤٢) العرش النمساوى فى سنة ١٥٥٨ خلفاً لأخيه شارل الخامس صارت الإمبراطورية الرومانية المقدسة هى إمبراطورية الهابسبورج ، إلى أن كانت نهايتها على يدى ناپليون ، وصارت النظرة تجاه الغجر فى ممتلكات الهابسبورج (بما فيها بوهيميا وموراڤيا وشيليزيا) لا تختلف كثيراً عن النظرة تجاههم خارجها ، وأصبحت مراسيم الإبعاد وعقوبات كالبتر والجذع وصولاً إلى الإعدام هى العلاج الشافى للمشكلة الغجرية ، نستثنى من ذلك « المجر الملكية » وهى القطاع الغربى الذى كان ما يزال فى أيدي الهابسبورج بعد أن استولى الأتراك على سائرهما - فقد اختلف الوضع فى هذه المناطق الحدودية ، ولم يعد للإبعاد التأثير ذاته ، فقد استجاب له بعض السادة ، بينما حرص بعضهم الآخر على الحفاظ على الغجر لما لديهم من مهارات كحدادين وموسيقيين وجنود ، وأحياناً كانت الحكومة تشاركهم موقفهم ، ففى سنة ١٦١٦ أصدر جيرجى تورتسو Gyrgy Thurzó كونت البالاتاين (أى الحاكم الإمبراطورى للمجر) جواز مرور عجيبياً ، يتناقض مع سياسته التى سبق أن درج عليها مع الغجر قبل أربع سنوات ، وتشير هذه الوثيقة إلى الأمير فرانسيسكوس

(٤٠) Cf. H. Arnold , " Das Vagantenunwesen in der Pfalz Während des 18 . Jah- rhunderts " , Mitteilungen des historischen Vereins der Pfalz, 55 (1957), PP. 117 - 52, esp. P. 131 .

(٤١) Cf. Ibid., PP. 133 - 4; and U. Sibeth , " Verordnungen gegen Zigeuner in der Landgrafschaft Hessen - Kassel im Zeitalter des Früh Absolutismus " , Giessener Hefte Für Tsiganologie (1985) , no. 4, PP. 3 - 15, esp. pp. 10 - 13 .

(٤٢) كان ملكاً على بوهيميا والمجر منذ سنة ١٥٢٦ ، ثم صار إمبراطوراً فى سنة ١٥٥٦ (بخلاف ما يذهب المؤلف) إلى أن مات فى سنة ١٥٦٤ (المترجم) .

وجماعته « الذين نهضوا بخدمات عسكرية » (لذلك كانت السلطات مهتمة بالحفاظ عليهم لجدواهم) لكنها تحقوى كذلك على رجاء لتفهم الغجر وأحوالهم تمت صياغته بأسلوب لاتينى منمق .

« بينما تمتلك الطيور فى السماء أعشاشها والثعالب مأويها والذئاب أوجارها والسباع والديبة عرائنها وكل الحيوانات أوطانها ، فإن الجنس المصرى المعذب الذى يطلق عليه تعبير غجر Czingaros أجدر بالشفقة ، ومع أنه ليس معروفاً ما إذا كانت هذه الحال سببها فرعون قاس ، أو أنها من تصارييف القدر ، فوفقاً لما اعتادوا عليه ، عاش الغجر حياةً صعبةً فى الآجام والمروج خارج المدن ، تظلم خيام بالية ، وبذا تعلم كبارهم وصغارهم وهم يلتحفون السماء أن يحتملوا المطر والبرد والحر ، فليس لديهم ما يملكون ، كما أنه ليست لديهم مدن ولا حصون ولا ملاذات آمنة ، لكنهم يتنقلون باستمرار ، وعلى مدى الأيام يلتمسون طعامهم وكساءهم ، بأعمال يزاولونها مستعينين بالسنادين والأكيار والمطارق والكلابات » (٤٢).

أمر تورتسو بتنفيذه بأن يسمحوا لهؤلاء الغجر بالاستقرار فى أراضيهم ، فينصبون خيامهم ويمارسون الحدادة ، وأكد عليهم بأن يشملوهم بحمايتهم ضد من يسعون فى أذيتهم ، وطالما ظلت البلاد منقسمة على هذا النحو كان بإمكان الغجر أن يفيدوا من هذا الوضع لمصلحتهم ، لكن الموقف تغير لبدى استرداد النمسا للمجر وترانسيلفانيا فى نهاية القرن السابع عشر .

جرى أول تحول هام لحياة الغجر بممتلكات الهابسبورج فى عهد الإمبراطورة ماريا تيريزا (١٧٤٠ - ١٧٨٠) وكان أبوها شارل السادس (٤٤) حروناً فى كراهته للغجر ، وفى سنوات حكمها الأولى تابعت بهدوء سياسته ، فأمرت فى سنة ١٧٤٩ بطرد الغجر والمتشردين والأجانب من كل ممتلكاتها (لم يكن هذا القرار ليسرى على الغجر الذى استقروا مؤخراً ، وحظوا بعناية أعيان الدولة كموسيقيين ، ولدينا أسماء خمسة من سعداء الحظ هؤلاء وهم فيرننتس Ferencz ويانوش János ولاتسكو باكوش

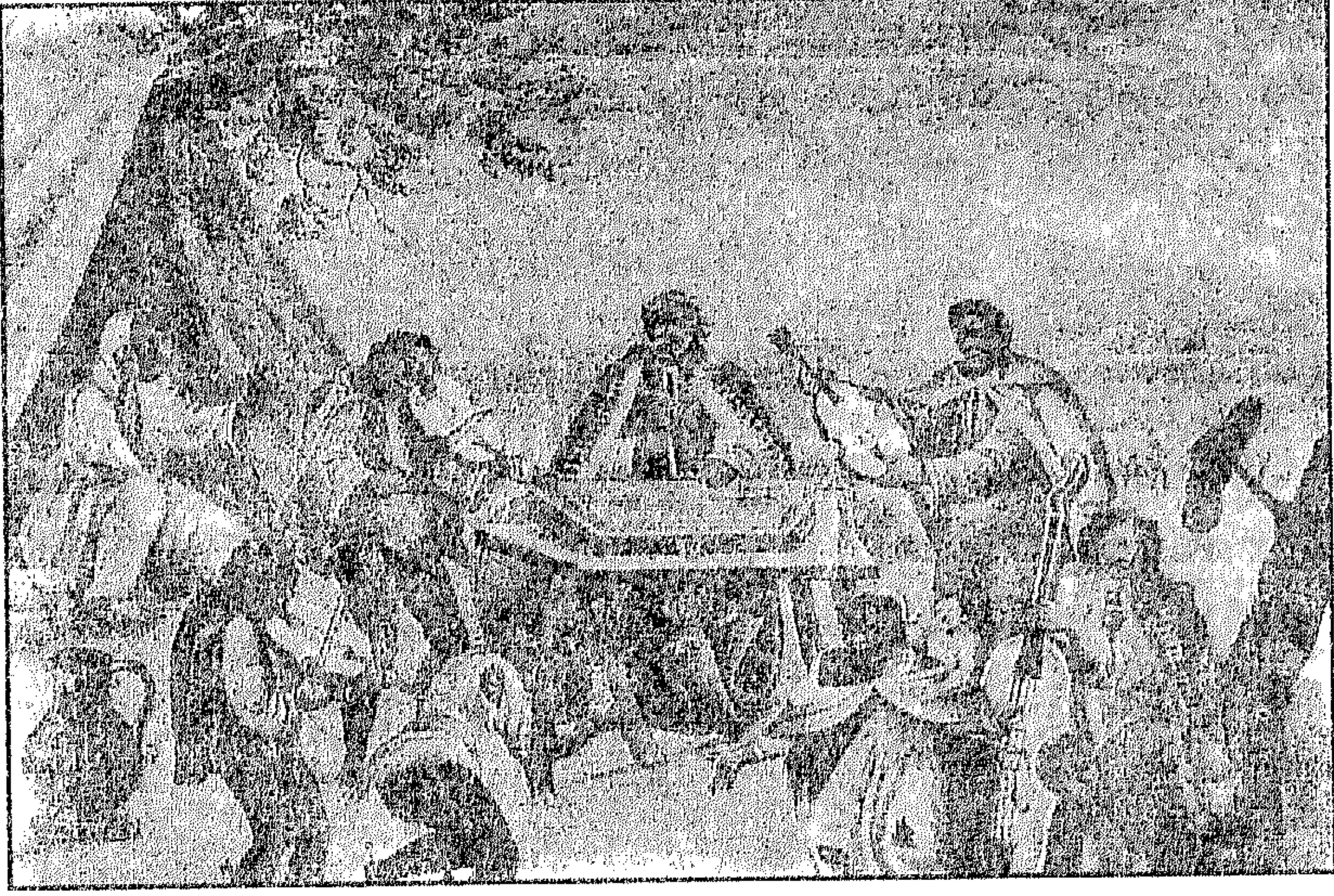
(٤٣) مترجمة عن اللاتينية فى :

H. M. G. Grellmann , Historischer Versuch über die Zigeuner (2 nd edn, Göttingen , 1787) , PP. 349 - 50 .

(٤٤) (١٧١١ - ١٧٤٠) (المترجم) .

Latzkó Bakos ولاسلو بورومي László Boromi ولاسلو تينكا László Tinka فقد حصلوا على خطابات امتياز litteras privilegiales من كونت فيرننتس استرهان Ferencz Esterhazy من جالانتا Galantha أعلنهم بمقتضاه موسيقيي بلاط أحرار ، وأعفاهم من الضرائب (٤٥) ، ومع ذلك ففي السنوات ١٧٥٨ - ١٧٧٣ سعت ماريا تيريزا إلى تطبيق إجراءات معينة على المجر (التي كانت تضم سلوفاكيا) بهدف منعهم من الحركة وإدماجهم ، وهي في هذه الإجراءات وغيرها كانت تستهدى باعتبارات عملية أكثر منها إنسانية ، فخلال الصراع الطويل بين الهابسبورج والأتراك عم الخراب بلاد المجر ، وتناقصت أعداد سكانها على نحو مخيف ، وفي سنة ١٧٥٨ أصدرت مرسوماً بوجوب أن يستقر الفجر ، ويؤدوا لأصحاب الضياع ضرائب وخدمات إجبارية ، وتجريدهم من جيادهم وعرباتهم ، وعدم السماح لهم بمغادرة قراهم دون إذن (مع ذلك فلم يكن لماريا تيريزا أن تذهب بعيداً في مرسومها هذا فالقرويون يعترضون على ابتناء الفجر منازل إلى جوارهم ، كما لم يكن في خزانقتها اعتمادات للنفقة عليها ، ولم توفر المجتمعات المحلية خامات خاصة للبناء) ، وفي مرسومها الثاني (١٧٦١) أمرت بأن يحل محل مسمى فجر مسمى آخر هو « المجريون الجدد » Ujmagyar أو مسميات أخرى مثل « مستوطن حديث » ، وتقرر استدعاء الشباب فوق سن السادسة عشرة للخدمة العسكرية ماداموا لائقين لها ، أما الصبية من سن عشرة إلى السادسة عشرة فعليهم أن يتعلموا صنعة ، وللمرة الثانية اعترض عامة الناس على هذا المرسوم ، كما أن ضباط الجيش كانوا يأنفون من قبول الفجر كجنود ، أما العمال فلم يكونوا مستعدين لأن يمنحوا الفجر أسرار مهنهم ، وفي المرسوم الثالث (١٧٦٧) تقرر أن يسلب من أمرائهم حقهم في أن يمارسوا القضاء بينهم ، وجعلتهم يخضعون للقضاء العادي ، كما حظرت عليهم أن يتفردوا بلباس خاص بهم أو لغة أو عمل ، وعلى كل قرية أن تجري إحصاءً بمن بها من فجر ، واستهدف المرسوم الرابع الصادر في سنة ١٧٧٣ أن يضع حداً لهويتهم العرقية ، فحظر التزاوج بين بعضهم بعضاً ، وأضحى على كل امرأة غجرية تتزوج بغير غجري أن تثبت مهاراتها في الخدمة المنزلية والتواصل مع العقيدة الكاثوليكية ، كما أنه أضحى على الزوج الغجري

B. J. Gilliat - Smith , " An eighteenth century Hungarian document , JGLS (٤٥)
3 - 50 (1963) , PP. 42 (3) .



شكل ١٩ فرقة موسيقية غجرية من تصوير زيتي يعود إلى القرن الثامن عشر لفنان مجهول ،
المتحف الوطني المجرى ، بودابشت

أن يثبت قدرته على إعالة زوجه وولده ؛ أما عن الأطفال من الغجر فينتزعون من ذويهم ،
عند بلوغهم الخامسة ، ويعهد بتنشئتهم إلى عائلات من غير الغجر ، وقد واصل يوزيف
الثانى (٤٦) ولد ماريا تيريزا سياستها على نحو أكثر تشدداً . وكانت هذه السياسة
تتلاءم لا شك مع اهتمامه بجعل المجر جزءاً لا يتجزأ من إمبراطوريته ، وقد امتد بهذه
السياسة إلى ترانسيلفانيا فى سنة ١٧٨٣ ، مؤكداً على ما سبق اتخاذه من إجراءات
وأضاف إليها المزيد ، فأمر بعدم تغيير أسمائهم وإحصاء بيوتهم وكتابة تقارير شهرية
عن أسلوب حياتهم وحظر ترحلهم ، كما حظر اختلاف المستقرين منهم إلى الأسواق ،

(٤٦) (١٧٦٥ - ١٧٩٠) (المترجم) .

إلا في أحوال الضرورة ، ومنعهم من ممارسة الحداثة ، إلا إذا تأكد للسلطات ضرورتها ، وحدد أعداد من يمارسون العزف منهم ، ومنعهم من التسول ، ومنعهم كذلك من أن يستقروا حيث يشاءون ، وإنما عليهم أن يرتبطوا بمن يخدمونهم ، أما عن أطفالهم ابتداءً من سن الرابعة فيوزعون كل سنتين على الأقل على المقاطعات المجاورة (٤٧).

لم يلتزم بتعليمات الإمبراطور سوى عدد قليل من المدن والكونتيات ، بينها بورجنفالد Burgenwald في غربى المجر (هى الآن فى النمسا) وغيرها ، حيث مورست على الغجر ضغوط من أجل أن يستقروا (وسوف نلمس نتائجها بعد مائة عام) وإذا شئنا التفصيل ، فقد رفض « المجرىون الجدد » بشدة التخلي عن هويتهم وعن روابطهم العائلية ، وعاد كثير ممن استقروا ، فتركوا بيوتهم لضيق مساحتها ، وأووا إلى مهاجع من ابتنائهم ، وكان الأطفال تواقين للعودة إلى آبائهم ، وإذا لم يكن في إمكان الغجر أن يتزاوجوا فيما بينهم زواجا شرعيا ، فربما لم يبتئسوا كثيراً من مواصلة طقوسهم الخاصة بالزواج وإنجاب الأطفال ، دون أن يحظوا ببركة الكنيسة ، ومع ما فى هذا من عدم التزام بأوامر الإمبراطور، إلا أنه لم يتوافر على أية حال سوى عدد قليل من الأغيار - رجالاً ونساءً - هم الذين وافقوا على الارتباط بقوم ينظرون إليهم بازدراء شديد .

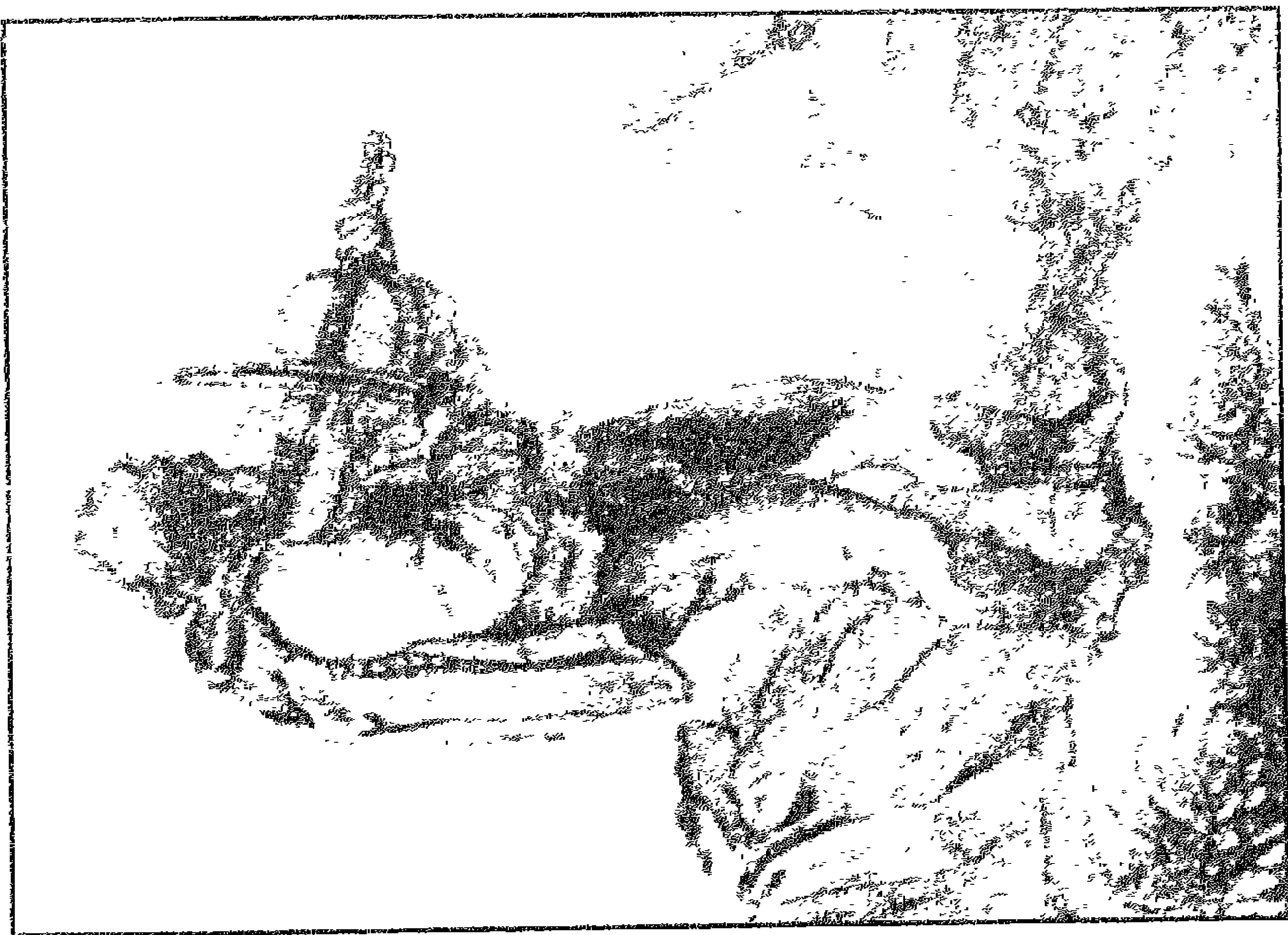
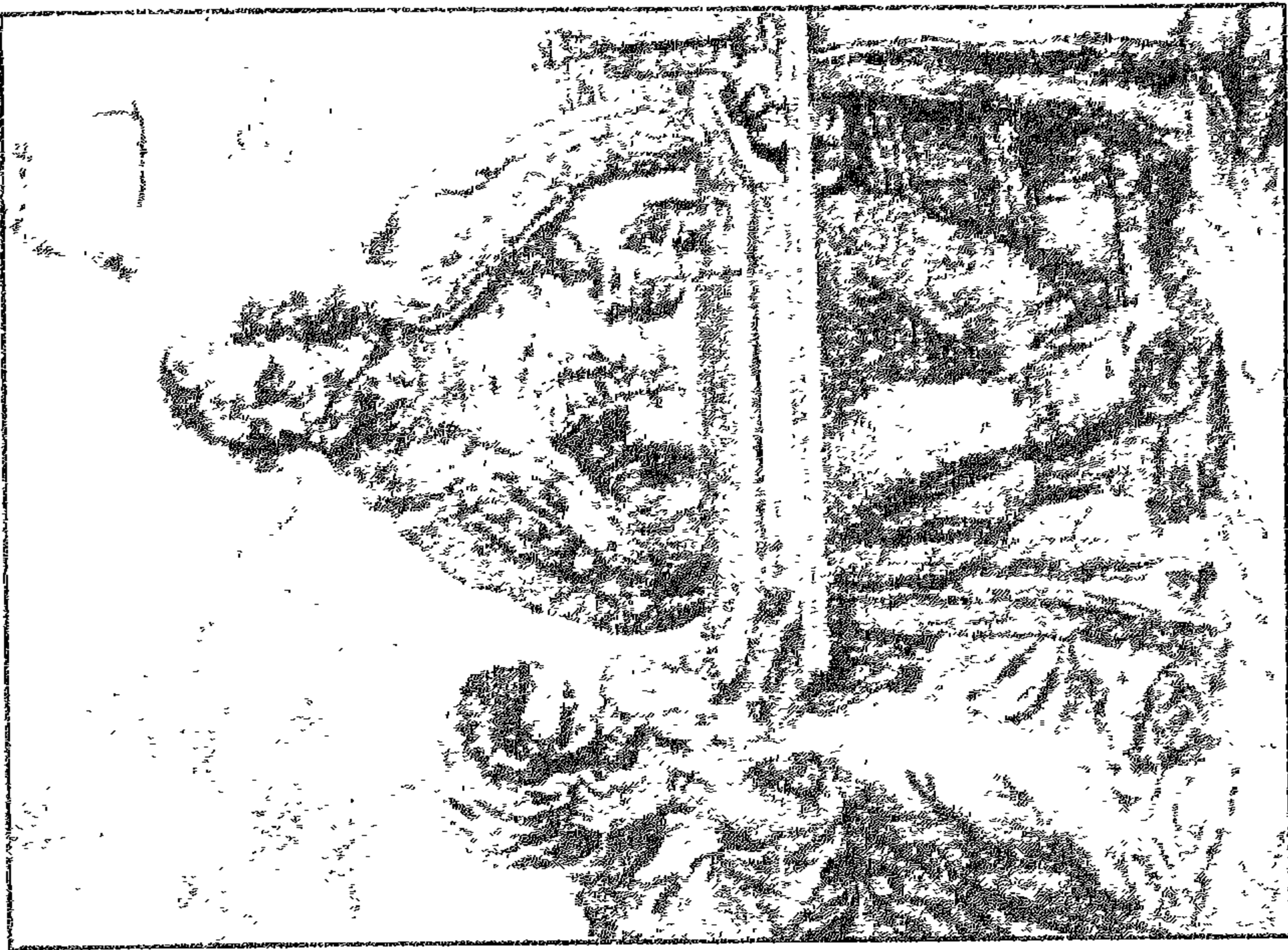
فى بروسيا لم يكن لفردريك الأكبر (٤٨) أن يقبل بأن يتفوق عليه خصومه وخصوم أسرته النمساويون فى أى شيء ، فسار على نحو مماثل ، بل إنه أمر بإنشاء قرى غجرية ، تعود أولها إلى عام ١٧٧٥ وذلك فى فردريشسلورا Friedrichslöhra قريباً من نوردهاوزن Nordhausen فى سكسونيا ، ولكن هذا المعزل أفضى إلى نتيجة واحدة ، هى عدم لياقة الغجر لأى شيء ، وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، تم إيداع من تبقى منهم فى إصلاحيات وأطفالهم فى دور رعاية (٤٩).

(٤٧) لمزيد من التفاصيل عن هذه الإجراءات وتأثيرها فى بورجنفالد النمساوية . انظر :

C. Mayerhofer, Dorfzigeuner (Vienna , 1987), PP. 23 - 33 .

(٤٨) أو الثانى (١٧٤٠ - ١٧٨٦) الشهير بالملك الإسبرطى مؤسس العسكرية البروسية (المترجم) .

(٤٩) Details in R. Pischel, Beiträge zur Kenntnis der deutscher Zigeuner (Halle, 1894) esp. PP. 9 ff .



شكل ٢٠ - فجور من ترا نسيلاثانيا يعزفون على الكمان والسيمبالوم ، حفر لمارتين شتوك ١٧٧٦ .

وإذا كان ثم بلد وصلت فيها سياسة الإلحاق ثم الإدماج إلى أبعد مدى متصور ، بحيث صارت نموذجاً يحتذى ، تردد صداه حتى القرن العشرين ، فإن هذه البلد هي إسبانيا ، ففي خمسينيات القرن السادس عشر ترددت في الكورتيس القشتالي - أي البرلمان - أصوات تجار بالشكوى من المتشردين الفاسدين الذين صاروا وباءً ابتليت به البلاد ، وفي سنة ١٥٥٩ كان فيليب الثاني (٥٠) - ابن شارل الخامس والزوج الأرملة لمارى تودور ملكة إنجلترا - قد عاد من البلاد الواطئة ، وبعث من فوره ما سبق إصداره من مراسيم مناهضة للفجر ، بل إنه غلظها ، وجعلها تشتمل كذلك على النساء اللواتي يتزين بأزياء شبيهة بأزياء العجريات ، لكن الكورتيس ظل غير راض ، حتى بعد أن وضع فيليب في سنة ١٥٨٨ رقابة صارمة على حقوق الفجر في بيع بعض سلعهم ، وتقدم اثنان من أعضائه بتقرير عنيف في شجبه للشخصية الفجرية وأسلوبها في الحياة ، ويقضى هذا الاقتراح بفصل الرجال عن النساء ، والسماح لكل فريق على حدة بالتزواج مع الفلاحين ، وانتزاع أطفالهم منهم لينشئوا في ملاجئ للأيتام حتى بلوغهم سن العاشرة ، فيتم تعليمهم صنعة ما ، في حين تلحق البنات بالخدمة المنزلية ، وقد أهمل هذا المشروع ، وإن أعيد إحيائه في القرن الثامن عشر ، وفي الوقت نفسه فقد تأرجح موقف الكورتيس بين الإبعاد والاستقرار القسري ، وحيث أن الموريسكيين Moriscos - وهم أخلاف المسلمين الذين نصروا ، ولكن صعب إدماجهم - قد حلت مشكلتهم في النهاية بطردهم بين سنتي ١٦٠٩ - ١٦١٣ ، فقد تحولت الأنظار مرة أخرى إلى الفجر ، الذين كانوا أشد ضرراً في عيون الكثيرين ، ولم يعد ثم تعاطف معهم ، بعد إذاعة خطب لاذعة لقساوسة ولاهوتيين ومشرعين بارزين ، أفادوا بما راج من شائعات واتهامات (بالخيانة والسرقة والفسوق والهرطقة وخطف الأطفال) ، وأضافوا إليها المزيد من عندهم ، وانتهى إلى اقتراحات ، تتراوح بين تسخيرهم للعمل مجذفين بالقواديس (الراهب ملتشور دي ويلامو Melchor de Huélamo ١٦٠٧) وبين طردهم بلا رحمة ، وعبر عن هذا الاتجاه سانتشو دي مونكادا Sancho de Moncada أستاذ اللاهوت في جامعة طليطلة ، وذلك في التماس ينضح بالسم رفعه إلى فيليب الثالث (٥١) ،

(٥٠) ملك إسبانيا (١٥٥٦ - ١٥٩٨) في عهده وصل اضطهاد المسلمين المنصرين إلى مداه ، وفي عهده كذلك أصيبت إسبانيا بنكبة كبيرة ، حين دمر الأسطول الإنجليزي أسطولها الذي لا يقهر (الأرمادا) مدشناً بذلك بداية عصر السيادة البحرية البريطانية (المترجم) .

(٥١) In " Expulsion de los Gitanos " , the socond part of the seventh discourse of Restauracion politica de España (Modrid, 1619) .

وفيليب الثالث هو ملك إسبانيا (١٥٩٨ - ١٦٢١) (المترجم) .

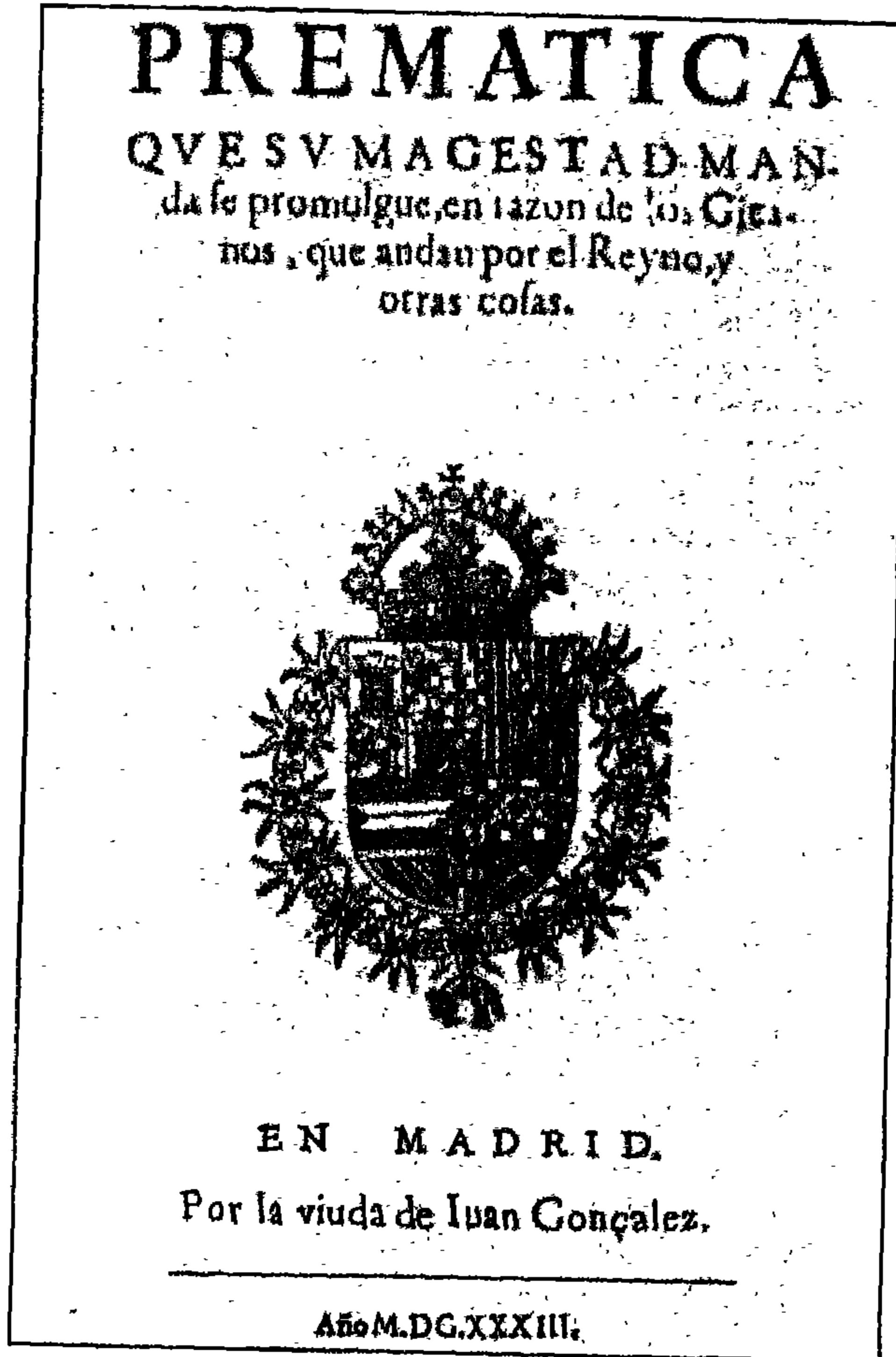
واستعان في التماسه هذا بأية من الكتاب المقدس يتعذر الالتفاف عليها ، ليبرر بها عقوبة الموت بالنسبة لهم ، ففيها يقول قايين « ومن وجهك أختفى وأكون تائهاً وهارباً في الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » (٥٢)، ومن سوءاتهم التي أوردها مونكادا قدرتهم على التخاطب بلغة سرية أورطانة Jerigonza ، وبطبيعة الحال كانت لهذا الأستاذ تحفظات على المرسوم الذي صدر في السنة نفسها ١٦١٩ ، فمع أنه كان ينص على أن يغادروا المملكة إلى الأبد أو الموت ، إلا أنه ينص كذلك على أن يبقوا في حال ما إذا استقروا ، وتخلوا عن أزيائهم وأسمائهم ولغتهم « ونظراً لأنهم لا يعدون أمة ، فعسى أن يوصم اسمهم وأسلوبهم في الحياة إلى الأبد وينسيان » ، وقد تصدى بضراوة ضد هذه الحلول الوسطى واستنكر في الوقت نفسه إمكانية النظر بعين الاعتبار إلى النساء والأطفال « فلا يوجد قانون يرغبنا على أن نربى جراء الذئاب ، فيلحقون المزيد من الأذى بالناس » ، وفي سنة ١٦٣١ أدلى خوان دي كوينيونيس Juan de Oeuiñones بدلوه في هذا الموضوع مستعيناً في ذلك بسابق تمرسه بالغجر كقاض وشنقه خمسة منهم ، فروى قصصاً عن ممارسات جنسية غير مشروعة ، وأكل للحوم البشر ، وكان الغجر في نظره لا يزيدون عن كونهم حثالة الناس ، وفسر لون بشرتهم القاتم ، بكونهم يعيشون في العراء ، أو يستخدمون أصباغاً نباتية، وأنهم كرسوا هذا الوهم بارتدائهم ملابس مختلفة واتخاذهم لغة خاصة .

أفضت الضغوط التي تعرض لها فيليب الرابع (٥٣) من قبل الكورتيس ومستشاريه إلى أن أصدر التشريع العملى Premática في سنة ١٦٣٣ ، وأعلن بوضوح «إن هؤلاء الذين يدعون أنفسهم غجر، ليسوا كذلك بأصلهم وطبيعتهم، لكنهم اتخذوا هذا النمط من الحياة لأغراض دنيئة وخبيثة » ، وحيث إن البلاد لم تكن تحتل فقد المزيد من سكانها ، فقد استهدف فيليب إدماجهم ، وعليه فقد حظر عليهم أن يتجمعوا سوياً أو أن يتزوا بأزياء تختلف عن أزياء الآخرين، أو أن يتحدثوا بلغة خاصة ، كما حظر عليهم السكنى بالضواحي barrios ، بل عليهم أن يختلطوا بغيرهم من الأهلين ، ويعيشوا كمسيحيين طيبين ، وأصدر أوامره بأن يبطل اسم غجرى ، وأن يقلعوا عن الرقص وما إليه ، وأيما امرئ يلتحق بغجر جوالين يجوز استرقاقه ،

(٥٢) تكوين ، إصحاح ٢ آية ٤ ، وقايين هو قابيل عند المسلمين (المترجم) .

(٥٣) (١٦٢١ - ١٦٦٥) (المترجم) .

ويتوجب اصطياد من اشتغل منهم بالسلب والنهب ، وبهذا التشريع العملى انفتح المجال لدمج قسرى لهم دام مائة وخمسين سنة ، وأضحى جزاء من ينتهك هذا التشريع منهم أن يسخر لست سنوات فى القواويس إذا كان من الرجال ، أما النساء فالجلد والنفى ، وبذا فقد دفعت حاجة الحكومة لدعم أسطولها إلى حفز القضاة طيلة القرن السابع عشر ، كى يبذلوا قصارى جهودهم للإسراع بالبت فى القضايا المعلقة واعتقال الغجر الجوالين ، بل وصلت الحال إلى حد أن السجناء غالباً ما كانوا يلحقون



شكل ٢١ - التشريع العملى لفيليب الرابع ١٦٣٣

بدون جديد ذنب ارتكبه بهذه القواديس ، بعد أن تكون الأحكام الصادرة ضدهم قد انقضت^(٥٤).

في سنة ١٦٩٥ قام شارل الثاني^(٥٥) آخر ملوك إسبانيا من أسرة هابسبورج بوضع الأساس للنظام الذي أتى بعده بمرسوم^(٥٦)، ينص على ضرورة أن يتوافر لدى القضاة سجل كامل بالغجر ومهنتهم وأسلحتهم ، بعده يجوز لهم أن يعيشوا على نحو شرعي ، ولكنه في أماكن متناثرة ، يجاورهم في كل مكان ما يزيد على المائتين من السكان ، وحتى في هذه الحال ، فلا تكون لهم أحيائهم الخاصة بهم ، وحظر عليهم مزاولة مهن بعيدة عن الزراعة ، كما حظر عليهم كذلك تربية الخيول أو الاحتفاظ بها ، وليس لهم أن يحملوا سلاحاً ، ولا أن يترددوا على أسواق ، وإذا رغبوا في الانتقال إلى مكان غير مكانهم ، فعليهم الحصول على تصاريح مكتوبة ، وأيما امرئ يحميهم أو يسدي إليهم عوناً ، يُغرم ستة آلاف من الدوكات (إذا كان من النبلاء) أو يزج به في القواديس (إذا كان من العامة) .

عندما خلف البوربون الهابسبورج في حكم إسبانيا ، بدأت مرحلة إصلاحية جديدة ، من معالمها قطع دابر الجماعات غير الاجتماعية أو تقليصها ، أو على الأقل جعلها أكثر جدوى للمجتمع والدولة ، وبدأت سياسة العداء تجاه الغجر تخضع لرقابة مركزية صارمة ، لم تكن تعرفها أقاليم مثل أرغونة وقطالونيا وبلنسية ، فقد عاود فيليب الخامس^(٥٧)

Cf. R. Pike, Penal Servitude in early modern Spain (Madison WI, 1983, esp, (٥٤) PP. 14 - 15 .

(٥٥) (١٦٦١ - ١٧٠٠) وأفضت الإطاحة به عن عرش إسبانيا إلى اشتعال حرب الوراثة الإسبانية (المترجم) .

(٥٦) توجد نسخ عديدة منه وغيره من وثائق القرن الثامن عشر الأساسية في :

M. It. Sanchez Ortega, Documentación selecta sobre la situación de los gitanos españoles en el siglo XVIII (Madrid, 1976).

كما توجد سلسلة أخرى متكافئة من وثائق القرن الثامن عشر في :

M. Torrión, 'Del dialecto coló y sus usuarios : La minoría gitana de España ' (doctoral thesis, Perpignan, 1988) .

ويوجه كذلك تحليل شامل للمواقف الرسمية في القرن الثامن عشر في :

A. Gómez Alfaro, " El Expediente general de Gitanos (doctoral thesis , Madrid, 1988) .

(٥٧) (١٧٠٠ - ١٧٤٦) وهو حفيد للويس الرابع عشر ملك فرنسا (المترجم) .

مؤسس هذه الأسرة التأكيد فى قرار Pragmática أصدره فى سنة ١٧١٧ على القيود التى وضعها أسلافه ، وشدد على أن المناطق المصرح للغجر بالسكنى فيها هى إحدى وأربعين مدينة موزعة فى كل إسبانيا ، وجعل العقوبات تتراوح بين السخرة فى القواديس لمدة تتراوح بين ست سنوات إلى ثمانية بالنسبة للرجال ، ومائة جلدة فضلاً عن الإبعاد بالنسبة للنساء ، ولكن ولده فرديناند السادس (٥٨) اضطر بعد عشرة أيام فقط من ولايته فى سنة ١٧٤٦ إلى أن يخفف خمساً وثلاثين مدينة أخرى مصرحاً للغجر بالسكنى فيها (تتضمن إشبيلية وقرطبة وواى أش وسرقسطة وبرشلونة وبلد الوليد Vallodolid) على أساس قاعدة أسرة غجرية واحدة مقابل مائة من السكان ، وعليه فقد تكثف وجودهم فى إشبيلية .

والآن وقد صار معظم الغجر قراريين ، ولا يزاول الترحال منهم سوى يسير ، فإنه لم يتحقق الأمل فى تذويبهم ، واقترح أسقف أوبيط Oviedo ورئيس مجلس قشتالة كحل لمشكلتهم ، قيام الدولة بهجمة ليلية عليهم فى توقيت واحد بكل إسبانيا ، فيتم جمعهم ومصادرة ممتلكاتهم ، ويجبرون على العمل فى أماكن تحددها الحكومة ، أما النساء فيجوز أن يعملن بالغزل والصبى بالمصانع ، أما الرجال والشباب فيسخرن للعمل فى مناجم الدولة وترسانات السفن . ولا تجد الوثائق المعاصرة الباقية حرجاً من أن تتحدث عن « إنقراض الغجر » باعتبارهم جنساً لا جدوى من إصلاحه ، وقد وافق فرديناند على نصيحة أسقفه ، وتمت الهجمة المدعومة عسكرياً فى نهاية يوليو سنة ١٧٤٩ ، ووفقاً لإحصائيات أجريت فى هذا الاثناء ، فقد جرى اصطياد ما بين تسعة آلاف إلى اثنى عشر ألفاً ، ومن أجل تحديد أين يستخدمون ؟ فقد تبذلت خيارات الحكومة ، بسبب ما جرى من تقدم فى تقنيات الملاحة البحرية ، أفضى إلى تخليها عن قواديسها فى العام السابق ، وأضحى البديل هو تحويل الترسانات إلى مؤسسات عقابية ، يزاول فيها السجناء وهم فى أغلالهم أعمالاً شاقة من بناء سفن وصيانة لها ، إلى جانب أن الحصون الخمسة Presidios بالشمال الإفريقى كانت تعاني من عدم توافر العمالة الرخيصة اللازمة لبناء التحصينات وترميمها ، وصارت لها الآن حصنة من المحكوم عليهم ، كذلك كانت الحال ، ولكن على مستوى أقل فى مناجم الزئبق بجبال المعدن Almadén والتى يعود تاريخها إلى قرنين سابقين حيث كان العمل يقسم

(٥٨) (١٧٤٦ - ١٧٥٩) (المترجم) .

الظهر ، كما كانت المخاطر الناجمة عن التسمم الزئبقى تصل إلى مستويات عالية ، وبذا فقد هلك أعداد كبيرة من الغجر .

انتهت الحال بغالب الذكور الذين ألقى القبض عليهم فى هذه الهجمة إلى الترسانات البحرية ، وكانت الحكومة بسبيل توسعتها ، الأمر الذى كان يستدعى أعداداً كبيرة من العمالة غير الماهرة ، وقد بدأ العمل فى ترسانتى الفيرول El Ferrol وقرطاجنة ، بينما جرت توسعة لاكاراكا La Carraca (قادس Cádiz) وقدر للغجر الذين نيط بهم العمل هناك معاناة دامت ستة عشر عاماً ، ومن تبقى منهم على قيد الحياة ظل يعانى عللاً وأدواءً فى حين هلك غيرهم بعد يسير ، وقد صدم مديرو الترسانات بإنتاجيتهم الهزيلة ، ففى لاكاراكا وحدها كانت عنابرها تؤوى قرابة الألف ومائتين من الرجال ينامون دون أغطية على سرر خشبية مغللين بقيود مثبتة إلى الجدران .. ومن عجب أن كثيراً من هؤلاء السجناء كان فى إمكانهم أن يثبتوا بالدليل الساطع سلوكيات سابقة لهم غير شائنة ، مما اضطر فرديناند السادس ، لأن يصدر مرسوماً آخر فى العام ذاته ، يعترف فيه بأنه ربما وجد غجر طيبون يتزوجون زواجاً شرعياً وينشئون أولادهم تنشئة سليمة ، ويعملون دون أن يتذمروا ، ويخرج من ذلك بأنه فى الإمكان السماح لهم بالعودة إلى منازلهم التى أرغموا على تركها شريطة التحقق من ادعاءاتهم ، وقد أساءت الحكومة تقدير الموقف واضطر فرديناند إلى التراجع ، إلى أن ولى أخوه غير الشقيق وخليفته شارل الثالث (٥٩) ، ويعد هذا الملك واحداً من أقدر من جلسوا على عرش الملوك الكاثوليك ، فقد أصدر أمراً فى سنة ١٧٦٣ بإطلاق سراح الغجر الذين أسروا فى هجمة سنة ١٧٤٩ ، ولكن مستشاريه قابلوا هذا التحول بمعارضة شديدة ، ولم يتم تنفيذه إلا بعد عامين ، وتلت ذلك سجلات انتهت بأن نيط بـ بيدرو باليينتى Pedro Valiente وبيدرو رودريجيث Pedro Rodríguez كونت كامپومانيس Campomanes مهمة إعداد تقرير يكون أساساً للتشريع فى المستقبل ، وتنوه هذه الوثيقة التى تعود إلى سنة ١٧٧٢ إلى أنه بينما شددت القوانين السابقة على الإدماج ، فقد كانت المشاعر الوطنية تعمل فى الاتجاه المعاكس ، فكان ينظر إلى الغجر كمنبوذين ، لا يسمح لهم إلا بأعمال محدودة ، وحظرت إحدى التوصيات استخدام تعبير « غجرى » أو حتى التعبير الأخف وطأة والذي يعود إلى القرن السابع عشر « قشتالى جديد » ، وتدعو توصية أخرى إلى

(٥٩) (١٧٥٩ - ١٧٨٨) اشتهر بغزوه ل نابولى وصقلية (المترجم) .

إتاحة كل الحرف فى وجه الفجر ، وركز كامبومانيس وبالبينتى على دور التربية ، واحتجا بأن التجربة وحدها برهنت بما لا يدع مجالاً للشك على أن التشريع الذى كان فى جملته عقابياً لم يكن له سوى تأثير ضعيف ، وأنه من الواجب ترك الفجر وشأنهم يكسبون رزقهم بسلام^(٦٠).

فى النتيجة حظيت هذه الاقتراحات بقبول من شارل الثالث ، خصوصاً ما يتصل منها بالتربية ، والمقارنة بما صدر من تشريعات قاسية ودموية فى القرون الثلاثة السابقة ، كان التشريع العملى الصادر فى عام ١٧٨٣ - وهو العام نفسه الذى صدرت فيه تنظيمات يوزيف الثانى بالمجر وترانسيلفانيا - كان يمثل خطوة إلى الأمام - حتى وإن كان الحافز إليها هو النفعية التى عمت أوروبا بأسرها فى عصر التنوير - فقد كانت هناك رغبة فى التوصل إلى أكثر الوسائل فعالية للتحويل بمن كان ينظر إليهم على أنهم قطع من البطالين إلى مواطنين صالحين ، وفى الوقت نفسه كانت هناك عقوبات شديدة تجاه من يقدم على الانحراف منهم ، كما أبطل استخدام تعبير غجرى (أو قشتالى جديد) وسمح لمن أبدوا استعداداً إيجابياً بأن يزاولوا أية مهنة شاؤوا - مع استثناءات معينة - فى أى مكان سوى مدريد والمقرات الملكية ، وكانت سبل العيشة الموصدة فى وجوههم ، هى صوافة الحيوانات والاتجار فى الأسواق والعمل بالخانات فى الأماكن القليلة الكثافة (وكانت هذه جميعها مهناً هامة للفجر ، فالعمل بالخانات - على سبيل المثال - كان واسع الانتشار بينهم ، وقبل عشر سنوات ، أبدى ريتشارد تويس Rich-ard Twiss وهو رحالة إنجليزى إعجابه بأمانة من يعملون منهم فى الخانات)^(٦١). وتوجب معاقبة هؤلاء الذين يستقرون ، لكنهم لا يزاولون أعمالاً لها قيمة ، وذلك تماشياً مع القوانين العامة المناهضة للتشرد ، أما الذين يستقرون ثم يرتكبون جرائم ، فيتم إخضاعهم للعقوبات ذاتها التى يتعرض لها غيرهم . وفى الأحوال كافة كانت توجد تشريعات خاصة بهؤلاء الذين يعاودون حياة الرحلة ، دون أن يكون لهم عمل ثابت ، فيعاقبون بأن ينتزع منهم أطفالهم دون السادسة عشرة ، ويودعون فى نزل الغرباء ودور التعليم ، وكل من يعاود منهم انتهاكه للنظام بمعاودته حياته السابقة يعدم .

(٦٠) يوجد تحليل لتقرير كامبومانيس - بالبينتى فى :

B. Leblon, Les Gitans d'Espagne (Paris, 1985), PP. 67 - 84 , and in Gómez Alfaro, " Expediente general " , PP. 1085 - 1119 .

Travels through Spain and Portugal in 1772 and 1773 (London , 1775) , (٦١)

PP. 179 - 80 .

من الناحية العملية فقد تم تنفيذ هذا التشريع بكل دقة خلال السنوات الخمس الأخيرة من حكم شارل الثالث ، حين كانت السلطة المركزية قوية ، ولدى موته كان التغيير الثوري في فرنسا قد أصاب الحكومة بالارتباك (٦٢)، لكن هذا التشريع بواقعيته صار له تأثير باق ، وعندما زار جورج بارو George Barrow (٦٣) إسبانيا ، فإنه لدى مقامه في سنة ١٨٣٦ بِيَطْلِيُوس ، استمع ولأول مرة إلى مثل بلغة الكالو Caló (لغة هجين رومنية الكلمات قشتالية البناء) يقول « لقد قضى الملك على شريعة الفجر » el Cralis ha nicobado la liri de los Calés وواضح أن هذا المثل يتحسر على ضياع نمط الحياة الفجرية العتيق ، والمقصود بالملك هنا شارل الثالث .



شكل ٢٢ فجر يجزون شعر بغل في إسبانيا ، طبع علي الحجر ، المكتبة الأهلية ، باريس .

(٦٢) Gómez Alfaro , " El Expediente general, PP. 1210 - 1644 .

وهو يناقش باسهاب تطبيق التشريع العملى لسنة ١٧٨٣ .

(٦٣) رائد من رواد علم الفجريات له كتابان شهيران هما لافنجر Lavengro (لندن ١٨٥١)

والشيلم الرومنى Romany Rye (١٨٥٧) (المترجم) .

الترحيل

شاهدنا فيما سلف فيضاً من التشريعات عمت مساحةً واسعة ، تضم ما يزيد على نصف سكان أوروبا ، ومن المهم لنا الآن أن نمعن النظر في هذه التشريعات لتأثيرها في نمط الحياة التي عاشها الفجر ، ولو أنها في حد ذاتها لا تعطي صورة دقيقة لهذا النمط ، حالها هنا حالنا فيما لو كتبنا تاريخ الفجر في إنجلترا من خلال لائحة سجن نيوجيت Newgate (٦٤) ، ويلاحظ أن سائر الأقطار خارج الإمبراطورية العثمانية - مثل البرتغال وإيطاليا وسويسرا وجنوبى البلاد الواطئة والدنمارك والسويد وروسيا - قد سارت على النهج نفسه من نفى للفجر أو إجبارهم على الاستقرار ، وإن كان بدرجات متفاوتة ، ونخص بالذكر منها البرتغال ، باعتبارها أول دولة أوروبية تتخذ سياسة الترحيل إلى مستعمراتها وراء البحار أسلوباً مبتكراً لطردهم (٦٥) ، فقد كانت المستعمرات في حاجة إلى أيدي عاملة (كان معدل الوفيات مرتفعاً) والمستعمرون في حاجة إلى نساء . ويعود تاريخ أقدم ترحيل لجماعة غجرية إلى المستعمرات الإفريقية إلى زمن جون الثالث (٦٦) الذى تبنى فى مرسومه الصادر فى سنة ١٥٣٨ (ص ١٢٥) (٦٧) هذا الحل لمشكلة ما يجب عمله مع الفجر الذين ولدوا فى البرتغال ، ولم يكن من السهل نفيتهم ، وفى سنة ١٥٧٤ يرد ذكر أول غجرى من البرتغال يرسل إلى البرازيل ، عوضاً عن السخرة فى القواديس لعدم انصياعه لأوامر الطرد ، ويعد هذا الغجرى الذى أبعد مع زوجته وولده ، أول غجرى يحمل اسماً برتغالياً هو João de Torres ، ومن سنة ١٦٤٧ صارت هناك شحنات من النساء الغجريات يرسلن إلى المستعمرات الإفريقية (بينما كان الرجال يرسلون إلى القواديس) أما عن الإبعاد الجماعى إلى البرازيل فجرى لأول مرة فى سنة ١٦٨٦ ، فى وقت تدفقت أعداد كبيرة منهم على البرتغال بعدما تقرر طردهم من إسبانيا ، وصدرت التعليمات بإبعاد كل من ولد منهم فى البرتغال ورفض الاستقرار إلى ولاية مارانهايو Maranhão البرازيلية

(٦٤) سجن لندن شهرير يعود إلى القرن الثالث عشر وربما قبله ، وأعاد إنشائه فى سنة ١٧٧٠ - ١٧٨٣ المهندس المعماري الإنجليزي جورج دانس George Dance (ت ١٨٢٥) إلى أن هدم فى سنة ١٩٠٤ . (المترجم) .

(٦٥) Cf. O. Nunes, O Povo Cigano (Oporto, 1981) , PP. 74 - 83 .

(٦٦) (١٥٢١ - ١٥٥٧) (المترجم) .

(٦٧) النصوص الخاصة بهذا المرسوم وما تلاه من إجراءات (حتى سنة ١٨٤٨) توجد فى :

F. A. Coelho, Os Ciganos de Portugal (Lisbon, 1892), PP. 230 - 66 .

عوضاً عن إفريقيا ، وتعرض من تبقى منهم إلى غارة مباغته فى سنة ١٧١٨ تمهيداً لتشتيتهم فى المستعمرات الهندية والإفريقية ، وفى سنة ١٧٦٠ ازدادت أعداد الفجر فى البرازيل إلى درجة أضجرت حاكمها منهم ، ولم يجد الملك جوزيف مندوحة من أن يختصم ببعض تشريعاته .

أضحى الإبعاد إلى المستعمرات ، كوسيلة للتخلص من أشخاص غير مرغوب فيهم دارجاً على نطاق واسع ، ولم يلبث أن تابعت حكومات أخرى هذا المثال البرتغالى ، وإن كان بدرجة أقل ، فمنذ منتصف القرن السابع عشر فصاعداً ، لم تتردد الحكومة الإسبانية فى التخلص من الفجر وغيرهم من المتشردين بإرسالهم إلى الجيش أو الحصون الإسبانية فى شمالى إفريقيا ، وتمتد هذه الحصون من سبته غرباً إلى وهران شرقاً ، لكنها كانت لها تحفظاتها القوية فيما يختص بأمريكا (٦٨) وفى سنة ١٥٧٠ منع فيليب الثانى الفجر من دخول هذه المستعمرات ، وفى سنة ١٥٨١ وفى أعقاب ما وصله من أن بعضهم ارتحلوا سراً إلى هناك ، وصاروا يحتالون على الهنود (وهى واقعة إذا ثبت صحتها ، فهى تعد هينةً قياساً إلى ما قام به الإسبان من استغلالهم) ، فإنه أمر بتنفيذه بأن يجدوا فى البحث عنهم وإعادةتهم إلى إسبانيا ، حيث تسهل مراقبتهم ، أما عن بيرو العليا (بوليفيا الحالية) ، فلم تصل إلى علمه أخبار عن مشاهدة أحد منهم هناك (٦٩). وعندما نظر شارل الثالث ومستشاروه بعين الاعتبار إلى المقترحات الواردة فى تقرير كامپومانيس - باليىنتى فى سنة ١٧٧٢ ، فخشيةً منه على ممتلكاته الأمريكية من أطماع جيرانه ، فقد وجد من الحصافة حفظها من مستعمرين غير أهل بالثقة .

ولا يتضح لدينا ما إذا كانت فرنسا سبق لها أن مارست ترحيلاً منظماً للفجر ، مع أن أعداداً منهم حطت رحلها فى مستعمراتها الأمريكية ، عوضاً عن تسخيرها للعمل فى القواديس (مثلاً جرى مع اثنين وثلاثين منهم فى سنة ١٦٨٦ - ١٦٨٩) أو الإبعاد المباشرة إلى جزائر المارتينيك Martinique أولويزيانا . وفى عهد القنصلية (٧٠)

Cf. A. Gómez Alfaro , " La Polémica sobre la deportación de los Gitanos a (٦٨) las Colonias de America " , Cuadernos Hispanoamericanos (Madrid, 1982) , no. 386, PP. 319 - 21, and " El Expediente general " , PP. 1071 - 84 .

Gipsies in America. 1581 " , JGLS (2), 6 (1912 - 13) , P. 61 . (٦٩)

(٧٠) أى الفترة التى كان فيها نابليون قنصلاً عاماً (١٧٩٩ - ١٨٠٤) (المترجم) .

وضعت خطة لإبعاد عدة مئات ممن تم اصطيادهم في إقليم الباسك إلى لويزيانا ، لكنه لم يلبث أن صرف النظر عن هذه الخطة لتجدد الحرب مع بريطانيا وبيع لويزيانا إلى الولايات المتحدة في سنة ١٨٠٣ (وبدلاً من ذلك قرر بونايرت تشتيتهم في أنحاء فرنسا ، وتشغيلهم في مشروعاته العامة أو في الجيش ، أما عن النساء والأطفال وكبار السن ، فقرر إيداعهم في نزل الفقراء) .

ويعود ترحيل المتشردين في إنجلترا إلى عصر الملكة إليزابيث ، ولو أنه لم يتوافر تماماً إلا في فترة متأخرة ، فينص مرسوم التشرد الصادر في سنة ١٥٩٧ (ص ١٦٢) على أنه من الواجب نفي البطالين والمتشردين الخطرين إلى أعالي البحار ، ويتبين من أمر أصدره مجلس شورى الملك في بداية عهد جيمس الأول (١٦٠٣) سعى هذا المجلس في التحول من مفهوم الابعاد deportation الواسع إلى مفهوم الترحيل trans-portation الضيق ، بتحديد أماكن معينة هي نيوفونلاند وجزر الهند الشرقية والغربية وفرنسا وألمانيا وسويسرا والبلاد الواطئة ، ولا ندري بالضبط ، ماذا كان رد فعل الدول الأوروبية التي ورد ذكرها في هذه القائمة ، ومن الناحية العملية فمعظمهم - إن لم يكن كلهم - تم إرسالهم إلى المستعمرات الأمريكية ، على أن الأمر كان ملتبساً من الناحية القانونية ، لأن معظم الذين ذهبوا كانوا شباناً وفقراءً ، أكثر منهم متشردين . وبسبب ندرة الأيدي العاملة في المستعمرات - قبيل مقدم الشحنات السوداء من إفريقيا^(٧١) - صارت ظروف العمل الإجباري فيها أشد قساوة منها في إنجلترا ، وذلك عند السادة الذين اشتروا خدماتهم كعبيد .

أما في إسكتلندا ، فإن المتشردين صاروا وفقاً لقانون صدر في عهد كرومويل (١٦٥٥) عرضةً للترحيل إلى «جزر الهند الغربية أو أي مكان آخر» ، وكان الدافع لاصدار هذا القانون هو ارتياح جنرالات جيش الاحتلال من «أعداد هائلة من المتشردين والمتسولين والبطالين » يجوسون في أنحاء البلاد ، وبعد عشر سنوات نجد مواطنين بسطاء يقيدون من احتمالات هذا الابعاد ، ففي نوفمبر ١٦٦٥ حصل تاجر من إدنبرة يدعى جورج هتشيسون George Hutcheson على تصريح من مجلس شورى الملك بصيد عدد من المتشردين ، بغية إرسالهم إلى جزر الهند الغربية ، وأعلن

(٧١) وتمتد مائتي سنة من منتصف القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر ، نقل خلالها عدة ملايين من الأفارقة كعبيد إلى المستعمرات الأوربية بالأمريكتين (المترجم) .

صراحةً أنه إذ يفعل ذلك إنما ينطلق « بمبادرة منا وارتقاءً بمستوى مزارعنا في جمايكا وبربادوس إلى ما فيه عزة وطننا ، ومن أجل تخليص مملكتنا من تحمل أعداد جمة من المتسولين البطالين والمصريين والعاهرات المشهورات واللصوص وغيرهم من الفسقة الفجرة المحكوم بنقيهم أو وصمهم لفداحة جرمهم » ، على أنه لم يذكر شيئاً عما سيعود عليه هو أو شركائه من فائدة ، وهناك تصاريح أخرى مشابهة أصدرها مجلس شورى الملك في سنوات تالية^(٧٢) . وفي سنة ١٧١٥ أقامت سلطات جلاسجو بترحيل ثمانية من الغجر ؛ رجلين وست نساء (من عائلات- Lindsay, (Fenwick) Fin, Faa Ross Robertson, nick, Yorstoun, Stirling) إلى مزارع ثرجينيا ، تنفيذاً لحكم أصدرته ضدهم محكمة جيدبره سيركيت « لشهرتهم كفجر ومشعل حرائق » ولو أن اتهامهم بالإحراق العمد كان ضعيفاً جداً ، وقد عوقب واحد منهم كذلك بأن يساق إلى الصليبية Pillory^(٧٣) وتصلم أذناه ، وكان هذا الرجل - وهو باتريك فا - زوجاً لجين جوردون المرأة الرهيبة التي تعد الأصل لشخصية ميج ميريليز^(٧٤).

كذلك تقرر في التشريعات الأولى الصادرة عن برلمانات أيرلندا ، وتختص « بالمتسربين والمتشردين البطالين » أن يبعث بهم إلى البحرية الملكية أو المزارع الأمريكية لمدة تصل إلى سبع سنوات ، وكان كثير من الإيرلانديين قد أرسلوا إلى المزارع الإنجليزية بمقتضى قوانين تشرد سابقة ، على أنه يبعد أن ترسل أيرلندا غجر إلى أمريكا ، لأنهم كانوا مجرد زوار عابرين بها ، وكان الصفايحون من أبنائها هم الطائفة التي درجت على الترحل قبل سنوات طويلة من توافد الغجر إلى الجزر البريطانية .

Cf. F. H. Groome , " Transportation of Gypsies from Scotland to America" , (٧٢) JGLS (1), 2 (1890-1) , PP. 60 - 2 , and E. O. Winstedt , " Early British Gypsies " , JGLS (2) , 7 (1913 - 14) , PP. 5 - 37 , esp. p. 29 .

(٧٣) أو المشهرة من آلات التعذيب وتعرف في مصر بالعروسة (المترجم) .

Cf. G. Douglas , Diversions of a Country Gentleman (London , 1902) , PP. (٧٤) 255 - 67 , and Gordon, Hearts upon the Highway, PP. 64 - 9.



شكل ٢٣ - غجر يحيطون بمنزل في مدينة جيجستي في الأفلاق يستجدون الصدقة ،
لوحة بالألوان المائية للويجي ماير حوالي سنة ١٧٩٤ .

فى الإمبراطورية العثمانية

عندما نكتب عن تاريخ الغجر فى أوربا المسيحية ، إبتداءً من القرن الخامس عشر ، فلا مندوحة لنا من الإشادة بفضل الوثائق المحلية والتشريعات الحكومية والتعليمات الأمنية ، وإن كانت هذه فى حد ذاتها أحادية الجانب ، أما فى الأقطار الأوربية التى كانت خاضعةً لحكم العثمانيين ، فقد كان تاريخ الغجر بها مفعماً بالغموض ، وأيما صار إليه مصيرهم فى مرحلة لاحقة ، فإن تسعة أعشار الغجر الأوربيين كانوا يعيشون تحت السيادة العثمانية ، حين وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى أقصى اتساعها فى القرن السابع عشر ، وحتى عندما بدأ المد التركى فى انحساره واسترداد الهابسبورج المجر وترانسيلفانيا ثم استولوا على بانات Banats (٧٥) تيمشوارا Te mesvár (٧٦) وأجزاء من صربيا ، فقد ظل نصف غجر أوربا يعيشون تحت السيادة العثمانية حتى القرن التاسع عشر ، (وتشير الإحصاءات التركية التى تناهت إلينا إلى قلة أعدادهم ، لكن هذه الإحصاءات كانت تركز على الغجر المستقرين ، كما أنه لا يرد بها ذكر لإناث) .

لا يقف المرء فى هذه الإمبراطورية على تشريعات قمعية مناظرة ، لما كان حادثاً فى سائر أوربا ، فقد درج العثمانيون على احترام الأعراف السائدة فى المجتمعات الخاضعة لهم ونظمها ، فزاولوا حكمها بمشاركة من ممثلى هذه المجتمعات ، وتمتعت بعض أقاليمها بقدر لا بأس به الحكم الذاتى ، وكانت تبعيتها تتمثل فى جزية سنوية ومساعدة عسكرية للحملات التركية ، وبين الدول التابعة تفردت ترانسيلفانيا بأرستقراطية محلية تحكمها ، حفظت لها استقلالها ، أما الإماراتان الدانوبييتان الأفلاق والبغدان ، فقد اختلف وضعهما ، إذ كانتا تزودان الباشوات الأتراك بقوات إضافية لكنها أساسية ، كما كانتا تؤديان أموالاً جسيمةً لخزانة الدولة ، إلا أنه أتيح لكل منها قدر وافر من الحكم الذاتى ، وإن كان أمراؤهما فى غالب الأحوال دميّ فى يدى السلطان ، أو تحت حماية دول مجاورة ، هناك تواصل استرقاق الغجر (قارن ٧٨ - ٨٠)، وصدرت مراسيم جديدة لأمرأء مثل ماتاي بساراب Matei Basarab فى الأفلاق

(٧٥) إقليم تنقاسمه الآن المجر ورومانيا وصربيا (المترجم) .

(٧٦) فى رومانيا الآن ، وقد تواتر ذكرها ، إبان الأحداث التى انتهت إلى سقوط طاغية رومانيا تشاوتشيسكو فى سنة ١٩٨٩ وإعدامه (المترجم) .

وواسيلي الذئب Vasile Lupu في البغدان في منتصف القرن السابع عشر ؛ مفادها الإبقاء على الوضع الراهن أكثر من استبداله ، وظلت الحال كذلك حتى أجريت إصلاحات متواضعة لم تدم طويلاً في أخريات القرن الثامن عشر (مثل حظر بيع الأطفال الغجر منفصلين عن ذويهم) ، والواقع أنه حين نشطت في القرن السادس عشر ظاهرة خطف الغجر الأفلاق وبيعهم في أماكن أخرى ، أصدر الصدر الأعظم فرماناً يأمر فيه بتنفيذه على طول شواطئ الدانوب بوقف هذه الظاهرة^(٧٧).

أما في الأقطار التي خضعت خضوعاً مباشراً للعثمانيين ، فقد انصرف هم هؤلاء إلى جباية ضرائبها والمحافظة على القانون والنظام ، ولم يتدخلوا كثيراً في شئونها مادامت تؤدي لهم أموالها وخدماتها ، ومادام لا يوجد بها ما يهدد السيادة التركية ، ولم تصدر فرمانات هامة بشأن الغجر سوى في مجالات الإدارة والنظام العام والضرائب ، وهكذا وجدنا السلطان سليمان الكبير^(٧٨) يسعى في مرسوم أصدره في سنة ١٥٣٠ إلى تنظيم الدعارة الغجرية في القسطنطينية وأدرنة وصوفيا وبلوفديف Plovdiv^(٧٩) ، كما نجد ولده سليمان الثاني^(٨٠) يصدر في سنة ١٥٧٤^(٨١) أمره إلى الغجر الذين يعملون في مناجم البوسنة ، بأن ينصبوا على كل مجموعة تضم خمسين غجرياً رئيساً منها ، بينما نجد في فرمان آخر صدر في عهد السلطان أحمد الأول^(٨٢) ما يؤكد على التدقيق في جباية الضرائب والمغرم الخاصة بسنة ١٦٠٤ - ١٦٠٥ من الأقباط (قبطيان أي مصريون) في غربي البلقان أي ما يعرف اليوم بالبنانيا وشمالي غرب اليونان ، وتقرر على الغجر القراريين الذين تم تسجيلهم والرحل الذين لم يتم تسجيلهم أن يؤدوا ضريبة رأس ، تبلغ مائة وثمانين أسپر للمسلم ومائتين

(٧٧) M. Gaster, " Rumanian Gypsies in 1560 " , JGLS (3) , 12 (1933) P. 61 .

(٧٨) أو المشرع (١٥٢٠/٩٢٦ - ١٥٦٦/٩٧٤) وهو العاشر من سلاطين آل عثمان وأكبرهم ، بلغت الدولة في عهده أوج قوتها واتساعها (المترجم) .

(٧٩) لسنا على يقين من صحة ما ورد في هذا فرمان لا سيما أن المؤلف لم يحدد مصدره (المترجم) .

(٨٠) (١٥٦٦ / ٩٧٤ - ١٥٨٢ / ١٥٧٤) وهو ابن سليمان الكبير من حظيته الروسية الأصل روكسلانا

(المترجم) .

(٨١) Text in T. P. Vukanovic, ' Le Firman du Sultan Sélim II relatif aux Tsiganes ,

Ouvriers dans les mines de Bosnie (1574)' , Études Tsiganes (1969), no. 3, PP. 8 - 10 .

(٨٢) (١٦٠٢ / ١٠١٢ - ١٦١٧ / ١٠٢٦) وإليه ينسب جامع شهير في حاضرة الدولة إسلامبول

(المترجم) .

وخمسين للمسيحي ، مع غرامة مناسبة لمن يتأخر منهم في أدائها (وأسپر واحد كان يساوي في ذلك الوقت نحواً من نصف بنس) ، وربما يستدل من قراءة هذا الفرمان على أنه كان ما يزال يوجد عدد من المسيحيين بين الرجل ، فضرية مثل هذه كان يلتزم بها في العادة غير المسلمين ، لكن الغجر المسلمين كانوا ملزمين بها ، حيث كان ينظر إليهم على أنهم منشقون شردوا عن الشريعة في بعض أوجهها ، وقد جرى وصف بعض المستقرين كحدادين وفحامين وخفراء ، ويمكن أن نخرج من عدم إشارة الفرمان إلى الإسپنس ispence وهي ضريبة كانت تؤدي على العبيد إلى أن غالبية الغجر كانوا أحراراً ، لديهم في معظم الأحوال ما لدى المواطنين غير الأتراك وعليهم ما عليهم^(٨٣).

في الشطر الأخير من القرن السابع عشر تشددت الدولة في جباية الأموال ، فطبقاً لما يذكره أولياچليبي^(٨٤) Evliya , çelebi^(٨٥) ، فقد وصلت الحال في بعض الأحيان إلى إلزام الأحياء من الغجر بأداء ما على موتاهم من ضرائب ، وتصاعدت الجباية من المسلمين خاصة ، ففي سنة ١٦٨٤ صدر فرمان موجه إلى قضاة سالونيك Thessalanike وبيرهويا Berrhoia وجينتسا Genitsa يحدد ضريبة الرأس وضريبة المال على الغجر بأن تكون ستمائة وخمسين على المسلمين وسبعمائة وعشرين على المسيحيين ، شريطة أن تجبي من كل امريء على حدة « حيث إن الجنس الغجري اعتاد على أن يعيش منعزلاً بأعداد محدودة ، لكنه ينطلق إلى كل مكان » ، ولم يكن لتنفيذ الدولة أن يتدخلوا في شئونهم^(٨٦) ، وتقرر المستوى نفسه من ضرائب في سنة ١٦٩٥ ، لكنه صار بالقروش ، ويقال إنه كان يوجد في ذلك الوقت خمسة وأربعون ألف غجري في كل الإمبراطورية ، عشرة آلاف منهم مسلمون ، وشملت هذه الأرقام كذلك غجر سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى (لم يكن ليعتد أبداً بالإحصاءات

(٧٣) Cf. M. Hasluck, " Firman of A. H. 1013 - 14 (A. D. 1604 - 5) regarding

Gypsies in the Western Balkans " , JGLS (3), 27 (1948), PP. 1 - 12 .

(٨٤) رحالة تركي كبير (ت بعد ١٠٩٠ / ١٦٧٩ بقليل) ودعى كتابه باسم « سياحت نامه » في عشرة

أجزاء (المترجم) .

(٨٥) لم يعر أوليا چليبي الغجر سوى اهتمام يسير ، لكنه جمع مسرداً أساسياً للرومنية ، اعتمد في

جمعه على الجماعة الغجرية الكبيرة المستقرة في كوموتيني Komotini في تراقيا الغربية . أنظر :

V. A. Friedman and R. Dankoff, ' The earliest Known text in Balkan (Rumelian)

Romani , JGLS (5), 1 (1991) , PP. 1 - 20 .

(٨٦) G. C. Soulis, " A note on the taxation of the Balkan Gypsies in the seven-

teenth century " , JGLS (3), 38 (1959), PP. 154 - 6 .

العثمانية) ولدينا في المرحلة ذاتها مصدران معاصران هما سير پول ريكوت Paul Ry- caut وأوليا چلبى ، فهما يأتیان بتقديرين مختلفين هما ١٥٦٣٠ و ١١٢٨٠ لمن كان فى سن الخدمة العسكرية من الذكور الذين ورد ذكرهم فى السجلات الرسمية بالروميللى (الممتلكات التركية فى البلقان)^(٨٧) ولدينا دليل آخر على تصاعد الشعور المعادى للفجر ، فيما يذكره المؤرخ محمد غيراى Ghirai من أن السلطان مصطفى^(٨٨) أمر فى سنة ١٦٩٦ ، وهو بسبيل أهفته لحملة عسكرية إلى المجر ، بالتشديد على الشرطة لصرف الفجر عن حياة العبث التى يعيشونها ، والواقع أن هذا المؤرخ كان ينظر إلى نساءهم (اللاتى كن بعيدات عما يدعو إليه الإسلام من حشمة وأدب) على أنهم بغايا ورجالهم قوادون^(٨٩).

ورغمًا عن هذا كله ظل الفجر عمومًا بمنأى عن المضايقات التى تعرضوا لها فى سائر أوروبا ، وأعان على ذلك ما اتسمت به الإدارة العثمانية من ضعف مزمن ، حمل لهم فى طياته بعضًا من السلوى لهم ، وكانوا هم بدورهم لا يكثرثون بما يجرى حولهم من تطورات ثقافية وسياسية تحت الحكم التركى ، ورغمًا عن محاولات متفرقة للحيلولة دون حياة الترحل التى ألفوها . (مثل تلك التى قام بها مراد الرابع^(٩٠) فى صربيا فى ثلاثينيات القرن السابع عشر)^(٩١) فقد كانت لديهم حريات لا بأس بها ، وباعتبارهم مواطنين فى دولة واحدة كان بمقدورهم أن يذهبوا حيثما شاعوا فى أنحاء الإمبراطورية ، وخلال أربعة قرون من السيادة العثمانية كان هناك العديد من الهجرات الداخلية ، ولم يترتب على الحملات العسكرية كبير معاناة لهم فى طلبهم لرزقهم ، فكان لا يزال هناك تقدير لموسيقييهم ، وعندما أقام باشا بودا Buda^(٩٢) احتفالاً ، بمناسبة مقدم وفد غربى فى مهمة سلام فى سنة ١٥٨٤ ، قام ثلاثة من الفجر الذين يتزيون بزى الأتراك بالعزف على العود ، وقام آخرون بالعزف على الربابة، وأخذوا ينشدون

(٨٧) W. R. Halliday, Folkore Studies (London, 1924) , P. 17 .

(٨٨) الثانى (١١٠٦ / ١٦٩٥ - ١١١٥ / ١٧٠٢) (المترجم) .

(٨٩) J. G. von Hammer - Purgstall , Geschichte des Osmanischen Reiches ' Budapest, 1827 (35) , vol 6, PP. 608 - 9 and 621 .

(٩٠) (١٠٣٢ / ١٦٢٣ - ١٠٤٩ / ١٦٤٠) (المترجم) .

(٩١) F. J. Blunt, the People of Turkey (London, 1878), vol . L. PP. 160 - 1 .

(٩٢) كانت عاصمة الوجود العثمانى فى المجر وتشكل الآن شطر العاصمة المجرية الحالية بودابشت .

(المترجم) .

أغان في مدح السلاطين العثمانيين (انظر شكل ٢٤)^(٩٣) أما عن الغجر الذين مهرّوا في صناعة الأسلحة والذخيرة ، فقد وجدوا رواجاً لهم بين ساداتهم الجدد ، وكان في إمكانهم أن يصاحبوا الجنود في حروبهم لإصلاح أسلحتهم والعزف لهم ، ولم يكن هؤلاء ولا غيرهم من أبناء قومهم نفعاً من استعادة النمساويين للبلاد ، بل إنهم سرعان ما تعرضوا لملاحقتهم .



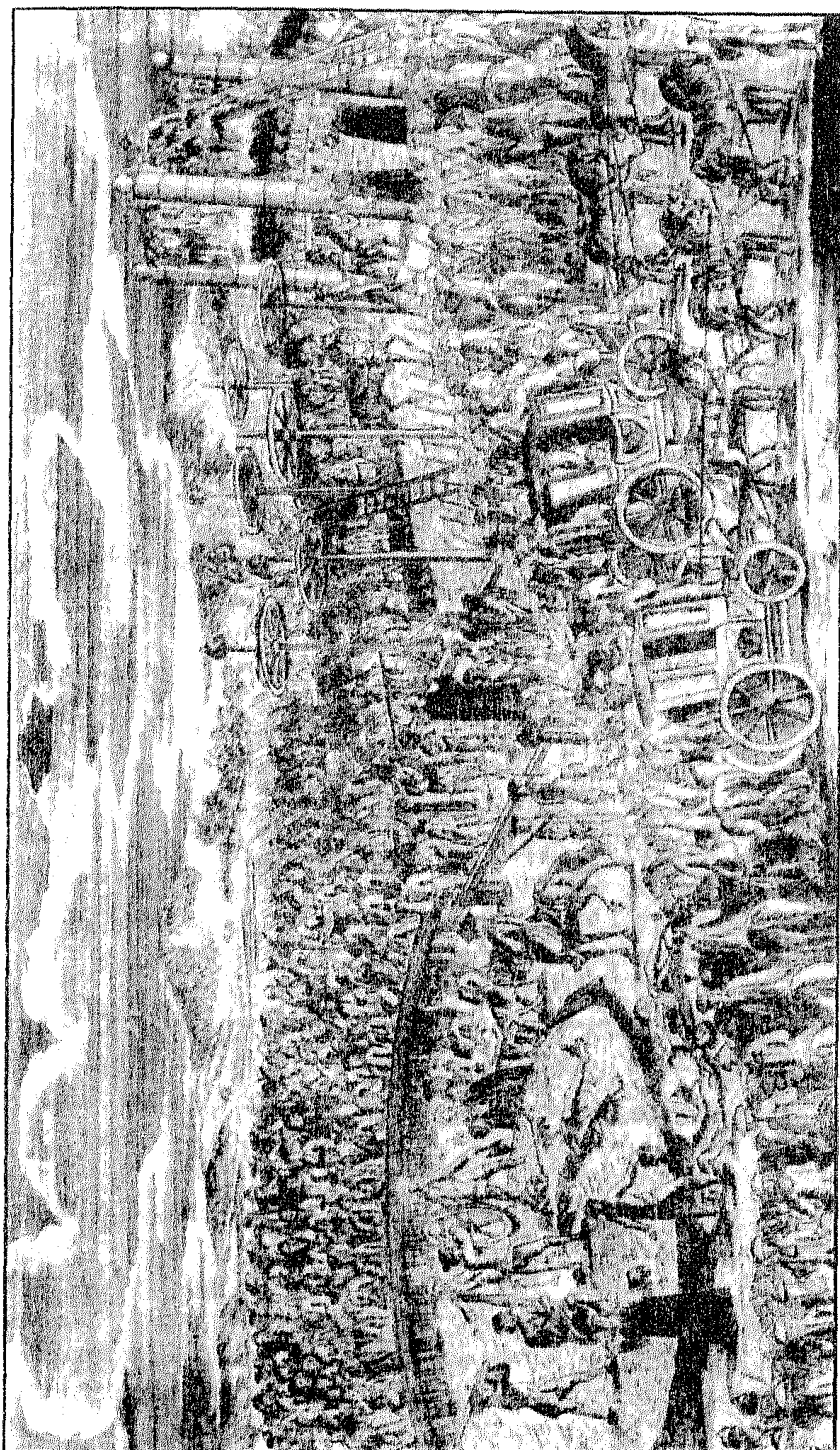
شكل ٢٤ - موكب تركي يتقدمه موسيقيون غجر ، حفر علي الخشب في كتاب ليفنكلاف
«التاريخ الحديث للأمة التركية» ١٥٩٠ .

(٩٣) F. W. Brepohl, " Die Zigeuner als Musiker in den türkischen Eroberungskriegen des XVI Jahrhunderts " JGLS (2), 4 (1910 - (1), PP. 241 - 4 .

صراع من أجل البقاء

رغمًا عن عدم كفاية ما اتخذ من إجراءات قمعية ضد الغجر ، إلا إنها كانت بالغة الأثر في حياتهم ، ففي صراعهم من أجل البقاء كان لا بد لهم من التكيف معها ، وكان عليهم أن يتلمسوا مخرج لهم في نظام يسعى إلى أن يجعل حياتهم مستحيلة ، بأن يحرمهم الطعام والمأوى ، ووجد بعضهم ملاذ في الأراضي الخراب النائية وفي الغابات ، بينما أفاد بعضهم الآخر من التفاوت في الممارسات القضائية والتنفيذية ، بأن يتخذ مقامه في مناطق التخوم ، وبذا وجدنا جماعات كبيرة من الغجر تقيم لدى الحدود بين فرنسا وإسبانيا ، وكذلك بين الدول الألمانية ، ثم بين اللورين والإمبراطورية ، ولدى الحدود الإسكتلندية ، وفي شرقي الجمهورية الهولندية . ودرج كثير من الغجر على أن ينقسموا إلى جماعات صغيرة ، عندما تكون هناك ضرورة لصرف الانتباه عنهم ، ودرج غيرهم على أن تضمهم جماعات كبيرة تكفل لهم الحماية ، وربما شكلوا عصابات شاركهم فيها أغيار ، وأحيانًا كانوا يلجئون إلى العنف . وقد حاز عدد من قطاع الطرق الغجر على شهرة واسعة في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، فتعرضت كثير من أصقاعها للاجتياح من قبل عصابات من أخلاط شتى ، احتوى بعضها على عنصر غجري قوى ، يتراوح عدده بين خمسين إلى المائة مسلح بسور ، كانوا يسلبون وينهبون ، من أجل أن يقيموا أودهم ، ويشتبكون مع رجال الدرك الذين يهرعون للقبض عليهم ، وواحدة من أعلى هذه العصابات ذكرًا في هيسي - دار مشقات كان يتزعمها يوهانس لافرتون Johannes la Fortun الذي اشتهر بهمبرلا Hemperla إلى أن تم اصطياده في سنة ١٧٢٦ ، واعتقل مع غيره من الغجر في جيسن Giessen ، وبعد أن عذب وصحبه تعذيباً شديداً بمط البدن ومسمرة الإبهام وما إلى ذلك ، انتزعت منهم الاعترافات الضرورية ، وحكم عليهم جميعاً بالموت ، فكسرت عظام همبرلا وثلاثة من رفاقه بدولاب التعذيب ، ثم دقت أعناقهم وشنق تسعة ، وقطعت رؤوس ثلاثة عشر (غالبهم من النساء) . وقد صور فنان معاصر منظر الإعدام الجماعي ، وحشود النظارة مأخوذة به (انظر شكل ٢٥)^(٩٤) . وربما كان أشهر قاطع طريق غجري عرفته

(٩٤) لدينا روايات متعددة عن هذه القضية مثل : Simoson , History of the Gypsies , PP. 79 - 86 ; E. M. Hall, " Gentile Cruelty to Gypsies :, JGLS (3), 11 (1932) , PP. 49 - 56 وكلها تعتمد على J. B. Weissenbruch , Ausführliche Relation von der famosen : Zigeuner - Diebs - Mord - und Räuber - Bande, Welche zu Giessen Justificirt Worden (Frankfurt und Leipzig, 1727) .



شكل ٢٥ - إعدام الفجر في جيسين (هيسي) ١٧٢٦ ،

عن كتاب Ausführliche Relation J. B. Wissenbruch سنة ١٧٢٧ .

ألمانيا هو ياكوب رينهاردت Jakob Reinhardt المعروف بهانيكل Hannikel ، وهو حفيد لواحد ممن تم إعدامهم في جيسن^(٩٥)، وقد شئق هانيكل مع ثلاثة من صحبه في سنة ١٧٨٧ ، ولا يوجد ما يوحى على الرومانتيكية في شخصيته ولا في الجرائم التي تورط فيها ، وبذا يصعب علينا أن نجارى ما يذهب إليه بعضهم من أن سيرته كانت مصدر إلهام لشيلر Schiller^(٩٦) في تأليفه لباكورة أعماله الدرامية « قطاع الطرق » Die Räuber (١٧٨١)^(٩٧)، بزعم ما بها من نبذ روسوي^(٩٨) للفساد والمجتمع الفاسد . وكان هانيكل قد امتد بنشاطه إلى الفوج Vosges واللورين والغابة السوداء وشفابيا Swabia وسويسرا ، لكن معظم هذا النشاط تركز في الأراضي الألمانية المصاوبة لشمالي شرق اللورين ، لكونها مناطق جبلية تغطيها الأحراج ؛ لكن الأهم من ذلك أن مركزه هيسى - دار مشتات لودفيج التاسع كان قد اختار بيرمازينز Pirmasens التي تقع في قلبها كمستقر له ، وكان لودفيج مولعاً بالعسكرية ، فاخص بيرمازينز بجيش صغير ، جند فيه عدداً كبيراً من العجر ، وسمح لذويهم أن يعيشوا على مقربة منهم ، وكان والد هانيكل واحداً من قارعى طبوله ، وقد تفاضى المركيز عن التشريعات الإمبراطورية وتشريعات الدوائر، وعلى مدى نصف قرن تقريباً تنامى الوجود العجري حول بيرمازينز ، لكن العجر بدأوا في هجرها في سنة ١٧٩٠ ، حين نزع لودفيج العاشر إلى الالتزام بما صدر من تشريعات ، حتى لو استعان بجيشه الصغير في تنفيذها ، وأضحت الواحة الخالية من الاضطهاد أثراً بعد عين ، وسرعان ما تبدد من بها من عجر .

وكانت لدى هردر Herder^(٩٩) صاحب نظرية العاصفة والدفع Sturm und Drang في الأدب الألماني والذي كان كذلك المعلم المخلص لجوته Goethe^(١٠٠)، كانت لديه بعض

(٩٥) Cf. E. O. Winstedt, " Hannikel " , JGLS (3) , 16 (1937) , PP. 154 - 73 , and

H. Arnold , " Die Räuber bande des Hannikels" , Pfälzer Heimat, 8 (1957) , PP. 101 - 3 .

(٩٦) فريدريش فون شيلر (ت ١٨٠٥) الشاعر الألماني الكبير رفيق عمر جوته Goethe (المترجم) .

(٩٧) الصحيح ١٧٨٢ (المترجم) .

(٩٨) نسبة إلى الفيلسوف الكبير جان جاك روسو (ت ١٧٧٨) الذي كان يدعو إلى العودة للطبيعة

(المترجم) .

(٩٩) يوهان جوتفريد (ت ١٨٠٢) كاتب ألماني وجامع للأغاني الشعبية وله تأثير واضح في الحركة

الرومانسية (المترجم) .

(١٠٠) يوهان فولفجانج (ت ١٨٣٢) كبير الشعراء الألمان وصاحب فاوست وآلام فرتر (المترجم) .

المعرفة ببييرمازينز ، عبر عنها في «أفكار حول فلسفة تاريخ البشر» - Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit (١٧٨٤ - ١٧٩١) فيقول : « هذه الطائفة الهندية الوضيعة تصلح فقط لشيء واحد هو التدريب العسكرى ، فهو وحده الكفيل بضبطهم جميعاً وبأقصى سرعة » ، وقد ذهب فريدريك وليم الثانى (١٠١) ملك پروسيا المذهب نفسه ؛ فأمر سنة ١٧٩٠ بتجنيد الغجر ، والحق أن الجيش ظل ولدى طويل فى أنحاء عدة من أوربا ملاذاً للغجر ، بحثاً عن التسامح أو فتحاً لأغلاق السجون ، فربما يعاملون على نحو أفضل ، وقد قبل بعضهم أو أرغموا على أن يجندوا كمحاربين أو عازفين ، وأحياناً ما كانت تلتحق جماعات بأسرها بالجيش المتحاربة تعمل لحسابها أو كقوات نظامية ، وهو ما نلمسه فى الحروب الدينية التى نشبت فى فرنسا فى أواخر القرن السادس عشر ، أو فى حرب الثلاثين سنة ، وقد شاهد صاحب كتاب « الزئبق الفرنسى » Mercure François بعضاً من هؤلاء فى الحروب الدينية ، وأثنى على مهاراتهم العسكرية، رغمًا عن عدم رضاه عن أسلوبهم فى الحياة ، فيقول: «هم يعيشون كالعرب ، يصطحبون دوابهم معهم» (١٠٢). وكانت شهرتهم هذه تذوى فى أوقات السلم ، فكانوا - بخلاف ما كان يأمل هردير - أبعد عن الانضباط ، فطفقوا بين حين وآخر ، يتنقلون بخدماتهم فى معظم أقطار أوربا ، وغالباً ما كانت تلحق بهم زوجاتهم وذووهم ، وكان من النادر فى واقع الأمر ولدى طويل أن نجد فى السويد غجراً واحداً لم يخدم كجندى .

تعلم الغجر فى فترة باكرة كيف يلتفون حول مشكلة الوثائق المدنية ، فكانوا مهرةً فى استحضار جوازات مرور ، وأضحى بعضهم فيما بعد خبراءً فى الحصول على جوازات سفر مزيفة ، تفيدهم فى توقي قوانين التشرد التى لا تسمح بحرية الحركة إلا لمن لديه تصريح بذلك ، وتطلب الأمر فى إنجلترا جوازات سفر لمن يرتحلون لمسافات طويلة ، وفى حال ما إذا منحوا وثائق مثل هذه تصير لهم حرية المرور دون مضايقات ، ويتهيا لهم المقام والراحة على طول الطريق ، ومع ذلك كانت الجوازات المزورة رخيصةً ومتاحة لمن شاء ، وبلغت من الذبوع لدرجة أنه لم تعد ثم جدوى لقواعد سنتها

(١٠١) (١٧٨٦ - ١٧٩٧) (المترجم) .

(١٠٢) La Continuation du Mercure François (1610 - 12) , fol . 317 .

وواضح تحامل الكاتب ، فلم يكن من عادة العرب بعد أن استقرت دولتهم أن يزاووا مثل هذه العادة وربما كان يقصد البدو منهم (المترجم) .

الدولة^(١٠٣)، وربما كان المزور الوغد قساً أو كاتباً عمومياً أو معلماً أو حتى طالباً يتلقى العلم في مدرسة ، وكان الثمانية من الغجر الذين شنقوا في أياالسبري Ayalesbury في سنة ١٥٧٧ (ص ١٥٨) يمارسون الترحال بفضل تصاريح قام بتزويرها معلم في شيشاير Cheshire^(١٠٤).

رغمًا عن ذلك فقد خضعت تحركات الغجر لضوابط شديدة ، وقصر كثيرون منهم نشاطهم على إقليم بعينه ، ففي فرنسا خلال الفترة ١٦٠٧ - ١٦٣٧ اختلف كابتن ديفيد دي لاجريف David de la Grave نيفاً وعشرين مرة على اثني عشر مكاناً في پروقانس السفلى ، دون أي إقليم آخر ، وحدث الأمر نفسه بالنسبة لكابتن بييردي لاجريف (غالباً ما صار الغجر الآن يتخذون في فرنسا ألقاباً عائلية فرنسية ، ويفضل أن تكون ذات نكهة أرستقراطية) ، ومن ناحية أخرى فقد غامر كابتن يدعى جان دي لاجريف بالتوجه شمالاً إلى دوفينييه Dauphiné فضلاً عن پروقانس ، ونجد غجر آخرين باللقب نفسه ، وربما كانوا من العائلة نفسها في أنحاء متفرقة من فرنسا^(١٠٥)، ولا تتوافر لدينا أخبار عن أعداد الغجر التي قدر لها أن تستقر ، وكم منهم تم ذوبانهم في غيرهم من الناس ، ومع ذلك فيتضح لدينا أنهم استقروا بأعداد كبيرة في بعض البلدان ، ويبدو أن حجمهم كان في ازدياد ، وإن لم تتوافر لدينا أرقام ثابتة إلا في المجر وإسبانيا ، ويستدل من التعداد الذي أجري في سنتي ١٧٨٠ - ١٧٨٣ في عهد الإمبراطور يوزيف الثاني على ضخامة أعداد المستقرين منهم في المجر (كانت تضم كذلك كرواتيا وسلوفينيا ، بينما ظلت ترانسيلفانيا خارجها) ، فقد تراوحت هذه الأعداد بين ٣٠٢٤١ إلى ٤٣٦٠٩ ، مع ملاحظة أن النساء المتزوجات لم يدرجن في هذا التعداد ، وكانت وسائل رزقهم المسجلة هي الحداة وأعمال يدوية أخرى تليها الموسيقى^(١٠٦)، وتحددت أعدادهم في إسبانيا في سنة ١٧٨٥ باثني عشر ألفاً ، أقام أكثر من ثلثهم في الأندلس أفقر أقاليمها ، فكانوا في إشبيلية مثلاً ٦٠٠ وشريش

(١٠٣) Cf. Beier, Masterless Men, PP. 142 - 4 .

(١٠٤) Cf. F. G. Blair, " Forged passports of British Gypsies in the sixteenth century ". JGLS (3) , 29 (1950) , PP. 131- 7 .

(١٠٥) Cf. Vaux de Foletier, Les Tsiganes dans l'ancienne France , PP. 69 - 70 .

(١٠٦) Cf. J. H. Schwicker, Die Zigeuner in Ungarn und Siebenbürgen Vienna , (1883) , PP. 62 - 70 .

٣٨٦ وقادس ٣٣٢ ومالقة ٣٢١ وغرناطة ٢٥٥ (١٠٧) ، وذلك فى وقت كان جملة سكان إسبانيا نحو عشرة ملايين ، أى ربع ما هى عليه الآن . ويمكننا كذلك أن نخرج من التعدادات التى أمر بها شارل الثالث ، قبل سنوات طويلة من تشريعه العمل الصادر فى سنة ١٧٨٣ بأن كثيراً من الفجر استقروا نتيجةً لتشريعات باكرة ، وأضحى ما يزيد على ٨٨٪ من فجر إسبانيا - فيما عدا قطلونيا - مستقرين بالفعل ، أما بالنسبة لقطلونيا ، فقد كان التقدم أبطأ ، حيث حافظ هذا الإقليم على استقلاله الذاتى حتى سنة ١٧١٦ ، وحينها اكتفى بسياسة الطرد .

لم يكن الاستقرار القسرى يعنى بالضرورة الاندماج ، وهو ما نستدل عليه مما جرى فى إسبانيا ، ولكن فى كل أنحاء أوروبا ، فإنه حتى الفجر الذين وصلوا ترحالهم ، تعرضوا لتأثيرات شتى فى الأقطار التى عاشوا فيها ، جعلتهم يكتسبون بعض خصائصها القومية ، وقد بدأت هذه العملية فى اسكتلندا فى فترة باكرة ، ولدى نهاية القرن الثامن عشر ، كان كثير من الفجر قد استقروا إلى حد أنهم صاروا يختارون بلدةً معينةً كمركز لهم ، وغالباً ما كانوا ينشئون صلات طيبة بالسكان المحليين ، ولم يعد من غير المألوف أن يلتحق أطفالهم بالمدارس ، وسرعان ما ارتفع إيقاع اختلاطهم بغيرهم ، وتفككت جماعاتهم على نحو أشد مما جرى لفجر فى أقطار أخرى ، وربما كان مرسوم عام ١٦٠٩ هو الذى دفع الفجر لأن يتخذوا أسماءً وألقاباً كانت دارجةً إذ ذاك فى اسكتلندا ، وأصبحوا يفضلون الألقاب التى تختص بها العائلات الكبيرة ، رغمًا عن وجود لقين غجريين هامين هما فافا Faa وبيلى Baillie يعودان إلى مرحلة أقدم ، وصارت لبعضهم مكانة مرموقة فى مجتمعاتهم وتحول أحدهم وهو بيلى مارشال Billy Marshall زعيم فجر جالواى Galloway إلى أسطورة (١٠٨) ويقال إنه ولد فى سنة ١٦٧١ ، مما يعنى أنه عاش مائةً وعشرين عاماً ، حتى مات فى سنة ١٧٩٢ ، وقد تزوج سبع عشرة مرة ، وخلف عدداً هائلاً من الأبناء والأحفاد ، وخلال حياته الطويلة اشتغل جندياً فى جيش الملك وليام (١٠٩) إبان معركة

(107) CF. A. Gómez Alfaro, "Anotaciones a los censos gitanos en Andalucía", Actas del I Congreso de Historia de Andalucía (Córdoba, 1978), vol 1, PP. 239 - 56 .

(١٠٨) راجع السجل الكامل لمآثره فى :

A. M'Cormick, The Tinkler Gypsies (Dumfries , 1907) , esp . chs 1,2 and 12 .

(١٠٩) وليام الثالث أورانج وهو نبيل هولندى ، صار ملكاً لإنجلترا بعد زواجه بالملكة ماري الثانية

(١٦٨٩ - ١٦٩٤) ، ثم حكم بمفرده حتى سنة ١٧٠٢ (المترجم) .

بوين Boyne (١١٠)، كما خدم في جيوش أوربية أخرى، ولو أنه كان يفارقها عندما يحلو له ، ونجده في سنة ١٧٢٣ يتزعم انتفاضةً ضد كبار الملاك الذين قاموا بطرد الفلاحين المستأجرين لأراضيهم ، كما قاموا بتسييح مزارعهم ، لمنعهم من رعى مواشيهم ، وفي نهاية العام لم يعد يوجد في جالواي سوى القليل من هذه السياجات .

كان من الممكن للهجة العداء الرسمية التي اتسمت بها النصوص التشريعية أن تخفى إمكانية ، أن يتعايش الغجر مع غيرهم ويظفروا بقدر من التسامح مع السكان المحليين ، وهو ما تشهد عليه هجمة عام ١٧٤٩ في إسبانيا، لكنه كان من المستغرب ما جرى من صلات طيبة بين الغجر وسكان بياريوخودي فوينتس Villarejo de Fuentes وهي مدينة صغيرة تقع على مبعدة ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مدريد ، ففي حفل زفاف أقيم هناك في نوفمبر ١٧٨١ ، وصلت الحال إلى أن القس وكبار موظفي المدينة لم يترددوا في حضور هذا الحفل الصاخب ، وبعد امتطائهم صهوات الجياد إلى الكنيسة ، قامت النسوة الغجريات ، وهن في أتم زينتهن بالرقص أمام القس والجمهور الذي احتشد داخل الكنيسة ، وصرن يلقين إليهم بالحلوى ، بينما الجيتار يصدح بأنغامه ، ووفقاً لتقرير ينضح بالمرارة كتبه أحد شهود هذا الحفل ، وقف على كل ما حدث (١١١) ، فقد كان برفقة العروس إلى داخل الكنيسة أحد كبار الموظفين ، وهو شقيق للقس ، ولم يكن ثم سوى القليل من الخشوع خلال القداس بينما كانت حشود الغجر تتصايح مهاللةً خارج الكنيسة ، وقد أكد التحقيق الرسمي الذي أجرى في وقت لاحق صحة ما ورد في هذا التقرير، وتعرض القس لتأنيب شديد من أسقفه .

بصيص من الضوء

اتسم موقف الكنيسة - أرثوذكسية وكاثوليكية وپروتستانتية - حيال الغجر بالتشدد ، بحيث مالت إلى أن تعتبرهم قوماً لا دين لهم ؛ ولا نجد من الدولة - حتى القرن التاسع عشر- ما يدل على اهتمامها بحاجاتهم الروحية ، وفي إيطاليا تعاملت المجامع الكنسية والأسقفية معهم بقدر من الريبة والعداء ، يضارع في لهجته ما كانت عليه قوانين الدول

(١١٠) وهي المعركة التي أحرز فيها وليم أورانج انتصاره على سلفه جيمس الثاني في يوليو ١٦٩٠ وتقع في إيرلندا (المترجم) .

Sanchez Ortega, Documentación, PP. 232 - 4 .

(١١١)

الإيطالية (بما فيها الدويلات البابوية) ، ونادراً ما كانت تسمح لهم بالولوج إلى القربان المقدس ، والأمر نفسه نجده في أماكن أخرى ، فيما عدا ما جرى في سياق الإجراءات التي اتخذت للقضاء على نمط الحياة الفجرية ، وتتمثل الجهود التي بذلتها الدولة لإلزام الفجر بتعاليم الكنيسة في مشروعات ملوك ، مثل الإمبراطور يوزيف الثاني وبعض الدول الألمانية ، كالسعى لانتزاع الأطفال الفجر من ذويهم وتنصيرهم ثم تنشئتهم لدى عائلات مسيحية طيبة السمعة ، لكن الأعمال التبشيرية كانت نادرة ولم تكن سوى محاولات قليلة لجعل الفجر جزءاً من الكنيسة ، وكانت هذه المحاولات حقيقية في أحيان بعينها ، وإذا كانت الكنائس في إقليم الباسك بفرنسا غالباً ما كانت تحول دون دخول الـ Cascarots - وهو الاسم الذي عرف به الفجر هناك - فإنها كانت تعزلهم في حظائر قريبة ، يتابعون منها القداس ، ولم يكن هذا ليعنى التغاضي عن زلاتهم ففي سنة ١٦٣٥ أصدر أساقفة البرتغال قراراً بحرمان الفجر الذين لم يذهبوا إلى الاعتراف خلال الصوم الكبير ، بينما كان اللاهوتيون الإسبان غاية في الفظاظة معهم ، ومن غريب أن محاكم التفتيش تعاملت مع الفجر بقدر من الاعتدال النسبي ، ولا شك أن السبب في ذلك يكمن في كون الحالات التي جرى عرضها على المكتب المقدس - وهي حالات متباعدة - كان ما بها من هرطقة وشعوذة أقل مما بها من احتيال واستغلال لسذاجة العامة ، وكانت في غالبها ترتبط بحديث معسول عن كنوز دفينة أو أسرار ، يتم الكشف عنها بالكهانة ، أو علاج بالسحر أو التعاويذ أو ما إليه ، وكانت العقوبة المعتادة هي الجلد الشديد^(١١٢). ومما يجدر ذكره أن الفجر الذين لفتوا أنظار المحققين لم يكونوا جهلة بشئون دينهم وكانوا في معظمهم قد تم تعميدهم ، وتثبت من مسيحيتهم وأنهم تزوجوا في الكنيسة ، وبالمثل فعندما بذلت محاولة في اللورين في سنة ١٧٨٨ للتحقق من ممارسات الفجر الدينية ، تبين أن ليس لهم دين خاص بهم ، وأنهم يسعون إلى أسرار الكاثوليكية ، من عماد وزواج ومسحة مقدسة^(١١٣). وعندما لا يكون في إمكانهم أن يقفوا على قسيس يقوم بإجراء الزواج ، فإن رؤسائهم كانوا يضطلعون بهذه المهمة^(١١٤).

(١١٢) Cf. Leblon, Gitans d'Espagne , PP. 163 - 228 .

(١١٣) Vaux de Foletier , Les Tsiganes dans l'ancienne France , PP. 213 - 14 .
والمسحة المقدسة هي مسحة بالزيت يقوم بها الكاهن لدى موت أحدهم (المترجم) .

(١١٤) G. Voetius, Selectarum disputationum theologiarum (Utrecht, 1655), vol. 2, PP. 652 - 9 .

ولم تكن الكنائس البروتستانتية بوجه عام أكثر تعاطفاً تجاه الغجر ، وقد بدت متناقضة في موقفها من فهي تبقّهم بعيدين على نحو ما عنها ، ثم بعد ذلك تتهمهم بأن لا دين لهم ، وقد حذر مارتن لوثر في مقدمته لطبعة عام ١٥٢٨ من الكتاب المقدس Liber Vagatorum من الأعياب bueberey متشردين كهؤلاء، وأبدى استحسانه لقمعهم . أما اللاهوتي الكفيني الهولندي فوئتيوس Voetius^(١١٥) فقد سعى جاهداً للحيلولة من تعميم أطفالهم^(١١٦) (وهي مسألة كانت محل جدال كبير في الجامع الأسقفية بالأراضي الواطنة في أيامه) ويرر موقفه بأن الأبوين ليسا بقادرين على أن يكفلا لأبنائهما تنشئة مسيحية سليمة ، وقد تم حسم هذه القضية في السويد قبل ما يقارب المائة عام، حين حظرت أسقفية استوكهولم تعميم الغجر ودفنهم (ص ١٤٦) ومع ذلك فقد شاء بعض القساوسة ألا ينصاعوا لهذا الحظر ، مما جعل رئيس الأساقفة في سنة ١٥٧٣ يذكرهم بأن « لا تطرحوا درركم قدام الخنازير »^(١١٧) كما أكد المجمع الكنسي المنعقد في لينكيبينج Linköping بعد عشرين سنة على حظر أية صلات بالتتار ، وأوجب توجيه اللوم لأي قس يسمح لهم بتناول العشاء الرباني في يوم الفصح^(١١٨)، ولم يكن ذلك قبل سنة ١٦٨٦ ، حين أعطيت تعليمات للقساوسة بتعميد أطفال الغجر ، إذا رغب أبائهم في ذلك .

كان إيقاع التقدم نحو معرفة أوسع بالغجر أقل تباطؤاً في المجالات العلمانية، فتتوافر دلائل على تقدم متواضع على جبهة علم اللغة ، جرى في الشطر الأخير من القرن السادس عشر ، أولها حين عني قاض هولندي يدعى يوهان فان إقسوم Johan van Ewsum في ستينيات القرن السادس عشر بجمع عدد من المفردات والتعبيرات الرومنية^(١١٩)، ومع أنه لم يقدر لها أن تنشر قبل سنة ١٩٠٠ ، إلا أنه صار من الممكن

(١١٥) (ت ١٦٧٦) وهو أيضاً عالم في الساميات بجامعة أوترخت (المترجم) .

(١١٦) G. Voetius, Selectarum disputationum theologicarum (Utrecht, 1655). vol.2 , PP. 652 - 9 .

(١١٧) ورد على لسان المسيح عليه السلام في إنجيل متى إصحاح ٧ آية ١٦ « ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير ، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » . (المترجم) .

(١١٨) A. Etzler, Zigenarna och deras avkomlingar i Severige (Upsala , 1944) , PP. 58 - 6

(١١٩) A. Kluyver , " Un glossaire tsigan du seizième Siècle " , JGLS (2) , 4 (1910) PP. 131 - 42 . - 11)

إذ ذاك تبين ما ترتب على الانقسام اللهجي في الرومنية من استعارات من الألمانية ووجود السمات الصوتية الأساسية التي تميز اللهجات الألمانية للغة المحكية بين الزنتي Sinti . والأهم ما اضطلع به في سنة ١٥٩٧ هولندي آخر هو بوناڤنتورا فولكانيوس Bonaventura Vulcanius فقد نشر إحدى وسبعين كلمة رومنية مع مرادفاتها اللاتينية وكان قد قام بجمعها يوزيف سكاليجر Joseph Scaliger (١٢٠) الأستاذ الزميل في جامعة لايدن ، والذي عرف بأنه أعلم أهل عصره (١٢١)، وتعد هذه المجموعة - ويحتمل أنها جمعت في جنوبي فرنسا - هي ثانی مجموعة جرى طبعها ، وكما هي الحال مع سلفه الإنجليزي أندرو بورد (ص ٢٥) ، فيظهر أن سكاليجر قد أنجز عمله هذا في إحدى الحانات ، واختار من التعبيرات ما يرتبط منها بالشراب ، وأياً كان تأثره بجو مثل هذا ، فقد اختلط عليه الأمر عند تسجيله المقابل الروماني لتعبير « أنت تشرب » ، فقد كان عليه أن يتحدث بالفرنسية ، ويسأل عن المقابل الفجري لـ tu bois ، لكنها سمعت على نحو خاطيء du bois ، وهو ما أداه إلى أن يدونها Kascht ، وتعني بالرومنية « خشباً » . ويمكننا أن نلمس في عينته تأثير لغات أخرى ألمانية وسلافية في المفردات وإسبانية في الصوتيات . وتعد الفقرات التي نشرها فولكانيوس رائدة في رصد الاختلاف بين لغة يختص بها الفجر ولغة الـ Errones (أي الرجال) الذين يقال إنهم من أصول محلية ويتكلمون برطانة مصطنعة ، على إن فولكانيوس كان يعتبر لغة الفجر لغة نوبية (قبطية) حيث إنه تابع كورنيليوس أجريپا Cornelius Agrippa (١٥٢٧)(١٢٢) في مطابقته بين مصر الصغرى والنوبة ، وهو ادعاء ربما كان مقبولاً ظاهرياً ، بسبب وجود كنائس قبطية وإثيوبية ، بيد أن هذا الخطأ سوف يفضي إلى مزيد من الأخطاء ، وعلى مدى المائة والخمسين سنة التالية تظهر قوائم أخرى قليلة ، لكنها ليست بذات أهمية كبيرة .

وبالمثل فعندما بدئ بشر الأطروحات العلمية الأولى عن الفجر ، فإنها وقعت تحت تأثير الكتابات السابقة ، وشاركتها في اجحافها بالفجر وتحاملها عليهم . ولدينا في هذا الشأن ثلاث أطروحات هامة ، نشأت كل واحدة منها نشأة مستقلة ، رغمًا عن ظهورها جميعها في فترات متقاربة ، وقد قام عليها ثلاثة باحثين بروتستانت ، بعد

(١٢٠) (ت ١٦٠٩) عالم إيطالي تخصص في التراث الكلاسيكي (المترجم) .

(١٢١) De literis et lingua Getarum sive Gothorum (Leiden, 1597), PP. 100 - 9.

(١٢٢) (ت . ١٥٣٥) عالم ألماني وطبيب دارس للسحر والتنجيم (المترجم) .

سنوات قليلة من انتهاء حرب الثلاثين عاما ، فى وقت صار السلام والنظام لهما الاعتبار الأسمى ، وجميعهم دعموا التبرير الفكرى للقمع، والاختلاف الوحيد بينهم كان فى التأكيد عليه .

الأطروحة الأولى ألقاها ياكوب توماسيوس Jakob Thomasius فى جامعة لايبتيغ فى سنة ١٦٥٢ (١٢٣) إبان كان أستاذاً للفلسفة الخلقية بها ، وكان قد مضى حينها ما يزيد على السبعين سنة ، منذ توقف المجتمع عن الاعتراف بالغجر كجماعة مهاجرة ، ويوافق توماسيوس على أنه فى زمن قديم أتى من الشرق حجاج ينتمون إلى مصر ، وفى الوقت نفسه لم يعترض على نظرية فولكانيوس عن لغة ما تزال مستخدمة ، رغمًا عما فى ذلك من تناقض ، فهو يحتج - مثلما فعل الإخباريون السويسريون وغيرهم - بأن معظم هؤلاء الحجاج يجب أن يكونوا قد عادوا أدراجهم ، وأن قلة ضئيلة منهم ذابت فى جماعات الدهماء الذين يدعون أنهم مصريون ، أملاً فى أن يفيدوا بوضعهم كحجاج ، ويذهب توما سيوس إلى أن هؤلاء القوم لديهم قدرة عجيبة على إيقاع الأذى بغيرهم ، وأن الرد الوحيد عليهم ، هو أن يبعث بهم إلى نهاية العالم . وكان موقف فوئيتيوس عالم اللاهوت الهولندى الذى لم يوافق على تعميم أطفال الغجر مماثلاً ، والجانب الوحيد من صورتهم المألوفة الذى اعترض عليه هو الإدعاء الذى تكرر كثيراً بأنهم جواسيس يعملون فى خدمة الأتراك ، وثالث الثلاثة هو الألمانى أهاسويروس فريتش Ahasuerus Fritsch (١٢٤)، وهو فقيه قانونى كان يرى أن جميع النظريات عن أصل غريب للغجر يصعب تصديقها ، وأنه على ثقة من أن غجر عصره ، لا يزيدون عن كونهم زمرة من اللصوص ، تضم أخلاطاً من دهماء ، ينتمون إلى أقطار مختلفة ، وقد أخذ بملاحظة أفينتينوس من أنه سمعهم يتحدثون باللغة الفنيدية (ص ١٠٨) لكن جعلها مساويةً للروتقيلش ، مثلما فعل مينستر قبله بمائة سنة (ص ٨٨) ، وانطلاقاً من خلفيته القانونية والسياسية ، فقد أسهب فى حديثه عن .. لماذا لا يحب التسامح مع الغجر ؟ وعن ضرورة اللجوء إلى القانون لقمعهم .

Dissertatio philosophica de Cingaribus (Leipzig, 1671) ; German translation (١٢٣) 1702 .

Diatriba historica - Politica de Zygenorum origine , vita ac moribus (Jena, (١٢٤) 1660) ; German translation 1662 .

هؤلاء الرجال لهم مكانتهم ، وما كتبوه له وزنه ، وكان قميئاً أن تختلف الحال في القرن الثامن عشر ، حين بدأت تظهر موسوعات في طليعتها موسوعة إفرام تشامبرز Ephraim Chambers (١٧٢٨) ، والمعروف أن من الأهداف الهامة للموسوعات إتاحة أحدث المعلومات في موضوعات بذاتها ، ومعلومات مثل هذه تكون لها مصداقيتها ، وعليه فيمكن أن تؤخذ كشاهد على التراكم المعرفي ، وما يعتبر الرأي الموضوعي الدارج إذ ذاك ، ونكتشف أن من كتبوا في هذه الموسوعة عن الفجر كانوا سطحيين ، وليست لهم نظرة نقدية إلى مصادرهم ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم ، وتبدأ مادة المصريين في هذه الموسوعة على هذا النحو « هم في تشريعاتنا صنف مزيف من المتشردين إنجليز وويلزيين ، يخفون حقيقتهم باتخاذهم عادات غير مألوفة ، ويلطخون وجوههم وأبدانهم ، ويتخذون لأنفسهم لغة خاصة بهم ، ويترحلون هنا وهناك ، يدعون معرفة الطالع وعلاج الأدواء وما إلى ذلك ، ويصيبون العامة بأذاهم ، ويحتالون عليهم بسلبهم أموالهم ، ويسرقون ما خف حمله وغلا ثمنه » وعلى غرار هذه المادة كانت المقال التي ظهرت في المعجم الشامل لكل العلوم والفنون - Universal Lexicon aller Wissenschaften und Künste الذي نشره في لايبتيسيج في سنة ١٧٣٥ الكتبي يوهان تسيدرلر Johann Zedler وتقع المادة في خمسة وعشرين عموداً ، ثلاثة أرباعها تضج بالتشريعات العقابية التي طالت الفجر ، وعقيب المقدمة يرد « من الثابت أن الفجر ملحدون وأشرار وأهل لأن يلاحقوا » (١٢٥)، وقد اقتبسنا في السابق (ص ١٧٣) ما استهلته به موسوعة ديديرو (١٧٥١) تعريفها للفجر ، ثم هي تستطرد بعد ذلك ، فتفترض مثلما فعل كثيرون من قبل أن الفجر الأصليين قد أبوا في نهاية المطاف إلى بلادهم ، وأن قلّة من النوعية الجديدة شوهدت قبل ثلاثين سنة ، ربما بسبب يقظة الشرطة أو لأن الناس صاروا أكثر فقراً أو أقل سذاجة . وأياً كان السبب فإن الفجرية لم يعد لها رواج ، ولم يكن لدى القوم الذين كرسوا أنفسهم لتقدم الفكر العلماني في عصر التنوير ما يدعو إلى الابتهاج .

(١٢٥) لمعرفة ما ورد بشأن الفجر في أربع وخمسين موسوعة هولندية انظر :

W. Willems and L. Lucassen , " Beeldvorming over Zigeuners in Nederlandse Encyclopedieën (1724 - 1984) en hun wetenschappelijke bronnen" , in Zigeuners in Nederland , eds P. Hovens and R. Dahler (Nijmegen / Rijswijk, 1988) PP. 5 - 52 (English version, " The Church of Knowledge " , in 100 Years of Gypsy Studies, ed. M. T. Salo (Cheverly , MD, 1990) , PP. 31 - 50 and for a study of German encyclopaedias, R. Gronemeyer , " Die Zigeuner in den Kathedralen des Wissens " , Giesener Hefte für Tsiganologie (1986) , 1 - 4/86. pp. 7 - 29 .

الفصل السابع

قوى التغيير

أفضت التطورات المتسارعة فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر إلى تغييرات فى نظرة الآخرين إلى العجر ، ولو أن الإتجاه نحو تنميطهم بدا أضعف فى البلاد التى سادتها فلسفة حرية العمل *Laissez faire* ... إذ ذاك وعلى اتساع العالم بدأت مجموعة من القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى القيام بدورها ، مثيرة تيارات من الهجرة داخل أوربا وخارجها ، وبذا صار فى إمكاننا فى بداية القرن العشرين رؤية الكثير من العجر، يشغلون مكاناً مختلفاً على هامش المجتمع .

مفاهيم جديدة

يعود الفضل فى ظهور أول محاولة ، لتحليل نمط الحياة العجرية تحليلاً دقيقاً إلى باحث مجرى مجهول ، نشر ما يزيد على الأربعين مقالاً ١٧٧٥ - ١٧٧٦ فى القينر أنتسايجن *Wiener Anzeigen* ، وهى مجلة مجرية ناطقة بالألمانية^(١) ، وكان هذا الباحث يعبر تعبيراً صادقاً عن عصره ، من حيث احترامه لسياسات ماريا تيريزا ، لكنه أخذ على عاتقه التعامل مع ظروف هذا العصر ، وليس التعامل مع تراث قديم مبتذل ، وهو يركز فيما كتب على المجر وترانسيلفانيا ، وينوه إلى أنه مع تفرد العجر بسمات كثيرة مشتركة ، إلا إنهم لم يعودوا أمة متجانسة ، فليست لهم ثقافة مشتركة ، وقد تأثرت بعض جماعاتهم بظروف البلاد المضيفة لهم . ويذكر أن الرحل منهم

(١) Allergnädigst - Privilegirte Anzeigen , aus Sämmtlich - Kaiserlich - Königlichen Erbländern .(Vienna), 5 (1775), PP. 159 - 416; 6 (1776), PP. 7 - 168, Passim .

يعيشون صيفاً فى خيام ، لكنهم يقضون الشتاء فى كهوف محفورة فى جوانب التلال ، أما المستقرون فقد جرى تجهيز أكواخهم على النحو المعتاد ، ولكن بقدر يسير من الضروريات ، فلا توجد بها مقاعد ولا أسرة ولا إضاءة صناعية ، كما لا توجد بها أدوات للطبخ سوى أنية فخارية ومقلاة معدنية ، وطعامهم الأساسى هو اللحم (بما فيه ما هو غير صالح للأكل) أو أطباق طحين بسيطة ، مثل عصائب المكرونة ، وإنهم يحصلون على خبزهم اليومى بالاستجداء ولديهم ولع زائد بالكحول والتبغ ، ويمتلكون طاقماً واحداً من الملابس ، ولم تكن نساؤهم يغزلن أو ينسجن ، إنما يحصلن على ملابسهن بالسرقة والتسول ، وهن يغالين فى تزيين أنفسهن بالحلى ، ويزاول الحدادون عملهم جالسين القرفصاء إلى الأرض ، بينما النساء يعالجن الأكيار ، ولديهم حذق فى عملهم ومهارة ، يقطعها عليهم أقرباء يأتون من أجل أن يبيعوا لهم سلعهم ، وتجار الخيول من الغجر فرسان مهرة ، يعرفون كيف يبيعون المريضة منها على أنها صحيحة ، كما أن موسيقييهم خبراء فى معرفة أنواق سامعيهم . وفى بعض الأقاليم كانت للغجر نشاطات إضافية ، من سلخ لجلود الحيوانات وصناعة المناخل والأدوات الخشبية ، ويشكل غاسلو الذهب فى ترانسلفانيا والبانات جماعة بذاتها ، تقوم بنخل الرمل الحامل للتبر صيفاً ، وصناعة الصوانى الخشبية والمناخل شتاءً ، وليس للكاتب رأى طيب فى أخلاقيات الغجر وثقافتهم ، فليس لديهم مفهوم واضح للشرف أو العار ، وإذا كان من عاداتهم أن يدينوا بدين المجتمع حولهم ، فليس لديهم تصديق به ، ويبدو أنه لم يصادف طقوساً تتصل بدينهم ولا عادات. وكان يرى أن أسلوبهم التقليدى فى الحياة ، وافتقارهم إلى ممارسة منظمة له يتعارض مع قواعد أى مجتمع منظم ، والعيب يكمن فى تنشئتهم ، فالآباء يحبون أطفالهم حباً جماً ، لكنهم يخفقون فى تربيتهم ، وهكذا فحالما يشبون عن الطوق لا تكون لديهم أية فرصة فى تغيير مسار حياتهم ، وكان يعتقد بأنه بالتدريب الصحيح يصير بالإمكان التنبؤ بمستقبل واعد لهم فى مجال الزراعة أو فى المهن اليدوية ، فضلاً عن أنهم بصلابة عودهم مؤهلون للخدمة العسكرية. وينتهى الكاتب إلى أن العلاج الناجع لمشكلتهم هو « النضال ما أمكن لتحويل الغجر إلى بشر وإلى مسيحيين ، وعندئذ فقط يمكن أن يصيروا رعايا صالحين للدولة » . على أنه يحذر فى الوقت نفسه من أن هذه الأمنية تتطلب الكثير من الصبر والجهد .

كذلك نوهت القينر أنتسايجن فى هذه المقالات إلى مؤشرات على صلات ما بين الرومنية والهند ، وهو أمر كان أكبر من أن تكون له دلالة لغوية ، نظراً لتنامى

الاتجاه نحو إنكار الهوية المنفصلة للفجر ، والفضل في هذا الكشف (رغمًا عن أنه غير قطعى وغير محدد تمامًا) يعود إلى قس مجرى يدعى إشتفان فاي István Váli ، عندما كان يدرس في جامعة لايدن حوالى ١٧٥٣ - ١٧٥٤ ، على أنه مما تجب ملاحظته أن هذا الكشف يقوم على أساس تقرير صحفى من الدرجة الثالثة ، نشرته هذه المجلة في سنة ١٧٧٦ ، أى بعد سنوات طويلة ، ويحتمل أن أضيفت إليه إضافات تالية . وتقول القصة إنه جرت العادة على أن تبعث جزيرة ملابار Malabar بثلاثة من أبنائها للدراسة في جامعة لايدن ، وإنه لدى لقاء فاي بالثلاثة الذين عاصروهم ، جمع مسرداً بآلف مفردة من كلامهم ، وبعد عوده إلى وطنه تبين له التماثل بين هذه الكلمات وبين الرومنية المحكية في المجر ، وأكد على أنه كان يسيراً على فجر مدينة راب Raab (جير Győr) فهمها .

على أنه ليس لدينا ما يدل على أن فاي واصل تحرياته ، وليس لدينا كذلك تفاصيل عن اللغة التى كان يتحدث بها هؤلاء الهنود . أما عن ملابار (فهو مصطلح جغرافى ملتبس يشير على نحو عام إلى الساحل الجنوبى لبلاد الهند ، ويغلب أن كانت اللغة الأم لهؤلاء الطلاب دراڤيدية (المالايالام Malayalam مثلاً) أكثر منها هندوأرية ، وليس ثم ذكر لطالب يدعى إشتفان فاي فى سجلات جامعة لايدن ، لكن يوجد بها ذكر لثلاثة طلاب سيلانيين ، يعود إلى أوائل الخمسينيات من القرن الثامن عشر^(٢)) كانت سرى لانكا وقتذاك مستعمرة هولندية) ، وربما زار فاي لايدن موفداً من جامعة هولندية أخرى ، حيث التقى بهؤلاء الطلاب ، لكنه حتى لو كانت قد توافرت له قائمة بمفردات سنسكريتية أو سنهالية ، فإن الفجر الذين يذكرهم وأيا كانت رومنتهم ، لابد وأن يكونوا قد واجهوا صعوبات فى فهمهم هذه المفردات، على نحو أكبر مما توحى به القصة .

لدينا دليل أقوى من هذا الدليل ، يتمثل فى مسرد للرومنية لإنجليزى يدعى جاكوب بريانت Jacob Bryant ، جمعه فيما يبدو من سوق أقيمت فى وندزور فى سنة ١٧٧٦ ،

See I. Hancock, ' The Hungarian student Valyi Istvan and the Indian (٢) Connection of Romani', Roma, no. 36 (1991) .

ولدى عرضه ما ورد فى مسرده على جمعية لندن للعاديات فى سنة ١٧٨٥^(٣) أثار الانتباه إلى التشابه الواقع بين الرومنية واللغات الهندوإيرانية ، ونوه فى الوقت نفسه إلى كلمات مستعارة من اليونانية والسلافية، وقد أفادتنا هذه العينات فى التحقق من أن اللهجة التى كان يتحدث بها هؤلاء الغجر صارت على نحو أو آخر إنجليزيةً نطقاً ، رغمًا عن احتفاظها بنظام الترقيم الذى افتقدته الرومنية الإنجليزية فيما بعد ، وهو فى هذا السياق يأتى بلفظة رومنية فاحشة مقابلًا للفظة إنجليزية سئل عنها^(٤).

كذلك يعد ياكوب ريديجر Jacob Rüdiger من طلائع الباحثين فى الصلات بين الرومنية واللغات الهندية . ففى سنة ١٧٧٧ وبإيعاز من باكمايستر H. L. C. Bacmeister ، وهو مفتش كان يعمل فى مدارس سان بطرسبرج ، تمكن ريديجر من اقناع امرأة غجرية من مدينة هاله Halle بترجمة عبارة معينة إلى لغتها ، وبمقارنتها بعدة لغات ، تبين له التشابه الواقع بينها وبين لغات هندية ، وقد أقنعه باكمايستر بأنها أقرب إلى المولتانية (إحدى لهجات اللادنا فى غربى البنجاب) ونشر ما توصل إليه ريديجر من كشف فى سنة ١٧٨٢^(٥).

صارت مهمة الربط بين هذه الخيوط فى عمل متكامل من شأن أستاذ ألماني ، يعمل فى جامعة جيتتجن Göttingen ، ويدعى هاينريش جريلمان Heinrich Grellmann ومع أنه اعتمد على من سبقه من كتاب ، إلا إنه أتى فى النهاية بصيغة تحليلية محكمة لما تراكم لديه من دلائل . وقد نشر كتابه « الغجر » Die Zigeuner فى سنة ١٧٨٣ ،

(٣) Archaeologica, 7 (1785) , PP. 387 - 94 .

وقبل ذلك بشهرين (ibid. PP. 382 - 6) أوضح ولیم مارسدن الأهمية العظمى للمقارنات بين الانجليزية والرومنية اليونانية وكل من الهندية والمراثية والبنغالية .

(٤) يجعل بريانت ming هى المقابل الرومنى لأب الإنجليزية . وقد دخلت هذه الكلمة اللغة الإنجليزية ويرد فى معجم كولينز للغة الإنجليزية (الطبعة الأولى ١٩٧٩) فى شأن كلمة minge « بريطانية عامية تعنى أعضاء المرأة التناسلية ، وهى من أصل غامض » ويتفق المحرر معى فى أن هذه الكلمة تعود فى أصلها إلى الكلمة الرومنية mindze ولها المعنى نفسه فى كل اللهجات الرومنية بأوروبا (وإن كنا لا ندري على نحو دقيق من أين اشتقت؟) ويرد فى الطبقات التالية من هذا المعجم أنها « من الرومنية من أصل غامض » .

(٥) Neuster Zuwachs der deutschen fremden und allgemeinen Sprachkunde

(Leipzig, 1782) , Part 1, PP. 37 - 84 .

وسرعان ما اعترف بأهميته ، وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والهولندية^(٦). وليس فيما يذكره جريلمان عن توزيع الفجر ما يشفى غليلنا ، رغمًا عما توافر لديه من معلومات لها قيمتها ، فهو يقدر أعداد الفجر بما يتراوح بين سبعمائة ألف إلى ثمانمائة ألف ، يتركزون على نحو خاص في المجر وترانسيلفانيا وسائر بلاد البلقان ، وفيما خلا هذه الأقطار ، فالفجر كثيرون في إسبانيا وفي جنوبيها خاصة وفي إيطاليا ، لكنهم أقل بكثير في فرنسا - عدا الألزاس واللورين - وقليلون في سويسرا والبلاد الواطئة ومعظم ألمانيا - عدا الراينلاند - ومع أن العديد منهم قد استقر (وهنا يذكر حراس الحانات في إسبانيا ، والعبيد في الأفلاق والبغدان ، وسكان الأكواخ على تخوم المدن في المجر وترانسيلفانيا) ، إلا إنه يقرر أن غالبيتهم اعتادت الترحال ، وملاذها المفضل هو الخيام ، وهو يذكر في أقطار بعينها تقسيماتها الداخلية التي ازدادت أعدادها في أقطار مثل ترانسيلفانيا والبانات ، فهناك غاسلو التبر وغيرهم (توجد تقسيمات مماثلة ولو أنه لم يذكرها من فجر رحل في ترانسيلفانيا ، ومستقرين ينظر إليهم من قبل الرحل بازدراء ، وهو ما درجت عليه الحال في أقطار أخرى أيضاً) .

أضحى كتاب جريلمان نموذجاً لمن أتى بعده من الباحثين ، كما أنه أعان على ذيوع تجارة الفضائح ، مثل حديثه عن إمعان النسوة الفجريات في الفجور ، واتهام الفجر بأكل لحوم البشر ، فقد ضخم مما ورد في صحف مجرية وألمانية ، تعليقاً على حوادث وقعت في المجر (بكونتية هونت وتقع الآن في سلوفاكيا) ، وترتبط هذه الحوادث بمائة وخمسين غجرياً ، اعترف واحد وأربعون منهم بعد تعذيبهم بجرائم ، من بينها أكل لحوم البشر ، وتم إعدامهم بوسائل مختلفة (قطع الرعوس ، الشنق ، تكسير عظامهم وتربيعهم) وفي الطبعة الثانية من كتابه (١٧٨٧) يعتدل جريلمان في أحكام ، فيقرر أن النتائج التي انتهت إليها لجنة شكلها الإمبراطور يوزيف الثاني لتقصي حالة من تبقى من هؤلاء الفجر ، تبين لها ادانتهم بالسرقة ، ولا شيء آخر ، وأطلق سراحهم بعد جلدتهم ، أما بالنسبة لمن أعدموا ، فيذهب إلى أنهم ربما يستحقون

H. M. G. Grellmann, Die Zigeuner. Ein historischer Versuch über die (٦) Lebensart und Verfassung, Sitten und Schickale dieses Volks in Europa, nebst ihrem Ursprung (Dessau und Leipzig, 1783; 2nd edn Göttingen , 1787) . English translation, Dissertation on the Gipsies (London, 1787; 2nd edn London, 1807). French translation Metz, 1788 and Paris, 1810 . Dutch translation Dordrecht, 1791 .

الموت كقتلة .. وهكذا فقد أصيب الفجر بأضرار فادحة من هذا الكتاب فى طبعته الأولى ، واحتاج الأمر إلى قرن وزيادة، حتى يخفت ما يشاع عن أكلهم للحوم البشر .

فى القسم الأول الإثنوغرافى من كتابه يقتبس جريلمان من المقالات المنشورة فى الفينر أنتسايجن خصوصاً ما يتعلق منها باللغة ، بيد أن رائده فى هذا الشأن كان عضواً بالمجلس البلدى يدعى بيتر Büttner ، سبق له أن أشار - على نحو خاطئ - قبل عدة سنوات - إلى صلات بين الرومنية وأفغانستان^(٧)، لكن المقارنة الآن أضحت مع الهندوآرية ، وتوصل فى نهايتها إلى أن التشابه كان مع لهجة سورات Surat (أى الجوجاراتية) ، ومع أن التفاصيل ليست كاملة ، فإن إنجاز جريلمان الذى لا سبيل إلى الشك فيه هو أنه هو بترويجه للدليل اللغوى ، كما كان يفهم فى ذلك الزمان ، فقد أكد على أن الافتراض العام للأصل الهندى للغة الفجر صار مقبولاً على نطاق واسع ، كذلك الحال بالنسبة لهويتهم السلالية ، وأن الفجر المعاصرين هم أخلاف الفجر الأوائل ، ورغمًا عن اعتقاده الخاطئ بأن خروج الفجر جاء كرد فعل على الغزوة التيمورية فى نهاية القرن الرابع عشر ، إلا إنه وجه البحث المستقبلى فى اتجاه أكثر علمية ؛ أما على المستوى الاجتماعى فقد كانت حاله هى حال صاحب مقالات الفينر أنتسايجن ، فقد اعترض على النفى كأسلوب للتعامل مع الفجر ، من حيث إيمانه بأنه فى الإمكان إعادة تأهيلهم ، كما شارك سياسيين واقتصاديين أوروبيين فى رأيهم (الذى قال بعكسه مالتس Malthus^(٨) بعد خمسة عشر عاماً) ومفاده أن زيادة عدد السكان ذات فائدة لمجموع الأمة .. فليس من المدهش إذن أن يؤيد جريلمان بكل جوانحه ما اتخذته ماريا تيريزا وولدها من إجراءات ، وأوضح أن التعليم هو الوسيلة المثلى للقضاء على انعزالية الفجر .

فى مجال الأدب استرعى الفجر انتباهاً من نوع جديد ، فلدى تحول الذوق العام، إلى الرومانتيكية والميلودرامية ، تحول الاهتمام عن مفاهيم مثل النظام والهدوء والعقلانية إلى مفاهيم الفرد والخيال والتلقائية . وفى مؤسسته العاصفة Götz von Berlichinger (١٧٧٣)

(٧) فى مقدمة كتابه :

Vergleichungstafeln der Schriftarten Verschiedener Völker (Göttingen, 1775).

(٨) توماس مالتس (ت ١٨٣٤) قس إنجليزى ، نشر فى عام ١٧٩٨ أطروحته الرائدة عن مبادئ علم السكان (المترجم) .

يجعل جوته زعيماً عجرياً ، يقوم بدور المتوحش النبيل ، وما لبث أن أضحي ذلك « روسماً » Cliché لبعض من الكتاب في مقابلتهم بين الحياة العجرية وزيف الحياة العادية^(٩)، ووفقاً لتصوير آخر قاتم ذاع خلال القرن التاسع عشر أصبح الغجر طرائد متوحشة ، توحى بكل ما هو خارق للطبيعة وغامض ومجرم ، فكان يستعان بهذا التصوير في قصص الصغار والكبار معاً ، لصنع العقدة وتفسير السرقات والأحداث الغريبة والمحجوبة ، أو وفقاً لسوابق استهالها ثريانتس Cervantes في « العجرية » La Gitanilla ، وتواصلت مع مول فلاندرز Moll Flanders^(١٠) وزواج فيجارو Le Mariage de Figaro^(١١) وسنوات تعلم فيلهلم مايستر Wilhelm Meisters Lehrjahre^(١٢) وذلك في تفسير ظاهرة الأطفال المفقودين الذي جرى اختطافهم من ذويهم ، وغالباً واصل الكتاب اعتمادهم على خيالاتهم أو موارد أدبية أخرى ، أكثر من اعتمادهم على خبراتهم المباشرة ، وكان علينا أن ننتظر حتى ظهور أعمال جورج بارو George Barrow بدايةً بالزنكالي The Zinckali (١٨٤١) إلى أن تصل هذه الأعمال إلى أوجها في لافنجر Lavengro (١٨٥١) والشيلم الروماني The Romany Rye (١٨٥٧) ، وتمثل جميعها تحدياً حقيقياً للقالب الأدبي التقليدي لدى كاتب كان يعشق صحبة الغجر، وبرع في لغتهم ، وصار بإمكانه أن يصور بعضاً من طبيعتهم الحقيقية في كتاباته .

في تلك الأيام تبين أن (الحقائق) عن الغجر كانت خادعة ، أكثر منها أساطير ملتبسة ، وأدى الإحياء الرومانسي إلى اهتمام متزايد بالثقافة الشعبية البدائية ، والنزوع إلى الغريب والغامض ولازمها في مراحلها الأخيرة اهتمام حديث بجمع الفولكلور وتقليده (ظهر تعبير فولكلور لأول مرة في سنة ١٨٤٦) والأغنيات الشعبية والرقص والموسيقى ، ولم يعد الغجر بمبعدة عن هذا التيار من الدراسات الإنسانية ،

(٩) مثلما شاء فيلدنج أن يفعل في توم جونز Tom Jones (١٧٤٩) بتقديم جماعة من الغجر، بهدف أن يرسم صورة هزلية لحلم المحافظين Tory بمجتمع طوباوي لم تدنس المدنية ، ومع ذلك فعندما شدته بعد أربع سنوات سجلات تختص بمحاكمة امرأة عجرية وأخرى قوادة كانتا متهمتين بختف خادم تدعى إليزابيث كانينج ، فإنه يرسم صورة أقل ودية للطبيعة العجرية وذلك في كتابه : A Clear State of Elizabeth Canning (London, 1753) .

(١٠) رواية لدانييل ديفو Daniel Defoe (ت ١٧٣١) صدرت في سنة ١٧٢١ (المترجم) .

(١١) لبومارشيه Beaumarchais (ت ١٧٩٩) وقد نشرها في سنة ١٧٨٤ ، وكان قد نشر قبلها حلاق إشبيلية (١٧٧٥) (المترجم) .

(١٢) لجوته (المترجم) .

فأصبحوا منجماً للحكايات الشعبية والموسيقى والأعراف والخرافات ؛ أما فى مجال التاريخ ، فقد افتتح فرنسى يعمل أميناً للمحفوظات ويدعى پول باتيار Paul Bataillard وعلى نحو حاسم تاريخ الفجر الباكر فى أوربا بسلسلة طويلة من المقالات ، نشرها خلال عقود تبدأ بسنة ١٨٤٧.

أصبح علم اللغة المقارنة دليلاً آخر على الشغل المتزايد بالأصول القومية ، وذلك حالما مهد له سير وليم جونز من شركة الهند الشرقية ، بعد سنوات قليلة فحسب من نشر كتاب جريلمان ، وذلك بتأكيد على مكانة السنسكريتية فى العائلة الهندوأوروبية. وكان من شأن هذا العلم الجديد أن يثير الحماسة لدراسة الرومنية ، بحيث أضحت أشبه بأوركيدة فى بستان الفيلولوجيا ، وصار ينظر إليها على أنها تمثل الجمال العتيق لأطلال دراسة ، أو تمثل المشهد المثير للغة فى مراحل مختلفة من تداعيتها ، وهى لم تجتذب لدراستها هواة رومانتيكيين فحسب، إنما هى اجتذبت كذلك بعضاً من كبار الباحثين فى هذا القرن ، ولم يعد من الضرورى أن تتوافر لهم معرفة مباشرة بالفجر ، وهو ما انتبه إليه رائد من الرواد العظام هو أوجست فريد ريش پوت August Friedrich Pott^(١٣) ، والذى كان من بين ما أنجزه من أعمال كأستاذ لعلم الفيلولوجيا العام بجامعة هاله أول عمل علمى فى الرومنية هو «الفجر فى أوربا وآسيا» Die Zigeuner in Europa und Asien (١٨٤٤ - ١٨٤٥) ، وقد اعتمد فيه على ما لديه من مادة منشورة عن لهجات بعينها ، وكما فصل پوت فى مقدمته ، فقد ألف هذا الكتاب ، دون أن تكون لديه خبرة مباشرة بالفجر ، وليس سوى لفتات عابرة مع بعضهم ، وزخرت الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر بدراسات عديدة عن الرومنية ، كتب العديد منها بالألمانية ، وفى مقدمتها ما قام به فراننتس ميكلويزش Franz Miklosisch من جامعة فيينا ، وكان فى إمكانه فى تلك الأيام أن يباهى بما لديه من « مادة وافرة وأكثر من وافرة من كل البلدان التى يعيش فيها فجر » ، كما كان أول من حاول أن يتقصى من لغتهم طريقهم التى اتخذوها فى هجراتهم غرباً .

(١٣) عالم لغويات ألمانى (ت١٨٨٧) وهو أحد مؤسس علم اللغويات التاريخية الهندوأوروبية شغل منذ سنة ١٨٢٢ كرسى أستاذ اللغويات العامة بهاله ، ويعد أكبر من درس لغة الفجر فى القرن التاسع عشر (المترجم) .

ومن المدهش أن نشاهد الكنيسة وقد أولت الغجر باهتمامها ، وكانت الكنائس البروتستانتية بعد أن طورت مناهجها الإحيائية، استجابةً منها لمجتمع يتسارع إيقاعه، قد توخت هدفاً محدداً ، هو السعى إلى عالم متحرر من الوثنية ، ولم يتوان المبشرون بدورهم في سعيهم لتهيئة حياة جديدة للغجر ، تختلف عن حياة الجاهلية التي يعيشونها ، واستعانوا على ذلك بالنصيحة كبديل للقسر القانوني المعتاد ، وفيما عدا استثناءات قليلة ، كانت غاية هؤلاء الذين يعملون في مجالات دينية وخيرية ، والذين دخلوا مع الغجر في حوارات جادة ، وركزوا عليهم في دعاواتهم ، هي أن يحتوهم، ويستأصلوا في النهاية طريقتهم في الحياة ، وكانوا يتوسلون في ذلك باقناعهم بالاستقرار والحيلولة بينهم وبين الانصياع لقيمهم ، وتهيئتهم لأعمال تقوم على الاعتماد المتبادل والتسليم .. ومواقف مثل هذه حفلت بها ترانيم دينية ، مثل هذه الأبيات في ترنيمة للأطفال :

لم أولد دون بيت
ولا في سقيفة متداعية
يتعلم الطفل الغجري أن يحوم
ويسرق قوت يومي^(١٤)

في بريطانيا أثبت هذا العمل التعليمي أنه ذو نتائج محدودة ، وإن حقق بعضه النجاحات ، فقد أشرف جون بيرد John Baird وزير الكنيسة في اسكتلندا بنفسه على مشروع للإصلاح في سنة ١٨٣٠ جرى في مستعمرة الغجر ، تضم عدة أكواخ بكيرك ييثولم Kirk Yetholm غير بعيد عن الحدود مع إنجلترا ، وكان هؤلاء الغجر يعملون بالحدادة أو بصناعة الكانس والملاعق ، ويقرحلون لثمانية شهور إلى عشرة كل عام يبيعون سلعهم ، وكان هدف بيرد هو أن يجعل الأطفال في ييثولم تحت إشراف مناسب على مدار السنة ، حتى يصبح في إمكانهم أن يلتحقوا بالمدارس، فيتلقون التعاليم الدينية ، ثم يجدون عملاً فيما بعد ، ربما كخدم في المنازل ، كما كان بيرد يتطلع إلى أن يقنع الكبار بالتخلي عن حياة التجوال ، وأنشئت في نهاية الأمر جمعية للإصلاح الديني لغجر إسكتلندا ، تهيأت لها موارد مالية كافية ، وأصبح في إمكان بيرد أن يحرز نتائج واعدة بالنسبة للأطفال ، أما عن الكبار ، فقد وردت في تقريره

C. O'Brien, Gipsy Marion (London, n. d. (C. 1895) P. 4 .

(١٤)

هذه العبارة الطريفة « حتى الآن فالنجاح يقبع إلى جوار الفشل التام » ، وعندما انفضت الجمعية في سنة ١٨٥٩ واصل بيرد ومن أتوا بعده طريقهم، حتى تقرر التعليم الأولى حراً وإلزامياً في إسكتلندا في سنة ١٨٧٢ ، وعقب ذلك بسنوات قليلة تولى كل غجر ييثولم عن التجوال^(١٥) ، أما في إنجلترا فإن أهم جهد يجدر ذكره هنا هو الجهد الذي قام به ابتداءً بسنة ١٨٤٧ مبشر نظامى Methodist هو جيمس كراب James Crabb وكذا الجهد الذي قامت به لجنة ساوثهامتن Southampton التي استثار كراب همتها ، فصارت ترسل مندوبين عنها في زيارات يومية لمعسكرات الغجر حول ساوثهامتن والغابة الجديدة ، وكان كراب يود في أن يكون الإصلاح تدريجياً وتطوعياً ، ونجحت الاجتماعات التي دعا إليها للصلاة في أن تجتذب إليها غجر طيبين بما كانت تقدمه من لحم محمر وبودينج البرقوق ، لكنه اكتشف أن الأطفال الذين أتموا تعليمهم غالباً ما كانوا - وقد ثقلت عليهم الصلاة - يعاودون حياتهم السابقة ، وقد منيت مشروعات مماثلة في بروسيا بالإخفاق ذاته ، وحاولت إرساليات أخرى كثيرة على غرار إرسالية كراب المسعى ذاته وانتهت إلى النتيجة ذاتها ، وهي أن الغجر صاروا متدينين جزئياً ومتعلمين جزئياً^(١٦) . وكان يجرى استقبالهم بحذر ، وتبذل المحاولات لهدايتهم في سياق واحد مع أخذهم بأساليب مجتمع صناعى مستقر ، وعندما يقاس ما تم من إنجازات من منظور « الإصلاح » النهائى ، فإن هذه الإنجازات تبدو متواضعة ، حتى وإن بدأت تلوح مع نهاية القرن إرساليات قليلة انبثقت من الغجر أنفسهم ، كى تواصل هذا العمل الطيب ، ولدينا مثال على هذه الإرساليات فى شخص كورنيليوس سميث الذى ولد فى خيمة فى سنة ١٨٣١^(١٧) ، والأهم منه ولده رودنى المعروف «بسميث الغجرى» Gipsy Smith ، فكان مبشراً له مكانته وكان فى إمكانه أن يحشد حوله عدة آلاف من الناس فى وقت واحد ، وبدأ منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر فى إرسال بعثات تبشيرية داخل وطنه وخارجه^(١٨) ، وكان خلاص الغجر فى نظره يكمن فى تخليهم عن معظم ما اعتادوا عليه فى حياتهم .

(١٥) A. Gordon, Hearts upon the Highway (Galashiels, 1980), PP. 43 - 53 .

(١٦) Cf. D. Mayall, Gypsy - Travellers in Nineteenth - Century Society (Cambridge, 1988), esp. PP. 97 - 129 .

(١٧) C. Smith, The Life Story of Gipsy Cornelius Smith (London, 1890) .

(١٨) R. Smith , Gipsy Smith : his Life and Work (London, 1901); D.Lazell, From the Forest I Came (London, 1970) .

هيمنة الموسيقى

فى فترة باكرة من تاريخهم ، عرف عن الغجر ارتباطهم بالموسيقى - عزفاً وغناءً ورقصاً - وإن كان هذه الارتباط متقطعاً ، ولا مشاحة فى أن مواهبهم الموسيقية كانت سبباً هاماً فى ظفرهم بقدر من التسامح ، مثلما حدث مع زعيمهم أبرام وود Abram Wood الذى أتى إلى ويلز فى مطلع القرن الثامن عشر ، ويقال إنه أحضر معه كماناً ، وعندما تحول ولده وحفدته إلى الآلة المحلية - الهارب - فقد حظوا بترحيب فى كل مكان حلوا به^(١٩)، وحتى الآن فليست للغجر لغة موسيقية مشتركة وما من سبيل لخلق موسيقى خاصة بهم ، وعندما صاروا يمارسون عزفهم كملهين محترفين لغيرهم ، أكثر من أن كونهم كذلك بالنسبة لأنفسهم ، فقد انصرفوا إلى الموسيقى المحلية ، كحفظه لها ومتطورين بها ، أكثر من كونهم مبتكرين، وكانوا يستعينون على ذلك بالآلات تنتمى إلى الإقليم نفسه^(٢٠)، شأنهم فى ذلك شأنهم بالنسبة للقصص الشعبى ، فكانوا يستعيرون موتيفات من فولكلور البلاد التى يمرون بها ، بعد أن يعطوها نكهةً غجرية خاصة ، ولم يلبث أن اعترفت أوربا بأسرها بقدراتهم الطبيعية على الأداء ، ونخص بالذكر هنا ثلاثة أقطار ، وهى المجر وروسيا وإسبانيا ، حيث أحرز الغجر مكانةً عاليةً كموسيقين محترفين ، أصبحوا معها جزءاً من الهوية القومية لهذه الأقطار .

فى المجر فإن عدداً من الغجر الراسخين فى مجريتهم (والذين عرفوا عند غيرهم من أبناء قومهم بالغجر المجريين أو المتمجرين romungre) سرعان ما تبينت فائدتهم عند أهالى البلاد كعازفين ، وهم بحكم استقرارهم لفترة طويلة ، وابتعادهم عن لغتهم الرومنية ، فقد فقدوا ارتباطهم بموسيقاهم الخاصة ، وشدهم تراث من يعيشون بينهم،

①f.J. Sampson, ' The Wood family '. JGLS (3), 11 (1932), PP. 56 - 71 , and (١٩)
O. H. Jarman and E. Jarman, The Welsh Gypsies :Children of Abram Wood (Cardiff , 1991), chs 4 and 5 .

(٢٠) يشير ب. لبلون B. Leblon فى كتابه : Musiques Tsiganes et Flamenco (Paris, 1990) إلى أنهم كانوا مع ذلك يفضلون الآلات التى تشابه على نحو واسع الآلات الموسيقية الهندية وغيرها من الآلات الشرقية ، واحتج على ذلك بأنه فى أقطار مختلفة ، يعد المشترك فى الموسيقى الغجرية أكبر مما يبدو على السطح ، وأن هذه الملامح المشتركة ترتبط فى غالبها بالموسيقى الشرقية .

فنهلوا منه وانتحلوه لأنفسهم ، شأنهم - كما قيل - شأن من يختلس فرساً ليس له ، ويغير من ملامحه ، بحيث لا يستطيع صاحبه الأصلي أن يتعرف عليه . وأصبحت للفجر هيمنة واضحة فى الموسيقى لدى منتصف القرن الثامن عشر (ص ١٨٢-١٨٣) ، ولم يعد فى الإمكان الاستغناء عن خدماتهم ، ليس فقط بالنسبة لسكان الريف ، ولكن أيضاً بالنسبة للطبقة النبيلة ، وقد درج العازف الفجرى فى الولايم الكبيرة ، أن يقف إلى جوار مقعد مضيفه ، على الأبهة لأن يعزف له ما يوافق مزاجه ، وأحرزت العديد من الفرق الموسيقية الفجرية ، يقود الواحدة منها عازف كمان نجاحات متوالية ، كما أحرز العديد من الموسيقيين المنفردين شهرة كبيرة ، وأتاحت لهم تلقائيتهم وفطرتهم ولماحيثهم فى الاقتباس القدرة على إدخال البهجة إلى قلوب مستمعيهم ، بحيث أضحت الموسيقى وليست الحدادة هى أرقى المهن التى يمارسها الفجر ، ومما يجدر ذكره أن أشهر موسيقييهم وأشهر فرقهم الموسيقية أتوا من شمالى غرب البلاد (سلوفاكيا الغربية الآن) وكانت أقرب أقاليم المجر إلى قيينا قلب الحياة الموسيقية فى أوربا . ولدى منتصف القرن التاسع عشر صارت موسيقى الفجر من طراز عال .

وأول اسم كبير نلتقى به هو عازف الكمان يانوش بيهار János Birari (١٧٦٤ - ١٨٢٧) من كونتية بوجون Pozsony (براتيسلافا) ، وكان قد دعى وفرقته إلى احتفالات عامة وخاصة وولايم فى طول البلاد وعرضها ، كما دعى إلى قيينا ، حيث عزف لملوك أوربا ورؤسائها المجتمعين هناك فى سنة ١٨١٤^(٢١) ، وقد اخترع بيهار وخلفاؤه تعبيراً موسيقياً صار جزءاً من التراث الشعبى المجرى ، وعرف بمقام قريونكوش Verbunkos (ويعنى فى أصله موسيقى عسكرية تؤدى عند إعلان التعبئة) وكان ليست Liszt^(٢٢) من أشد المعجبين به ، وكتب عنه كتاباً مطولة فى كتابه « البوهيميون وموسيقيهم فى المجر Des Bohémiens et leur musique en Hongrie » (١٨٥٩) ويذهب إلى أنه « ارتفع بالموسيقى الفجرية إلى أعلى ذراها ، وظلت موسيقاه موضعاً لاستحسان الأرستقراطية المجرية وإعجابها ، لكنها أضحت اليوم جزءاً

(٢١) بعد سقوط باريس فى مارس ١٨١٤ ، وتنازل نابليون عن عرشه ، ونفيه إلى جزيرة ألبا (المترجم) .
(٢٢) (ت ١٨٨٦) ويشكل مع بيلا يارتوك (ت ١٩٤٥) وزولتان كوداي (ت ١٩٦٧) أكبر الموسيقيين المجرين فى القرنين التاسع عشر والعشرين (المترجم) .

أساسياً من التراث القومى «^(٢٣)، وفى باريس اصطحب ليست غلاماً موهوباً فى الثانية عشرة من عمره ، يدعى جيغى شاراي Józsi Sáray ، شمله بعنايته وأتاح له الفرصة لأن يتعاطى دروساً فى الكونسيرفاتوار، لكن جهوده ضاعت سدىً ، فقد تحول جيغى إلى غندور كبير عصى على التعلم ، وعندما سنحت الفرصة لأن يلتقى بأهله لحق بهم ، وانضم إلى فرقة موسيقية غجرية، مؤثراً لها على عذابات موسيقى الحجرة . وكان ليست يستهدف بكتابه هذا أن يكون تمهيداً لراپسودياته المجرية التى حاكى فيها طريقة الأداء الغجرية ، وقد بالغ من دور الغجر فى الموسيقى ، وفيما بعد سوف ينقم عليه بارتوك Bartók وكوداي Kodály وغيرهما خطأه فى زعمه بأن الغجر اخترعوا كل الموسيقى المجرية ، لكنه كان مصيباً فى ادعائه بأن أفضل الموسيقيين الغجر ، هم الذين حافظوا على الموسيقى القومية ، وعبروا عنها فى عيون الجماهير^(٢٤) . ولم يكن الغجر لينفصلوا عن حركة الانبعاث المجرية ، وشارك الكثيرون منهم بالآلهم الموسيقية فى ثورة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ التى جرى اجهاضها ، وعادت المجر للخضوع للحكم المطلق من قيينا ، وبعد فقد الحرية استحوذت كماناتهم الشجية على أنصار عديدين ، وذاعت شهرة هؤلاء الموسيقيين خارج بلادهم ، وتتابع رحلاتهم ابتداءً من خمسينيات القرن التاسع عشر إلى أقطار أوربية أخرى وإلى أمريكا ، وقام فيرنيس بونكو Fernec Bunkó (١٨١٣ - ١٨٨٩) وهو عميد الموسيقيين الغجر الذين شاركوا فى حرب الاستقلال ، قام وفرقته بالعزف مراراً فى باريس وبرلين (انظر شكل ٢٦) وإبان رحلته إلى هذه الأخيرة ، دعى ليعزف أمام ولى العهد فى حفل عشاء ، حيث استقبل وفرقته استقبالاً حاراً ، وبعد خمسة أيام عزفوا أمام الملك ، وقد نعى عليهم ليست وآخرون غيره مثل هذه الرحلات ، التى وإن كانت مفعمة بالظفر ، إلا إنها تفتقد الأصالة وتندر بالانحدار .

F. Liszt, *The Gipsy in Music*, trans, E. Evans , E. (London, 1926), vol. 2, P. (٢٣) 340 .

(٢٤) كان الغجر الأفلاق أحدث فى وصولهم إلى المجر من الغجر المتمجرين، ولم يعنوا بالعزف للأغيار، وحافظوا على نمط أغانياتهم الشعبية .

Cf. A. Haidu , 'Les Tsiganes de Hongrie et leur musique' , *Études Tsiganes* (1958), n. 1, pp. 1- 30 : K. Kovalcsik, *Vlach Gypsy Folk Songs in Slovakia* (Budapest, 1985) ; and M. Stewart ' La fraternité dans le chant : l'expérience des Roms hongrois " in Tsiganes" Identité, Évolution, ed. P. Williams (Paris, 1989), PP. 497 - 513 .

كان لما اكتسبه عازفو الكمان هؤلاء من احترام سبباً في أن النبلاء لم يجدوا ما يشينهم في أن يتعلموا منهم أو يمارسوا العزف معهم ، ولم يعد من النادر أن نجد بين الغجر من يتزوجون بنات من أوساط الناس ، وأحياناً من الاستقراطية (تزوج يانتشى ريجو Jancsi Rigó بأميرة ، وتزوج رودى نيار Rudi Nyári بكونتيسة، وتزوج مارتسى بركش Marci Berkes ببارونة) ، ولم يكن كل العازفين الغجر كباراً ، فبعضهم كان يمارس العزف في حانات وخانات على الطرق وفي الأسواق والمهرجانات الشعبية وحفلات الزفاف ، حيث العائد قليل ، وربما كان الجمهور أقل احتراماً ومسالمة .

أما بالنسبة للروس ، فقد تجلت مهارات الغجر الموسيقية في أغانيهم المرتجلة التي يؤديها أفراد الجوقة ، ويطوفون في أنحاء البلاد ، وأول ذكر لهذه الجوقات يعود إلى الشطر الأخير من القرن الثامن عشر ، عندما استقدم الكونت ألكسى أورلوف Aleksey Orlov إلى موسكو مغنين من غجر البغدان ، ولم تلبث أن صارت الجوقة الغجرية والفرقة الموسيقية الغجرية حلية لا بد منها في قصور النبلاء ، وقد أدرجت جوقة أورلوف في عداد الأقتان بقرية پوشكينو Pushkino القريبة من موسكو ، وأحرزت شهرة واسعة ، وغالباً ما كانت تستدعى إلى الحفلات التي كان يقيمها عشاق كاترين الكبيرة^(٢٥)، وقد منح هؤلاء الغجر حرياتهم فيما أتى من أيام ، والتحق من كان منهم في سن الخدمة بسلاح الفرسان إبان الغزوة النابليونية في سنة ١٨١٢ ، كما تبرع الآخرون بأموال للدولة^(٢٦)، وبعد أن انتهت الحرب سادت صرعة عند الموسكوفيين هي أن يقيموا حفلات عشاء كثيرة في الخانات القريبة من المدينة، يقوم الغجر فيها بالترفيه عنهم ، وسارت الأمور على نحو مشابه في سان بطرسبرج ، ولكن الخانات هنا صارت بعيدة عن المدينة التي كان محظوراً على الغجر الإقامة بها .

وكانت النساء يقمن بالدور الرئيسى في الجوقة ، ويرقصن في صحبة الجيتار الروسى ذى الأوتار السبعة ، وكان معظم ما يؤدين أغنيات فلاحية من أصول روسية وأوكرانية وبولندية ، وأغنيات أخرى عاطفية لموسيقيين روس كبار، بيد أنه في سنوات

(٢٥) أو الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) من أصل ألماني في عهدها توسعت روسيا توسعاً كبيراً لا سيما في آسيا الوسطى (المترجم) .

(٢٦) V. Borbi, 'Gypsies and Gypsy Choruses of old Russia' , JGLS (3), 40 (٢٦) (1961), PP. 112 - 20 .



شكل ٢٦ فرقة فيرينتس بونكو في سنة ١٨٥٤ ،
من رسم لقارشاني ، المتحف القومي المجرى ، بودابشت .



شكل ٢٧ - فرقة غجرية ريفية من المجر حوالى سنة ١٨٤٠ من رسم لباراباش ،
المتحف القومي المجرى بودابشت .

تالية ، شارك موسيقيون غجر متعلمون فى تأليف كثير من الرومانسيات الغجرية الطابع، وقد أضحت هذه « الموسيقى الغجرية » جزءاً عضوياً من تراث الموسيقى الروسية فى القرن التاسع عشر ، وحظيت جوقة المنشدين عند الأرستقراطية والبرجوازية، بمثل ما حظى به الموسيقيون الغجر فى بلاد المجر ، فقد لمس الناس فيها تجسيدا للحرية الرومانسية بالقدر نفسه الذى لمسه ليست فى الموسيقى الغجرية المجرية ، ولو أنه كتب ينتقد ما صارت إليه حال المرأة الغجرية فى موسكو من ترف وتكلف ، وهو رأى شاركته فيه الحكومة البولشفية بعد ستة عقود أو أكثر ، إلى حد أنها حظرت نشاطات مثل هذه ، وشجعت فى المقابل الأغنيات والرقصات التى تعبر بشكل أفضل عن مختلف الأعراق من سكان روسيا .

كانت صلات الخيتانو الإسبان بالموسيقى شبيهة بصلات إخوانهم المجرين والروس، فهذه الموسيقى لم تكن فى الأصل موسيقاهم ، لكنها كانت مع ذلك من إبداعهم^(٢٧)، فقد اضطلعوا منذ أواخر القرن الخامس عشر بدور النقلة للأغنية الإسبانية والرقص الإسباني^(٢٨)، وحازت رقصاتهم شعبية كبيرة فى مناسبات دنيوية ودينية (مثل مواكب عيد الجسد السنوية) ، لذلك لم تجد كثيراً محاولات فيليب الرابع لمنعها (ص ١٨٨) ، وجرت تحولات تدريجية فى الصيغ الصوتية الإسبانية على مستوى الموضوع وطريقة الأداء ، وبيزوغ ما عرف فى القرن التاسع عشر بالفلامنكو Flamenco يتضح مدى تأثير الغجر فى ثقافة أهل الأندلس ، وقد أمضى الفلامنكو فترة مخاض طويلة ، خلال أزمنة القمع الوحشى ، وتقع فى قلبه الأغنية الحزينة Cante Jondo ، وهى أسلوب موسيقى (أو بالأحرى ثلاثة أساليب tonás , Siguiriyas , Soleares) ، وقد نبتت فى بيئة أندلسية ، لكنها - كما يقول مانويل دى فايأ Manuel de Falla مركبة من طقوس بيزنطية وعناصر عربية وغجرية (هناك آخرون يشيرون كذلك إلى مؤثرات يهودية)^(٢٩) وموتيفاتها الأساسية المصاغة بقدر من التحدى والمشبعة بالغموض كانت

(٢٧) هناك تحليل طيب للاسهام الغجرى وغير الغجرى فى :

A. Alvarez Cabellero, 'Gitanos, Payos Y Flamenco' en los Origenes del flamenco (Madrid. (1988) .

Cf. B. Leblon, ' Identité gitane et flamenco' in Tsiganes:Identité, Évolution, (٢٨) PP. 521 - 7 and Musiques Tsiganes et Flamenco .

M. de Falla , El Cante Jondo (Granada, 1922)

(٢٩)

الحب والوفاء والكبرياء والغيرة والانتقام والحرية والاضطهاد والأسى والموت ، ويصف غرسيه لوركا García Lorca^(٢٠) الأغنية الحزينة بأنها « صوت الدم الدفاق » ، والأصل فيها أن المغنى يرتجل درامياً ، ولا يصحبه سوى قرع إيقاعى ، وقد ظهر الجيتار والرقص فى مرحلة تالية ، فاثريا هذه الأغنية ، وجعلها أصلب عوداً ، بحيث أصبح فى إمكانها التطور بمفهوم الفلامنكو والتوسع فيه ، والمقام النموذجى لأغنية الفلامنكو الحزينة فريجى فى خصائصه (أى النمط الذى تمثله مفاتيح البيانو البيضاء التى تبدأ بحرف E) ، وقد انتشر هذا المقام انتشاراً واسعاً ، من الهند إلى فارس فتركيا فالبلقان ، وربما وصل إلى شبه الجزيرة عن طريق المسلمين وليس الفجر .

تنتهى المرحلة الغامضة من تاريخ الفلامنكو مع صدور التشريع العملى لشارل الثالث فى سنة ١٧٨٣ وربما أتى ذلك مصادفةً ، ولو أنه لا يبعد أن يكون السبب هو أن المرحلة الجديدة من المعاناة قد أتاحَت الفرصة للأغنية الحزينة كى تفارق دائرة الظل^(٢١) . وأول مغن يحضرنا اسمه غجرى يدعى العم لويس دى لاخوليانا Tío Luis de la Juliana ، وقد ولد بشريش Jerez de la Frontera فى سنة ١٧٥٠ ، وفى الشطر الأول من القرن التاسع عشر كانت المراكز الرئيسية لهذا الفن هى قادس وشريش وإشبيلية (وعلى نحو أدق طريانة Triana ، حيث كان يقع الحى اليهودى ، وهو الآن يختص بالمياسير من الناس) ، وكان جملة من نهضوا بالفلامنكو فى تلك الأيام ينتمون إلى عائلات غجرية ، استقرت فى هذا الإقليم الأندلسى ، ومع ذلك فلم تكن هذه الموسيقى قد عرفت بعد بالفلامنكو ، وما حدث هو أن أطلق هذا التعبير على الفجر أنفسهم قبل يطلق على موسيقى ، هى من ابتكار ملهين محترفين فى مقاهى المغنين Cafés cantantes ، وقد ظهرت هذه المقاهى ابتداءً من عام ١٨٤٧ ، وأولها El Café de los Lombardos ، وقد افتتحت فى إشبيلية^(٢٢) ، وظهرت جماعة من فناني الفلامنكو المجهولين ، اشتهروا فيما بعد بألقاب هزلية ، وكان منهم أندلسيون ، كما كان منهم غجر ، وتبادلوا التأثير والتأثر . وجرت فى بعض الأحيان تعديلات فى الأداء تبعاً

(٢٠) الشاعر والكاتب المسرحى الأندلسى الكبير الذى اغتاله الكتائبون الفاشيون وهو ما يزال شاباً فى بداية الحرب الأهلية الإسبانية ١٩٣٦ (المترجم) .

Cf. A. Alvarez Coballero, Historia del cante flamenco, (Madrid , 1981) , PP. (٣١) 15 - 17 .

J. B. las Vega, Los Cafés cantantes de Sevilla (Madrid, 1984) , p. 27 . (٢٢)



شكل ٢٨ - المصخب ، تصوير زيتي لجون سينجر سار جنت ١٨٨١ ،
متحف إيزابيلا ستوارت جاردنر ، بوسطن .

للمذاق العام (كما كان الفجر يؤثرون فى أحيان أخرى أن يؤدوا الفلامنكو فى الاحتفالات العائلية أو المهرجانات ، فهى أيسر لهم من الاستجابة لمطالب محددة من جمهور المستمعين) أما المحترفون منهم فكانوا فى فنهم أكثر طموحاً وإتقاناً ، ولو أن الأغنية الفجرية والرقص الفجرى ظلا محتفظين بأصولهما ، ومن ركن صغير فى جنوبى إسبانيا انتشر هذا الفن بجملة الموسيقى الطويلة المزخرفة الشبيهة بموسيقى سكارلاتى Scarlatti^(٢٣) المصاحبة للجيتار ، وعم إسبانيا بأسرها ، ومن هناك إلى العالم الإشباني بأسره ، ليتحقق له قبول شعبى واسع .

مشهد الأرض ومشهد المدن

لدى نهاية القرن ١٨١٥ - ١٩١٤ وجد الفجر أنفسهم يعيشون حياةً تختلف تماماً عن حياتهم فى بدايته ، فقد كانت التحولات الصناعية والاجتماعية التى عمت أقطار أوروبا فى تلك الآونة أعمق من أى وقت مضى ، وتصدرت بريطانيا ما جرى من تراجع عن حياة الريف إلى عالم ، تحولت فيه مجتمعات الفلاحين والحرفيين إلى مجتمعات لرجال الصناعة ورجال الأعمال، ولم تلبث أن لحقت بالركب أقطار أوربية أخرى أو جاوزت بريطانيا نفسها ؛ ومع ذلك فقد كان القديم ما يزال مختلطاً بالجديد ، بل إنه كان محدوداً فى مناطق مثل جنوبى إسبانيا وجنوبى إيطاليا ، بينما كان من الصعب أن يطول كلاً من المجر وبلاد البلقان ، وظل أكثر من ثلاثة أرباع السكان فى هذه البلاد فلاحين ، وتواصل مجتمعهم التقليدى لمدى أطول ، وربما لم تكن حاله تختلف كثيراً عما كانت عليه فى زمن وصول الفجر إلى أوروبا .

وحتى عندما كان الاتجاه نحو التصنيع والتمدن يغذ الخطى ، فإن تأثيره على الفجر كان أضعف مما كان متوقعاً ، وربما بدت العوامل التى حالت دون إدماجهم أوضح ، إذا نظرنا إلى بلدين من أكثر البلدان تخلفاً ، وإن كان الاستقرار القسرى قد أحرز فيهما تقدماً كبيراً ، هذا البلدان هما إسبانيا والمجر ، ثم لنتحول بناظرينا إلى ما جرى من نمو فى بريطانيا وهى البلد الوحيدة التى خلقت فى القرن التاسع عشر

(٢٣) دومينكو سكارلاتى (ت١٧٥٧) عازف ومؤلف موسيقى إيطالى برع فى الأرغن والقيثارة (المترجم).

مجتمعاً صناعياً متطوراً ، وكانت كذلك إحدى البلاد القليلة التي أصبح معظم أهلها من سكان الحواضر .

إذا كان الغجر الوحشيون Gitanos bravíos (أى الرجل) قد صاروا أقلية في جنوبى إسبانيا ، فإن السبب يكمن في القوانين القمعية التي نجحت في الحد من حركتهم ، وما أخفقت فيه هذه القوانين هو محاولاتها في منعهم من التركيز بأعداد كبيرة في مناطق بعينها ، كما أخفقت أيضاً في دفعهم إلى أعمال أكثر فائدة للدولة ، وكانت ما تزال هناك ثغرات قانونية كبيرة ، وفيما يختص بالاستقرار فقد أقام الغجر مستعمرات في مدن كثيرة مثل كايي دي لاكومادري Calle de la Comadre وكاييخون دي لابايبيس Callejón de Lavapies على مقربة من سوق الخيل في مدريد أو في طريانة بإشبيلية أو في باريودي لابينا Barrio de la Vena وباريودي سانتا مادري Barrio de Santa Madre في قادس ، أما في غرناطة ، فقد احتشد الجم الفقير منهم في كهوف مجوفة في جوانب ساكرو مونتى Sacro Monte حيث يكدحون في باطن الأرض بالمطرقة والكير ، الأمر الذي لفت أنظار السياح فيما بعد ، وعلى مقربة من الحمراء Alhambra^(٣٤) على الجانب الآخر من نهر حدره Río Darro تم تزويد بعض كهوفهم بحمامات وكهرباء وهواتف ، يؤوى إليها مياسيرهم من مغنى الفلامنكو والراقصين ، وفي أماكن أخرى من ولاية غرناطة كان يوجد (وما يزال) مستوطنات أكثر اتساعاً في پورويينا Purullena وباريودي سانتياجو Barrio de Santiago بوادي أش Guadix ، ولم يكن الغجر يتفردون بسكنائها ، فلكونها تحت مستوى سطح الأرض كانت أرخص في ابتنائها وفي أسعارها ، فضلاً عن برودتها صيفاً ودفئها شتاءً . ورغمما عما اتخذته الحكومة من إجراءات ، مثل مراسيم فيليب الرابع وشارل الثاني ، فقد كان لشغف الغجر بمجتمعهم أثره في الحفاظ على كثير من تجمعاتهم gitanerías ، وفي اضعاف طابع مميز على الثقافة الأندلسية .

أما عن المجر فيعود السبب في التوطين الكثيف إلى الضغوط الحكومية في القرن الثامن عشر ، والتي جرى دعمها بعد ذلك بالإصلاح الزراعي وإصلاح الأراضي ، لكنها لم تحقق الهدف المرجو منها ، كما تعثرت مشروعات أخرى ، منها تلك التي نيّطت برجل كفء هو الأرشيديوق يوزيف كارل لودفيج Josef Karl Ludwig (١٨٣٣ - ١٩٠٥) ،

(٣٤) حيث كانت قصور بنى نصر (الأحمر) ملوك غرناطة ، قبل سقوطها في أيدي الإسبان في سنة ٨٩٧ / ١٤٩٢ ، وما تزال حتى يومنا هذا معلماً بارزاً من المعالم الأثرية والسياحية في إسبانيا (المترجم) .



شكل ٢٩ - كهوف الفجر بساكرومونتى ، غرناطة ١٨٦٢ رسم لجوستاف دور فى كتاب ج . س .
داڤيليه « إسبانيا » (باريس ١٨٧٤) .

وكان عميداً للفرع الهابسبورجى الذى استقر بالمجر منذ زمن طويل وابناً لحفيد ماريا تيريزا ، وحفيداً لابن أخى يوزيف الثانى ، وكان قد أمضى سنوات طويلة فى الخدمة العسكرية ، وعلى العكس من وضعه كعضو فى الأسرة المالكة فقد تحمس لدراسة الرومنية وأسلوب الحياة العجرية ، وعشق موسيقاهم منذ فترة باكرة ، وكانت المجرية هى لغته الأم ، كما كانت اللغة التى وضع بها كتاباً فى نحو اللغة الرومنية بلهجاتها المتعددة^(٣٥) ، وأنفق أموالاً طائلة فى إقامة مستعمرة عجرية كبيرة فى ضيعته بالتشوت Alcsúth على مبعدة نحو من أربعين ميلاً إلى الجنوب الغربى من بودابشت ، فضلاً عن مستعمرات أصغر فى أماكن أخرى ، وهى لهؤلاء العجر بيوتاً ، وأتاح لهم العمل فى أرضه ، وافتتح فى ضيعته مدرسة خاصة للأطفال ، وقد التزم المستوطنون بهذه الحياة المنظمة ، طالما كانت عيون الأرشيديوق عليهم ، لكن الشتات أصاب معظمهم فيما بعد .

لدينا معلومات طيبة عن حياة العجر فى بلاد المجر خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، يتيحها لنا تعداد تفصيلى أجرى فى يناير سنة ١٨٩٣ ، استكمالاً لمعطيات من نتائج ثانوية للتعداد القومى سنة ١٨٨٠^(٣٦) (فى ذلك الوقت كان حجم المجر يعدل ثلاثة أضعاف حجمها الحالى ، ويضم ترانسيلفانيا وسلوفاكيا وأقاليم شاسعة مما صار يعرف اليوم ببولندا والنمسا وسلوفاكيا وكرواتيا وصربيا ورومانيا وأوكرانيا) ومن بين ٢٧٤٩٤٠ عجرياً تم إحصائهم ، يتبين لنا أن ما يقارب التسعين بالمائة كانوا من المستقرين و ٢٠٤٠٦ من أشباه المستقرين ، وأما الرحل فعدهم ٨٩٣٨ فقط ، وكان ١٠٥٠٠٠ من جملة العجر يقيمون فى ترانسيلفانيا ، يمثلون خمسة بالمائة من المجموع العام للسكان ، وفى الأقاليم التى غلب عليها الأفلاق كانوا يجاوزون فى بعض الأحيان العشرة بالمائة ، وكان فريق من الرحل يتحدثون بالرومنية ، بينما كان أقل من شطر المستقرين يتحدثون بها وربعم يتحدث بالرومانية ، وجميع المتحدثين باللغتين معاً يعيشون أساساً فى ترانسيلفانيا .

(٣٥) Czigany Nyelvtan { Gypsy Grammar ' } (Budapest , 1888) .

(٣٦) نشرت النتائج فى :

A Magyarországon ... Czigányösszeírás eredményei .

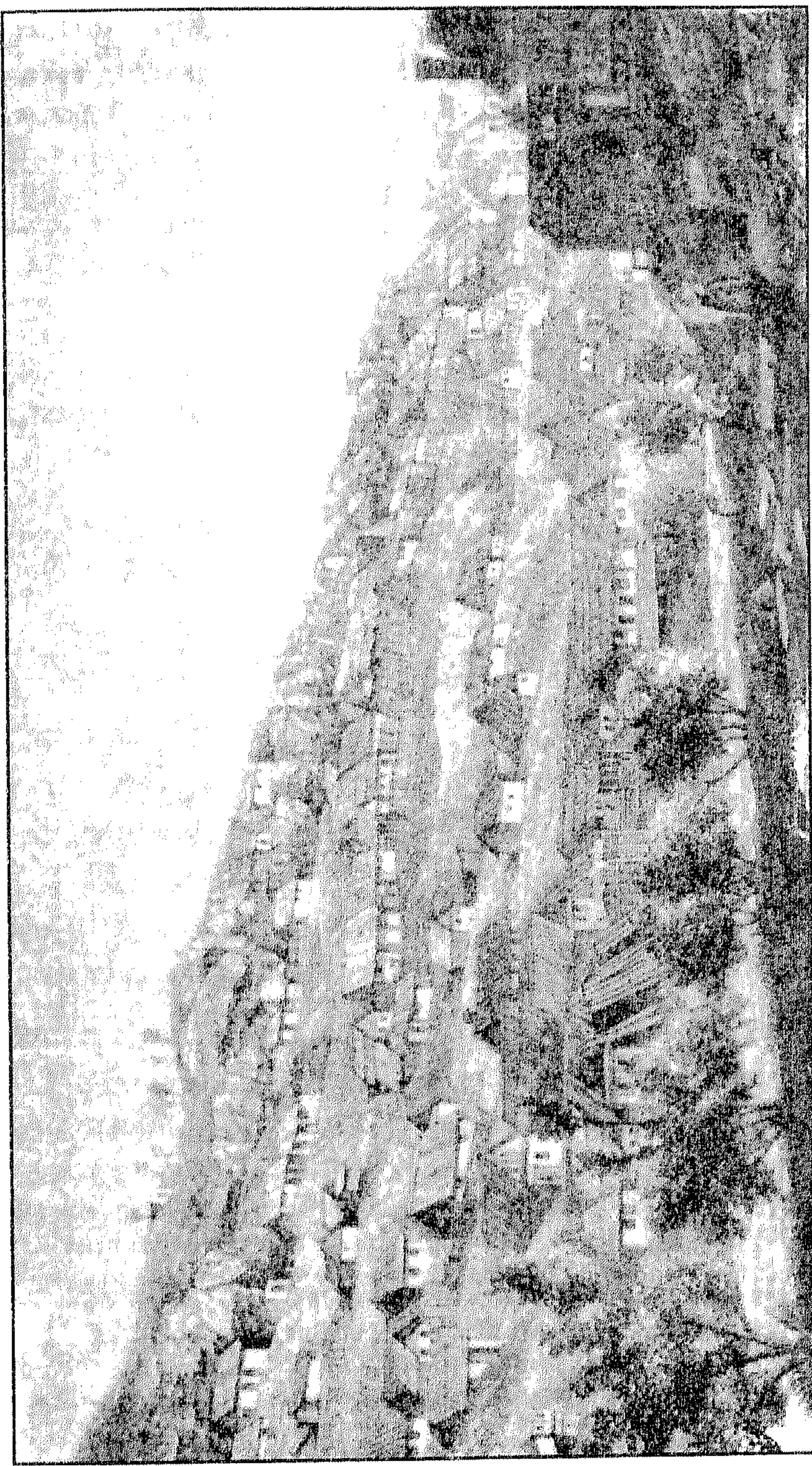
مع تعليقات مسهبة بالمجرية والألمانية ، ونجد تفاصيل التعداد القومى لسنة ١٨٨٠ فى :

J. H. Schwicker , Die Zigeuner in Ungarn und Siebenbürgen (Vienna, 1883) ,

PP. 75 - 89 .

هناك فجوات هامة فى أرقام التعداد ، فلم تشارك فيه مدن عديدة أخصها بوداپشت ، فضلاً عن أنه فى بعض بنوده جرى التهوين من أعداد الرحل ، نتيجة للصعوبات التى واجهت العدادين ، وأعان على تفاقم هذه الظاهرة ضعف نظام التصنيف الذى كان يضع من يستقر منهم شتاءً ويترحل صيفاً فى فئة المستقرين ومما يجدر ذكره أن التعداد أجرى فى منتصف الشتاء ، ومع ذلك فيتضح لدينا أن المستقرين من الفجر أصبحوا الغالبية لا مشاحة ، لكن هذا الاستقرار لم يستتبع بالضرورة امتصاصهم فيمن جاورهم من سكان ، وكان من الشائع أن يقيم هؤلاء فى محلة خاصة بهم داخل المدينة أو القرية، وهو مانشاهده فى سلوفاكيا على نحو خاص. أما عن الأنماط التعليمية فيتبين منها قدر ضئيل من الاندماج ، فسبعون فى المائة ممن كانوا فى سن المدرسة لم يلتحقوا بها ، ويتبين كذلك أن تسعين فى المائة من الفجر أميون (٩٨٪ فى حال الرحل) ويتضح من مهنهم أنهم كانوا يفضلون العمل بمفردهم الأمر الذى يؤكد معه كم كانت مراسيم ماريا تيريزا ويوزيف الثانى أضعف من أن تجتذب الفجر إلى أنساق تعليمية معينة، وقليل منهم نسبياً هم الذين ارتبطوا بالزراعة، وهى النشاط السائد فى المجر ، وقد استشهد محرر التعداد بتجارب الأرشيديوق ليثبت أن الفجر ليسو ملائمين لهذا العمل ، وحتى فى المهن ذات الطابع الصناعى كان الفجر أميل إلى ما يمكن أن يحقق منها قدراً من الاستقلال لهم ، وأهمها جميعها أشغال المعادن (خصوصاً الحدادة) ، يليها أشغال المعمار (مثل صناعة الطوب وصناعة الخزف) والنجارة (مثل مذاود العلف) ، كما عمل عدد منهم فى التجارة (مثل عمل الرجال كباعة للخيول وعمل النساء كبائعات جوانات) ، أما عن الموسيقيين ، فكانوا أكثر انتشاراً فى الإقليم الذى يعرف الآن بالمجر ، وكانت الفكرة الشائعة عن مهاراتهم الموسيقية هى التى أوحى جزئياً لمحرر هذه المطبوعة الرسمية ، لأن يذهب إلى أبعد مما يتيح التعداد، ويتخذ منها دليلاً على اندماج الفجر فى مجموع السكان ، بسبب ما لديهم من خصائص طيبة من تكوين جسمانى ملائم ، ومهارة فى العمل ومواهب موسيقية .

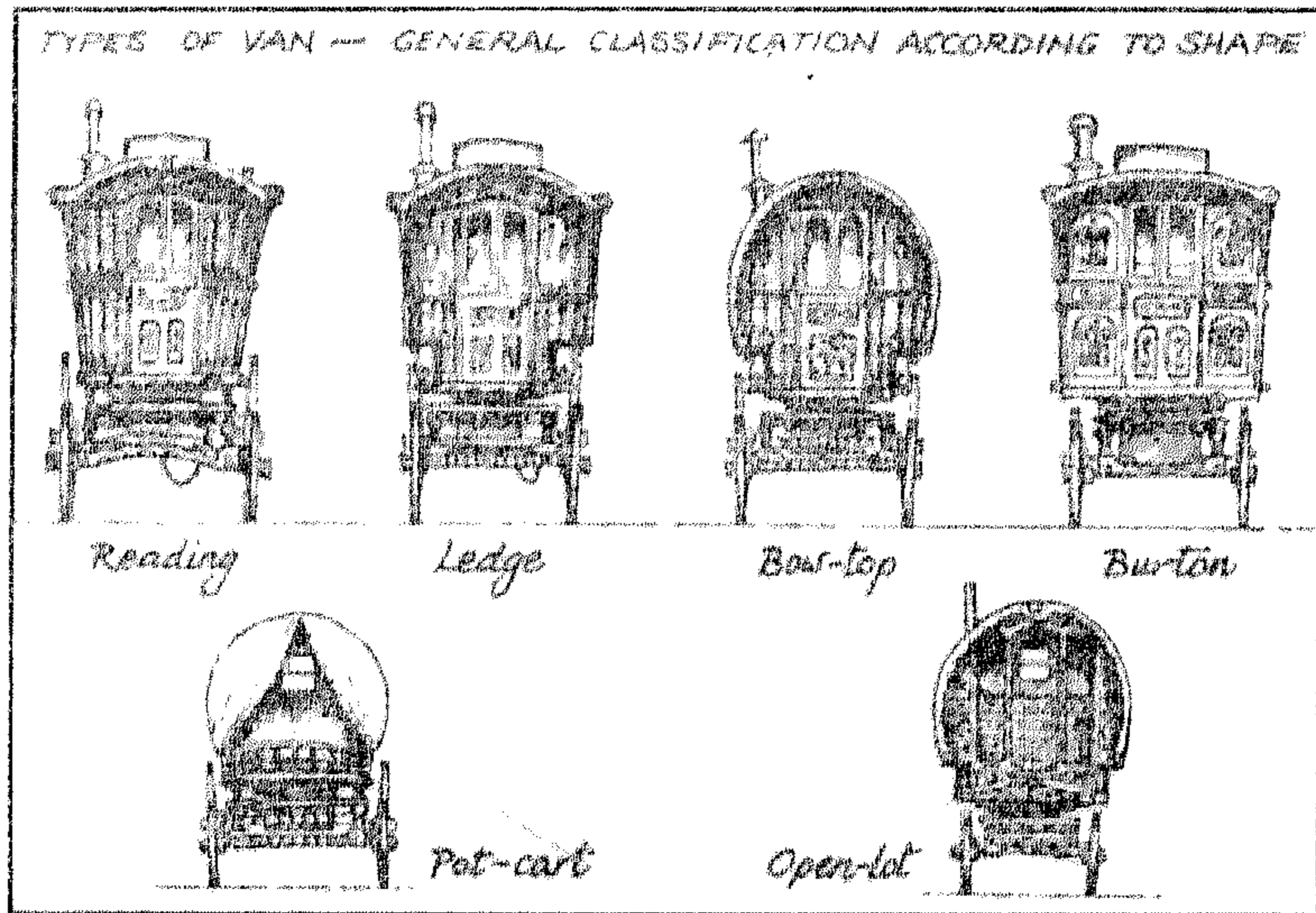
يكشف التعداد كذلك عن طبيعة سكناهم ، فقد اتخذ غالب المستقرين بيوتاً ، يضم الواحد منها غرفة واحدة أو غرفتين ، لكن بعضهم ما يزال يعيش فى الخيام ، بينما كان شطر أشباه المستقرين يعيشون فى أكواخ مبنية بالطين أو القش أو يعيشون فى كهوف حفروها بأنفسهم ، وكان كثير من الرحل يستأجرون بيوتاً فى الشتاء أو



شكل ٣٠ - مستوطنة غجرية على مقربة من كلونزبورج (وهي الآن كلوى) أواسط القرن التاسع عشر عن كتاب س . يونر « ترانسيلفانيا » ١٨٦٥ .



شكل ٣١ - عربة للقراءة فى ناتنج ديل ، لندن قرب طريق لاتيهر ، بينما يرى جورج سميث
أوف كولفيل وهو يوزع الحلواء ، مجلة لندن نيوز ٢٩ نوفمبر ١٨٧٩ .



شكل ٣٢ - نماذج لعربات إنجليزية من رسم لدنيس هارفى .

ينصبون أكواخاً ، ومع ذلك فقد كانت الخيام ما تزال هي مسكنهم الأساسي ، يقومون بنقلها بعربات يد أو عربات تجرها الجياد ، ولا يوجد ذكر لعربات معيشة ، رغمًا عن أن الكرافانات البدائية بدأت تزاوّل نشاطها في بلاد البلقان منذ أوائل القرن^(٣٧) ، وقد ظلت الخيمة في واقع الحال أهم مأوى شائع عند الفجر الرحل في أوروبا بأسرها طيلة الشطر الأعظم من القرن التاسع عشر ، حتى في روسيا ذات الشتاء القارس البارد ، ومع ذلك فقد بدأ الفجر في غربي أوروبا حول منتصف القرن ينزعون إلى السكنى في عربات معيشة تجرها الجياد ، ودعاها أصحابها باسم Vordos ، وغالبًا ما كانت تلحق بها خيام وعربات خفيفة ، وأكثر هذه العربات اتقانًا هي التي تم تطويرها في بريطانيا ، وكان يقوم بصناعتها الأغيار ، وفي تسعينيات القرن التاسع عشر لم تعد كرافانات الفجر متمثلة تمامًا التماثل ، رغمًا عن القالب الواحد لها ، وقد وصلت إلى ذروة تطورها ، فجمعت في الوقت نفسه بين التفرد والكفاءة والأناقة ، لدرجة استثارت في الأغيار شهوة التخييم بهدف الاستجمام^(٣٨) .

في بريطانيا ورغمًا عما تعرض له الفجر من ضغوط متزايدة ، نتيجة لما جرى من تطورات ، فإنهم لم يغيروا العمل المأجور اهتمامًا كبيرًا ، شأنهم في ذلك شأنهم في كل مكان : وكان من عادتهم أن يستقروا في المكان الذي يناسبهم ، واعتمدوا في كسب عيشهم على جهدهم وفطنتهم وقدرتهم على مزاولة نسق من المهن التي تتصل بالترحال ، على أنه كان لا مندوحة ، وقد نمت المدينة على حساب القرية ، من أن يتحركوا بنشاطهم الذي كان ريفيًا في أساسه مع أسواقهم ، وكانت هناك حوافز كثيرة مباشرة تدفعهم في هذا الاتجاه ، فقد سلبتهم حركة التسييح كثيرًا من الأراضي التي كانوا

E. G. F. H. L. Pauqueville, Voyage dans la Grèce (Paris, 1820), vol. 2 , (٢٧) P. 458 .

ويقول بشأن الفجر المسلمين في البوسنة « غالبًا ما يصادف المرء أكواخًا خشبية مغطاة بأحاء الشجر ، ومقامة على عجل ، ويقوم بجرها من مكان إلى آخر ما يتراوح عدده ما بين عشرة ثيران إلى عشرين ، بينما تتابع العائلة بأسرها سكنها المتحرك سيرًا على الأقدام » . وانظر كذلك :

A. Boué, La Turquie d' Europe (Paris, 1840), vol. 2. P. 77 .

وبعد أن يوضح كيف أن بعض الفجر الرحل يسكنون خيامًا أو أكواخًا مؤقتة يقول « يرى المرء على سبيل الاستثناء فجر في ألبانيا خاصة يعيشون في عربات مغطاة بالقنب أو لحاء الشجر » .

Cf. C. H. Ward - Jackson and D. E. Harvey, The English Gypsy Caravan (٢٨) (Newton Abbot, 1972 ; 2nd edn 1986) .

يخيمون بها ، كما أن زيادة عدد شرطة الأرياف وتنظيمها تنظيمًا جيدًا بعد صدور مرسوم شرطة الكونتيات في سنة ١٨٣٩ والمرسوم الذي تلاه في سنة ١٨٥٦ أعطى دفعة قوية لحملات توجّهت لطردهم من الريف ، مثلما حدث في دورست Dorset ونورفولك Norfolk وغيرها من الكونتيات ، وعندما كانت تقع جرائم في الريف كان الاتهام عادةً ما يوجه إلى المتشردين والغجر في حين يتكشف من الوثائق أن العنف والسرقة (بما فيها سرقة الصيد) كان عادةً ما يرتكبها مقيمون وليسوا وافدين^(٣٩).

كان الغجر لا يزيدون عن كونهم جماعةً من جماعات الرحل في بريطانيا خلال القرن التاسع عشر ، وقد لعبت هذه الجماعات دوراً اقتصادياً اجتماعياً يفوق الدور الذي تلعبه في زماننا^(٤٠)، وكان بعض أفرادها يقفون لدى الطرق العامة يتلمسون عملاً (كعمالة ماهرة وبنائين وعمال زراعيين وحرفيين متجولين) ، وقوم مثل هؤلاء كانوا يعملون لحسابهم ، ويتكيفون أحياناً مع النمط القراري ، كما كانت هناك بغايا يقفن على الطريق بمفردهن في أحيان ومع رفيقات لهن في أحيان أخرى ، على أن هذه الظاهرة كانت موسمية، فكن في الشتاء يقمن في مساكن مؤقتة بلندن ، كذلك كان يوجد تيار ثابت من الهجرة المتدفقة عبر البحر الإيرلندي ، تحول في الأربعينيات إلى فيضان ، إثر فشل محصول البطاطس ، حتى إن البعض ذهب في زعمه إلى أن كل المتشردين في إنجلترا هم في حقيقتهم إيرلنديون ، لكن الترحل بالنسبة لغير هؤلاء كان طريقة بذاتها في الحياة، فكانوا يتنقلون بانتظام مع عائلاتهم لفترة طويلة خلال العام ، يضمون بينهم صناع فرش وسلال وتجار خيول وصفاحين وباعة لسلع رخيصة وباعة متجولين وصناع أوعية وعمالاً بالأسواق وما أشبه ، فضلاً عن الغجر أنفسهم ، أي أصناف الناس الذين يشار إليهم الآن بكونهم رحالين . وإذا كان المقصود بهؤلاء في القرن التاسع عشر من يعيشون في خيام أو كراقات أو في العراء ، تصير لدينا فكرة عن حجمهم وذلك من أرقام التعداد في إنجلترا وويلز ، هذه الأرقام (وإن كانت أقل

Cf. D. Jones, ' Rural Crime and Protest ' , in the Victorian Countryside , ed (٣٩)

G. F. Mingay (London , 1981),vol. 2, PP. 566 - 79 .

(٤٠) لدينا دراستان مفيدتان عن حياة الترحال في إنجلترا خلال القرن التاسع عشر هما :

R. Samuel, ' Comers and Goers ' , in the Victorian City , eds H. J. Dyos and M. Wolff (London, 1973), vol. 1. PP. 123 - 60 , and Mayall, Gypsy - Travellers .

من الحقيقة) تدل على زيادة ثابتة فى أعدادهم فهى فى سنة ١٨٤١ (٧٦٥٩) وفى سنة ١٨٩١ (١٢٨٣٤) وفى سنة ١٩٠١ (١٢٥٧٤) ، ونجدهم فى التعداد الأخير يتركزون فى أربع كونتيات قريبة من لندن وهى اسكس Essex وميدلسكس Middlesex وكنت Kent وسرى Surrey فضلاً عن سسكس Sussex وهامشاير Hampshire وإلى جوار مراكز صناعية أخرى فى الميدلاندز Midlands (ستافوردشاير Staffordshire) والشمال الغربى (لانكاشاير Lancashire ووست ريدنج West Riding وبعدها جميعاً تأتي لندن نفسها وجمامورجان Glamorgan ودرم Durham^(٤١) .

يعكس هذا التوزيع تحولاً هاماً على مدى القرن فى دور الغجر الاقتصادى ووسائل عيشهم وتنقلاتهم فى بريطانيا ، وفى بدايات القرن التاسع عشر كان عدم توافر المؤن وظروف طلبها يعنى إنه بإمكان الكثيرين منهم ، أن يؤدوا خدمات جليلة ، لدى حلولهم بالمناطق الريفية النائية ، كما كانوا يفعلون فى السابق ، فيزودون سكانها بما يفتقرون إليه من سلع وخدمات لم يكن باستطاعتهم الحصول عليها من محال فى مدن بعيدة ، وكان من جملة هذه الخدمات ما كان يقوم به الغجر من نقل للشائعات والقيـل والقال ، إلى جانب عملهم كباعة للأدوات الرخيصة (التى غالباً ما كانت من صنعهم) ، ومصالحين للأدوات المنزلية ، وعمال موسمين (مثل التبانين وقاطفى البازلاء والفواكه والطحانين) ، أو عملهم كملهين ينشرون البهجة فى الاحتفالات الريفية ، بما تحلوا به من براعة فى الموسيقى والغناء والرقص ، وعندما بدأت هذه الحاجات تزداد بطريقة أو بأخرى ، وتحسنت وسائل النقل والمواصلات ، تحول الغجر إلى مهن أخرى أو تطوروا بالقديمة منها ، وحيث إنهم كانوا يعتمدون على سكان مستقرين فى ابتياع ما لديهم من سلع وخدمات ، فما الذين يقدمونه ، وقد تغيرت البيئة حولهم ، وبدت المناطق الحضرية العالية الكثافة تلوح للعيان .

صارت شهور الشتاء تشهد الكثير من الغجر ، وهم ينزحون إلى أحواز لندن ، ويتخذ بعضهم مأواه فى بيوت ، بينما يتخذ آخرون فى أكواخ ومبان خشبية ، أو يتوقفون بعرياتهم فى أراض عامة ، فينصبون خيامهم لدى وارموود Wormwood وسكرايز Scrubs وبارنز Barnes ودلويتش Dulwich وميتشام Mitcham ، أو فى مناطق

(٤١) يستند هذا التعداد إلى ما ورد فى كتاب مايال Mayall الرحال الغجر ٢٢ - ٢٩ ونجد به تحليلاً مفصلاً له .



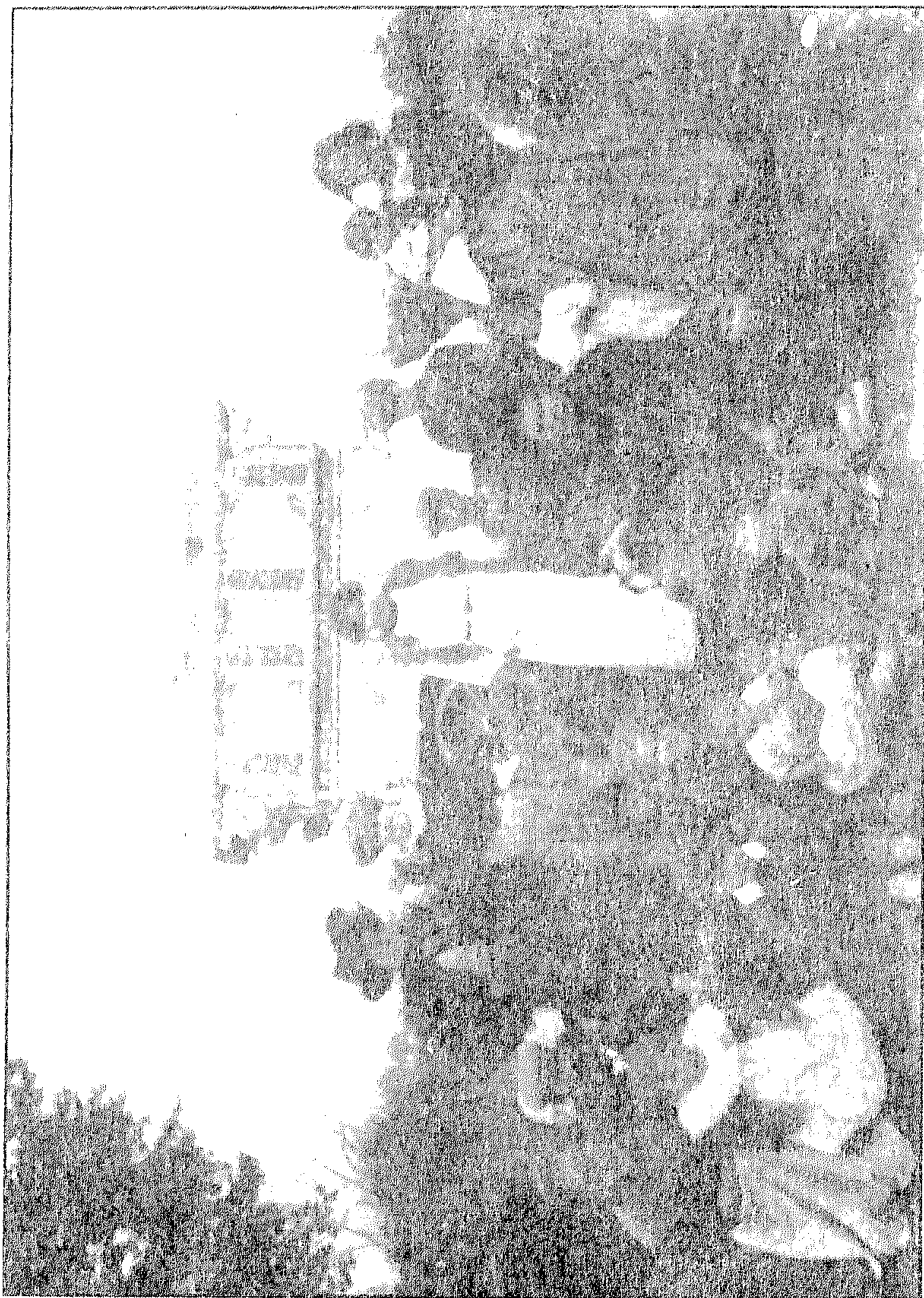
شكل ٣٣ مخيم لڊى متشام كومون ، لندن نيوز - ٣ يناير ١٨٨٠ .

انتقالية فى طريقها للتحويل ، على مقربة من قمائن الطوب والأراضى الخراب، فى أماكن مثل واندزورث Wandsworth وباترسى Battersea وكنزال جرين Kensal Green ومناطق العشوائيات فى ناتنج ديل بوتريس Notting Dale Potteries (حيث قدر عددهم فى سنة ١٨٦٢ بنحو خمسين أسرة) ، وهو ما كان كافياً ، لأن تنصب إلى جوارهم فى سنة ١٨٦٩^(٤٢) خيمة لإرسالية مسيحية ، ويترجح أنهم طالما صاروا فى حيز المدينة قد اختلطوا برحالين إنجليز وإيرلنديين . وقد اكتسب فجر المدن عيشهم بوسائل متعددة ، فقد اشتغلوا فى معظمهم كباعة جوالين وصفاحين ، وربما كان خطأ قادحاً أن يظن يومئذ كما هى الحال الآن بأن العائلة الواحدة ، كانت تعتمد فى معاشها على وسيلة رزق واحدة ، فربما عمل المرء على وجوه مختلفة صانع سلال وكراس وشحاذ سكاكين ورائق مناخل ومصلح مظلات وصفاحاً وتاجر خيل وصانع مشاجب ملابس وسفافيد جزارة ، وفى أحيان كان يطوف بالشوارع شارعاً شارعاً يعرض بضاعته ، وفى أحيان أخرى يقبع فى بيته يصنع أدوات صغيرة ، تشكل جزءاً من مخزون تجارته ، إلى أن ظهر الإنتاج الغزير فصار من الأيسر له أن يشتري مخزوناً جاهز الصنع ، و صار للكثير من الفجر حضور قوى فى السوق الكاليدونية فى أيام الجمع ، وكانت وحدة العمل هى الأسرة بأسرها ، وتقوم النسوة بدورهن كاملاً ، فيحملن سلال السلع من باب إلى باب وغالباً ما كن يمارسن معها قراءة الطالع ، وكان يقع على الصغار واجب مساعدة آبائهم فى جولاتهم ، أو فى صنع مختلف الأشياء بالمنزل .

كانت هجرات بعض هؤلاء - مثل فجر باترسى الذين عاشوا قريباً من لندن - محدودة للغاية ، والحق أن قليلاً منهم هم الذين كانوا يخيمون طول العام لدى دونوفانز يارد Donovan's Yard على مقرب من سكة حديد الجنوب الغربى ولدى ناتنج ديل ، حيث عاشت عائلات تلقب معظم أفرادها بهيرن Hearne ، أما فى ليقرپول فكان فجر إيقرتون Everton ينصبون خيامهم فى أراض خراب قريبة من والتن بريك Walton Breck ، وقد استدعتهم السلطات فى سنة ١٨٧٩ لأنهم لم يزودوا أنفسهم بمياه « كما يقضى بذلك مرسوم الصحة العامة » ، ومع ذلك فقد تواصل وجود هذا المعسكر

(٤٢) يوجد وصف لمستعمرات الفجر فى واندزورث وناتنج ديل وشور ديتش فى ستينيات القرن التاسع عشر فى :

G. Borrow, Romano Lavo - lil (London, 1874), PP. 207 - 37.



شكل ٢٤ غجر من قاطفي الفاكهة في سند (قرب جيلدفورد) سري ، ١٩١٠ تصوير فرد شو .

لسنوات قالية ، وسرعان ما يتبدد شمل هذه المستعمرات مع مقدم الربيع ، حاجة سكانها إلى العمل الموسمي ، حتى وإن كان قوامه التجول بسلعهم والصفحة ، ويقول جيمس كراب James Crabb « هؤلاء المسيحيون الذين يرغبون في إسداء معروف إلى الفجر داخل لندن وحواليها ، سوف يقفون على عدد كبير منهم يقيمون في ضواحيها في شهور أبريل ومايو ويونيو ، حيث يعملون في أسواقها ، ويرتحلون في شهرى يوليو وأغسطس إلى ساسكس وكنت ، فيشتغلون في الحصاد ، ويتوافدون بكثرة إلى المناطق العشبية بكنت وساسكس وسرى في شهر سبتمبر ، لتوافر فرص العمل لهم هناك »^(٤٢) ويدعو مايهو Mayhew موسم قطع الأعشاب في سبتمبر بالملتقى الأعظم للمتشردين في إنجلترا وإيرلندا حيث يتقاطر الفجر في كل الأنحاء الجنوبية من إنجلترا ، وبعد الصيف وقتاً مناسباً لقراءة طوالع من يختلفون إلى الحدائق وغيرها من المتنزهات ، وشكلت الأسواق ومضامير السباق ملمحاً أساسياً في جدول أعمالهم ، فهي تعينهم في تحديد أوقات ترحالهم ومساره ، وتكون في الوقت نفسه مكاناً مناسباً لالتقاء الأقرباء والأصدقاء ، وتتيح لهم الفرصة لعقد صفقات البيع لخيولهم ، وقد عرف سوق عيد الفصح في ونستد فلاتس Wenstead Flats « بسوق الفجر » ، لكونه أول تجمع لهم في الموسم ، بينما يختلف آخرون إلى سباق الدربى Derby الذى يستمر أسبوعاً صحبة جيش من الباعة الجوالين ، ويحذر كراب قراءه من أن « الصباح ربما كان الوقت المناسب لرؤية هؤلاء الفجر في مضمارات السباق ، لأنهم سرعان ما يسقطون صرعى للخمر قبل حلول الظلام » ، وحالما ينتهى الحصاد تتحول حركة الفجر إلى المدينة ، وتصل الموجة الأولى منهم إلى لندن بعد قلع الحشائش مباشرة ، وربما يقفون على الطريق ومعهم سلال فرنسية وألمانية ، بينما يشرع آخرون في العودة في أكتوبر ، وتصبح حركتهم عامة في نوفمبر .

هكذا نجد الفجر في مواجعتهم للتمدن والتصنيع وما إليه من ضغوط ، قد أظهروا قدرتهم في الحفاظ على ذاتيتهم ، فأقادوا من الفرص التى أتاحها لهم النظام السائد ، وقاوموا المغريات التى دفعت غيرهم إلى العمل المأجور ، وعاندت غالبيتهم فى تشبثها - حتى فى حال استقرارها - بفكرة الجماعة والاستقلال والعمل الحر . ولم يتعارض التحضر فى بريطانيا مع حفاظهم على قدر من الترحل ، ولو أن المسافات التى كان عليهم أن يقطعوها فى ترحالهم صارت أقصر ، مما يعكس بدوره التركيز

(٤٢) J. Crabb, The Gipsies ' Advocate , 3 rd edn (London, 1832), PP. 136 - 7 .

الجغرافى الزائد لزيائهم ، فكان ينتقلون من القرية إلى المدينة عند الضرورة ، ويتخلون عن حرف قديمة إلى حرف أخرى جديدة ، تتناسب مع المرحلة ، ولكن دون أن يخاطروا بفقد حريتهم أو هويتهم السلالية ، أو ما درجوا عليه فى ممارستهم لأعمالهم أو سكناهم من مرونة ، ومع مرور الوقت كان لابد أن تتغير ممارستهم لأعمالهم ، فقد تضاعل صنعهم لأشياء بهدف بيعها ، ودخلت الميكنة على السلع التى يتجرون بها ، فدرجوا على أن يبتاعوها من تجار الجملة ، وفى الوقت نفسه فقد خف الطلب على الصفاحة وإصلاح الأدوات ، بعدما أصبحت المواد الرخيصة المصنعة متاحة ، وأصبح العمل فى الحصاد مميكناً .. وكان من الممكن لثقافة أقل مرونة أن تستسلم لهذه المستجدات .. لكن الغجر لم يستسلموا .

تخطيط الأغلال

خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر باتت القوانين المنظمة للعبيد فى الأفلاق والبغدان تختلف بعض الشيء عن تلك التى عرفناها قبل أربعة قرون^(٤٤) ، فعبر السنين جرى تصنيف دقيق للغجر ، فمن ناحية كان هناك غجر التاج (فى الرومانية Tsigani domneşti^(٤٥)) ، ومن ناحية أخرى كان هناك عبيد مملكون للأديرة (Tsigani mănăstireşti) أو للنبلاء (Tsigani - boiereşti) ، وكان الغجر الذين يؤدون جزييتهم إلى التاج ينقسمون إلى عدة فئات هى صناع المجارف Lingurari الذين يصنعون الأدوات الخشبية والدبابة Ursari الذين كانوا حدادين وصفاحين إلى جانب تدريبهم الدبية على ألعاب بعينها ، وعمال المناجم Rudari أو الصاغة Aurari الذين يعملون فى

Cf. M. Kogalniceanu , Esquisse sur l'histoire ... des Cigains (Berlin, 1837); (٤٤)
A. A. Colocci, Gli Zingari (Turin, 1889) , esp. PP. 126 - 46 ; T. R. Gjorgjević, ' Rumanian Gypsies in Serbia . JGLS (3), 8 (1929), PP. 7 - 25; C. J. Popp Serboianu , Les Tsiganes (Paris, 1930) , esp . PP. 45 - 53 ; G. Potra, Contributiuni la istoricul , Tiganilor din Romania (Bucharest, 1939); I. Hancock, The Pariah Syndrome (Ann Arbor , 1987) , esp. PP. 11 - 48 .

(٤٥) لتوضيح نطق حروف رومانية معينة جعلنا حرف ts الرومانى وحرف ş الرومانى ك (بالقيمة نفسها التى فى الرومانى) .

التعدين وفي غسل الذهب ، والقطعان Lăieși وهؤلاء ليس لهم عمل ثابت ، فيطوفون بأنحاء الإماراتين ، يزاولون أعمالاً متعددة خصوصاً أشغال المعادن ، بينما كانت نساؤهم يترددن على البيوت يقرأن الطالع ويلتمسن الصدقة (انظر شكل ٢٣) وقد أتاحت فرصة الهرب لبعضهم فشكوا عصابات في جبال الكاربات وعرفوا باسم Netotsi ، واكتسبوا سمعة سيئة ، أما العبيد بالمعنى الدقيق للكلمة فهم المملكون لأشخاص ويدعون Vătrași (من Vatră أى مأوى أو بيت) وقد مارسوا أعمالهم كسياس خيول لسادتهم وحوذية وطباخين وخدم ، وربما عاش بعضهم في القرى كحلاقين أو خياطين أو إسكافية أو بياطرة ، وقد نشأ بينهم أفضل من نعرفهم من موسيقيين ، كما اشتغل بعض القطعان كحدادين ومشاطين مملكون ملكية شخصية ، فيؤدون جزيتهم إلى ملاكهم ، سواء كان المالك ديراً أو نبيلاً بدلاً من الدولة ، وكان القائم على جباية الجزية منهم قاض غجرى Jude ، يناولها إلى موظف يعرف باسم Bulibasha ، وهو مسئول بدوره أمام المالك مسئولية مباشرة .

كان في إمكان السادة قتل غجرهم دون أن يؤاخذهم أحد ، وغالباً ما كانوا يقابلون أى توان منهم بعقوبات قاسية ، ويصف كوجالنيتشينو Mihail Kogălniceanu المصلح الرومانى الذى ناضل من أجل تحرير الغجر ؛ يصف ما كان هو نفسه شاهداً عليه فى ياسى Jassy (Iasi) عاصمة البغدان إبان كان صبيّاً فيقول :

« كائنات من البشر مطوقون بأصفاد على أذرعهم وأرجلهم ، وآخرون مطوقة جباههم أو أعناقهم بالحديد ، والجلد العنيف وعقوبات غيرها كالإجاعة والتعليق فوق نار مشتعلة والسجن انفرادياً ، والإلقاء عرايا فى الجليد ، أو فى نهر متجمد ، مثل ذلك كانت المعاملة التى يلاقىها هؤلاء الغجر التعساء » .

« أما عن قدسية الزواج والروابط العائلية ، فجميعها محض هراء ، لأن الزوجة كانت تفصل عن زوجها ، والابنة تقتلع من حضن أمها ، والأطفال ينتزعون من صدور هؤلاء اللواتى أتى بهم إلى الحياة ، ويباعون كسائمة لمشتريين أتوا من أربعة أركان رومانيا » (٤٦) .

Kogalniceanu, Esquisse, PP. 16 - 17 ; also his Desrobirea, Tiganiloru (٤٦)
(Bucharest, 1891), P. 14 .

وعلى الجملة يقدر كوجالنتشينو أعداد الغجر فى الأفلاق والبغدان بمائتى ألف، ويمثل المملكون منهم ملكية خاصة غالبيتهم ، تضمهم خمس وثلاثون ألف عائلة .

وكان ذلك إبان الاحتلال الروسى لهاتين الإمارتين الدانوبييتين فى ١٨٢٨ - ١٨٣٤ ، حين بدت تلوح فى الأفق إرهابات وإن حبطت نحو تحرير الغجر ، ثم بدأ الرأى العام يتغير ، لكن الملاك لم يكونوا قد تهيئوا بعد لهذا التغيير ، وأول خطوة حاسمة هى تلك التى اتخذها ألكسندر جيكا Alexander Ghica أمير الأفلاق فى سنة ١٨٣٧ ، حين حرر أربعة آلاف أسرة من غجر التاج وأسكنهم فى قرى ، ألزم نبلاءها بمنحهم عملاً كفلاحين ، وسارت البغدان بعد خمس سنوات على النهج نفسه ، بشأن غجر التاج وغجر الأديرة ، وفى سنة ١٨٤٧ قرر جيرجى بيسكو Gheorghe Bibescu خليفة جيكا الذى تلقى تعليمه فى باريس تحرير غجر الكنيسة ، ولو أن هذا التحول لم يتم بسرعة (انظر شكل ٣٥) وعلى الجانب الآخر فى ترانسيلفانيا كان إلغاء القنانة فى سنة ١٨٤٨ يعنى أن أعداداً من الغجر المستقرين المرتبطين بقرى صاروا أحراراً فى حركتهم ، وقد اقتدى بهم الكثيرون ، مما أفضى إلى اكتظاظ المستعمرات الغجرية بالمدن .

كان الجيل الصاعد من الرومانيين يتطلعون إلى فرنسا كمصدر لإلهامهم، وكان الحكام المعاصرون يدركون مدى اهتمام الأقطار الأوربية الأخرى بما يجرى فى بلادهم ، ونهضوا من جانبهم باستكمال ما نيط بهم من واجب رغماً عن المعارضة الشديدة من جانب النبلاء ، ويمكن أن يستدل على ذلك ، مما حدث فى البغدان فى سنة ١٨٥١ ، حين عقد مزاد بيعت فيه بعض تركة وزير المالية أليكو ستورتسا Aleku Sturza للوفاء بديون كانت عليه ، فقد شملت هذه التركة ما لا يقل عن ٣٤٩ عبداً من الغجر رجالاً ونساءً وأطفالاً^(٤٧)، ولم يكن ذلك قبل سنة ١٨٥٥ ، حين شعر جريجور جيكا Grigore Ghica أمير البغدان، بأن لديه من القوة ، ما يكفى لطي صفحة ما وصفه «بالبقية الباقية من ذل مجتمع همجى » واعتزم أن يعوض الملاك عن فقدهم ما يمتلكونه من عبيد، كما حظر بيع البشر وشراءهم، وأصبح التعويض الذى يحصل عليه النبلاء هو ثمانى دوكات للنجورارى والفاتراتش وأربعة للاييشى ، أيا كان العبد ذكراً أو أنثى ،

M. Gaster, ' Bill of sale of Gypsy slaves in Moldavia , 1851 ' , JGLS (3), 2 (٤٧)
(1923) , PP. 68 - 81 .

A VINDE
Un Prim Sălaș de Robi sau
SCLAVI
ȚIGANEȘTI
 Print o licitație la Amiașă a
 Mănăstire d. n. **ELIAS**
 la 8 mai *M.D. CCC. L. II.*



cine se compună din 18 Omeni,
 10 Bajati, 7 femei & 3 ffete
 ~: in condiție fină :~

Griso

شكل ٣٥ إعلان عن بيع بالمزاد العلني في الأفلاق ، للبيع جماعة من العبيد الغجر بالمزاد العلني بدير سانت إلياس ، ٨ مايو ١٨٥٢ يضم ثمانية عشر رجلا وعشرة صبية وسبع نساء وثلاث بنات في صحة جيدة ، عن كتاب هانكوك The Pariah Syndrome ١٩٨٧ .

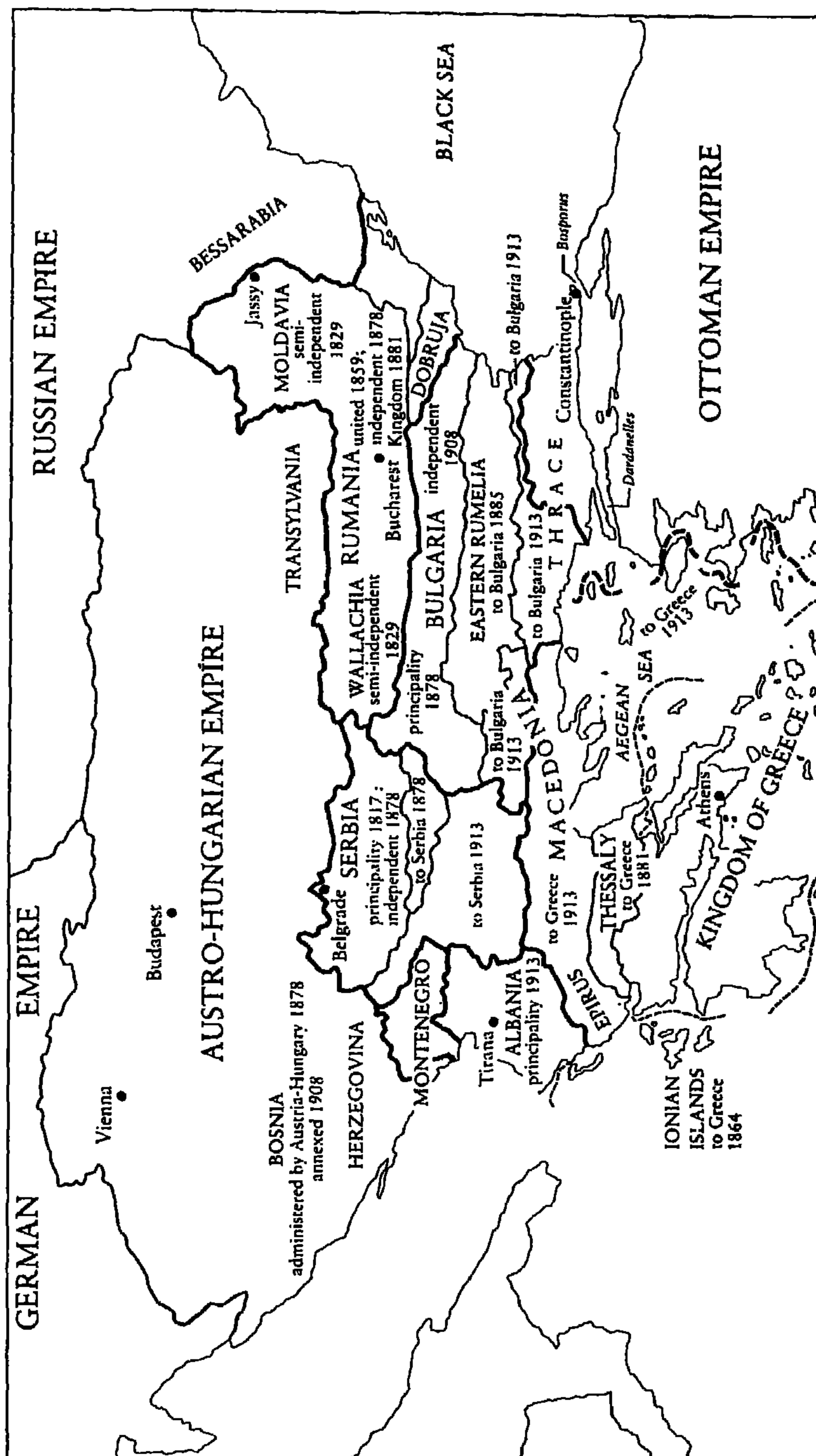
ولا يؤدي للنبلاء شيئاً مقابل الأطفال الرضع والعجزة ، وخلال أسابيع وفي أوائل سنة ١٨٥٦ اتخذت الأفلاق الخطوة ذاتها، وأصبح التحرير القانوني كاملاً في سنة ١٨٦٤ ، وذلك حين صدر في أعقاب حرب القرم دستور جديد للإمارتين اللتين تم توحيدهما (وإن لم تكونا مستقلين تماماً) واللّتين تحولتا إلى رومانيا ، وأضحى الغجر من الناحية المبدئية على الأقل مواطنين رومانيين ، على أن أياً من هذه الإجراءات الدستورية ، لم يبدد رياح البغضاء والتعصب التي صنعها الماضي .

هجرات متجددة

شهد الشطر الأخير من القرن التاسع عشر بعضاً من قبائل الغجر تحرز شهرة كبيرة ، عندما شرعت جماعات كبيرة منها في التحرك في كل الاتجاهات منطلقاً من بلاد البلقان والمجر ، وقد تأثرت رومنية هؤلاء الغجر تأثراً شديداً بالرومانية ، بفضل تجذرها في بلاد تتحدث بها ، لذا فقد دعيت لهجاتهم بالأفلاقية Vlach ، وقد دعوا أنفسهم بالروم ، وعليه نجد من الأوفق أن نشير باستمرار إليهم وإليهم فحسب بهذا الاسم ، تمييزاً لهم عن غيرهم من الغجر الذين سبق أن ارتحل أسلافهم غرباً قبل ذلك بعدة قرون ومع ذلك فلدينا جماعات أخرى كثيرة، عاشت في أواسط أوروبا وشرقيها ، ممن ليست لهم صلات بهؤلاء المتحدثين بالأفلاقية ، لكنهم أطلقوا على أنفسهم المسمى نفسه روم .

تميزت الجماعات الرئيسية من هؤلاء الروم بمسميات ترتبط بمهن ، مثل الكالديراشا Kaldera'sa (النحاسون) واللوقارا Lovara (تجار الخيول) والتشورارا Curara (صناع المناخل) ومن المناسب ذكر جماعات أخرى غادرت البلقان في الوقت نفسه تقريباً ، وكانت من الغجر المتحدثين بالرومانية ، من حيث إنهم فقدوا معظم لغتهم الرومنية ، وعرفوا بأسماء مثل بوياش Boyas (أى غاسلو الذهب) ورودارى Rudari (أى المعدنون) والأورسارى Ursari (أى الدبابة)^(٤٨).

(٤٨) ولو أن مسمى أورسارى ينفرد عن غيره من المسميات ، بكونه أكبر من أن تكون له دلالة مهنية وأقل من أن تكون له دلالة قبلية .



خريطة بلاد البلقان في القرن التاسع عشر .

ترتب على الهجرات المتلاحقة للروم أن ظهرت مسميات فرعية ، قامت على أساس جغرافى ، فالكالديراشا (النحاسون) الذين هاجروا فى إتجاه روسيا و صربيا وبلغاريا واليونان ، صار بعضهم يعرفون فى الرومنية على أنهم يونانيون و صرب وروس وهكذا ، وقد اتسعت هذه الهجرات تجاه الغرب ، وما أن تعالى زخمها ، حتى صارت أشبه بهجرات مماثلة لها ، وقعت قبل أربعة قرون ، كما أن ردود أفعال الأهلين التى تراوحت بين الدهشة والعداء ، كانت أشبه فى معظمها بردود أفعال أجدادهم فى القرن الخامس عشر ، وغالباً ما يتواجد الروم فى عصرنا فى أقطار أوروبا كافة ، فضلاً عن الأمريكتين ، وهم يتحدثون بلهجات متقاربة من الرومنية ، رغماً عن التباين الواقع فيما بينها فى مجموع المفردات والنطق ، ويمقدور الرومى الذى يعيش فى السويد أن يفهم الرومى الذى يعيش فى البرازيل .

فى أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر شوهد بعض الروم يتسللون إلى ألمانيا و بولندا ، حيث تطلعوا إلى زعامة الغجر هناك ، بل استطاعوا بالفعل أن ينصبوا على الغجر البولنديين سلالة مالكة هى أسرة كويك Kwiek^(٤٩) . ومن بولندا واصل الكالديراشا طريقهم إلى روسيا واسكندنافية ، كما أن بعض الروم الحاملين لجوازات سفر نمساوية إنطلقوا من برلين فى سنة ١٨٦٦ فى طريقهم إلى بلجيكا ومنها إلى فرنسا ، لكنهم لم يلبثوا أن ردوا على أعقابهم لدى الحدود^(٥٠) . أما النحاسون الذين وصلوا إلى فرنسا فى العام التالى عن طريق ألمانيا وإيطاليا ، فقد واجهوا صعوبات أقل ، وأضحى فى إمكانهم أن يتنقلوا جهاراً فى مجموعات من ثلاثين أو أربعين أو حتى مائة وخمسين ، وقد استقلوا عربات ذوات أربع عجلات تجرها الجياد ، حملوا عليها خيامهم الكبيرة اللازمة لنومهم لدى توقفهم ليلاً ، وقد أمضى هؤلاء أربعة أيام من فبراير سنة ١٨٦٨ فى كارپنترا (شمالى شرق أفينون) كانت كافية لأن تسمح لأحد الفنانين المحليين كى يرسم لوحة زيتية لهم على القماش (انظر شكل ٣٦) ، ويبدو فيها التناقض واضحاً بين ملابسهم المهترئة وكميات الذهب والفضة التى يتزينون بها . وقد قام فريق من الكالديراشا بدخول إنجلترا فى سنة ١٨٦٨ ، ونصبوا خيامهم فى

Cf. J. Ficowski, Cyganie na Polskich drogach, 2nd edn (Kraków, 1985) , (٤٩)
PP. 78 - 107 .

F. de Vaux de Foletier, Les Bohémiens en France au 19e Siècle (٥٠)
(Paris, 1981).

وبه فصل ممتع عن زيارات لغجر أوروبا الوسطى وشرقيها .

ضواحي لندن ، لكنهم لم يحظوا باحترام من قبل الغجر الإنجليز^(٥١) ، وفي السنة نفسها بدأت الأراضي الواطئة تستقبل جماعات من النحاسين من أواسط أوربا ، وقد اعتبرت الحكومة الهولندية ظاهرة جديدة تماماً ، كما نظر العامة إليهم على أنهم غرباء من طراز فريد ، فتدافعوا بالآلاف إلى مخيماتهم^(٥٢) ، بينما وقف الغجر يتقاضون منهم نقوداً نظير السماح لهم بالدخول ، وللمرة الثانية وفدت إلى فرنسا في بدايات السبعينيات جماعات من الروم عبر ألمانيا وإيطاليا ، واجتذبت أينما ذهبت حشوداً من الزوار الذين استبد بهم حب الاستطلاع ، ويعود أول ذكر للأورساري إلى هذه المرحلة ، فنشهدهم في ألمانيا في سنة ١٨٦٧ والبلاد الواطئة في سنة ١٨٦٨ ، ومنذ سنة ١٨٧٢ نجدهم على الطريق في فرنسا ، وكانت طلائعهم قد أتت من صربيا والبوسنة تحمل جوازات سفر تركية بأسماء مثل جالوباقيتش Galubavich ولازاروفايتش Lazarovich ومتروفايتش Mitrovich ، وحمل من لحق بهم في سنوات تالية أسماء صربية مماثلة .

ويتضح من جوازات تسعة وتسعين غجرياً (يونانياً) وصلوا بالقطار في سنة ١٨٨٦ إلى ليقرپول ، أنهم أتوا من اليونان وتركيا الأوربية ، وكذلك من صربيا وبلغاريا ورومانيا ، وقد اعتزم بعضهم أن يواصل طريقه إلى أمريكا الشمالية^(٥٣) ، وبعد عشر سنوات تتوافر لدينا أخبار عن أورساري في جنوبي اسكتلندا وشمالي إنجلترا ، يتحدثون خليطاً من اللغات ، بيد أنه لدى العقد الأول من القرن العشرين كان الذين استرعوا الانتباه في بريطانيا على نحو أساس لوقارا ، وصلت جماعة كبيرة منهم في سنة ١٩٠٤ ويحوزتهم جوازات سفر ألمانية ، وذلك بعد طردهم من هولندا ، وتسببوا في إزعاج الشرطة والبلدية ، مما أسفر عن ترحيلهم إلى هامبورج ، ولحقت بهذه الموجة بعد سنتين موجة أخرى ، وتابعت الصحافة اليومية والأسبوعية مداهمات الشرطة لهم^(٥٤) .

(٥١) T. W. Thompson , ' Foreign Gypsy Coppersmiths in England in 1868 ' , JGLS (3) , 6 (1927), P. 144 .

(٥٢) يوجد بيان له وزنه عن هذه الهجرات في: L. Lucassen, "En men noemde hen : Zigeuners" : (Amsterdam/ The Hague, 1990) وهو يغطي تاريخ الغجر في البلاد الواطئة بين سنتي ١٧٥٠ و ١٩٤٤ .

(٥٣) D. MacRitchie, "The Greek Gypsies at Liverpool", Chamber 's Journal , 11 (٥٣) Sep. 1886 ; A. A. Marchbin, "Gypsy immigration to Canada", JGLS (3), 13 (1934), PP. 134 - 44 .

(٥٤) Cf. C. Holmes . ' The German Gypsy question in Britain, 1904 - 06 ' , JGLS (٥٤) (4), 1 (1978), no. 4, PP. 248 - 67 .



شكل ٣٦ غجر مجريون لدى كاريبترا في سنة ١٨٦٨ ، تصوير لدني بونيه ، متحف دبيلسي كاريبترا .

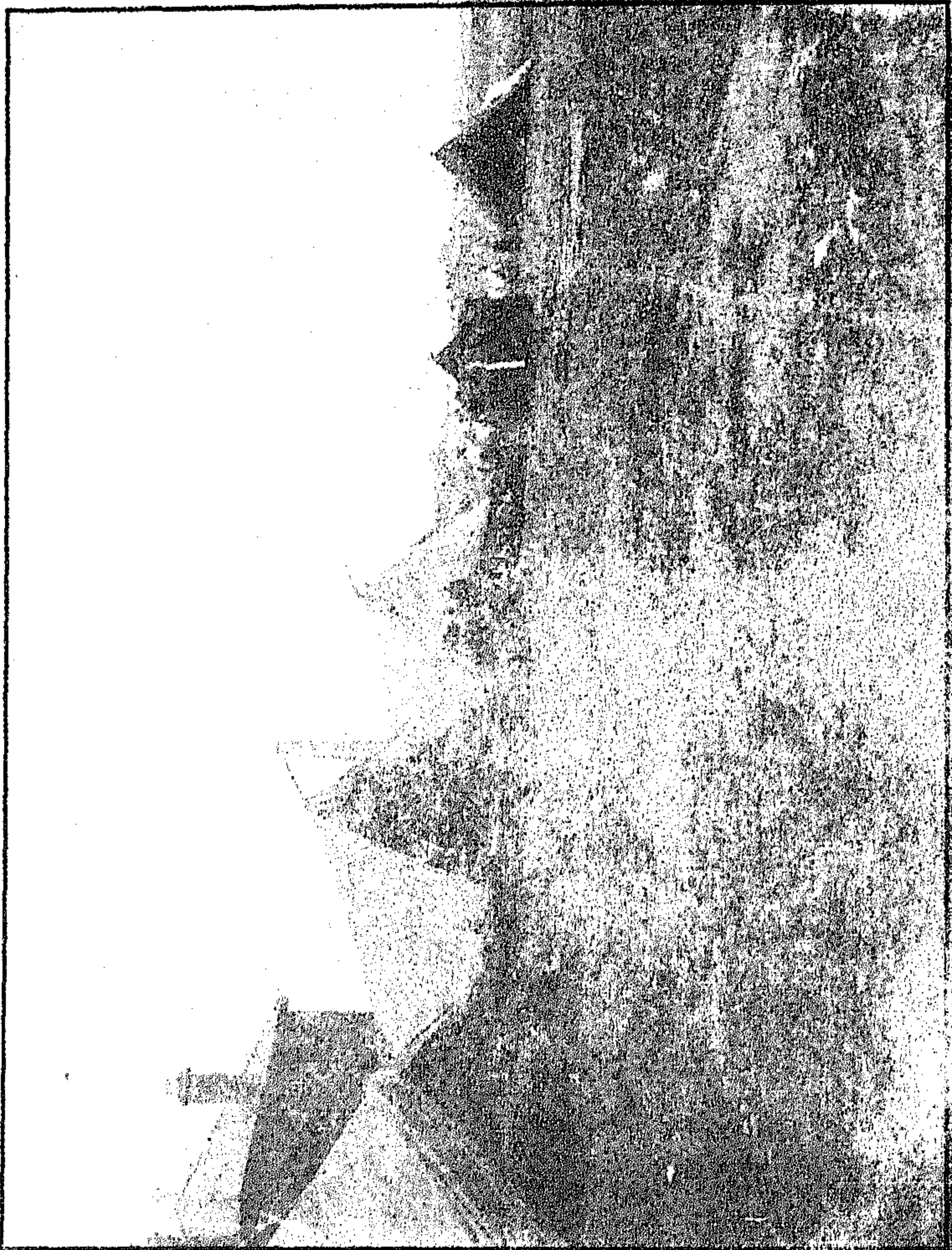
ووقعت أحداث مشابهة في فرنسا وألمانيا وسويسرا ، لكنه أكثرها إثارة ما قامت به جماعات من الكالديراشا بعد سنوات قليلة ، فقد طوفوا بعدة أقطار في غربي أوروبا ، وشوهت عائلات منهم في بريطانيا بأسماء تشورون Choron وكيرباتش Kirpatsch وديميتر Demeter وماكسيموف Maximoff ، ينتقل أفرادها بالقطار فيما بين مايو ١٩١١ حتى أكتوبر ١٩١٣ ، وكانوا قد تخلوا عن عرباتهم في فرنسا ، لكنه كان ما تزال لديهم خيامهم الرحبة الشديدة الشبه بتلك التي رسمها بونيه Bonnet في الكارپنترا قبل أربعين سنة ، وقد خيموا في مدن مختلفة على اتساع الجزر البريطانية (انظر شكل ٣٧)^(٥٥) ، وكان قد سبق لهم أن تنقلوا في معظم أقطار أوروبا ، وأضافوا لدى حضورهم لمسة من عبق الشرق على أفنية المدينة الموحشة ، وكم كان رهيباً مشهد نسائهم والعملات الذهبية مبعثرة في ضفائر شعورهن ، ومنتظمة حول نحورهن وصدورهن ، وهو مشهد يختلف تماماً عن مشهد نظرائهن الإنجليزيات في زينتهن (انظر شكل ٣٨ ، ٣٩) كما كان الرجال يرتدون سراويل فضفاضة مطوية في أحذيتهم الطويلة وقمصاناً ملونة براقية ، وستراتهم وصدرياتهم وقد اصطفت بها أزرار كبيرة فضية (بعضها في حجم بيضة الدجاجة) ، وقد تألفت في لمعائها ، وكانوا يمضون وقتهم في السعى جاهدين إلى المصانع ومعامل الجعة وغيرها ، لإصلاح مآليها من أوعية نحاسية ، وكان حذقهم لعملهم موضعاً للإطراء البالغ ، كما كانت أجورهم المغالى فيها موضعاً للاستياء البالغ .

قليل من هؤلاء الوافدين استقر بهم المقام في بريطانيا ، وبعضهم كان في طريقه إلى أمريكا ، وبعض آخر انحرف عائداً إلى القارة ، وفي كثير من الأقطار الأوربية ، صار الروم جيلاً جديداً بين سكانها الفجر ، وقد شكل هؤلاء الذين عبروا الأطلسي عنصراً غريباً أهم بكثير ممن شاهدناهم في زمن الاستعمار ، ولم يخلقوا وراءهم سوى آثار قليلة ، وتتوازي هجرة الفجر إلى الولايات المتحدة مع الهجرات العامة إليها^(٥٦).

(٥٥) JGLS ، ' 1911 - 13 ' ، ' The Gypsy Coppersmiths ' invasion of ، E. O. Winstedt .
(2), 6 (1912 - 13) , PP. 244 - 303 .

(٥٦) لمزيد من التفاصيل أنظر :

M. T. Salo and S. Salo, ' Gypsy immigration to the United States ' , in Papers from the Sixth and Seventh Annual Meetings, Gypsy Lore Society , North American Chapter (New York, 1986), PP. 85 - 96.



شكل ٣٧ خيام الكالديرانش بجارات لين ، واندزورث ، لندن في أغسطس ١٩١١ ، تصوير فرديشو .

وقد بدأت الهجرات الواسعة من أوروبا إلى أمريكا الشمالية في سنة ١٨١٥، وهي تعد بذاتها الأساس للوجود الغجري في الولايات المتحدة ، وحتى منتصف القرن كان ما يزيد على نصف المهاجرين يأتون من الجزر البريطانية ، ففي الخمسينيات وصلت هجرة هؤلاء الغجر الذين كانوا يدعون أنفسهم رومنيتشل Romnichels إلى ذروتها، وقد توافدوا في أعداد صغيرة كعائلات ، وحتى في زمن الذروة ١٨٥٠ - ١٨٦٢ كانوا أقل من أربعمئة ، ويبدو أنهم كانوا يفضلون أوهايو وبنسلفانيا وقرجينا كوطن لهم ، وارتبطوا بمهن يتنقلون بها ، تشمل تجارة الخيول والقصدرة وصناعة السلال للرجال ، وقراءة الطالع وبيع السلع البسيطة والرخصة للنساء ، وتدرجياً صارت تجارة الخيل هي أهم نشاط يمارسه الرجال^(٥٧) وقد استمر مجتمع الرومنيتشيل في حقبة السبعينيات ، رغمًا عن توافد بعضهم في الحقبة التالية حتى الحرب العالمية الأولى ، وما يزال أخلافهم يعرفون بالاسم نفسه ، وواصلوا الحديث بلهجتهم الخاصة ، واحتفظوا بمسافة بينهم وبين غيرهم من الغجر ، فضلاً عن غير الغجر .

في الثمانينيات أي في الوقت الذي كان الاقتصاد الأمريكي يمر بمرحلة انتعاش، تغير النمط العام للهجرة إلى الولايات المتحدة ، فقد تحول بوضوح إلى أقطار أوروبا الجنوبية والشرقية ، ومنذ يومئذ حتى سنة ١٩١٤ كان القادمون الجدد يأتون أساساً من النمسا - والمجر وإيطاليا واليونان وروسيا ورومانيا وتركيا ، وكان طلائعهم روم وصلوا إلى نيويورك في سنة ١٨٨١ ، قادمين من النمسا والمجر وتبعتهم في العام التالي جماعة من اللودار (الرودارى) تنتحل الجنسيات البلغارية والإسبانية ، ثم في سنة ١٨٨٣ جماعة من الموسيقيين النمساويين والمجريين ، وربما تكون هذه الأخيرة من طلائع من يدعون « السلوفاك المجريون »، وهم غجر يصنفهم الروم الأمريكيون اليوم على أنهم موسيقيون Basáldé ، وأتى بعضهم عن طريق كوبا أو (منذ سنة ١٩٠٠) عن طريق كندا أو المكسيك أو أمريكا الجنوبية ، حيث كانت قواعد الدخول أكثر يسراً . وكان اللودار ملهين ومدربي حيوانات وكان بصحبتهم دببتهم وقردتهم ، وقد زعموا أنهم نمساويون مجريون أو أتراك (وهو مسمى كان يعنى في تلك الأيام أكثر مما

Cf. M. T. Salo and S. Salo, ' The Romnichel economic and social (٥٧) organization in urban New England, 1850 - 1930 ' , Urban Anthropology, 11 (1982), PP. 273 - 313 .



شكل ٣٨ نسوة من الكالدراش يمشين ، إنجلترا ١٩١١ ، تصوير فريشو .



شكل ٣٩ - تاليثاكوير ترتدى شالا وإزاراً عجرياً بالكروشييه ، وتقف إلى جوارها ابنتها پولى . أسكوت ،
أغسطس ١٩١٢ ، تصوير فردشو .

يعنيه اليوم ، ويشير إلى أقاليم تم استقلالها عن الامبراطورية العثمانية مثل البوسنة والهرسك) ، وقد أظهر الروم قدرةً على الكسب تفوق تلك التي للودار، وجاوزت الجماعتان في أعدادهما مستوى الهجرة ، وكان الروم الذين يأتون في غالب الأحوال من موانئ بحر الشمال أو الموانئ البريطانية ، يدعون الجنسية النمساوية - المجرية ، تليها الروسية ثم الصربية ، ويعود أصل إحدى هذه الجماعات الأخيرة التي برزت بأعدادها الكبيرة إلى كونتيه ماتشوا Mačva (غربى بلغراد) ، مما أدى أى نشوء قبيلة تسمت باسمها Mačwaya وقد انتهت هجرة الغجر رأساً من أوربا إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٩١٤ ، وذلك مع اشتعال الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من تشديد الضوابط على الهجرة ، واستمرت الحال كذلك حتى بدأت أعداد من اللوقارا وغيرهم تصل فى بداية السبعينيات من القرن العشرين ، قادمةً من الأقطار الشيوعية فى شرقى أوربا .

يتضح لدينا أنه كانت للفجر مشاركة كبيرة فى زخم الهجرة المتدافعة إلى الولايات المتحدة ، وتوجد أسباب عديدة لارتفاع معدل هجرتهم فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، مثل ما أتيج من فرص اقتصادية فى غربى أوربا والولايات المتحدة، وما جرى من تحسن فى السكك الحديدية ، ورخص وسائل النقل البحرى وسرعتها . وعندما يتأمل المرء ما حدث فى الولايات المتحدة ، وهى النموذج المثالى لاتجاهات الهجرة ، يتبين أن هجرة الرومانييتشيل تزامنت مع ذروة الهجرة من بريطانيا ، أما الروم واللودار فقد تزامنت هجرتهم مع موجة الهجرة الكبيرة من شرقى أوربا ، الأمر الذى من شأنه أن يشى بأنه إذا كانت ثمة أسباب لهذه الهجرة تختص بالفجر وحدهم ، فإن هذه الأسباب لم تضطلع بالدور الأكبر فى قرارهم بالهجرة ، ومع ذلك فقد كان هناك تفاوت ملحوظة فى جاهزية جماعات غجرية مختلفة فى هجرتها إلى الولايات المتحدة ، فلم يكن الرومانييتشيل وحدهم والروم واللودار هم الذين هاجروا ، فهناك جماعات أخرى متفرقة من غيرهم هاجرت منها أعداد قليلة وترتب على ذلك أن نمط السكان الغجر فى الولايات المتحدة ، كان أبعد من أن يمثل مقطعاً عرضياً ، بالنسبة لهؤلاء الذين عاشوا فى أقطار مصدرة للمهاجرين .

تزامنت الزيادة فى معدل الهجرة بانتهاء عبودية الغجر فى الأفلاق والبيغدان ، لكن ذلك لا يفسر الترتاب الزمنى الظاهر لهجرات الروم ، ونمط هذه الهجرات وتنظيمها

الاجتماعى ، بينما يستدل من هجرات سابقة لعائلات من الأورسارى والرودارى - وهم من الروم - على إقامتهم الطويلة فى بلدان غير الأفلاق والبغدان ، مما لا يدعم فكرة أنه كان هناك دفع كبير من رومانيا فى خمسينيات القرن التاسع عشر (٥٨).

تزداد هذه الشكوك عندما يتأمل المرء ما يستتبط من لهجاتهم فى الوقت الذى بدأ فيه تسجيل هذه اللهجات ، فتأثير الرومانية لا تخطئه العين ، لكن هذه اللهجات حملت بدرجات مختلفة تأثيرات مجرية كانت محدودة جداً فى حال الكالديراشية - Kalde-ra'sitska أكثر من اللوقارية Lovaritska التى استعارت عدداً كبيراً من الكلمات المجرية ، واتبعت ما فى هذه اللغة من نبرة مشددة ، بينما ظلت لهجة التشورارا وسطاً بين الاثنتين ، والتغلغل غير الرومانى على هذا المستوى دليل واضح على تعرضها فترة طويلة لتأثير لغات أخرى ، بعد أن ابتعد الروم عن تأثير الرومانية ، أو خلال الوقت الذى كانوا فيه تحت تأثيرها ، وقد نشأت مشكلات مماثلة لكلام الجماعات العجرية المتحدثة بالرومانية خارج رومانيا والتى كانت قد فقدت رومانيته ، وكان الرودارى الذين اشتهروا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يتحدثون برومانية تضم عنصراً قوياً من الكلمات الصربو كرواتية ، بينما كان البوياش الذين يعيشون اليوم حول بيتش Pécs فى جنوبى المجر يستخدمون صيغة بالية من الرومانية ، تشبه تلك التى كان يتحدث بها قبل عدة قرون فى البانات وهو الإقليم المتعدد السلالات المجاور لغربى الأفلاق (قسم فيما بعد بين المجر ورومانيا ويوغسلافيا) (٥٩).

فى ضوء هذا كله يحتاج المرء لأن ينظر خارج الأفلاق والبغدان كنقطة بداية ، فقد كانت الرومانية لغة حديث خارج حدود هاتين الإمارتين فى البانات وفى شمالى شرق صربيا وفى بسارابيا Bessarabia الغربية ومعظم ترانسيلفانيا ، لا سيما المناطق الريفية شمال الأفلاق ، ومن اليسير الزعم بأن معظم الروم عاشوا زمناً طويلاً فى هذه الأقاليم (وربما تحدر بعضهم من المهاجرين الذين فارقوا الأفلاق والبغدان إبان سنين الاضطهاد) أكثر من أن يكونوا فى أصلهم من العبيد المحررين الذين تدافعوا من هاتين الإمارتين الدانوبيتين ، تحسباً لإمكانية عودة نظام العبودية القديم .

(٥٨) Cf. A. M. Fraser, ' The Rom migrations ' , JGLS (5), 2 (1992), PP. 131 - 45.

(٥٩) G. Papp, A beás cigányok román nyelvjárása : Beás - magyar szótár.

(لهجة الغجر البوياش الرومانية : معجم بوياشي - مجري) Pécs, 1982 .

المحافظة والطفرة

انتشر الروم الأفلاق في أنحاء متباعدة من القارة الأوربية ، وقد بدوا أكثر غرابةً ممن سبقهم من الغجر ، الأمر الذي قد يدفع إلى القول بأنهم وحدهم هم السدنة الأمناء على تراث قومهم ، (ومن المؤكد أن الروم أنفسهم يؤكدون صحة هذه المقولة، من حيث مشاركتهم معظم الجماعات الغجرية في خصائصها العامة ، بالقدر الذي كان يجعلهم على قناعة بأنهم الغجر الحقيقيون) ، ومع ذلك فليس من البساطة بمكان أن نقدر حجم ما يتفردون به من تراث الغجر ، ففي مجال الفولكلور طوع الغجر عناصر من ثقافة الأغيار الذين كانوا على صلة بهم ، وأدخلوها في أغانيهم وحكاياتهم ، ويمضى الزمن نسي الأغيار هذه العناصر ، تاركين الغجر حفظةً على ما سبق أن استعاروه ، كذلك يمكننا أن نتعرف في مجال اللغة على كلمات كثيرة استعارتها الرومنية من الفارسية والأرمنية واليونانية وغيرها ، ونستخلصها طبقةً طبقةً حتى نصل إلى النواة الأصلية ، على أن الأمر يكون أكثر صعوبةً إذا تتبعنا المنهج نفسه فيما يتعلق بتراث الغجر الثقافي وأنساقهم القيمة . وما ذكرناه صحيح بالنسبة لهؤلاء الذين يدعون أنفسهم روماً Le Rom ، كما أنه صحيح كذلك بالنسبة لغيرهم من الغجر .

يقوم أى مجتمع غجرى على نمط معقد من صلات القرابة العائلية ، وفي حالة الروم، فإن مؤسساتهم العائلية، ربما تكون أيسر في التناول من غيرهم من الجماعات ، وقد يتوافر لها باعتبارها معياراً قدر أكبر من المصداقية^(٦٠)، على أنه لدى الممارسة تصوير مجازفة، أن نتقصى الحقائق من الروم وحدهم ، وهم ينقسمون بداءةً إلى قبائل - أشهرها الكالديراشا والماتشوايا واللوشارا والتشورارا - ويدعو الكالديراشا القبيلة natsia أى أمة ، ويدعوها اللوشارا rasá أى عرق ، والكلمتان معاً مثل معظم المصطلحات

(٦٠) يوجد وصف مسهب لتنظيم الروم الاجتماعى فى (P. Williams, Mariage tsigane (Paris, 1984) وهو يتعامل مع الروم بوجه عام والكالديراش فى باريس بوجه خاص ، ويحتل الروم لاسيما الكالديراش والماتشوايا مكانة بارزة بين الغجر فى أمريكا الشمالية ولدينا كتابات متنامية عنهم قام بها باحثون أمريكيون شماليون مثل :

W. Cohn, The Gypsies (Reading , MA, 1973) ; R. C. Gropper, Gypsies in the City (Princeton, NJ, 1975) ; A Sutherland, Gypsies, the Hidden Americans (London, 1975); and S. Salo , The Kalderas in Eastern Canada (Ottawa , 1977)

التنظيمية الرومية مستعارتان من الرومانية ، وتتفاوت القبائل فى لهجاتها وعاداتها ومظاهر حياتها ، لكنه تعترف ببعضها البعض على أنها روم وتتزوج فيما بينها ، وقد انقسمت كل قبيلة فيما بعد إلى Vitsi (جمع Vitsa ويمكن ترجمتها بعشيرة ، ولو أن اللوقارا يتخذون بدلاً منها تعبير tsérha وتعنى حرفياً خيمة) ، والعشيرة فى واقع الأمر وحدة لإثبات الهوية ، ولها اسمها الرومنى ، وغالباً ما تتحدر من جد واحد (مثل عشيرة فرنكوليشتى Frinkulešti أى التى تنسب إلى فرنكولو ميخائيلوفيتش Frinkulo Mikhallovitch) لكنه قد يكون اسم حيوان أو صفةً محددةً ، وأسماء مثل هذه تكون لها دلالتها الوظيفية الهامة ، حين يتعامل اثنان من الروم لأول مرة ، ويسعيان لأن يتعارفا ، وربما عاش أفراد العشيرة متفرقين ، ولا يزاولون حياتهم كجماعة ، ولذا فالأهم منها وظيفياً الجماعة الأصغر وتعرف بالفاميليا Familia ، أو الأسرة الممتدة التى تضم الأبناء وزوجاتهم وأولادهم وأحفادهم ، بينما تعرف الأسرة الواحدة داخل الفاميليا (والتى يمكن أن تقسم كذلك إلى ثلاثة أجيال) بالتشيرا tséra وتختلف عنها فى النوع الكومپانيا Kumpania ، وهى ليست بالضرورة جماعة قرابية ، وربما ضمت أفراداً من أكثر من قبيلة أو عشيرة أو أسرة ممتدة ، وهى بمثابة حلف ، ينشأ لضرورة اقتصادية ، ويقسم العائد من العمل بالتساوى بين أعضائها ، وغالباً ما يترأس الكومپانيا المؤلفة من عدة أسر رجل كبير rom baró ، يقوم بدوره كحلقة وصل مع الأغيار gad'zé (أو ga'zé كما ينطقها الروم) ، كذلك تعد الكومپانيا الوحدة السياسية الأساسية ويستطيع أعضاؤها أن يتخذوا قراراتهم فى المسائل الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تعد شأنًا عاماً للجميع، أكثر منها شأنًا أسرياً ، فيتداولون الأمر من خلال المناقشة diváno ، ولكن إذا كان الأمر هاماً بما فيه الكفاية ، فلا مندوحة من عرضه على محكمة رومنية kris romana ، لتقضى بما تراه ، وهى تضم أعضاء ذكوراً من عشائر مختلفة ، جميعهم من كبار السن ، بينهم قاض أو عدد من القضاة ، ونادراً ما كان يسمح للنساء بالحضور إلى المحكمة ، لكنه كان ممكناً فى حال ما إذا كانت لها علاقة مباشرة بموضوع الخصومة ، وقرار المحكمة ملزم للمدعين ، ويجب عليهم أن يضعوا مصائرهم بين يديها ، وربما تطول الإجراءات أو تصبح شاقة ، وقد اشتهر الكالديراش عند اللوقارا بولعهم بهذه المحاكم .

ويعد الأفراد الذين ينتمون إلى العشيرة نفسها أقرباءً ، ينتظر منهم أن يمنحوا بعضهم بعضاً العون والحماية فى وقت الحاجة ، كما إن للعشيرة روابطها الطقوسية ،

فيجب على المرء المشاركة في جنازة أحد أبناء عشيرته وفي مراسم دفنه Pomána ، وبذا تصير للقرابة قوتها القاهرة في المساعدة والتعاون ، وغالباً ما يتم تكريس هذه القوة بالتزاوج ، ويبدى الروم استحسانهم للزواج بين أبناء العمومة من الدرجة الأولى ، ويفضل أن يكون الزوج من العشيرة نفسها ، وإلا فيكون من عشيرة الأم أو الجدة ، ولكن الزواج يمكن أن يكون نهجاً جديداً في خلق التزامات متبادلة بأفراد من الكومپانيا لا ترتبط الأسرة معها بصلات قرابية .

وترتيب زواج أحد الأبناء مهمة واجبة الأداء لأبيه ، يشاركه فيها والد العروس المرتقبة ، فضلاً عن الأعضاء الذكور في العشيرة ، وقد يتطلب التداول في شأنه الخطوبة وقتاً طويلاً ، ويصبح شأنها عاماً عندما يتدخل روم آخرون ، مما قد يعرض الجماعة للخطر ، فيسعون من ثم إلى صيغة متناغمة ، تقوم على التبادلية ، ولا يشارك زوجا المستقبل نظرياً في الأمر ، لكنه من الممكن لهما من الناحية العملية أن يؤثرأ على خيار الآباء ، كما أن لهما الحق في رفض مثل هذه الزيجة ، وبعد الزواج يعيشان عادةً مع والدي الزوج ، والمهمة التي تناط بها العروس ليست من السهولة بمكان ، فمن واجبها أن تعنى بوالدي الزوج ، وتؤدي لهما ما يطلبانه من واجبات منزلية ، وتنجب لهما أحفاداً .

هناك اعتبار حيوى للمهر الذى يطلبه والد العروس ، وربما كان أكبر مما يقدر عليه معظم الروم ، وحيثما يوجد هذا التقليد يصير له وقعه الاجتماعى الهام (ولو أنه لم يعد له وجود بين الكالديراش واللوغارا فى بولندا فى خمسينيات القرن العشرين) ، وكم العملات الذهبية التى يتم إعطاؤها ثابت تقريباً ، لكنه يمكن أن يزداد أو ينقص تبعاً لحالة والدي العروسين والعائلتين (وكذا سلوك الفتاة وماضيها وقدرتها على الكسب) وفى حالات استثنائية عندما يلتحق الزوج بعائلة زوجته (ربما لأن أبويه لم يوافقا على الزواج أو لأنه لم يتم) لا يتوقع منه أن يؤدي مهراً ، ولا يعد المهر صفقة تجارية ، ولا يتم إنفاقه مثل أى دخل آخر ، ويمكن اعتباره تعبيراً عن التبادلية، أو عن الإخفاق فى أن تعطى أسرة الزوج إحدى بناتها بالمقابل إلى أسرة الزوجة ، وأحياناً يتم تبادل البنات بالتساوى بين العائلتين (عادة ما يتم تبادل الأخت) ، ويصبح الأمر أيسر بين الأقرباء ، لكن تبادلاً مثل ذلك يفضى إلى صعوبات ، إذا وقع طلاق لإحدى الزوجتين ، وربما شكل مهر العروس فى ذاته مشكلة كبيرة ، كما أنه قد يكون سبباً آخر لتفضيل

كُتَّة من عائلة قرايية ، فمن شأن ذلك أن يدنى من فرص الخداع مثل أن يسترد الأب ابنته ، دون أن يرد مهرها (ليس لأنه غضب من إساءة معاملتها ، بل لأنه أراد أن يفيد بهذا النظام) كذلك يعد الطلاق والزنا من المشكلات التى قد تتطلب لحلها عقد المحكمة ، فيعرب الطرفان عن أسفهما لما جرى ، ولا يتم رد مهر العروس .

كثير من هذه السمات تقتصر على الروم وحدهم ، لذا فليس من الممكن أن نعمم من مجتمع الروم إلى مجتمع الغجر على نحو عام ، فمثلاً جاز للرجل من النحاسين الذين قدموا إلى ليقربول فى سنة ١٩١١ أن يلتحق بأسرة عروسه الممتدة^(٦١)، وحتى فى ترانسيلفانيا فى القرن التاسع عشر ، كانت القاعدة الأساسية بين غجرها الرجل (كما سجلها باحث معاصر ثبت) هى أن الرجل يفارق عشيرته ، ويلتحق بعشيرة زوجته حال زواجه^(٦٢)، وقواعد مثل تلك طبقت على نحو أو آخر بين الغجر فى أقطار أخرى (بما فيها إنجلترا) ، وفيما يختص بمهر العروس فهو أبعد من أن يشمل كل الغجر ، وبالنسبة للكثيرين منهم ، كان التقليد المتبع فى الزواج إنما هو صورة من فرار الفتاة للحاق بمن تريده زوجاً elopement ، فى حين أن هذه الظاهرة تمثل بالنسبة للروم نبذاً للسلطة الأبوية ، ورغماً عن انتشارها اليوم بينهم، إلا إنها تعتبر حدثاً شائناً وبالمثل فإن مؤسسة الكريس ، ورغماً عن وجود نظائر لها بين الزنتى Sinti فى ألمانيا والنمسا ، إلا إنها ليست معروفةً عند كثير من الغجر ، فهؤلاء ليست لديهم سلطة رسمية أو غير رسمية تتعامل مع النزاعات ، وربما يصبح الانتقام الشخصى هو القاعدة المتبعة لمن ينتهك عقد الزواج ونسقاً للعدالة قائماً على العداوة ، يمكن أن يوجد فى أقطار بعيدة كإنجلترا وفنلندا ، وفى الأخير فإن قاعدة عداوة الدم تصحبها قاعدة أخرى لتجنب العنف وبمقتضاها فعندما تعترف عائلة مابمسئوليتها عن انتهاك ما ، فإنها ترحل بإرادتها ، وتتحاشى هؤلاء الذين أضرروا بما أقدمت عليه من انتهاك ، فى حين يسعى سائر الغجر لتأمين إبعاد أفراد العائلتين عن هذه النزاعات^(٦٣).

(٦١) Winstedt ' The Gypsy Coppersmiths ' invasion of 1911 - 13' , PP. 260 - 2 .

(٦٢) H. von Wislocki, Vom Wandern den Zigeunervolke (Hamburg , 1890) , PP. 61 - 8 .

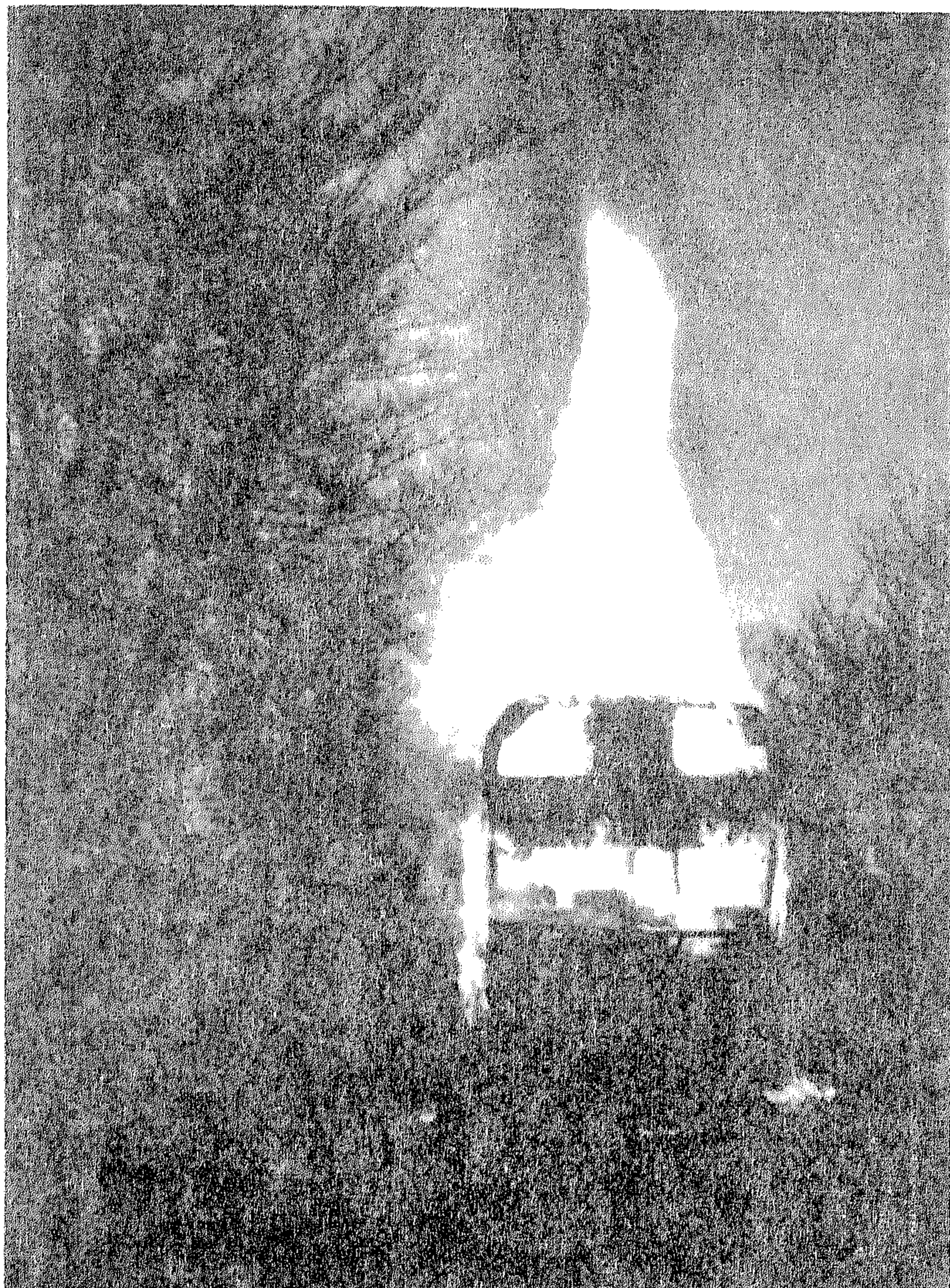
(ولو أنه يجب التعامل مع هذا الكتاب بحذر) .

(٦٣) M. Grönfors, Blood Feuding among Finnish Gypsies (Helsinki , 1977) .

يطرح التباين فى مثل هذه الممارسات سؤالاً لا نحير جواباً عليه ، هو ما إذا كان مهر العروس (وله نظائر بين القبائل الهندية) هو عرف تخلى عنه بعض الفجر أم أنه تسرب إلى الروم (وبعض الجماعات الغجرية المجاورة لهم) فى سياق إقامتهم الطويلة ببلاد البلقان ، وإذا تناولنا ظاهرة الكريس ، فليس صعباً أن نتحقق من تأثيرات معينة محتملة ، ففى النظام الإقطاعى الذى كان سائداً فى جنوبى شرق أوروبا قبل الفتح العثمانى وبعده ، كان السكان يرتبطون على نحو عام برؤسائهم ، وهم شيوخ القرية وأعيانها وعمداء العائلات الممتدة ، ويناظ بهم جباية الأموال وعقد الصفقات ، كما يناظ بهم كذلك تسكين النزاعات الصغيرة ، ويقومون على متابعة القوانين العرفية ، والسؤال الآن ؛ هل كان هذا النظام يفوق نظيره الهندى المتمثل فى المجلس القبلى الذى يترأسه شيخ ذو نفوذ ، ويتم من خلاله الفصل فى النزاعات ، وتصير أحكامه القائمة على الشورى نهائية ؟ ، أياً كان ما نستقر عليه ، فليس من السهل التوفيق بين مؤسسات محكمة مثل هذه طال العهد بها ، وبين فكرة أن الروم الذين قدموا من الأفلاق والبغدان بعد قرون من التعامل معهم كسائمة قد أولوا هذه المؤسسات بعين الاعتبار ، سيما وأن ملاك العبيد لم يكن تعنيهم روابط هؤلاء العائلية ولا زيجاتهم .

وإذا كانت عادات الفجر الاجتماعية شديدة التنوع ، فهل يوجد شىء فى هذا الشأن يمكن أن يوجد به قدر من العمومية أو الإطلاق ؟ الواقع أنه بعد استبعاد العادات الواسعة الانتشار بينهم ، ولكن لها نظائر فى الفولكلور الأوروبى ، ربما يصير لدينا ملمحان يبدوان غجريين بكثافة ، وقد يعودان إلى زمن سابق لوصولهم إلى أوروبا ؛ الأول هو التهييب من انتياب روح الميت وهو الأساس فى شعائرهم الجنائزية ، لكن هذا لم يمنع من أن تكون هذه الطقوس متنوعة إلى حد بعيد ، فربما ارتبطت بأعراف شعبية أخرى أو صدقت بمعتقدات أخرى (كما فى حالة ارتباط المولو mulo وتعنى شبحاً كما تعنى كذلك شخصاً ميتاً بمص الدماء فى أقاليم عديدة بجنوبى شرق أوروبا). ونلاحظ عادةً تمارسها جماعات الفجر فى أقطار مختلفة ، ولكن ليس فى كل مكان ، هى تدمير ممتلكات الميت ، ففى إنجلترا فى زمن العربات كان من عادة الفجر أن يحرقوا متعلقاته الشخصية ويحطموا ما كان لديه من أوان خزفية^(٦٤)، وفى أيامنا هذه

Cf. T. W. Thompson, ' English Gypsy death and burial customs ' , JGLS (3) (٦٤) 3 (1924), PP. 5 - 38 and 60 - 93 ; and J. Okely, The Traveler - Gypsies (Cambridge, 1983), ch. 12.



شكل ٤٠ إحراق شاحنة هارييت باورز في درب قريب من كارزنجتون أوكسفورد سنة ١٩٥٣ ،
شركة كيستون / هلتون دويتش .

عندما حلت السيارات والشاحنات والمقطورات محل الحصان والعربة ، فقد صار من الواجب تحطيم المقطورة ، أو عند الضرورة تباع إلى بعض الأغيار .

على أن الأكثر انتشاراً بينهم هو التهييب من النجاسة ، وما يترتب عليه من محرمات ، ولم يتم التعرف إلى الدلالة الكاملة لقاعدة الطهارة الغجرية إلا في وقت متأخر نسبياً ، وأصبح ممكناً - من ثم - أن ينظر إلى معتقداتهم بشأن التلوث كعنصر جوهري في ثقافتهم ، تعبر عن حدودهم السلافية وتدعمها وترسم الخط الفاصل بين الغجري وغير الغجري^(٦٥)، ومفهوم النجاسة له مسميات عديدة في الرومنية بحسب اللهجة ، فالروم وغجر كثيرون في جنوبي شرق أوروبا يستخدمون كلمة marimé ، أى نجس ، وتعود في أصلها إلى اللغة اليونانية و moxado وهي الصيغة الرومنية في إنجلترا وويلز و magerdó في بولندا تعنيان ملطخاً ، وتعود إلى السنسكريتية mraks أى لطخة ، وعند الزنتى Prastlo أى مخزى أو Palecido أى منبوذ . ومع إن المصطلح يتفاوت ، إلا إن القاعدة نفسها وبصرف النظر عن التفاوتات في خصائصها والالتزام بها ، تظهر درجة عالية من الاتساق ، وحيثما جرى تطبيقها فإن نسق التحريم يبين التفاعل بين الذكر والأنثى ثم بين الغجري وغير الغجري ، ويصبح عاراً ما بعده عار أن يعرف عن رجل ما أنه ملوث ، ويمتد هذا العار ليشمل أهله كذلك ، ويعد

(٦٥) في فترة باكورة تعود إلى العشرينيات من القرن العشرين ، نشرت دراسات عن محرمات النجاسة

في :

T. W. Thompson, ' The uncleanness of women among English Gypsies ' ,JGLS 9 - 33 , PP. 33 - 43 , and 8 (1929) , PP. 15 - 43 , (1922) 1 , (3) وعن دراسات مماثلة تختص ببولندا انظر : J. Ficowski ' Supplementary notes on the mageripen code among Polish Gypsies ' , JGLS (3), 30 (1951), PP. 123 - 32 وأول دراسة ميدانية حديثة هي Gypsy Marimé (MA thesis, Seattle 1968), C. Miller وظهر بعدها :

C. Miller, ' American Rom and the ideology of defilement ' and A. Rao, ' Some Manus Conceptions and attitudes ' in Gypsies , Tinkers and Other Travellers, ed. F. Rehfisch (London, 1975) , PP. 41 - 54 and 139 - 67 ; C. Silverman, ' Pollution and Power : Gypsy Women in America ' in The American Kalderas, ed . M. T . Salo (Hackettstown, NJ, 1981), PP. 55 - 70 ; Okely , The Traveller - Gypsies ; and I. - M kaminski ' The dilemma of Power : internal and external leadership. The Gypsy - Roma of Poland, ' , in The Other Nomads , ed . A. Rao (Cologne, 1987) , PP. 323 - 56 .

موتاً مدنياً له ، حيث يصير أى شيء يرتديه أو يلمسه ملوثاً للآخرين ، وبالنسبة لقوم يقيمون وزناً كبيراً لحياتهم المشتركة ، وتتعدد مناسباتهم الاجتماعية من زواج وعماد وحفلات أعياد وجنازات ، فإن حكماً مثل هذا يصير مفرزاً وعقوبة مؤثرة ، والوسيلة الوحيدة عند الروم لإزالة النجاسة هي عقد الكريس .

وتتعلق التحريمات taboos بأشخاص وأشياء وأعضاء جسم ومواد غذائية وموضوعات معينة للحديث (يعاني الغجر صعوبات من تدريس الجنس فى المدارس)، ولكنه أكبرها ما يتصل بنجاسة الأنثى ، وما يكمن فيها من تهديد للطهارة الطقوسية، ويعتبر القسم الأسفل من الجسد خصوصاً جسد المرأة نجساً، وكل ما يتصل به يمكن أن يكون ملوثاً ، وتدخل فى ذلك الأعضاء التناسلية والوظائف البدنية والثياب الملامسة للقسم الأسفل والتلميحات الضمنية إلى الجنس والحمل ، ويتم الالتزام بقواعد صارمة للاغتسال مثل استخدام طسوت ومناشف وقطع صابون منفصلة لكل قسم من قسمى البدن ، ويمكن أن ينظر إلى حوض غسيل بالمطبخ على أنه نجس ، فوعاء غسلت فيه ملابس ، ينبغى ألا يستخدم فى غسل مناشف الوجه ولا مفارش المائدة ولا أدوات الطهى ولا الأنية الفخارية ، وينبغى أن تغسل ملابس المرأة منفصلة عن ملابس غيرها . وحيث إن المرأة أكثر قابلية للتلوث ، فإنها تخضع لقواعد أكثر صرامة ، ومن الواجب عزلها خلال ذروة نشاطها الجنسى ، وهى البلوغ والطمث والحمل وعقيب الولادة ، كما يجب أن تكون حذرة فى هذا الإبان لما تمسه ، وفى حال ما إذا كانت أسرتها متزمتة فإنها لا تطبخ ولا تقدم الطعام للرجال، وتقل المحظورات فى مرحلتى ما قبل البلوغ وبعد سن اليأس، فيمكن لفتاة صغيرة أن تكشف من ساقها بأن ترتدى تنورة قصيرة، كما تستطيع المرأة العجوز أن تتعامل مع الرجال بحرية ، ويجرى فصل الجنسين فى المناسبات العامة ، حيث تقتعد النساء المكانة التالية للرجال، ومع أنه قد تكون للمرأة مكانة أدنى ، ومنتظر منها أن تلعب دوراً أقل أهمية من دور الرجل ، إلا أنها تمتلك سلاحاً فعالاً ، يتمثل فى قدرتها على أن تلوث الرجل بمجرد أن تلمسه على مرأى من الناس بقطعة من ملابس جزئها الأسفل مثل تنورتها ، وبذا يصير مجرد التلويح بالتجسس سلاحاً فعالاً.

وتدوم قواعد النجاسة العمر كله ، ويصعب الالتزام بها حرفياً فى ظروف كظروف عصرنا ، فالخوف من الملوأ أو النجاسة ، من شأنه أن يعقد بعض الحاجات ، مثل أن

يسعى رومى من سكان البيوت المتنقلة إلى استئجار بيت يؤوى إليه ، فربما يكون قد شغله أحد الأغيار ، لا يعرف هو شيئاً عنه ، حينئذ يصير الأمر أشبه بحقل ألغام ، والاستثناء هو أن يكون قد شغله رومى آخر ، حينئذ تكون المخاطرة أقل ويتم تنظيفه باتقان ، وينظر الفجر إلى الأغيار على أنهم ملوثون ، من حيث جهلهم بنسق النجاسة ، وافتقارهم إلى الفهم الصحيح للعار ، لذا فهم يعيشون خارج حدودهم الاجتماعية ، وتمثل أماكنهم وما يعدونه من طعام خطراً مستديماً للتلوث ، وهكذا فقد استهدفت هذه القاعدة عزل الفجر عن أية صلات حميمة بالأغيار واجتناب أى عمل قد يقتضى مثل هذه الصلات .

الفصل الثامن

الطريق إلى الجحيم

أسفرت الهجرات الحديثة عن تشدد الحكومات الأوروبية تجاه الغجر ، وأحياناً ما كان يتم بعث الأفكار السابقة من مرقدتها ، ولم تلبث أن تنامت هذه الأفكار فى مطالع القرن العشرين ، وجرى تطبيقها بصرامة ، إلى أن اضطلعت معسكرات الموت فى الحقبة النازية بدور أفيرنوس ^(١) Avernus عند القدماء كبوابة إلى الجحيم ، ومادامت صارت ثم حاجة لتبرير فكرى لسياسات القمع ، فقد توافر هذا التبرير فى بعض النظريات التى ظهرت فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، حين ازدهر ما يعرف بالحتمية البيولوجية وهواجس النقاء العرقى ، وكان لأطروحة جوبينو ^(٢) Gobineau الموسومة « بمقال عن عدم المساواة بين الأجناس البشرية » *Essai sur l'inégalité des races humaines* (١٨٥٣ - ١٨٥٥) كان لهذه الأطروحة أبلغ الأثر فى الفكر الفلسفى والسياسى فى أوربا خصوصاً ألمانيا ، فهى تقول ما مؤداه أن العرق هو العامل الحاسم فى التطور التاريخى ، فهناك أعراق عليا وأعراق دنيا ، وذروة الأعراق العليا هو « العرق الآرى » (وهو تعبير فضفاض جرى إطلاقه على من يتحدثون بلغات هندوأوروبية) خصوصاً الشعوب النوردية ، كما كان جوبينو على قناعة بدونية الهجناء ، وقد وجدت نظريته صداها عند هوستون تشامبرلين ^(٣) Houston Stewart Chamberlain

(١) اسم بحيرة تقع قريبة من خليج نابولى بإيطاليا وسط غابة كثيفة ، وتنبعث منها أبخرة سامة جعلت الطيور تتحاشاها ، ومن هنا أتى هذا المسمى Avernus أى عديمة الطيور ، وارتبطت فى المخيلة الشعبية بالجحيم (المترجم) .

(٢) الكونت جوزيف أرتيردى جوبينو (ت ١٨٨٢) دبلوماسى فرنسى وكاتب (المترجم) .

(٣) (ت ١٩٣٧) ومع كونه إنجليزياً إلا إن الحال استقرت به فى ألمانيا وشهد صعود الحركة النازية (المترجم) .

الإنجليزى (زوج ابنة قاجنر)^(٤)، فقام على تطويرها فى كتابه الرئيسى « أسس القرن التاسع عشر » Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts الصادر فى سنة ١٨٩٩ ، وهو فى هذا الكتاب يغالى فى الدور التاريخى للتيوتون ... وبذا لم تتبق سوى خطوة واحدة، كى يدرك الفجر أنهم لم يعودوا بنجوة من مصير، فرضه عليهم عرقهم.. هذه الخطوة تم اتخاذها مع صدور كتاب « الإنسان الجانح » L'uomo delinquente لسيزار لومبروزو Cesare Lombroso^(٥) فى سنة ١٨٧٦ ، وقد أحدث هذا الكتاب ثورة فى علم الإجرام ، ولكن من منطلق بيولوجى ، فهو يؤكد على الأصل الوراثى للجريمة ، وفى عرضه لفساد الطبقات الدنيا وانحلالها ، لم يذكر الفجر بخير ، وأعطى زخماً لصورتهم عند المختصين بمنع الجريمة ، فيصفهم بأن لا خير يرجى منهم ، وأنهم قوم قليلو الحياء ، لا يكثرثون بما يجرى حولهم ، مزعجون مغرمون بالعنف فسقة فجرة ، لديهم ولع بتناول الجيف ، ويشتهيه كذلك فى تناولهم للحوم الموتى ، واعتبر أن ما يظهرونه من براعة فى الموسيقى ببلاد المجر ، إنما هو ببساطة بمثابة « دليل آخر على موهبة لها أصولها الوراثية توجد عند المجرمين » ، والأكثر من ذلك فالداروينية الاجتماعية^(٦) التى راجت بعد سنة ١٨٩٠ توصلت إلى أن العامل البيولوجى هو العامل المطلق فى كل مناحى الحياة ، وأن من واجب الدولة أن تتخلى عن حمايتها للضعفاء ، وتحول باهتمامها إلى تشجيع العناصر القوية بيولوجياً ، وإن فائدة الفرد الاجتماعية وقدرته بيولوجيا هى المعيار لقيمه الاجتماعية .

مناهضة الفجر وإزعاجهم

لم تضم الهجرات المتجددة غرباً أعداداً كبيرة من الفجر ، لكنها كانت كفيلاً بلفت الأنظار إليهم ، فقد بدا هؤلاء المهاجرون غرباء فى مظهرهم وأسمائهم ، ولم يكن فى إمكانهم صرف انتباه السلطات عنهم ، وقد أفضى ما تنامى من أفكار ذكرناها إلى أن

(٤) (ت ١٨٨٢) الموسيقار الألمانى الكبير ، وقد عرف بعدائه الشديد لليهود (المترجم) .

(٥) (ت ١٩٠٩) عالم إيطالى وأحد الرواد الكبار فى علم الإجرام (المترجم) .

(٦) نظرية عنصرية ظهرت كصدى لنظرية داروين فى أصل الأنواع ، وذهبت إلى أن الاختلافات التى تنتقل بالوراثة تخضع للانتقاء ، ثم تحوات بعد ذلك إلى أن البقاء للأصلح أى الأقوى (المترجم) .

تتشدد هذه السلطات فى موقفها منهم ، وكانوا هم بدورهم من حين إلى آخر يستقزون نزعات عدوانية كان يظن أنها باتت فى طى النسيان وتعطينا البلاد الواطنة مثلاً طيباً على ذلك^(٧)، فبعد النجاحات الباهرة لحمالات صيد الغجر فى القرن الثامن عشر (انظر ص ١٧٤) بدا كأن السلطات قد نسيت الغجر كجماعة تتطلب معاملة خاصة ، وبين سنتى ١٧٩٩ - ١٨٦٨ واصلت الوثائق الهولندية صمتها عن ذكر من يعرفون بالهايدن والمصريين Egyptenaars ، رغماً عما توافر من دلائل لوجود جماعات ناشطة عن رحل يماثلون الزنتى الألمان ، يعمل أفرادها على نحو أساسى كملهين (موسيقيون ومحركو دى وما إليه) ، وقد عاودت السلطات انتباهها إليهم منذ ١٨٦٨ ، عندما لاحت طلائع النحاسين المجريين والدبابة البوسنويين ، ومع أنهم كانوا يرتدون ثياباً بالية إلا إنه توافرت لديهم أموال ووثائق مرور سارية المفعول (وهما المعياران الأساسيان فى القواعد المنظمة للتعامل مع الأجانب) ، لكن المسئولين الرسميين فى الحكومة المركزية صاروا أكثر حذراً فى التعامل معهم ، وأطلقوا عليهم اسماً مستعاراً من الألمانية ، ومارسوا ضغوطهم على السلطات المحلية كى لا تعترف بالـ Zigeuner ولا تيسر إقامتهم ، وبدأ الغجر من طائفة الزنتى يجدون أنفسهم مواجهين بالموقف نفسه . وكان يدفع السلطات الهولندية إلى ذلك، هو أنه عندما كانت تنتهى إقامة هؤلاء الغجر ، فإنهم لا يجدون من يتقبلهم فى دول الجوار ، وبذا فقد شددت من إجراءاتها لدى حدودها ، خصوصاً حدودها مع ألمانيا .

لم تتوقف الدول الألمانية بدورها عن استرابتها فى الغجر الرحل ، وانصرف إهتمامها فى منتصف القرن التاسع عشر إلى القادمين الجدد ، فأصدرت دوقية بادن الكبرى فى سنة ١٨٥٥ مرسوماً « تحذر فيه من أنه » فى هذ الآونة يتوالى توافد غجر من الأكراس خاصة ، فيطوفون بمختلف الأنحاء صحبة عائلاتهم بزعم العمل ، لكنهم غالباً ما يزاولون التسول وغيره من الممارسات غير المشروعة » . ورغماً عن قيام الإمبراطورية الألمانية فى سنة ١٨٧١ وضمها الأكراس واللورين ، فلم تتخل الدويلات Länder التى نهضت بهذه الإمبراطورية عما درجت عليه من إشراف على حدودها، وما تزال كل واحدة منها مسئولة عن شرطتها وأسلوبها فى التعامل مع الغجر ، وفى سنة

See . L. Lucassen , ' En men noemde hen Zigeuner ' (Amsterdam / The (٧) Hague, 1990) .

١٨٨٦ لفت بسمارك Bismarck^(٨) - المستشار الإمبراطوري - أنظار الحكومات المحلية إلى ما تصاعد من شكاوى من عصابات غجرية ، تعيش فساداً في أنحاء الرايخ ، وتتسبب في إزعاج سكانه إزعاجاً شديداً ، ونوه إلى ضرورة أن تتوخى الشرطة في تعاملها مع هذه المشكلة التمييز بين الغجر الأجانب وبين هؤلاء الذين صاروا مواطنين ألمان^(٩). ويلاحظ أن بعض الدويلات الألمانية لا سيما الكبيرة منها ، كانت قد اتخذت مواقف قريبة من موقف بسمارك ، ولدى إصدارها مراسيم بإيعاز منه ، فإنها اتبعت سياسة تتلاءم مع توجيهاته ، وتتخلص هذه المراسيم في إبعاد الغجر الأجانب أو التخلص منهم من ناحية ، وإجبار الغجر المحليين على أن يطرحوا الترحال جانباً ويستقروا من ناحية أخرى ، ومن أجل اجتناب مشكلات التعريف ، فلم تستخدم الوثائق الرسمية مصطلحات عرقية جامدة ، إذ غالباً ما كانت تستخدم عبارات مثل «الغجر أو أى رجل لهم هيئة الغجر» ، وظل الاهتمام بالغجر الأجانب شغلاً شاغلاً للرايخ في سنواته الباكرة ، وعندما طلب المستشار الألماني في سنة ١٨٨٩ تقارير عما تم إنجازه في هذا الشأن ، تبين له أنه قد تم إحراز تقدم كبير .

لم تجد ألمانيا صعوبة في أن تحظى بتعاون الدول المجاورة ، كي لا يتسرب الغجر إليها ، وورد في التعليمات التي أصدرها وزير خارجية بروسيا في سنة ١٩٠٦ ، بشأن مناهضة الغجر وإزعاجهم Bekämpfung des Zigeunerunwesens أنه تم التوقيع على تسع اتفاقيات ثنائية مع النمسا - المجر ، بلجيكا ، الدنمارك ، فرنسا ، إيطاليا ، لوكسمبورج ، البلاد الواطئة ، روسيا وسويسرا ، ومع ذلك فقد صرفت بروسيا معظم همها في هذا الإبان نحو غجرها المحليين ، الذين كانوا ما يزالون رحل، وشددت من إجراءاتها ضدهم ، انصياعاً لتوجيهات بسمارك ، وأول هذه الإجراءات هو ضرورة أن يحصل الغجر على تراخيص بمزاولة مهنة ، تقتضى التنقل من مكان إلى آخر ، والحد في الوقت نفسه من إصدار هذه التراخيص ، وذلك بتعقيبات بيروقراطية ، مثل أن

(٨) أوتوفون بسمارك (١٨٩٨) رجل دولة بروسى ، مستشار مملكة بروسيا ثم الإمبراطورية الألمانية ، ويعده الألمان أحد أبطالهم القوميين (المترجم) .

(٩) R. Hehemann, Die ' Bekämpfung des zigeunerunwesens ' im Wilhelmenis- chen Deutschland und in der Weimarer Republik 1871 - 1933 (Frankfurt am Main, 1987) PP. 246 - 50 .

(وهو أهم عمل شامل عن الصلات بين الغجر والأغيار في ألمانيا خلال هذه المرحلة) .

يأتى الفجرى بما يدل على إقامة ثابتة ، ونقاء صحيفة أحواله الجنائية ، وحصول أبنائه على مستوى تعليمى لا بأس به ، وسجلات ضريبية مناسبة.. ومما يدعو للاستغراب أن كثيراً من الفجر نجحوا فى الحصول على الأوراق اللازمة ، وجدير بالذكر أن السلطات البروسية وافقت على مبدأ استقرار الفجر ، مادام لا يتم محلياً ، أى لا يتطلب نفقات من المجتمع المحلى ، مما كان يدفع الفجر إلى الرحيل فى مقابل أن يمنحوا تراخيص بذلك^(١٠).

كانت بروسيا بعيدة عن التشدد تجاه الفجر ، فقد كانت الريادة لباثارييا ، وإن تأخرت بشأنها بعض الوقت^(١١) ، فلا يتضح من الوثائق الباثارية التى تعود إلى المرحلة ١٨٠٠ - ١٨٥٠ ما يدل على شغلها بالفجر ، إذ كانت تعتبرهم مجرد فصيل من المتشردين ، وعندما تطلب الأمر إصدار تراخيص للرحل فى ستينيات القرن التاسع عشر ، فإنها أفادت بها كوسيلة مناسبة للرقابة عليهم ، كما كانت هى الحال فى أى مكان آخر . وأول ما اتخذته من إجراءات ضدهم يتحدد بسنة ١٨٨٥ ، حين صدر مرسوم بفحص أوراقهم فحصاً دقيقاً على الحدود أو داخل البلاد ، وسحب تراخيص عملهم ما أمكن ذلك ، فضلاً عن فحص جيادهم فحصاً بيطرياً على نفقتهم ، للتأكد من خلوها من الأمراض ، وحتى فى حال تغلب الفجر على هذه العراقيل ، فإنهم كانوا يظلون تحت المراقبة ، وشهدت سنة ١٨٩٩ إنشاء إدارة للتدقيق فى التقارير الخاصة بتنقلاتهم ، وما قد يكون اتخذ ضدهم من إجراءات وبذا صار يوجد سجل خاص بهم ، وعندما تراكمت مادته ، تبين أنه قد وقعت لهم تطورات هامة ، فقد أضحي الفجر الحقيقيون من النذرة بمكان ، وظهرت جماعات تترحل من مكان إلى آخر ، يتخذ أفرادها هيئة الفجر ، ويتظاهرون بتجارة الخيول أو الروائح العطرية ، أو أنهم ملهون وموسيقيون ، لكنهم كانوا فى حقيقتهم متسولين ولصوصاً ، وغالباً ما قيل إنهم مجريون مهاجرون أو ألمان لا مأوى لهم ، ولو أنه كان من بينهم بالفعل عدد من الدبابة البوسنويين والموسيقين البوهميين .

Cf. W. Günther , Zur Preussischen Zigeunerpolitik seit 1871 (Hanover, (١٠) 1985) , PP. 13 - 14 .

Cf. E. Strauss, ' Die Zigeunerverfolgung in Bayern 1885 - 1926 ' , Giessen- (١١) er Hefte Für Tsiganologie (1986), 1 - 4 / 86 , PP. 31 - 108 .

أضحت هذه المؤسسة التي أسست في ميونيخ مصدراً لمبادرتين كبيرتين ، فقد نشر مديرها ألفريد ديلمان Alfred Dillmann في سنة ١٩٠٥ « الكتاب الغجري » Zigeuner - Buch كمرشد للشرطة في بافاريا وما جاورها من أقطار ألمانية في جهودها لاستئصال ما دعاه « بالوباء الغجري » die Zigeuner plage ، فأحصى بالدقة ما لا يقل عن ٣٣٥٠ من الغجر وغيرهم من الرحالين ، كما حدد المواطن الأصلية لما يقارب شطرهم ، غالبيتهم (نحو عشرين بالمائة من كل القيودات) أتوا من النمسا - المجر (بوهيميا والنمسا خاصة) وحوالي عشرين فقط يقال إنهم أتوا من البوسنة وكرواتيا وسلوفاكيا وغاليسيا والمجر ، وبعد سنتين من نشر هذا الكتاب وصل العدد في سجل ميونيخ إلى ما يزيد على الستة آلاف ، والمبادرة الثانية هي عقد مؤتمر في ديسمبر سنة ١٩١١ ، شاركت فيه ستة أقطار ألمانية أخرى ، للتنسيق فيما بينها والاتساع بسجل ميونيخ ، إعتماًداً على مصادر المعلومات ، على أن اشتعال الحرب العالمية حال دون المتابعة ، وبعد مؤتمر آخر عقد في سنة ١٩٢٥ ، واصلت بافاريا عملها ، بأن استصدرت في العام التالي قانوناً يوجب توطين الغجر ، كما يسمح بالزج بهم وبغيرهم من البطالين Arbeitsscheue الذين لا ينتظمون في عمل في إصلاحيات مدة عامين لأسباب تتعلق بالأمن العام ، ولا يهم هنا كون هؤلاء الغجر رحل أم غير رحل ، وكان التبرير الذي تقدمت به الحكومة إلى الجمعية التشريعية البافارية هي إن « هؤلاء القوم بطبيعتهم لا يريدون ممارسة أى عمل ، ويصعب عليهم التخلي عن حياة الترحال ، وعليه فلا يوجد أقسى من سلبهم حريتهم وقسرهم على العمل » ولم يلبث أن امتد مكتب ميونيخ بنشاطه في أبريل سنة ١٩٢٩ ليغطي ألمانيا بأسرها ، وتغير اسم لجنة الشرطة الجنائية الألمانية ، ليصبح المكتب المركزي لمناهضة الغجر وازعاجهم . وعلى أية حال فإن ما قامت به جمهورية فايمار Weimar^(١٢) قد مهد الطريق للنظام الذي أتى بعدها .

صار للمثال البافاري تأثير واسع وحذت حذوه دوائر أخرى للشرطة ، وجدت من واجبها أن تنهض بعمل مماثل ، فتوجهت الحكومة السويسرية في سنة ١٩٠٩ بدعوتها

(١٢) وهي الجمهورية الألمانية التي نشأت بعد انعقاد المجلس الوطني بفايمار في سنة ١٩١٩ ، وتزعّمها الاشتراكيون الديمقراطيون ، لكنها أخفقت في معالجة المشاكل التي واجهتها إلى أن سقطت في سنة ١٩٣٣ ليقفز إلى السلطة أدولف هتلر وحزبه النازي (المترجم) .

لجيرانها الأربعة من أجل أن يتفقوا على آلية دولية لتبادل المعلومات عن الغجر ، لكنها لم تصل إلى شيء ، ومضت إدارة العدل في اعتمادها على سجلها القومي المؤسس على غرار نموذج ميونيخ^(١٣) وشرعت في برنامج هو الأقسى من نوعه ، لاقتلاع الترحل داخل البلاد، ففي سنة ١٩٢٦ ، وبدعوى التماشي مع نظريات تحسين النسل والتقدم ، اعتزمت مؤسسة Pro Juventute وهي مؤسسة محترمة إعادة توطين أطفال الرحالين Jenische ما أمكن ذلك ، بهدف جعلهم أفراداً طبيعيين ، وبذا بدأ نظام انتزاع الأطفال من ذويهم دون موافقتهم ، وتغيير أسمائهم ووضعهم في دور تربية ، وقد استمر هذا الخطف المنظم حتى سنة ١٩٧٣ وكان قد تم انتزاع ما يزيد على ستمائة طفل^(١٤).

نهجت فرنسا نهجاً مختلفاً ووقعت التغيرات الحاسمة بها في العقدين السابقين لاشتعال الحرب العالمية الأولى^(١٥) ، ففي مارس ١٨٩٥ أجرى إحصاء لكل « الرجل والفجر والمتشردين » وشكلت بعد ثلاث سنوات لجنة لتحليل نتائج هذا الإحصاء ، يتضح منها أن عدد الجوالين ينيف على الأربعمئة ألف « الرجل منهم في جماعات أو كراقات » يصلون إلى خمسة وعشرين ألفاً ، ويوضح الإحصاء التباينات السلالية للجوالين في فرنسا ، فهناك نسبة عالية من المانوش Manouches (المقابل الفرنسي للزنتي الألماني) ، كثير منهم غادروا الألزاس واللورين بعد ضمهما إلى ألمانيا ، بينما حمل آخرون أسماءً مشابهةً للأسماء التي سبق أن حملها الفجر في فرنسا قبل عدة قرون . ومعظم هؤلاء المسجلين كانوا حاملين للجنسية الفرنسية ، رغمًا عن وجود رحل إيطاليين ، كانت أعدادهم كبيرة في أوفيرن Auvergne ، وبعضهم كانوا من الزنتي البييدموننتيين Piedmontese Sinti صناع سلال وباعة جوالون ولاعبو أكورديون ، ولا يوجد حضور واضح لعائلات أتت من أواسط أوروبا وشرقيها ، وعهد إلى الشرطة

(١٣) T, Huonker, Fahrendes Volk - verfolgt und verfermt (Zürich, 1987), P. 36 .

(١٤) Ibid., PP. 74 - 115 . W. Haesler, Enfants de la Grande - route (Neuchâtel, 1955) .

ويتضح أن النتائج الاجتماعية والتربوية لمجموعة من الأطفال الذين كانوا موضعاً للدراسة لم تكن ذات قيمة كبيرة ، لكنه من المؤمل فيه أنه بتغيير المنهج التربوي يمكن أن يتم التوصل إلى بعض التحسن .

Cf. F. de Vaux de Foletier, Les Bohémiens en France au 19e Siècle (Paris, 1981), ch. 10 .

إبتداءً من سنة ١٩٠٧ بأن تأخذ صوراً ضوئية « للمتشردين والرحل والفجر » ما أمكنها ذلك ، وترسل بالتفاصيل إلى إدارة المحفوظات المركزية بباريس ، وفي الوقت نفسه أعرب بعض أعضاء البرلمان عن استيائهم لما كان يقوم به الفجر من سلب ونهب ، مما أسفر في النهاية عن صدور قانون في يوليو سنة ١٩١٢ بإصدار بطاقة أنثروپومترية Carnet anthropométrique^(١٦) لكل جوال أياً كان أصله ، وأصبحت هذه البطاقة وثيقة هوية تحوى بيانات تفصيلية عن حاملها وصوراً ضوئية له وبصمات أصابعه ورقم رخصة مركبته ، كما التزم رب الأسرة ، بأن يحمل سجلاً جماعياً من مائة صفحة تقريباً ، يشتمل على بيانات عن أفراد عائلته كافة ، على أن يتم ختم السجل ، لدى الحلول بمكان ما ولدى مغادرته ، وقد تسبب هذا النظام في مضايقات جمة للفجر ، فقد أتاح المجال لمحاكمة أى منهم في حال عدم حمله لهذه البطاقة (مثلما كان يحدث حين تحتجزها الشرطة بهدف فحصها) ، ومع ذلك فقد درجت بعض القرى على إقامة لافتات خارجها ، تعلن صراحةً « الرحل يمتنعون » Interdit aux nomades ، وقد استمر هذا النظام في فرنسا نحواً من ستين سنة .

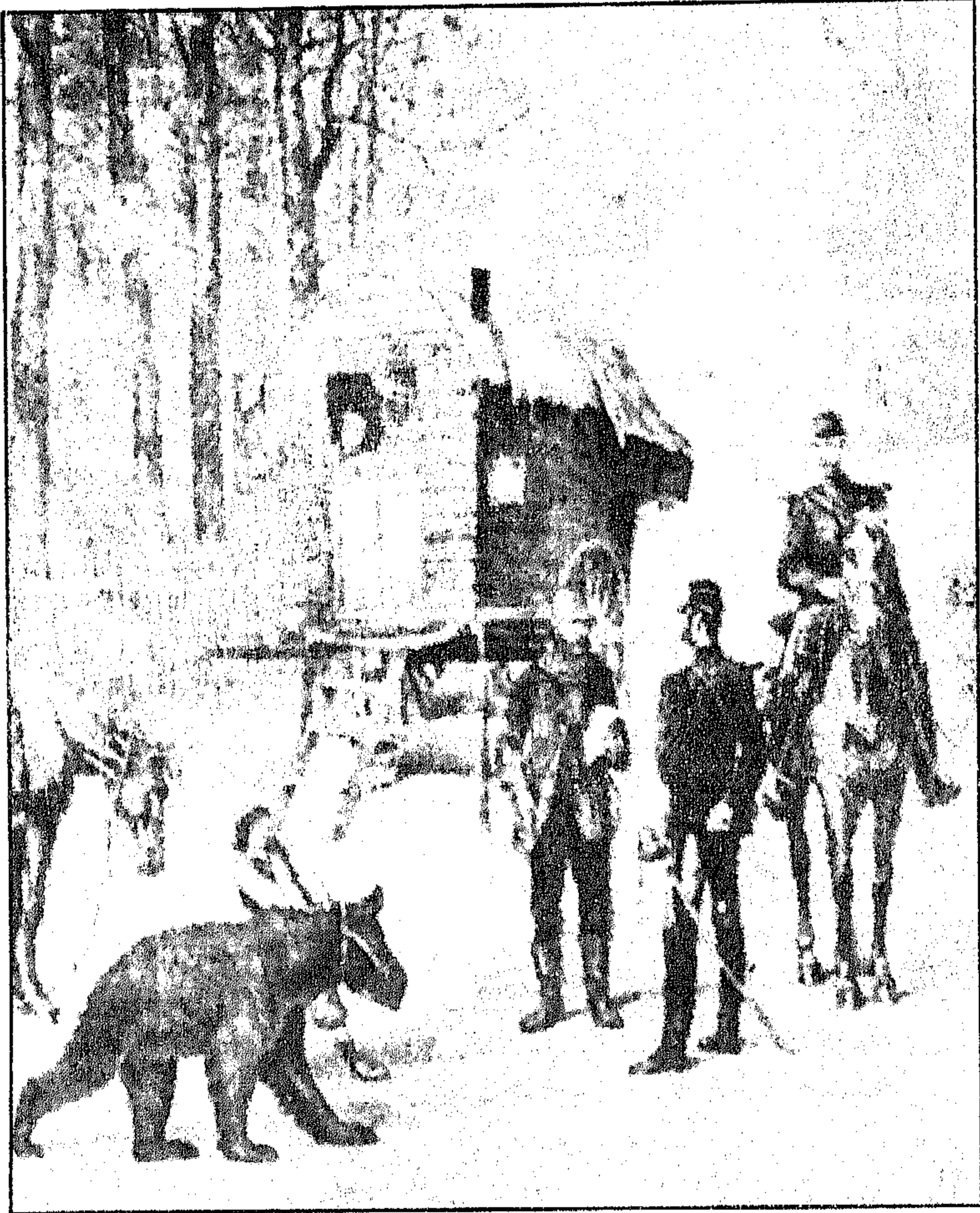
أما في بريطانيا ، فقد شهدت قرب نهاية القرن التاسع عشر ضغوطاً شديدة ، من أجل تسجيل غجرها ، نهض بها إلى حد بعيد رجل واحد . ولم يكن الفجر يتفردون وحدهم دون غيرهم بمعاملة تشريعية خاصة ، فكانت تسرى عليهم قوانين عدة ، أكثرها عمومية تلك القوانين التي تختص بالتعامل مع الباعة الجوالين والتشرد والصحة العامة والتسييج ، وكانت الحال قد تدهورت بهم ، بعد أن همشهم التحضر ، وتدنت الحاجة إلى خدماتهم ، ولم يعرب أحد عن رغبته في دمج « الرومانيين الحقيقيين » ، إنما كان الهدف هو المترجلين الذين كان أسلوبهم في الحياة يتصادم مع مصالح مجتمع مستقر ، الأمر الذي من شأنه تجاهل حقيقة أن مصير جماعة واحدة يرتبط لا مشاحة بمصير جماعة أخرى^(١٧) . ومنذ السبعينيات ألح مصالح كبير ، ينتمى إلى عائلة كبيرة ، ويدعى جورج سميث من كولفيل Coalville ، كما كان يحب أن يضيف إلى اسمه (انظر شكل ٣١) ألح على ضرورة إصلاح أحوال الصبية العاملين في قمائن الطوب وسكان المجارى المائية وأخيراً الفجر الذين كان يقرنهم بالهمج والسائمة ، ويتهمهم بالافتقار إلى

(١٦) الأنثروپومترية فرع من فروع الأنثروبولوجيا الطبيعية ، ويعنى بالقياسات التشريحية (المترجم) .

(١٧) العمل الرائد في هذا الموضوع هو : T. M. Acton, Gypsy : Politics and Social Change

(London 1974) كما توجد مادة غزيرة تتعلق بهذا الموضوع في : D. Mayall : Gypsy Travellers in

Nineteenth Century Society (Cambridge, 1988).



شكل ٤١ منظر للإحصاء الفرنسي في سنة ١٨٩٥ ، لوبيتي جورنال ٥ مايو ١٨٩٥ ،

الأخلاق ، وفى دعوته هذه التى كرس لها حياته ، دون أن يقيم وزناً ، لما كانت عليه عائلته من رفاهة عيش ، استطاع أن يكسب الصحافة إلى جانبه ، وتمخضت جهوده عن مشروعات لقوانين البيوت المتنقلة Moveable Dwelling Bills ، كان هو المحرض عليها ، وعرضت على البرلمان خلال السنوات ١٨٨٥ - ١٨٩٤ وكان سميث يستهدف تسجيل البيوت المتنقلة جميعها ، وأن تتلاءم مع المعايير القانونية ، وتخضع للتفتيش نهاراً ، بينما ينتظم أبناء الغجر وساكنى العربات فى المدارس حداً أدنى من السنين . وكانت الغاية من هذه المشروعات هى استيعاب الغجر اجتماعياً ، على أن سميث عندما كان يوعز إلى أحد الأعضاء بالتقدم بأحد مشروعاته كان يقابل دائماً بالرفض ، وانتهى الأمر بوفاته فى سنة ١٨٩٥ ، على أن معظم ما كان يسعى إليه من أهداف - عدا التسجيل - قد تم تضمينه فى مراسيم متعددة تتابعت حتى سنة ١٩٣٦ .

تعود المعارضة لأفكار سميث فى جانب منها إلى الخشية على الحريات المدنية ، والخشية كذلك من أن يلتحق بالمدارس صبية فاسدون ، لكن المعارضة الأساسية تمثلت فى موقف نقابة متعهدي الحفلات الاستعراضية التى تشكلت فى سنة ١٨٨٩ ، لرعاية مصالح العاملين فى هذه الاستعراضات ، وعلى نحو خاص للضغط ضد مقترحات جورج سميث ، . وصرف النظر عن ذلك فلم توجد هيئة منظمة ، تدلى بدلوها للدفاع عن مصالح هؤلاء الذين يمكن أن يتأثروا بمثل هذه المشروعات، ورغمما عن قيام بعض الأغيار بتأسيس جمعية للغجريات Gypsy Lore فى سنة ١٨٨٨ (يعود الفضل الأول فى قيامها إلى جورج بارو انظر ص ٢٢٣) فإن المجلة التى أصدرتها لم تعد تعن كثيراً فى أعدادها الأولى بمشكلات الغجر المعاصرة ، وقد استمرت هذه الجمعية حتى سنة ١٨٩٢ ، ثم أعيد إحيائها فى سنة ١٩٠٧ ، وقدر لها أن تعيش بعد توقف لسنوات قليلة حتى أيامنا هذه ، وبعد أن نجحت فى استكتاب جمهرة المتخصصين أوروبيين وأمريكيين فى تراث الغجر ولغتهم أضحى هدفها هو تجميع مادة علمية، حققت بعض النجاحات ، ولم يكن ذلك قبل سنة ١٩٠٨ ، حين بذلت محاولات لتمرير مشروع قانون البيوت المتنقلة ، وشنت جمعية الغجريات بدورها حملة قوية للتأثير على رأى العام بشأن الطريقة التى ينبغى أن يعامل بها الغجر^(١٨).

(١٨) لدينا تقرير عن التاريخ الباكر لجمعية الغجريات فى 100 A. M. Fraser, 'A rum lot', in Years of Gypsy Studies , ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), PP. 1 - 14 .

المحرقة المنسية

عندما قفز الحزب النازي إلى السلطة في ألمانيا في سنة ١٩٣٣ ، كان قد ورث جهازاً تشريعياً متطوراً ، يحكم قبضته على جماعات من غير المرغوب فيهم ، ومع ذلك فقد كان موضعاً للسخرية من قبل الحكام الجدد ، بسبب ما نسبوه إليه من تراخ في زمن سابقهم ، وكتب أحد النازيين ويدعى جيورج ناأروكي Georg Nawrocki في صحيفة هامبورجر تاجبلات Hamburger Tageblatt في أغسطس سنة ١٩٣٧ كتب يقول : « انسجاماً مع ما كانت عليه من هوان وتهافت ، لم تبد جمهورية فايمار ما يدل على سعيها لحل المسألة العرقية ، فقد كان الزنثى في نظرها شائناً إجرامياً في أحسن الأحوال ، ونحن نرى من ناحيتنا أن هذه المسألة إنما هي فوق كل شيء مسألة عرقية ينبغي أن تحل وسوف تحل »^(١٩) ، وقد كان اليهود والغجر في واقع الحال هما الجماعتين العرقيتين الوحيدتين المرشحتين للإبادة، وفقاً لأيديولوجية الاشتراكية - الوطنية^(٢٠).

كان من الضروري للتعامل مع هذه المشكلة أن يبدأ بتحديد دقيق ، لمن يوصفون بأنهم غجر ، وتمييزهم عن غيرهم من المواطنين في الرايخ وصار هذا التحديد أكثر إلحاحاً ، لدى صدور ما عرف بقوانين نورمبرج Nuremberg في سنة ١٩٣٥ ، فقد

(١٩) ترجمة عن الألمانية من . R. Vossen, Zigeuner (Frankfurt am Main, 1983) P. 70 .
(٢٠) اقتضى الأمر عدة سنوات ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حتى تظهر دراسات تهتم بمعاملة النازي للغجر ، ويتوافر لدينا العديد منها ، معظمها مكتوب بالألمانية ، كما أن لدينا بليوجرافيا مفيدة هي G. Tyrnauer, Gypsies and the Holocaust (Montreal, 1989). وأهم عمل لدينا بالإنجليزية هو D. Knrick and G. Puxon, The Destiny of Europe's Gypsies (London, 1972) . حيث يركز على المرحلة النازية ولدينا كذلك : B. Müller - Hill, Murderous Science (Oxford, 1988), a translation of Tödliche Wissenschaft (Reinbeck bei Hamburg, 1984) ; M. Zimmermann, 'From discrimination to the 'Family Camp' at Auschwitz : National Socialist persecution of the Gypsies ' . Dachau Review, 2 (1990) PP. 87 - 113 ; S. Milton , " The Context of the Holocaust ' , German Studies Review, 13 (1990), PP. 269 - 83 ; and The Gypsies of Eastern Europe, eds D. Crowe and J. Kolsti (New York / London, 1991) أما في الفرنسية فلدينا C. Bernadac (L'Holocauste oublié (Paris, 1979) وهو كتاب مناسب أخذنا منه كثيراً .



شكل ٤٢ : دكتور ريترو ومساعدته إيفايورتين يأخذان عينة دم من غجری ، الأرشيف الإتحادی كوبلنتس .

تحددت مع هذه القوانين جميع المؤهلات اللازمة للمواطنة الكاملة ، وشرعت المذكرات التفسيرية لها تتعامل مع الغجر واليهود جميعاً بوصفهم «عرقاً أجنبياً» Fremdrasse ، تشكل دماؤهم تهديداً خطيراً لنقاء العرق الألماني ، من الواجب مواجهته بحظر التزاوج معهم ، أو إقامة علاقات خارج نطاق الزواج ، وفى سنة ١٩٣٧ نيط بالدكتور روبرت ريتز Robert Ritter عالم النفس والطبيب الذى مارس أبحاثاً عن الغجر لسنوات خلت، نيط به الإشراف على المركز الذى أنشئ حديثاً فى برلين باسم « مركز أبحاث الصحة العقلية والبيولوجيا السكانية » ويتبع وزارة الصحة الألمانية ، وقد أصبح أهم مركز لتحديد الغجر وتصنيفهم ، وإجراء الأبحاث عن الصلات بين الوراثة والإجرام إعتياداً على سلاسل الأنساب ، وبصمات الأصابع والقياسات الأنثروبومترية ، وقد سعى الفريق الذى ترأسه ريتز لإعداد سجل كامل لكل من يحمل دمً غجرياً ، وتحديد درجة الاختلاط العرقى ، ومن أجل ذلك كان رجاله ينتقلون حيث يقيم الغجر ، بل كانوا يلاحقونهم عندما يزج بهم فى معسكرات الاعتقال ، وكان بإمكانهم الاعتماد على سجلات الشرطة فى المكتب المركزى الذى جرى نقله من ميونيخ إلى برلين ، وبعد ضم Anschluss النمسا صار فى إمكانهم الاعتماد كذلك على المادة التى أتاحها لهم مركز مشابه أنشئ فى فيينا فى سنة ١٩٣٦ كمركز دولى ، وفى سنة ١٩٣٨ وبمقتضى مرسوم أصدره هاينريتش هيملر Heinrich Himmler^(٢١) بعنوان « مناهضة الوباء الغجرى » Bekämpfung der Zigeuner Plage أعلن أن الغجر من ذوى الدم المختلط هم أكثر الغجر نزوعاً إلى الإجرام ، وركز على الحاجة، لأن ترسل الشرطة بتقارير عن الغجر كافة إلى مكتب الرايخ المركزى^(٢٢)، وفى تقرير له عن تقدم العمل ، بتاريخ يناير ١٩٤٠ ، صار بإمكانه أن يصرح بأنه « أصبح فى إمكاننا الآن إثبات أن ما يزيد على تسعين بالمائة ممن يدعون بالغجر ، هم من ذوى الدم المختلط ، وآخر ما توصلنا إليه من نتائج يسمح لنا بأن نحدد خصائصهم بأنهم قوم من أصول عرقية بدائية تماماً ، وأن تخلفهم العقلى يجعلهم غير قادرين على تكيف اجتماعى حقيقى .. ويمكن أن تحل المسألة الغجرية حينما يتم حشد معظم الغجر من ذوى الدماء المختلطة ، والذين لا

(٢١) (ت ١٩٤٥) قائد الـ SS والجستابو Gestapo (الشرطة السرية) وهو أحد كبار المسؤولين عن إبادة ما عرف بالأجناس الدنيا فى الحقبة النازية (المترجم) .
(٢٢) H-J. Döring , Die Zigeuner im NS - Staat (Hamburg , 1964), PP. 58 - 60 .

ترجى منهم فائدة في معسكرات عمل كبيرة ، وكذلك حينما نجعلهم يتوقفون عن الإنجاب مرة واحدة وإلى الأبد» (٢٣).

نهض هيملر في مرسوم أصدره في أغسطس ١٩٤١ بتفصيل قواعد « التقويم البيولوجي - العرقي » ، وجعلها تمتد إلى الوراثة ثلاثة أجيال (بالنسبة لليهود كان التقويم لجيلين فقط) ، وتراوح نظام التدوين بين رمز Z (للفجر Zigeuner الخالص) ورموز ZM + و ZM و - ZM (للفجر المختلطين Zigeunermischling) وتنوه علامتا + و - إلى ما إذا كان الدم الفجري هو الدم السائد أم لا ، ورمز NZ (Nicht Zigeuner أى ليس فجرياً) وكان يكفي أن يكون للمرء جدان بعيدان فجريان ، ليخرج من فئة غير الفجر، وكما حدث بالنسبة لليهود، فقد جرى تقليص فئة غير الفجر إلى حد بعيد ، كذلك فقد صنف المرسوم - ولو على نحو مبتسر - قبائل الفجر في ألمانيا إلى ست مجموعات هي الزنتي (الفجر الألمان) والروم (سلالة الفجر الذين أتوا من المجر حوالي سنة ١٨٧٠) والجيلدراري Gelderari (وهم فرع من الروم) أى الكالديراش واللوقاري Lowari (وهم فرع آخر من الروم) واللالييري Lalleri (وهم سلالة الفجر الذين أتوا من إمبراطورية النمسا - المجر السابقة حوالي سنة ١٩٠٠ ، خصوصاً من بوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا ، وتعنى لالييري في الرومنية الأعاجم ، أى الذين يتحدثون بلهجة مختلفة) وأخيراً فجر البلقان المتحدرون من الدبابة ، وفي مارس سنة ١٩٤٣ أبلغ ريتر جمعية الأبحاث الألمانية ، بأن « تسجيل الفجر وأشباههم قد تم على نحو أولى بالنسبة لبلاد الرايخ القديم (ألمانيا قبل الحرب) والنمسا Ostmark ، ورغماً عن الصعوبات التي سببتها الحرب ، وما تزال دراساتنا جارية في الأقاليم الملحقة بألمانيا ، وعدد الحالات التي توصلنا إليها من خلال البيولوجيا العرقية هي ٢١٤٩٨ في الوقت الحالي » ، ويعد عشرة شهور ارتفع العدد إلى ٢٣٨٢٢ (٢٤).

رحب جمهور العلماء بالفرص التي أتاحها لهم النظام الجديد ، وفي سنة ١٩٤٣ كتب البروفسور أ ، فيشر E. Fischer مدير معهد القيصر فيلهلم للأنثروبولوجيا في مجلة دويتشى ألجيمايني تسايتونج Deutsche Allgemeine Zeitung يقول : « إنه من دواعي الغبطة أن ينتعش علم نظري ويزدهر في زمن يحظى فيه بالترحيب من قبل

Müller - Hill , Murderous Science,P. 57 .

Ibid., PP. 59 - 60 .

(٢٣)

(٢٤)

الأيدولوجية السائدة، وأن يخدم بما توصل إليه من نتائج سياسة الدولة»^(٢٥)، ومع ذلك فإن ما ادعاه العلماء من دقة غير صحيح ، والتصنيفات العنصرية المتدرجة التي ألبسوها لباس العلم لم تتبع دائماً ، ولعبت الانطباعات الشخصية دوراً هاماً في الحكم على حالات تعود إلى فريق ريتز ، أو بالأخص إلى فعاليات الرسميين الذين كانوا أحياناً ما يصابون بالارتباك ، لدى وضعهم ما وصلت إليه الصحة العرقية موضع التنفيذ .

كان نهج هذه الإجراءات وتوقيتها ، يعتمد أساساً على ما إذا كان الفجر موضع البحث ، يعيشون داخل حدود الرايخ أو في أراض محتلة أو موالية ، ففي داخل الرايخ أوكلت مهمة الإشراف إلى الجهاز الذي أنشئ مؤخراً بعد توحيد الشرطة والأمن ومنظمات ال SS^(٢٦) في سنة ١٩٣٦ تحت إشراف هيلمز ومساعدته الأول رينهارد هيدريتش Reinhard Heydrich^(٢٧) ، وكانت السلطات تعتمد في البداية على التدابير العامة التي جرى اتخاذها في سنوات الرايخ الأولى ، بشأن تحسين النسل ومنع الجريمة ، والتي تسمح بتعقيم المتشردين وإبعاد الأجانب غير المرغوب فيهم ، وإرسال صغار السن من المجرمين إلى معسكرات الاعتقال ، وقد ابتنى أولها في دحاو Dachau على مقربة من ميونيخ في مارس سنة ١٩٣٣ ، ومنذ سنة ١٩٣٧ ازدادت الضغوط على غير الاجتماعيين Asocials (وهو مصطلح باهت أطلق على الفجر وآخرين ممن لا يشكلون جزءاً من « مجتمع طبيعي ») ، ثم ازدادت وطأة هذه الضغوط على الفجر وجرى تطبيقها بلا رحمة ، ودون أن يصحبها رد فعل غاضب سواء في الداخل أو الخارج ، مثل ذلك الذي جعل النازيين يحتاطون بعض الشيء في تعاملهم مع اليهود على الأقل في الأيام الأولى ، احتراماً منهم للرأي العام العالمي، وفي ديسمبر سنة ١٩٣٧ أصدر وزير داخلية الرايخ أمراً ، حدد فيه القواعد الواجبة الاتباع في التعامل مع أشخاص غير اجتماعيين ، وقرر بأن تكون معسكرات الاعتقال هي العلاج الناجع لهم ، وفي يونيو من العام التالي صدر أمر من هيلمز بأن تقوم الشرطة في كل مقاطعة

Ibid., PP. 61 .

(٢٥)

(٢٦) أي منظمة العاصفة ، وهي منظمة شبه عسكرية أسسها الحزب النازي ، قبل وصول هتلر إلى السلطة وأضحى لها وضع خاص بعد ذلك (المترجم) .

(٢٧) أغتيل على أيدي الوطنيين التشيك في سنة ١٩٤٢ (المترجم) .

بنقل حصّة من الغجر لا تقل عن مائتين إلى معسكرات الاعتقال ، وفي مارس سنة ١٩٣٩ صدرت بطاقات هوية خاصة لونها بنى للأقلية الغجرية النقية وبطاقات أخرى لونها بنى وبها خطوط زرقاء للمخلطين منهم ورمادية للمتشردين من غير الغجر .

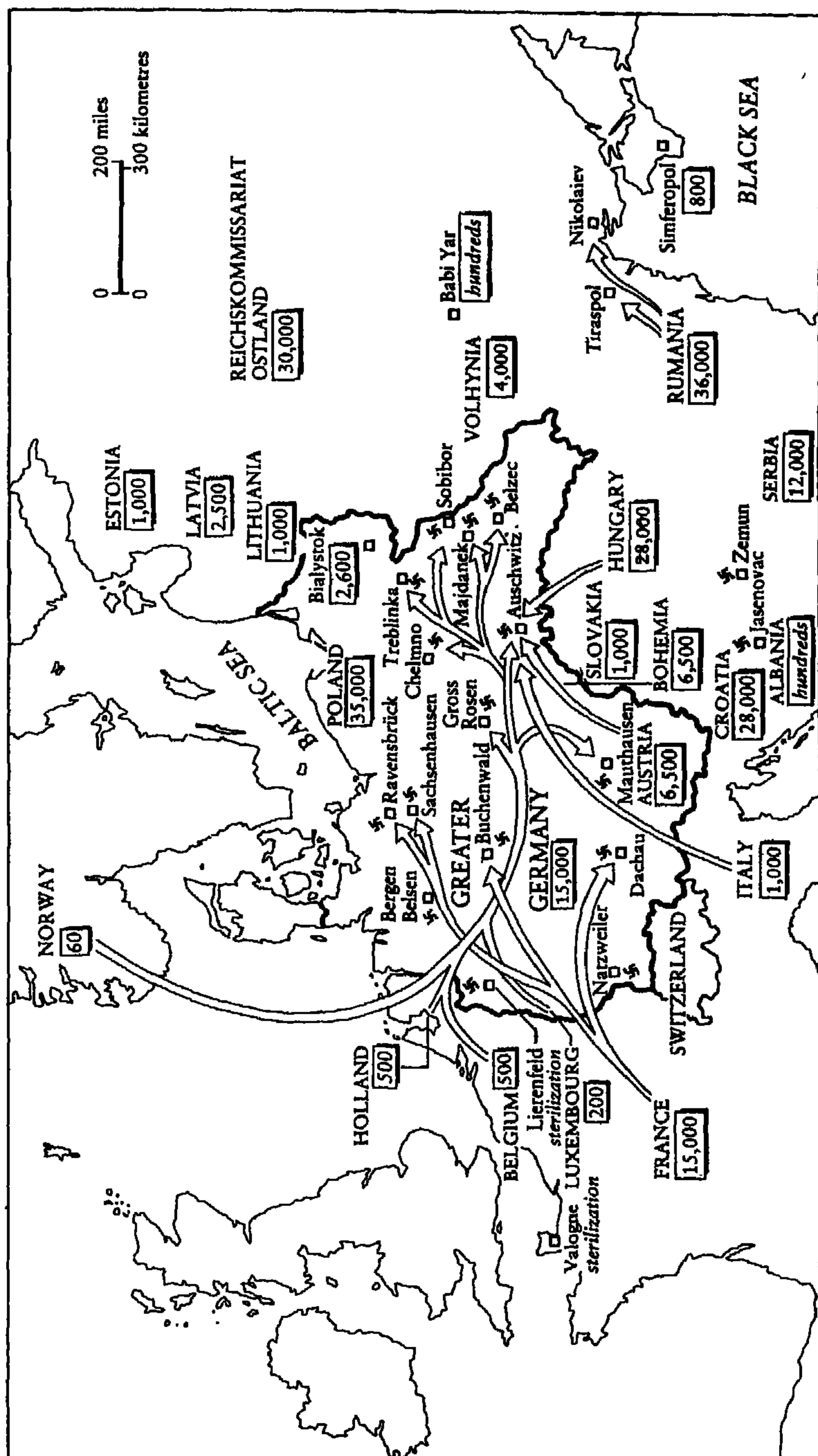
فى النمسا التى جرى ضمها فى سنة ١٩٣٨ كان غالب الغجر يعيشون فى بورجنفالد Burgenvald ، وهو الإقليم الذى يقع على الحدود مع المجر (والذى كان حتى سنة ١٩١٩ جزءاً منها) ، وكانت سياسة التوطين التى اتبعتها ماريا تيريزا قد أتت أكلها هناك ، وكان حاكمه توبياس بورتشى Thobias Portchy قد استولت على ذهنه أفكار ترتبط على نحو أساسى بالتعقيم الإجبارى والاعتقال والعمل القسرى ، مستهدفاً بذلك حفظ الدم النوردي من خطرهم ، وفى يونيو سنة ١٩٣٩ صدرت أوامر من برلين ، ترتب عليها أن بدى بحشد أعداد كبيرة من الثمانية آلاف غجرى الذين يعيشون فى هذه المنطقة ، برسم الحجز التحفظى ، ثم سيق بعضهم إلى معسكرات اعتقال كبيرة ، مثل دخاو وبوخنفالد Buchenwald ، أو إلى معسكر أنشيء مؤخراً للنساء فى رافنزبريك Ravensbrück ، وفيما بعد إلى ماوتهاوزن Mauthausen فى النمسا نفسها ، كما زج بغجر آخرين فى معسكرات عمل ، وفى نوفمبر سنة ١٩٤٠ افتتح معسكر خاص بالغجر فى لاكنباخ Lackenbach ببورجنفالد ، ويعد أكبر من المعسكرات الآخر الذى أقيم فى زالتسبورج قبل ذلك بعام ، ولم يلبث أن أودع فيه ألفاً سجين .

رغمًا عن هذا كله ، فغالبا ما كانت طموحات النازيين فى مجال «الصحة العرقية» تفوق قدرتهم على إنجازها ، ففي سبتمبر سنة ١٩٣٩ تقرر فى مؤتمر دعا إليه هيدريتش بوجوب أن يرحل جميع الغجر الذين مايزالون يعيشون فى الرايخ إلى بولندا ، وفى الشهر التالى صدر أمر بتوقيفهم وجمعهم فى معسكرات مؤقتة تمهيداً لإبعادهم . لكن الدولة لم تكن قد استعدت بعد ، لإنجاز عمل ضخّم مثل هذا ، كما لم يكن العلماء قد انتهوا بعد من أبحاثهم ، وبناءً على خطاب عاجل من هيملر بتاريخ أبريل ١٩٤٠ أبعد نحو ألفين وخمسمائة من الغجر من غربى ألمانيا وشمالى غربىها إلى بولندا ، حيث فرض عليهم العمل القسرى ، وتبعهم فى الخريف آخرون ، أتى بهم من النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، حيث هلكوا فى المعسكرات التى زج بهم إليها ، لكنه لم يقدر لهذه الخطوة أن تكتمل ، وكبدل مؤقت بحثت فى رئاسة أمن الرايخ فى سنة ١٩٤١ إمكانية

أن يساق الغجر فى سفن إلى البحر المتوسط ، ثم تقذف هذه السفن بالقنابل ، ولمرة الثانية كان عدم الانتهاء من الأبحاث الأنثروبولوجية حجر عثرة فى سبيل هذا المشروع .

على أية حال كان الأمر يتطلب نظرة أكثر شمولية كنتيجة للغزو الألمانى للاتحاد السوفيتى فى يونية سنة ١٩٤١ ، وبعده بقليل صدر قرار « بالحل النهائى للمسألة اليهودية » ، وعهد إلى هيدريتش بهذه المهمة التى شملت الغجر حسب فهمه للحل النهائى . وكان لابد من الحصول على إذن من الحكومة العامة (وهى الأقاليم البولندية التى لم يتم ضمها إلى الرايخ ، لكنها كانت تحت الحكم الألمانى المباشر) ، حتى لا تتولد مشكلات حادة للنقل إلى هناك ، وبدأ تشاليمو Chalemo ، وهو معسكر الموت القريب من قرية بولندية نائية يزاوول عمله فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، واستخدم غاز ثانى أكسيد الكربون المحمول على شاحنات لقتل الغجر (نحو خمسة آلاف) الذين جمعوا من بولندا ، بمن فيهم هؤلاء الذين سبق إبعادهم من ألمانيا ، فضلاً عن الذين ظلوا على قيد الحياة بعد وباء التيفوس فى معزل لوتس Lodz ، وكان أتى بهم إليه بالملئات من لاكنباخ Lackenbach قبل شهور قليلة^(٢٨) وفى أقصى الشرق أى فى الأقاليم التى تم الاستيلاء عليها مؤخراً ، وهى جمهوريات البلطيق وروسيا البيضاء التى صارت تعرف بأوستانلاند Ostland وأوكرانيا بدأ الغجر يعانون من تبعه الحكم المدنى الألمانى ، بينما نشطت فى المناطق العسكرية مجموعات خاصة من الـ SS تعرف باسم Einsatzgruppen ، وكانت قد أتت فى أعقاب الجيوش المتقدمة على جبهة طولها ألف ميل من البلطيق إلى البحر الأسود ، وقد بذلت هذه المجموعات جهداً كبيراً فى المهمة المنوطة بها ، وهى استئصال اليهود والغجر والمرضى عقلياً وغيرهم من « العناصر غير المرغوب فيها » . وكانت العادة أن يطلق عليهم الرصاص ، وأتى الدور على من تبقى من الغجر فى الرايخ فى ديسمبر ١٩٤٢ ، عندما أمر هيلمير بأن يبعث بكل الغجر المخطئين إلى أوشفيتس وأعقبته سلسلة من القرارات المماثلة ، لتطبق فى الأقاليم المحتلة ، وقد تم التوسع بأوشفيتس بركيناو مؤخراً ، مما أتاح لغرف الغاز والمحارق الفرصة لأن تفتك بهم بطاقة يومية تقدر بعدة آلاف لعدة شهور ، وأعد للغجر قسم خاص بهم ، على أنه أعفيت جماعات من الروم وأشباه الغجر من مرسوم هيلمير (مثل من لديهم زوجات

Cf. Thurner , Nationalsozialismus und Zigeuner in Österreich (Vienna, 1983) (٢٨)
PP. 174 - 9 .



خريطة ه عمليات إبعاد الفجر ونبحهم ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .
(مأخوذة عن كتاب مارتين جيلبرت « أطلس ماكسيمالين للهولوكوست » (١٩٨٢))

أريات ، أو من يعمل منهم فى القوات المسلحة) لكنهم أرغموا على التعقيم الطوعى ، كما استبعد كذلك الفجر الخالص من الزنتى واللاليرى الذين كان يعتقد بأنهم أقل ميلاً للزواج المختلط ، وربما كان هيملى يرغب فى الاحتفاظ بعينة صغيرة للبحث فيمن يمثلون نظرياً حياة هندو ألمانية مبكرة (كان ذلك على الأقل هو الحافز الذى عزاه إليه رودلف هيس Rudolf Höss^(٢٩) قائد معسكر أوشفيتس) ، ولذا فقد سمح لهم بقدر من حرية الحركة ، ومنذ أكتوبر ١٩٤٢ صدر تكليف لتسعة من زعماء الفجر لإعداد قوائم بهؤلاء المؤهلين لمعاملة مثل هذه ، تضمنت أشباه غجر يصلحون للاندماج معهم ، على أن ما ذهب إليه زعيم الـ SS من اجتهاد لم يحظ برضاء زعماء نازيين آخرين ، وقد أحاطه مارتن بورمان Martin Bormann^(٣٠) علماً بأن « الفوهرر لن يشجع استرداد بعض الفجر ما كان لهم من حريات » ، ولم يتمخض المشروع عن شيء .

على أية حال فنادرًا ما كان يتوافر للشرطة الجنائية المحلية وقت كى تميز بين الفجر ، عندما تتاح لها الفرصة لجعل المنطقة خالية منهم ، وفى النهاية لم يعد فى إمكان أى غجرى أن يصير بنجوة من معسكرات الاعتقال والموت ، وبين هذه المعسكرات كان لأوشفيتس أهمية رمزية كبرى ، فمع أنه كان مجرد معسكر واحد بين معسكرات كثيرة (انظر خريطة هـ) ، لكنه كان أكبر تجمع للفجر من كل أوروبا المحتلة ، واختصهم بمساحة بها أربعون تكتة خشبية ، حيث كانوا يعيشون فى مجموعات عائلية إلى أن تأتى اللحظة النهائية ، كذلك فقد كان أحد المعسكرات التى شاع فيها إجراء تجارب على النزلاء ، مما يعد انحرافاً فى العلم الطبى ، وبمجرد ما وصل الفجر الألمان ، عهد بهذه المهمة إلى طبيب جديد هو دكتور يوزيف مينجىلى Josef Mengele ، الذى زاول عمله ليل نهار دون كلل سواء فى تقرير الحياة أو الموت للشحنات اليومية المتجددة من المعتقلين ، أو فى إخضاع اليهود والفجر لمعاناة همجية ، وقد ظل المعسكر الفجرى بأوشفيتس بركناو باقياً لسبعة عشر شهراً ، وبين الثلاثة وعشرين ألفاً من

(٢٩) ظل سجيناً نيفاً وأربعين سنة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى مات فى سنة ١٩٨٧ (المترجم) .
(٣٠) (ت ١٩٤٥) نائب هتلر (١٩٤٢ - ١٩٤٥) وأحد معاونيه المخلصين (المترجم) .

المسحوقين مات ٢٠٠٧٨ ، ونقل الآخرون إلى معسكرات أخرى ، وكان السبب في موت هؤلاء هو الإجاعة والعمل الشاق والتجارب الطبية والمرض أو الغاز ، وفي ١٣ أغسطس ١٩٤٤ حل الصمت بالمعسكر الفجرى الذى كان يضج بالحياة ، فقد ألقى بألفين وثمان مائة وسبعة وتسعين من النساء والأطفال والرجال (بعضهم جنود سابقون فى القيرماخت Wehrmacht)^(٣١) إلى غرف الغاز، وقد تم ذلك فى ليلة واحدة ، ولم يعد يوجد فجرى واحد ، ومع ذلك فقد احتفظ بالتقارير الأنثروپولوجية عنهم إلى ما بعد انتهاء الحرب، وبعد عشرين سنة كانت الأبحاث على ما خلفته من مادة ماتزال جارية على أيدي زملاء الدكتور روبرت ريتز.

خارج الرايخ تفاوتت مصائر الفجر بين بلد وأخرى^(٣٢)، تماماً مثلما حدث عند تطبيق الحل النهائى للمسألة اليهودية ، وأكبر خسائر لحقت بالفجر كانت فى يوغوسلافيا ورومانيا وبولندا والاتحاد السوفييتى والمجر ، وتحدثت سياسة النازى فى تلك الأقاليم بالزج بالفجر فى معسكرات ثم شحنهم من هناك إلى ألمانيا وبولندا ، لاستخدامهم كعبيد عمل ، أو (خصوصاً منذ عام ١٩٤٣) ذبحهم فى معسكرات الموت ، ولم يكن الألمان وحدهم هم الذين يقومون باعتقالهم ، فكانت فرنسا قد وضعت قيوداً مشددة ضد الفجر ، قبل عدة شهور من الاحتلال الألمانى ، وبعد الاستسلام ، نشطت فى إعداد معسكرات للحجز التجظى فى كل من القطاع الخاضع للإدارة الألمانية وفى حكومة فيشى Vichy^(٣٣) ، وبذا صار هناك ثلاثون ألفاً من الفجر وغيرهم من « الرحل nomades » يقوم على حراستهم كل من الشرطة الفرنسية والجيش^(٣٤)، وفى النهاية أرسل بالكثيرين منهم إلى معسكرات الاعتقال ، خصوصاً بوخنوالد وداخا وراخنزبريك ، وألحق بعضهم بالفجر الذين أتى بهم من أوروبا كلها إلى معسكر ناتسفايلر Natzweiler فى الألزاس ، حيث كان أطباء الـ SS يمارسون على نطاق

(٣١) وهو الجيش النازى (المترجم) .

(٣٢) يتوافر موجز لذلك فى الفصلين السادس والسابع من كتاب كنريك وباكسون ' The Destiny of Europe's Gypsies (revised in the Romani version , Bersa bibahtale , London 1988) .

(٣٣) نسبة إلى مدينة فيشى وكانت قد استقرت بها حكومة فرنسية عميلة للنازى رأسها المارشال بيتان (١٩٤٠ - ١٩٤٤) (المترجم) .

Cf. Bernadac, L'Holocauste oublié ,PP. 43 - 144 .

(٣٤)

واسع تجاربهم على ضحايا من الغجر ، لمعرفة مدى تأثير الغاز السام والتيفوس^(٣٥). أما في هولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ، فقد تم التخلص من الغجر الذين كانت أعدادهم في الأصل قليلة ، وفي بلجيكا تساوت أعداد الضحايا من اللوفارا والزنتى ، وكان من اليسير القبض عليهم ، بفضل السجل الذى سبق أن أعدته بلجيكا للرحل فى سنة ١٩٤١^(٣٦) ، أما فى البلاد الواطئة ، فقد واجهت الحملة التى قامت بها الشرطة الهولندية والدرك فى مايو ١٩٤٤ لاعتقالهم مشكلات كبيرة، لدى تحديد من هم الغجر ، فالخطة التى أعدت لتسجيلهم فى سنة ١٩٣٧ جرى اجهاضها لعدم توافر الاعتمادات المالية ، على أنه حالما أطلق سراح سكان الكراثانات من غير الغجر Woonwagenbewoners ومن لديهم جوازات سفر من دول الحلفاء أو الدول المحايدة ، فإنه تم إرسال مائتين وخمسة وأربعين غجرياَ معظمهم من الزنتى إلى أوشفيتس ، لم يعد منهم أكثر من ثلاثين^(٣٧) ، على أن هناك بلداً واحدة من البلاد المحتلة لم يصل فيها العسف مع الغجر إلى مداه ، هذه البلد هى الدنمارك، حيث كانت المشكلة هى صعوبة التمييز بين الجماعات المترحلة، وكانت تصنف جميعها على أنها غير اجتماعية ، بمطلق هذه التسمية .

لم تكن الحال على هذا النحو فى بوهيميا ومورافيا ، اللتين كانتا تحت الحماية الألمانية ، وفاقنا فى قساوتهما ما كانت عليه الحال فى سلوفاكيا المستقلة اسماً ، ووصلت إلى قريب من الإبادة التامة ، فمن بين ثمانية آلاف من الغجر ، عاشوا فى بوهيميا ومورافيا لم يتبق على قيد الحياة سوى ستمائة ، ومع ذلك فقد كانت أكبر خسارة أصيب بها الغجر فى يوغسلافيا ، وذلك بعد أن تم تمزيقها بين أربع من دول المحور أو الموالية له (ألمانيا ، إيطاليا ، المجر ، بلغاريا) ، فضلاً عن دولة المتعاونين

(٣٥) فى فرنسا وفى غيرها من البلدان التحق بعض الغجر بحركات المقاومة والأنصار ، ولدينا معلومات عن نشاطات سرية لكومبانيا من اللوفارا والتشورار فى فرنسا المحتلة . انظر: J. Yoors , Cross-ing (New York, 1971). U. Köning , Sinti und Roma unter dem National sozialismus. Verfolgung und Widerstand (Bochum, 1989) وهو يتعامل على نحو عام مع موضوع المقاومة .
(٣٦) J. Gotovitch, ' Quelques données relatives à l'extermination des tsiganes de Belgique' Cahiers d'histoire de la seconde guerre mondiale, (1976) , PP. 161 - 80 .
(٣٧) B. A. Sijes et al. Vervolging van Zigeuners in Nederland 1940 - 1945 (The Hague, 1979) , and Lucassen, "En men noemde hen zigeners" , ch . 6 .

فى كرواتيا ، والتى كانت تضم إذ ذاك البوسنة والهرسك ، فحالما وصل الانفصاليون الكروات إلى السلطة ، فإنهم شرعوا فى إقامة حمامات دم للأقليات غير الكاثوليكية، وكانت ميليشيا الأوستاشا Ustasha (الفاشيست) فظيعة فى وحشيتها ، حتى إن السلطات العسكرية الألمانية هالها ما حدث ، أما فى صربيا المحتلة فقد درجت الحال على الاستخدام المنظم للغجر كرهائن ، أى إنهم كانوا دائماً ضحايا لفرق الإعدام (بمستوى مائة لكل ألماني يقتله الأنصار ، وخمسين لكل ألماني يصاب بجروح) ، بينما بعث بأخرين بشاحنات الغاز إلى معسكرات الموت ، وسرعان ما ترامت الأنباء فى أغسطس ١٩٤٢ بأن صربيا هى أول دولة حلت فيها كل من المسألة اليهودية والمسألة الغجرية ، وبالمثل فقد استخدمت الحكومة العسكرية فى بلاد اليونان غجرها كرهائن ، لكنه صرف النظر عن نقلهم إلى أوشفيتس فى سنة ١٩٤٣ ، وذلك بعد التماسات تقدم بها رئيس الوزراء ورئيس أساقفة أثينا ، ولو أنه قدر لبريطانيا أن تحتل ، فربما لم يكن غجرها ليجدون سبيلاً للهرب ، وهو ما يتضح فى صيف ١٩٤٢ ، حين أبدى قسم الاستخبارات الخارجية فى الـ SS اهتماماً وراءه ما وراءه بأعداد الغجر هناك .

وقدر للدول ذات السيادة التى شاعت الالتحاق بركب هتلر أن تتخلف عن ألمانيا فى تعاملها مع غجرها ، طالما امتلكت مصائرهما ، فقد قامت إيطاليا بترحيل عائلات غجرية إلى جزائرها ، وتركهم هناك يواجهون قدرهم ، ولم يكن ذلك إلا بعد استسلام إيطاليا فى سنة ١٩٤٣ ، حين تم تجميع الغجر الذين كان يعيشون فى أراض خاضعة للجيش الألماني ، وبعث بهم إلى العمل القسرى فى ألمانيا ، أو إلى معسكرات الاعتقال ، وفى ولاية ألبانيا التى كانت تابعة لإيطاليا ، كانت خسائر الغجر أقل ، لأن المحتلين الإيطاليين والحكومة الألبانية العميلة لم يصرفوا سوى القليل من اهتمامهم إليهم ، وبعد سقوط موسوليني لم يستمر الألمان الذين حلوا محله إلا أقل من سنة ، كما كانوا فى وضع عسكري قلق ، ولم يتوافر لهم وقت لتصنيف الجماعات العرقية هناك ، أما فى المجر فكان الاضطهاد محدوداً حين كانت الدولة مستقلة ، لكن العمليات الكبرى بدأت فى سنة ١٩٤٤ ، فخلال عدة شهور من الاحتلال الألماني جرى نقل ثلاثين ألفاً من الغجر ، لم يعد منهم سوى عشرين ، أما فى رومانيا فكان أهم ما قامت به هو أنها رحلت عشرات الآلاف من الغجر إلى مناطق قفر فى ولاية ترانسنيستريا Transnistria ، وهى قطاع من أوكرانيا استولت عليه من الاتحاد السوفيتي ، وقد هلك معظمهم بسبب التيفوس ، بيد أن بلغاريا تفردت بين الحكومات التابعة أو الحكومات الدمى فى أوروبا

الهتيرية بحصانتها ضد التعصب، فمنذ أن ربطت نفسها بالمحور في سنة ١٩٤١ لم تقم بترحيل أحد من يهودها ، رغمًا عن الضغوط الألمانية الهائلة ، وعمول الغجر في بلغاريا وفي الأقاليم التي احتلها البلغار معاملةً أفضل مما كانت عليه في البلدان المجاورة ، ولو أن هؤلاء الذين التحقوا بالأنصار في مقدونيا ، عوملوا بمثل ما كان يعامل به غيرهم ، ويعلق وزير هتلر المفوض في صوفيا بأسى على ما آلت إليه الحال في دولة الفلاحين هذه فيقول : « تفتقر ذهنية الشعب البلغاري إلى الرؤية الأيديولوجية التي يتمتع بها شعبنا ، فقد عاش حياته كلها مع أرمن ويونانيين وغجر ، ولم يتبين ما في وجود اليهود من ضرر يدفعه إلى اتخاذ إجراءات خاصة ضدهم »^(٣٨).

بسبب الامتداد الجغرافي الشاسع لهذه الهجمة الهمجية على الغجر ، ولوجود فجوات عديدة في السجلات ، يصير من غير الممكن لنا أن نصل بدقة إلى الأعداد الحقيقية للضحايا ، بل ربما لا تكون هذه الأعداد مهمة ، على أننا يمكن أن نقدر عدد من هلكوا من الغجر خلال الحرب بما يتراوح بين ربع المليون إلى النصف المليون^(٣٩) ، وليس ثم مبرر لهذه المذبحة ، ومعظم من عاشوا بعدها حملوا عاهات عضوية وعقلية، وأضحى الدافع إلى هذه المعاملة موضوعاً ذا أهمية فائقة في تعويضات ما بعد الحرب في ألمانيا (أي في الجمهورية الاتحادية ، حيث إنه ظلت عدة مئات فقط من الزنتي تعيش في المنطقة السوفيتية التي أضحت فيما بعد جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، مفضلين الاحتفاظ باستقلالهم الاقتصادي)^(٤٠) وإذا كان السبب في التضحية بغجري، هو احتمال أن يصبح مجرمًا ، وليس ببساطة لأنه غجري ، فيجوز الادعاء بأن ما جرى له هو مجرد إجراءات أمن عادية ، وقد سادت المحاكم الألمانية لسنوات طويلة فكرة أنه لم يضطهد أحد من الغجر لأسباب عرقية حتى سنة ١٩٤٢ ، وبالتالي فأى إجراء اتخذ ضدهم قبل ذلك سواء كان مبرراً أم غير مبرر لا يستأهل أى تعويض. وفي سنة ١٩٥٩ نظرت محكمة استئناف هام قضية رفعها غجري يدعى إريك بالاس Erik Balasz كان قد ألقى القبض عليه في بولندا في سنة ١٩٤٠ ، وكان عمره وقتها ستة عشر عاماً ،

Cf. Kenrick and Puxon, The Destiny of Europe's Gypsies, P. 131 . (٣٨)

Vossen, Zigeuner, PP. 85 - 6 . (٣٩)

وهو يذهب بعد تحليل دقيق بلداً بلداً إلى أن الإجمالي هو ٢٧٥٠٠ مقارنة بالعدد الإجمالي للغجر في البلدان المعنية سنة ١٩٣٩ وهو ٩٤٧٥٠٠ .

Cf. T. Zülch, ' und auch heute verfolgt ? ' Zeitschrift für kulturaustausch, 31 (٤٠)

(1981) , PP. 397 - 410 , esp. P. 399 .

وحبس لخمس سنوات ، بينما قتل أبواه ، وقد قالت المحكمة « ليس من المهم ما إذا كان المدعى فى ذلك الوقت غير اجتماعى أم لا ، والعامل الأهم هو أن الشرطة الجنائية اعتبرته غير اجتماعى ، لهذا اقتادته إلى الحجز التحفظى »^(٤١) ، وظلت الحال على ذلك حتى ديسمبر ١٩٦٣ ، حين صدر قرار من محكمة العدل الاتحادية باعتبار البداية الأولى للاضطهاد العرقى هى سنة ١٩٣٨^(٤٢) ، وحتى فى هذه الحال ، فقد كان الضحايا الذين ما يزالون على قيد الحياة يتقاضون تعويضات متواضعة .. هذا إذا ما عاندوا فى تشبثهم بموقفهم ، وتوافرت لهم دراية بالقراءة والكتابة ، تعيينهم على الاستجابة ، لما يطلب منهم من وثائق وتقارير طبية ، فضلاً عن إدعاء قوى^(٤٣) .

(٤١) ' Compensation claims regected ' , Manchester Guardian, 30 March 1959 , P. 5 .

(٤٢) Cf. U. Körber, ' Die Wiedergutmachung und die ' Zigeuner ' in Fein-derklärung und Prävention (Berlin, 1988) , PP. 165 - 75 .

(٤٣) كان وضع الفجر بعد الحرب أكثر مأساوية من وضع اليهود ، فهؤلاء وجدوا لهم وطنًا وإن اغتصبوه من أصحابه الشرعيين ، ثم هم تقاضوا تعويضات ، تقدر بمليارات الدولارات ، فى حين لم يتوافر للفجر وطن ، ولم يتوافر لهم من التعويضات سوى أقل القليل .. الأطراف من ذلك أن صارت المحرقة -Holo-caust ترتبط فى أذهان الأوربيين والأمريكيين وربما نحن أيضاً باليهود فقط وليس باليهود والفجر وغيرهم من ضحايا النازية (المترجم) .

الفصل التاسع

الأزمة الحديثة

عبور الحدود

أسفرت الحرب العالمية الثانية عن تشتيت واضح للغجر ، يعود فى أساسه إلى ما جرى من ترحيل على نطاق واسع ، كما يعود جزئياً إلى الغجر أنفسهم ، وهربهم من بلد إلى آخرى ، مثلما حدث حين لاذ غجر من سلوفاكيا وكرواتيا بإيطاليا ، بحثاً عن مناخ أقل قسوة ، وعندما حل السلام جرت تطورات أبعد ، فمن تم تحريرهم من معسكرات الاعتقال تحولوا إلى مشردين وأشخاص بلا جنسية ، يخضعون لإجراءات رسمية عقيمة وقيود خاصة ، وفى فترة ما بعد الحرب أضيف بعد جديد ؛ هو نقل أقوام بأسرها من بلد إلى بلد آخرى ، مثلما حدث مع خمسة عشر مليوناً من الألمان الذين طردوا من شرقى أوروبا ، ولم يكن من النادر أن تواجه عائلات الزنثى التى لحقت بركب هؤلاء الألمان مقاومة شديدة لقبولهم فى ألمانيا ، ومن نجح منهم فى اجتياز هذه الصعوبة ، كان أبعد من أن تتحقق له المواطنة الكاملة ، وعلى نحو غير مباشر فقد ترتب على طرد مليونين من ألمان الزوديت عن هجرات واسعة داخل تشيكوسلوفاكيا ذاتها ، فقد هجر آلاف الغجر مستوطناتهم المنعزلة فى أرياف سلوفاكيا واستقر بعضهم فى مناطق التخوم القريبة التى خلت من الألمان وانتقلت أعداد أكبر إلى مدن صناعية ، حيث اشتغلوا كعمال غير ماهرة أو فى صناعة البناء ، وهناك نوع آخر من الترحيل وقع فى سنوات الخمسينيات من الإتحاد السوفييتى إلى بولندا ، فبين الأعداد الهائلة من المبعدين من الأقاليم البولندية التى جرى ضمها إلى الإتحاد السوفييتى ، ثم عادوا إلى بولندا ، كان هناك عدد كبير من الروم - لوفارا وكالديراش أساساً - كانوا قد أبعدوا بدورهم من هذه الأقاليم فى بداية الحرب إلى ما وراء الأورال، وقد واجه هؤلاء العائدون صعوبات جمّة فى أن يندمجوا مع الروم فى بولندا، وذلك لأنهم فى

غربتهم ظلوا ملتزمين بقاعدة النجاسة ، بخلاف إخوانهم السابقين في بولندا الذين كان مطلق البقاء يدفع بهم إلى قدر من التساهلات^(١) .

في فترة تالية تسببت الاضطرابات السياسية في مزيد من الإزاحة ، فبين المائة والخمسين ألفاً من اللاجئين الذين لاذوا بالغرب بعد الانتفاضة المجرية في سنة ١٩٥٦^(٢) كان هناك عنصر غجرى قوى ، كما أن القلاقل التي وقعت في البرتغال في فترة السبعينيات أسفرت عن تدفق للغجر إلى إسبانيا ، ومع ذلك ففي معظم الأحوال كان وراء هذه الهجرات دافع اقتصادى حظى ببعض الاهتمام ، فبين الأعداد الكبيرة من العمال الأجانب Gastarbeiter الذين توافدوا بالملايين إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية ، من بلاد مثل تركيا ويوغوسلافيا واليونان وإسبانيا ، كان هناك غجر أخفوا هويتهم الحقيقية ، وسعوا للحصول على أعمال منتظمة ، وألحقوا أطفالهم بالمدارس ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم^(٣) ، ومثلما حدث في الماضي كانت هناك هجرات هائلة من بلاد البلقان، وقد بدأت في الستينيات إنطلاقاً من يوغوسلافيا، حيث كانت قواعد الخروج أيسر منها في سائر أقطار أوروبا الشرقية ، ومع أنهم ملئوا أرجاء القارة الغربية ، إلا إنهم تركزوا في إيطاليا والنمسا وألمانيا وفرنسا والبلاد الواطئة، واعتزم بعضهم الهجرة إلى الولايات المتحدة ، لكن القليل منهم فقط هو الذى نجح في ذلك . وقد كانت هذه حركة غير متجانسة ، ضمت غجر مستقرين ورحل من جماعات قبلية ولغوية متباينة ، لكن أبرزهم جميعاً هم هؤلاء الغجر الذين أتوا من جنوبى يوغوسلافيا ، وعرفوا أنفسهم بأنهم غجر أتراك Xoraxané Romá ، تمييزاً لهم عن غيرهم من الغجر ، خصوصاً الغجر المسيحيين^(٤) ، وكان هذا الاسم الجمعى يخفى في طياته تمايزاً واضحاً في نمط الحياة ولهجة رومنية غير أفلاقية .

(١) Cf. I - M. Kaminski, ' The Dilemma of Power : internal and external Leadership, The Gypsy - Roma of Poland ', in the Other Nomads, ed. A. Rao (Cologne , 1987), PP. 323 - 56, esp. PP. 346 - 8.

(٢) وهى الانتفاضة التى قادها إمري ناج Emre Nagy وسحقها دبابات حلف وارسو ، وقد هرب ناج إلى أن قبض عليه وأعدم فى سنة ١٩٥٨ ويعدده المجرىون اليوم بطلاً قومياً (المترجم) .

(٣) Cf. M. T Zülch, ' Und auch heute noch verfolgt ? ' , Zeitschrift Für Kulturaustausch, 31 (1981) , PP. 397 - 410, esp. PP. 401 - 2 .

(٤) Cf. M - T. Rochas, ' Les Tsiganes yougoslaves II ' , Études Tsiganes, 30 (٤) (1984) , no. 2, PP. 29 - 37 ; L. Plasere, " In Search of new niches: the Productive=

كانت إيطاليا واحدة من أقدم الأقطار التي اجتذبت الفجر ، فقد أفضت الأنباء الطيبة الواردة من هناك إلى توافد المزيد من الأقرباء والمزيد من الفجر ، من مناطق أوسع ، الأمر الذي يعد بذاته مؤشراً على تحول المناخ العام تجاههم إلى العداء ، ولم يلبث أن بدأ الفجر يرتادون بلاداً أخرى ، أما هؤلاء الذين ظلوا مقيمين في بلادهم الأصلية (مثل الشوراشان في كوسوفو) فكانوا أميل إلى حياة الترحل، وحتى هؤلاء الذين تحولوا من حياة البداوة في يوغوسلافيا ، فصاروا حضريين وأشبه مستقرين في دول المهجر ، فإنهم كانوا ينتقلون موسمياً من مدينة إلى أخرى ، أو من بلد إلى أخرى ، يلتمسون سبلاً جديدة لطلب الرزق ، وكان كثير منهم يعودون إلى يوغوسلافيا في فترات منتظمة ، وقد أتوا معهم بالأموال التي جمعوها ، فضلاً عن سلع تجد إقبالا عليها في وطنهم وحيث إن قسماً كبيراً منهم كانوا أميين وغير متعلمين ، وغالباً ما لا يعرفون سوى القليل من لغة المهجر ولأنهم أيضاً غجر ، فقد كانوا يجدون صعوبات بالغة في الحصول على عمل منتظم ، وكانت خبراتهم السابقة كباعة جوالين وغير ذلك من أنشطة، تعنى أنهم كان في إمكانهم معاودة ممارستها في جماعات صغيرة بنجاح، وربما ارتحلوا مسافات طويلة إلى مدن وقرى بعيدة عن مستقراتهم المؤقتة ، آخذين بعين الاعتبار فترات التوقف عن العمل ، وتحول بعضهم إلى الاتجار بالأشياء المستعملة ، أما عن الشوراشان من البوسنة والجبل الأسود ، فقد استمرت أشغال النحاس أهم مهنة لهم ، لكنها تحولت الآن إلى صنع تحف زخرفية ، أكثر منها إصلاحاً أو قصيدة لأدوات الطهي والطعام ، وأضحت التأمينات الاجتماعية معلماً بارزاً في اقتصادهم ، وإلى جانب هذه النشاطات ، كان هناك التسول وقراءة الطالع اللذان كانا يعدان بالنسبة لبعضهم مجال عملهم الرئيسي، وكان التسول منوطاً بالنساء يمارسنه صحبة أطفالهن ، أو يمارسه هؤلاء الأطفال ، تفادياً للتشريعات التي تعاقب المتسولين من كبار السن ، كما تحول بعضهم إلى الجرائم الصغيرة ، مثل السطو على المتاجر والنشل والسرقة من السيارات، وكان يقوم بها الأطفال خاصة ،

=organization of the peripatetic Xoraxané in Italy (dealing with Gypsies from Kosovo Province in the late 1970 s) , in The Other Nomads , PP. 111 - 32 ; and W. G. Lockwood, ' East European Gypsies in western Europe : the social and cultural adaptation of the Xoraxané ' (dealing with Gypsies From Bosnia - Herzegovina and Montenegro in the mid - 1980s) , Nomadic Peoples (1986) , nos 21/22, PP. 63 - 70 .

لحصانتهم من الأحكام القضائية .. لذلك لم يتعامل الفجر القديما بؤد مع إخوانهم القادمين الجدد ، وما قد يثيروه من متاعب ، حتى لو كان هؤلاء حريصين على عدم استعداء سكان المكان الذى يعيشون فيه .

تفاوت نمط الإقامة من مكان إلى آخر ، وحلت الكراقات التى تجرها مركبات والأكواخ المتواضعة محل الخيام، عدا حالات الضرورة، وعندما كانت الخيام تستخدم ، فإنها صارت من نوع خيام الكامبنج ، ومال معظم اليوغوسلافيين فى إيطاليا إلى التخييم حول محيط المدينة ، بينما هم فى ألمانيا اتخذ كثير منهم مقامهم فى المساكن الشعبية المدعومة من الدولة ، وظهرت فى فرنسا إمكانية الإفادة من أراض خصصت لهم ، يمكن أن يعيشوا فيها إلى جوار المانوش والجيتان الفرنسيين ، وكان الأكثر شيوعاً هو شغل أكواخ فى العشوائيات bidonville، طالما كانوا بمنجاة من الجرارات . وأتاحت البلاد الواطنة ملاذاً أفضل فى سنة ١٩٧٧ ، فبعد سنوات طويلة من الصلات الصعبة مع الفجر الأجانب الذين أقاموا على نحو غير شرعى ، قررت الحكومة بضغط من البرلمان أن توفق على الأقل وضع بعضهم ، وكانوا يقدرون بحوالى أربعمائة وخمسين ، بينهم عديد من الشوراشان ، ووافقت إحدى عشرة محلية فى هولندا على قبول حصة منهم ، تم تزويد أفرادها بالإسكان المؤقت ثم الدائم ، وأقيمت مدارس لصغارهم وأخرى لكبارهم^(٥)، وإن لم يتحقق لهذه الأخيرة نجاح كبير ، ومع ذلك فلم يتكرر هذا الحل ، وأصبحت إجراءات الدولة أشد صرامة تجاه من أتى بعد ذلك من مهاجرين .

كان لهذه الهجرات أثارها العميقة فى التنظيم الاجتماعى للفجر ، فهم مثل كثيرين قبلهم صاروا يستخدمون الهاتف كوسيلة للمحافظة على شبكة العلاقات ، سواء فى البلاد الغربية أو فى بلدهم الأصلية بيوغوسلافيا ، لكن الظروف الجديدة أدت فى الوقت نفسه إلى تآكل بعض من روابط الأسرة الممتدة ، لصالح الأسرة الصغيرة ، وأصاب الوهن سلطة زعمائهم فى حل مشكلاتهم مع الأغيار الذين كانوا يستعينون بوسائل بيروقراطية فى التعامل معهم ، كما أنه لم يقدر لهم البقاء فى زعامتهم لسنوات طويلة ، بسبب روح التنافس التى اكتسبها الفجر من وجودهم فى بيئة غريبة .

Cf. R. Dahler, ' Zigeuervangbeleid Oldenzaal ' , in Zigeuners in (٥) Nederland, eds P. Hovens and R. Dahler(Nijmegen / Rijswijk, 1988), PP. 385 - 415 .

حيث يصف كيف كان استقبال أولدنتسال لواحدة من جماعاتهم الإحدى عشرة . وانظر أيضاً :

W. Willems and L. Lucassen, Ongewenste, Vreemdelingen (The Hague, 1990) .

البحث عن حلول

بالنسبة لغالبية الغجر صارت آفاقهم فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية محدودةً بكل بلد على حدة ، ويات ما يهتمهم هو السياسات الداخلية لهذه البلاد، وكان هناك خط تقسيم حاد بين الشرق والغرب ، فأضحى الغجر فى معظمهم يعيشون فى ظل أنظمة شيوعية^(٦)، الأمر الذى كان من شأنه أن يؤدى - بل هو أدى بالفعل - إلى تحسن ما فى أحوالهم ، فقد كانت الحكومات الجديدة تنطلق فى تعاملها معهم ، من مقولة أن من واجب الدولة مد يد العون إلى الجماعات المتخلفة ، فضلاً عن أن الماركسية اللينينية اعترفت بوجود قوميات متعددة داخل الدولة الواحدة، والأمر نفسه بالنسبة للأقليات القومية (وهى صيغة أكثر مرونة) ، فاعترفت لها بدورها بحقوق معينة ، لكن هذه الدول اتبعت سياسات تتناسب مع أهداف أيديولوجية، أكثر منها سياسات تتعامل مع مظالم اجتماعية ، كما أنها تفاوتت فى تطبيقها لهذه السياسات ، ففى مرحلة ما سعت معظمها إلى دمجهم ، لأنه مادام من حق من هو فى سن العمل - بل من واجبه - أن يعمل ، فإن عليه فى المقابل أن يسجل اسمه فى مزرعة تعاونية ، أو فى مزرعة من مزارع الدولة ، وأضحت النشاطات الخاصة غير مشروعة ، فأية جماعة لا يتلاءم سلوكها مع النموذج الذى تتيحه الدولة، فإن من شأنها إلحاق الضرر بالمفهوم الأساسى للتخطيط المركزى .

كان الاتحاد السوفييتى لعشرين سنةً سابقةً أى فى سنة ١٩٢٥ قد اعترف بالغجر كأقلية قومية ، يوصف الواحد منها فى بطاقة الهوية وجواز السفر الداخلى بأنه Tsigani (وفى سنة ١٩٥٩ بلغ عدد حاملها ١٣٤ ألفاً ، ولو أن كثيراً من الغجر كانوا يسجلون أطفالهم على أنهم روس أو أرمن أو غير ذلك من قوميات)^(٧) وتأسس اتحاد جامع للغجر فى سنة ١٩٢٦ ، وافتتح لهم عدد من المدارس الابتدائية استخدمت فيها الرومنية كوسيلة للتعليم ، وصدرت كتب ودوريات بالرومنية ، وبديء فى ابتكار لغة

(٦) The Gypsies of Eastern Europe, eds D. Crowe and J. Kolsti (New York/ London, 1991)

ويغطى هذا الكتاب التطورات التى جرت فى مرحلة ما بعد الحرب فى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر .

G. Puxon, Rom : Europe's Gypsies , 2 nd edn (London , 1975), P. 12. (٧)

أديية ، وتأسس مسرح دولة للفجر فى سنة ١٩٣١ ، كان هو المؤسسة الوحيدة التى قدر لها أن تعيش ، عندما عدلت الدولة عن سياستها السابقة تجاه الفجر ، وصدر قانون فى سنة ١٩٥٦ يحظر الترحل عليهم ، لكنه لم يتم تطبيقه بدقة ، فواصلت بعض الجماعات المترحلة تنقلها من مزرعة مجمعة إلى مزرعة أخرى ، وصار بعضهم يعقدون صفقات خاصة غير مشروعة كباعة على الطريق ، وهو ما لم يكن ممكناً السكوت عنه .

وكانت بولندا منذ بداية الخمسينيات أول دولة شيوعية تسعى لتأمين اندماج فجرتها الرحل ، بأن وفرت لهم السكن والعمل (تم توطين الغالبية العظمى منهم فى الإقليم الجنوبى الغربى من جبال الكربات) ، وألحق العديد من أطفالهم بالمدارس ، وبذلت محاولات لإقامة ورش تعاونية لحرفهم التقليدية مثل النحاسية ، ومع ذلك ورغمما عما أتيح للفجر من أعمال ، إلا إنها لم تجتذب سوى اليسير من اهتمامهم ، فقد كانوا غير مهرة ، يبذلون جهداً كبيراً ، ويتقاضون أجوراً متدنية ولما أصروا على مواصلة ترحالهم ، تحولت الدولة فى عام ١٩٦٤ إلى إكراههم ، فمنعهم من التنقل فى كراقات ، وأرغمهم على تسجيل أنفسهم ، وطبقت قواعد صارمة على اجتماعاتهم وتجمعاتهم ، وخلال عامين تقلصت ظاهرة الترحل إلى حد كبير ، ولم يلبث أن تم إلحاق ما يزيد على الثمانين بالمائة من الأطفال بالمدارس ، وإن كان على فترات متقطعة ، على أن التوطين كانت له مشكلاته فقد نشأت نزاعات فى الثمانينيات بين قاطنى المنازل الجدد من الفجر وبين جيرانهم ، كما نفى المئات منهم خارج البلاد ، لعدم حصولهم على الجنسية^(٨) .

واجهت المجر كذلك صعوبات اجتماعية ناجمة عن الحضور المتزايد لفجرتها (ومستوى مواليدهم المرتفع) مما أفضى إلى قلق وشحناء ، وتذبذبت سياسات الحزب والدولة ، بشأن الاعتراف بجماعة تتنامى أعدادها بسرعة ، ولدى سبع سنوات وضعت حدود لموسيقاهم ، باعتبارها من بقايا عصور الانحطاط ، وأنشئت لجنة استشارية فجرية ثم ألغيت ، واقترن ذلك بالإعلان عن أن الفجر لا يمثلون أقلية قومية ، كما اقترن بإشارات إلى بزوغ جماعات مناهضة لهم ، سيما فى المناطق الريفية ،

Cf. J. Ficowski, ' The Gypsies in the Polish People's Republic ' , JGLS (3), 35 (٨)
(1956) , PP. 28 - 38 , and the Gypsies in Poland (n. d. {War saw , 1990}) , PP. 49 - 53 ; and Kaminski ' The Dilemma of Power ' , PP. 348 - 52 .

وفى سنة ١٩٧٤ أعيد تأسيس اللجنة ، ليحل محلها فى سنة ١٩٨٦ المجلس الرومنى ، ثم الاتحاد القومى للعجر ، ليندرج تحت لوائه نحو مائتى ناد ثقافى ، وتحقق بعض التقدم فى مجال الإسكان والعمل ، أما فى التعليم فقد وافقت الحكومة فى البداية ، على أن يظل الأطفال العجر مع غيرهم فى مدارس مجرية عادية ، لكنها ما لبثت بعد صعوبات لغوية ، واجهها هؤلاء الذين كانت لغتهم الأم رومنية ، أن شرعت فى حفزهم لأن يتعلموا بلغتهم الأم ، أو بهذه اللغة مع اللغة المجرية .

وكانت تشيكوسلوفاكيا بالذات هى المثال البارز على التذبذب فى تعامل النظم الشيوعية مع العجر^(٩)، فقد اتسمت سياستها بمزيج من الأريحية مع نفاد الصبر ، والأبوية مع الطغيان ، ونزعة خيرية واهنة مع محاولات لحلول جذرية ، وفى العقد الأول بعد وصول الشيوعيين إلى السلطة فى سنة ١٩٤٨ ، ورغماً عن الهدف المعلن لاندماج العجر ، فقد شغل الحزب والدولة معاً بقضايا أكثر إلحاحاً ، فمن الناحية الأيديولوجية أعلن أنه من حيث « أن العجر ضحايا للرأسمالية » ، فإن الإطاحة بها تعنى تلقائياً العناية بمشكلاتهم ، وبصرف النظر عن التقارير التى بثتها أجهزة الإعلام عن إنجازات هامة تحققت فى مجال إلحاق أطفالهم بالمدارس والعمالة والاندماج ، فإن نقطة التحول كانت فى سنة ١٩٥٨ ، حين انتهت السلطات إلى أنه فى الإمكان هدم هويتهم ، إذا أحرزوا تقدماً على نحو ما ، وتقرر أنهم ليسوا جماعةً سلافيةً ، ولكنهم « قوم يحافظون على بنية ديموغرافية مختلفة » ، وصدر فى هذه السنة قانون يرغمهم على الالتحاق بالمدارس وتوطين الرحل منهم (وكانوا أقليةً ينتمون أساساً إلى الأفلاق) وأشباه الرحل ، وذلك بتسجيلهم فى مكان واحد ، والامتناع عن تشغيلهم فى أى مكان آخر . وقد نجح القانون فى القضاء على الترحل الكامل ، فقد كانت عرباتهم التى تجرها

E. Davidova , ' The Gypsies in Czechoslovakia ' JGLS (3) , 50 (1971) , PP. (٩)
40 - 54 ; W. Guy, " Ways of looking at Roms : the case of Czechoslovakia ' , In
Gypsies , Tinkers and Other Travellers, ed . F Rehfisch (London, 1975), PP. 201 - 29;
W. Oschlies, " Schwarze und Weisse " : zur Lage der Zigeuner in der
Tschechoslowakei ' , Giessener Hefte für Tsiganologie (1985) , 1/85, PP. 24 - 32 ; O.
Ulc, ' Gypsies in Czechoslovakia : a case of unfinished integration ' , Eastern
European Politics and Societies, 2 (1988), PP. 306 - 33 : and D. J. Kostelancik, " The
Gypsies of Czechoslovakia : Political and ideological Considerations in the
development of Policy ' . Studies in Comparative Communism, 22 (1989) , PP. 307 - 21 .

الجياد ظاهرة للعيان ، وبذا صار بإمكان الشرطة أن تهاجم معسكراتهم وتقتل جيادهم وتحرق عرباتهم . أما عن أشباه الرجل ، فلم يكن ثمة جدوى من الرقابة عليهم ، فقد واصلوا تنقلهم جيئةً وذهاباً بين منازلهم فى سلوفاكيا وأماكن عملهم فى تشيكيا ، ويرجع السبب فى هذا الإخفاق إلى التخطيط العام الذى عانت منه سائر البرامج ، سواء كانت زراعة القنبىط أو توطيد أواصر الصداقة الأبدية مع منغوليا الخارجية ، ووجدت السلطات المحلية التى كان يفترض أن تسجل هؤلاء الفجر وتمدهم بفرص العمل ، وجدت إنه من الأسر لها أن تتجاهلهم.

نتيجة للإخفاق الذى منيت به الحكومة فى سياستها مع أشباه الرجل ، اضطرت إلى إعادة تقييم موقفها ، وصدر الأمر إلى الولايات بالحصول على بيانات عن عدد سكانها من الفجر ، والإعداد لخطة طويلة الأمد لدمجهم ، وركزت هذه السياسة التى بدأت فى سنة ١٩٦٥ على مهمتين أساسيتين ؛ هما التشغيل الكامل للفجر القادرين على العمل ، وإزالة قراهم وغيرها من التجمعات غير المرغوب فيها (وتقدر بألف وثلاثمائة) ، وكذلك شن حملة لمحو أميتهم وتطفلهم ، ودعيت أكاديمية العلوم ، لأن تقوم بتحليل للحياة الفجرية ، وقد فهم التكامل على أنه استسلام غير مشروع لقوم ، كان ينظر إليهم على أنهم بدائيون متخلفون ومنحطون ، وعندما أجرى تعداد فى العام التالى ، قدر عددهم بـ ٢٦١٥٢٦ ، يتركز معظمهم فى الشرق، واتضح أنه من بين كل أحد عشر طفلاً يولد فى تشيكوسلوفاكيا ، يوجد طفل واحد من الفجر .

قام المشروع الجديد « لتشتيت الفجر وإعادة توطينهم » على أساس النقل المنظم والمخطط لهم من مستوطناتهم فى سلوفاكيا ، إلى حيث تقل كثافتهم فى الأراضى التشيكية ، وذلك بهدف إيجاد قدر من التوازن فى أعدادهم بين شطرى الجمهورية ، لكنه لم تلبث أن أصيبت هذه الخطة منذ بدايتها بالارتباك، لعدم كفاية الاعتمادات المالية والعوائق البيروقراطية ، وعداء السلطات المحلية ، وعدم التزام الفجر بها ، مما أسفر عن تطورات مزعجة ، فقد جرت انحرافات عرقية قبيحة على مستوى خطير ، لا سيما فى مجال الإسكان (بما فيها اقتراح من مجموعة من العمال بوجوب منح الفجر تذاكر ذهاب - دون إياب على نفقة الدولة إلى الهند) ، وفى نهاية عام ١٩٦٨ توقف هذا البرنامج ، حين فاقت الهجرات غير المخططة مشروعات النقل المخططة ، فقد شهدت فترة ما بعد الحرب نزوحاً غجرياً من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، بحثاً عن مكان أكثر أمناً فى المجتمع الواسع ، مما جعل الدولة لسنوات قليلة تحاول

أن تعاملهم على أنهم أقلية قومية ، فسمحت بوجود تعاونيات خاصة بهم وإقامة روابط اجتماعية وثقافية ، وسرعان ما تنامت هذه الروابط ، ولم تجتذب فقراهم فحسب ، بل إنها اجتذبت كذلك النخبة المؤثرة من المثقفين الذين كان يعتقد أنه تم إدماجهم كلياً ، وكان « التطبيع » الذى صلب ربيع براغ^(١٠) يعنى أن التجربة كانت قصيرة الأمد ، وفى سنة ١٩٧٣ تم حل تنظيماتهم « لفشلها فى تحقيق وظيفتها التكاملية » ، كما تم العدول عن البرنامج الخاص باستخدام الرومنية كوسيلة تعليمية فى المدارس الابتدائية ، وتحولت السلطات إلى الإدماج ، باعتباره الحل الوحيد ، وكانت تمارس بعض وسائله سرّاً ، مثل دفع آلاف الغجريات إلى التعقيم ، بعد انجابهن عدداً محدوداً من الأطفال . ويعطينا تعداد سنة ١٩٨٠ مؤشراً على ما جرى من انفجار سكاني ، فقد بلغ عدد الفجر ٢٨٨٤٤٠ ، ومع أنه كان أقل بكثير من الحقيقة ، إلا إنه كان يمثل اثنين بالمائة من التعداد العام للسكان (كان الفجر ثمانية بالمائة فى شرقى سلوفاكيا) ، ويمكن أن يتزايد عددهم سريعاً ، بسبب مستوى الانجاب المرتفع عند معظم الشباب الفجر ، وقد تحقق بعض التقدم على مستوى التعليم ، عما كان عليه فى إحصاء ١٩٧٠ ، فعلى سبيل المثال صار عشرة بالمائة من الفجر فوق سن الخامسة عشرة هم الذين لم يتلقوا أى تعليم على الإطلاق ، بينما كانت النسبة ثلاثين بالمائة قبل عشر سنوات ، كما ارتفع عدد خريجي الجامعات من ٤٥ إلى ٣٤٥^(١١).

وكانت رومانيا شأنها شأن بلغاريا عازفةً عن منح فجرها صفة الجماعة العرقية ، ولم تحاول أن تفعل شيئاً فى مجال التعليم والمساعدة الثقافية ، يمكن مقارنته بما فعلته نظرياً ، إن لم يكن عملياً ، مع الأقليتين المجرية والألمانية ، وحيث إنه صارت للفجر مكانتهم البارزة فى مجال الأعمال الصناعية المأجورة والتعاونيات الزراعية ، فقد تصاعدت النعرات العنصرية ضدهم^(١٢). وحاول تشاوشيسكو Ceausescu طمس

(١٠) فى سنة ١٩٦٨ وقاده ألكسندر دويتشيك Alexander Dubček ، وكان يهدف إلى التخفيف من السيطرة السوقية ودام عدة شهور ، إلى أن أحبط باقتحام دبابات حلف وارسو هذه الجمهورية . (المترجم) .
(١١) K. Kalibová and Z. Pavlik, ' Demographic Specifites of the Romany ' Populatio in Czechoslovakia . وهو بحث قدم إلى الندوة الديموغرافية الدولية السابعة المنعقدة فى جامعة هومبولت فى برلين ١٩٨٦ .

Cf. S. Beck, ' Tsigani - Gypsies in Socialist Romania ' , Giessener Hefte für (١٢) Tsiganologie (1986) , 1 - 4 / 86 , PP. 109 - 27 .



شکل ۴۳ نحاسون غجر فی پلد شتی ، ولایة باکاو ، رومانیہ ۱۹۵۶ تصویر ج. لیکى .

ثقافتهم ، وإجبارهم على سكنى منازل حقيرة فى مدن أو مستوطنات موحشة فى الريف ، وقام جهازه الأمنى Securitate ، بالسطو على ما لديهم من عملات ذهبية ثمينة ، تعود إلى زمن إمبراطورية النمسا - المجر ، وكانت هذه العملات هى وسيلتهم المفضلة فى الادخار ، ولم يعودوا أبداً بنجوة من مضايقات تنشأ بين وقت وآخر .

وشنت بلغاريا بدورها حملةً لدمج غجرها ، دامت نحو ثلاثين سنة ، فصدر فى سنة ١٩٥٨ مرسوم يحظر التنقل عليهم ، وعقدت مجالس لربطهم بالمصانع والمزارع التعاونية ، وأزيلت بعض الأحياء الغجرية الضيقة ، وأسكنت عائلاتهم فى مجمعات سكنية متفرقة ، وشرعت منذ سنة ١٩٦٩ فى إقامة مدارس ، لمنح الآلاف من أطفالهم قدراً من التعليم الأولى ، وتوجيههم نحو التدريب المهنى والدبلومات الفنية ، ومنعتهم من الحديث فى هذه المدارس بالرومنية ، وفى الوقت نفسه قضت الحكومة على إمكانية أن يحتفظوا بتفردهم ، وذلك بأن حلت روابطهم وأغلقت صحفهم ، وسعت فى مطالع السبعينات إلى طمس هوية هذه الأقلية الكبيرة (نحو ٣ إلى ٤ ٪ من جملة السكان) فأزيل مسمى غجرى من أوراق الهوية (وهو إجراء واحد من إجراءات كثيرة سبق اتخاذها مع المسلمين) ومن اتخذ منهم أسماءً إسلامية أجبروا على أن يتخذوا أسماءً سلافية ، والتزمت الصحف والمجلات بالصمت حيال هذه الإجراءات ، وذهبت الدولة فى الثمانينيات إلى ما هو أبعد من ذلك ، وحاولت أن تعدل فى الموسيقى الشعبية بحظر ما قد يشتم منه رائحة تركية - أو غير تركية - والسبب فى ذلك يعود إلى ما كانت تحظى به الموسيقى الغجرية المتأثرة بالموسيقى التركية من إقبال شديد عليها فى حفلات الزفاف والعماد وغيرها ، بحيث يصعب زعزعتها من مكانها ، وصفوة القول إن الفجر فى بلغاريا تكيفوا بطريقتهم الخاصة مع البيئة الاشتراكية البلغارية فتحسن وضعهم اقتصادياً ، وانخرطوا بشدة فى النظام التعليمى ، حتى وإن لم يحظوا فى النهاية إلا بالأعمال ذات الأجور المتدنية ، لكنهم حيثما كان ممكناً ، كانوا يلتحقون بالعمل المأجور فى مشروعات السوق الحرة ، دون اعتبار للقواعد المرعية ، بالضبط مثلما كانوا يسعون إلى جمهور تواق إلى موسيقاهم، دون اعتبار لأية محاذير^(١٣).

Cf. G. Silverman, " Bulgarian Gypsies : adaptation in a socialist context ' , (١٢)
Nomadic Peoples (1986) , nos 21 / 22, PP. 51 - 60 .

فى يوغوسلافيا كان للعرقىات دورها الفاعل فى الاتحاد الذى تشكل بعد الحرب، وما فىه من تعقيدات قومىة ولغوىة وثقافىة ، انعكست بالتالى على غجرها - أكبر تجمع للغجر فى العالم - مما دفع إلى سىاسة تتسم بالتعددىة فى التعامل مع هذه العرقىات ، وفى هذه القلعة التى نشط بها ماركسىون ىنافحون عن هذه التعددىة ، منح الغجر فى سنة ١٩٨١ حقوق المواطنة (narodnost) لىصبحوا على درجة واحدة من المساواة مع غيرهم من الأقلىات ، شأنهم شأن الألبان والمجرىين والأتراك ، كما منحوا كذلك حقوقاً لغوىة وثقافىة ، ولو أنه لم يكن ثم اتساق لدى الممارسة العملىة فى الجمهورىيات الیوغوسلافىة المختلفة . ولم تعد وسائل الإعلام تستخدم تعبیر Cigan لما به من دلالة تحقیرىة ، واستبدلت به تعبیر Rom ، وبدأت بعض المحطات التلفزىونیة ومحطات الرادىو فى إذاعة برامج بالرومنىة ، واشتد سواعد عشرات من الروابط الاجتماعىة والثقافىة الغجرىة فى المدن الكبىرة، وبدأ الغجر فى المشاركة فى السىاسات الإقلیمىة ، وتواجدت الرومنىة فى عدید من المدارس الابتدائىة بإقلىم كوسوفو ذى الأغلبىة الألبانىة، ورغم أن تغیب التلامىذ عن مدارسهم وتسرب نسبة عالىة منهم (ترتب علیها أن عشرين بالمائة فقط من الكبار هم الذین أتموا تعلیمهم الأساسى) فإن المئات من الغجر مارسوا مهناً مختلفةً ، فصار منهم أطباء ومحامون ومهندسون وغيرهم ، ومع ذلك فقد ظلت الغالبىة تعيش فى مستویات اققتصادىة دنىا ، خصوصاً فى الجمهورىتین الشمالیة الغنیتین كرواتیا وسلوفینیا ، حیث هاجر العدید من الغجر ، وسكنوا أكواخاً فى ضواحى زغرب ، ومارسوا أعمالاً موسمیةً ، أو اشتغلوا كخدم فى لوبلیانا Ljubljana ، وتعد یوغوسلافیا هى الدولة الشىوعىة الوحیة التى لم تسع لإجبار غجرها على الاستقرار ، إنما أتى هذا الاستقرار نتیجةً لظروف اققتصادىة ، أكثر منها قیوداً حكومىة، أو بالأحرى استجابةً لأحوال شبیهة بما جرى فى الغرب قبل مائة عام ، ومثلما خلف التصنیع آثاره فى أحوال عملائه والأدوات التى ىستخدمونها ، فإنه كان من شأنه أن یخلف آثاره كذلك فى غجر یوغسلافیا ، فقد كانوا فى السابق یخیمون على مقربة من القرى ، أو فى ضواحى المدن التجارىة، حیث یعیشون معظم العام فى خيام ، تنقلها عربات تجرها الجیاد ، ویکسبون رزقهم من مجتمع فلاحى أحياناً كحدادین وأحياناً أخرى كنحاسین أو قراء طالع أو مستجدین للطعام ، لكنهم بدأوا الآن ىستقرون تدریجاً فى مدن تجارىة صغیرة، أو یحوزون عربات أو سىارات ، یحملون علیها خيامهم ، ویتحولون إلى التعامل بیعاً وشراءً لسلع جاهزة جدیة أو قدیمة ، مثل الملابس المستعملة والمصنوعات الرخیصة والسلع الاستهلاكىة النادرة .

فيما يختص ببلدان أوروبا الغربية ، فقد كانت لسياساتها بعد الحرب توجهات مختلفة ، تعكس حقيقة أن نسبة من كان بها من غجر مستقرين - نستثنى بلداً كإسبانيا - كانت بوجه عام أقل من نسبة نظرائهم في الشرق وبذا صارت القضية هي ما يجب عمله مع الرحل الذين اعتادوا الحياة في كراقات تجرها مركبات ، وهو ما لا يتلاءم مع الطلب الزائد على الأرض من أجل التنمية ، ولا يتلاءم كذلك مع قوانين التشرد والصحة العامة والتخطيط المدني والريفي ، وربما لم يكن هناك حظر صريح للترحل ، لكن الأنساق التشريعية التي وضعت لمجتمعات مستقرة ، قد يكون لها في معظمها التأثير نفسه ، فكان من اليسير طرد الرحالين ، أو السماح لهم بالإقامة على مقربة من مقابل الزبالة ، حيث لا تتوافر مياه نظيفة ولا مرافق صحية ، ومع ذلك فقد كان التشريع في ألمانيا أكثر تحديداً ، فمنذ سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٧٠ أكدت بأقاربا على سريان قواعدها الخاصة بإخضاع الرحل لرقابة خاصة ، وإلزامهم بتقديم مستندات معينة ، على نهج ما كانت عليه الحال في قانون ١٩٢٦ ، وحذت حذوها ولايات أخرى .

تركز الاهتمام في معظم الأقطار الأوروبية على موضوعين هما : مواضع التخييم والتعليم ، ولم يكن لما وجهته السلطات المركزية إلى السلطات المحلية من تعليمات تختص بالتخييم سوى تأثير محدود ، ويوضح أول منشور في هذا الشأن أصدرته وزارة الإسكان والحكم المحلي الإنجليزية في فبراير ١٩٦٢ ، ما كان يمكن تحقيقه بالنصائح وحدها ودون تدخل منها أو مساعدة ، فينوه المنشور إلى أن الفجر الحقيقيين أو الروم لديهم الحق في أن يزاولوا طريقتهم التقليدية في الحياة ، ولديهم الحق كذلك في مواضع يخيمون بها وليس حلاً أن يطردوا من مكان غير مصرح لهم بالإقامة فيه ، وتركهم يبحثون عن مكان آخر ، فضلاً عن أنه لا يستجيب لمشكلاتهم الإنسانية والاجتماعية (ومع أن المنشور يختص بالذكر الفجر الحقيقيين وإن لم يحددهم ، فإنه ينسحب على الرحالين كافة) وبعد سنتين لم تسمح السلطات المحلية إلا بثلاثة أماكن فقط للتخييم ، تتسع لقرابة خمسين كرافاتاً ، ويظن أن اثنين من هذه الأماكن كانا موجودين بالفعل ، قبل إصدار هذا المنشور^(١٤) وقامت الوزارة في سنة ١٩٦٥ بإحصاء

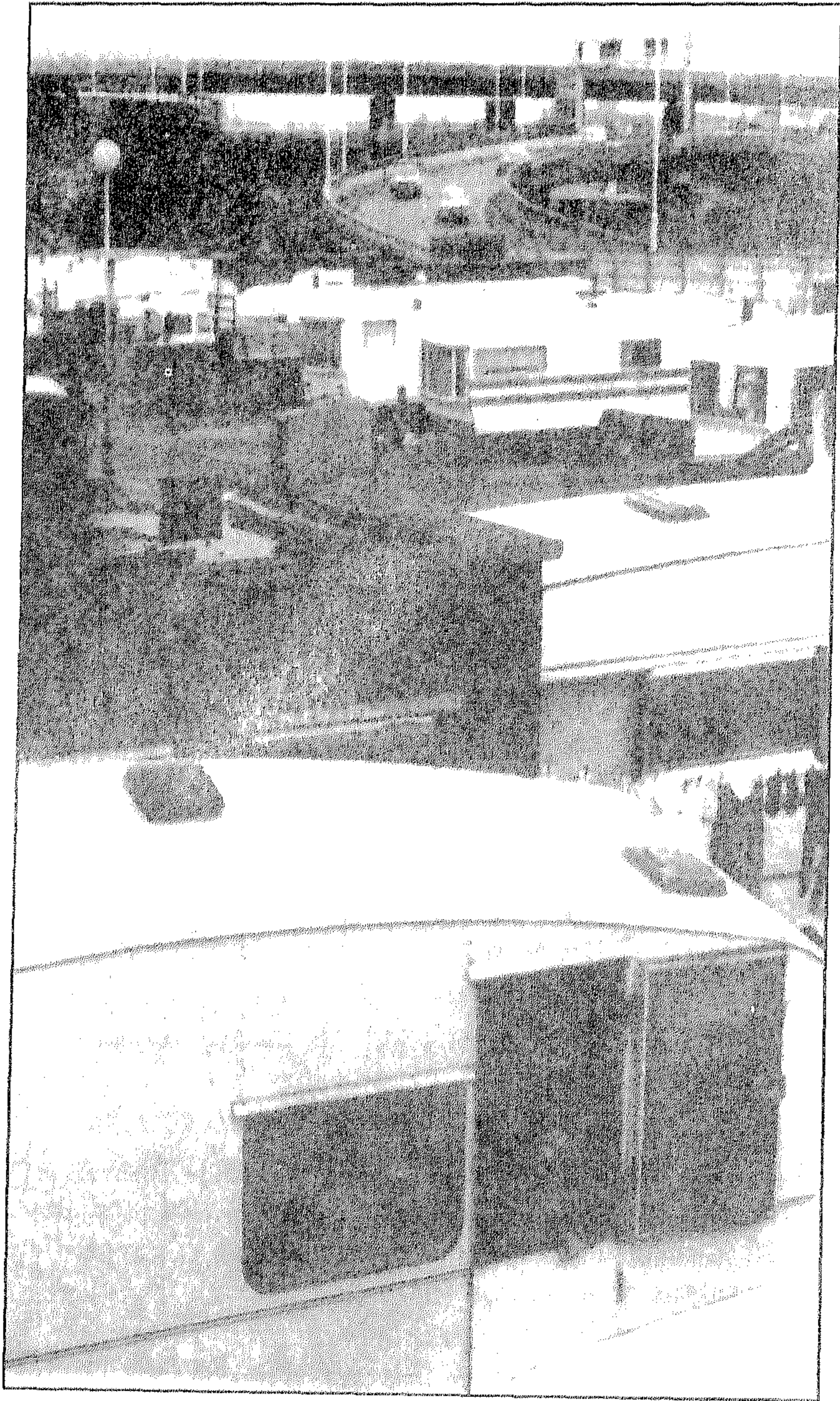
Cf. A.M. Fraser, ' The Travellers, Developments in England and Wales, (١٤) 1953 - 63 ', JGLS (3), 43 (1964), PP. 83 - 112 .

للرحالين الذين يعيشون فى كراقات أو أكواخ أو خيام فى إنجلترا وويلز ، ينتهى إلى أن يقدر عددهم بما لا يقل عن خمسة عشر ألفاً أو حوالى ثلاثة آلاف وأربعمائة أسرة ، على أن هذا التقرير لا يعد دقيقاً^(١٥)، وبعد أربع سنوات قامت اسكوتلاندا بإحصاء آخر ، وصل فيه عددهم إلى الفين ومائة ، أو حوالى أربعمائة وخمسين عائلة^(١٦). وأضحى من الضرورى أن يجاوز الأمر حد النصائح إلى التشريعات ، وهو ما يتضح فى مرسوم مواضع الكراقات الصادر فى سنة ١٩٦٨ ، ولدى تطبيق البنود ذات الصلة فى سنة ١٩٧٠ صار من واجب السلطات المحلية أن تهىء مواضع لتخيم الرحالين ، وبعد عشرين سنة ، وحسب تقديرات إدارة البيئة فى يوليو ١٩٩٠ كان فى إنجلترا ٧٣٥٧ رحالاً ، يعيشون فى كراقات فى مواضع معتمدة (ثلثهم تقريباً يعيشون فى أراض خاصة) فضلاً عن ٤٦١٠ آخرين ليست لديهم أماكن مصرح بها ، ولم يتوافر لديهم الدعم الكافى ، حتى وإن شاركت الاعتمادات المركزية أحياناً فى تغطية التكلفة الرأسمالية ، وفى مناقشة دارت فى مجلس العموم فى الشهر نفسه، يتشاعم المتحدث باسم الحكومة إذ يقول : « ليس فى الإمكان أن تحل أية مشكلة ، مادمننا نعول على مالدينا من تشريع فحسب » . وكان للمرسوم ذاته آثاره السلبية ، وهو ما يتضح فى البند الخاص بمنح السلطات المحلية الحق فى أن تحدد للحكومة ، ما إذا كانت لديها مواضع كافية أم لا ، وفى هذه الحال الأخيرة يصير من سلطاتها أن تقاضى من يقيمون فى أماكن غير مصرح بها وتطردهم ، سواء كانت هذه الأماكن مملوكة للبلدية أو تحت إشرافها ، ولما لم يكن منح هؤلاء الرحالين مواضع لإقامتهم كفيلاً بالفوز بأصوات فى انتخابات المحليات ، فقد صار هذا البند موضع تقدير ، حتى إن ما يزيد على المائة من السلطات المحلية التزمت به .

هناك مسألة مفصلية هى التعليم ، حيث إنه بدون ضمانات ضد الطرد ، فإنه لا يمكن الاستمرار فيه ، وأياً كانت الشكوك التى ساورت الفجر فى الماضى ، فقد صار الكثيرون منهم فى بريطانيا يدركون تماماً حاجتهم لإلحاق أطفالهم بالمدارس ،

(١٥) Cf. Gypsies and Other Travellers , a report by a Ministry of Housing and Local Government Sociological Research Section (London , 1967).

(١٦) H. Gentleman and S. Swift , Scotland's Travelling People (Edinburgh , 1971) .



شكل ٤٤ التخييم في وست واى لندن ١٩٨٦ ، تصوير ضوئى لبلدية لندن الكبرى .

حتى ولو لم يكن السبب سوى ما تتطلبه الحياة الحديثة من قدرة على تدوين الحسابات والإيصالات ، وقراءة الخرائط والأدلة ، والحصول على تصاريح القيادة والتأمين ، فضلاً عن المعاملات المتصلة بالصحة العامة والتشغيل والضمان الاجتماعى ، وكان لما يتسم به التعليم فى بريطانيا من لا مركزية يعنى أنه يصير مسئولية السلطات المحلية، التى كان عليها أن تتيحه دائماً أو مؤقتاً للأطفال المقيمين فى دوائرها ، ويشمل ذلك أطفال الرحالين (ولو أن ذلك لم يتم رسمياً إلا فى سنة ١٩٨١) ، وكان وجود ما يزيد على المائة من هذه السلطات فى بريطانيا وويلز ، يعنى أن مبادراتها فى هذا الشأن سوف تؤدى إلى أن تتفاوت فى حجم دعمها ومدى التزامها به ، وقد تراوح هذا الدعم من تزويدهم بفرق من المعلمين ووسائل تعليمية إلى لا شىء على الإطلاق^(١٧)، ومنذ السبعينيات تحقق قدر لا بأس به من النجاح ، وإن كان فى حد ذاته غير متجانس ، وفى تقريرها عن سنة ١٩٨٥ انتهت لجنة لتقصى الحقائق عن تعليم أطفال الأقليات العرقية إلى أن تخص بالذكر الجماعات المترحلة بوصفها « مثلاً واضحاً على ما يعانيه أطفال الأقليات العرقية من تعصب وجفاء » ، وتقول أنهم واجهوا صعوبات لا مثيل لها فى سعيهم للالتحاق بالمدارس^(١٨)، وقدمت الحكومة منحة خاصة فى سنة ١٩٩٠ للمساعدة فى تعليم الرحالين ، بيد أنه لم تتم الاستجابة لبعض ما تقدمت به السلطات التعليمية ، أو أنه لم تتم الاستجابة لها كلها .

الأمر نفسه حدث فى معظم أقطار أوروبا الغربية ، من حيث أن سياسات الحكومات كانت تختلف عن سياسات المحليات^(١٩)؛ ففي فرنسا شرع فريق عمل رسمى ، تشكل فى سنة ١٩٤٩ فى البحث عن الحلول لمشكلات الرحالين ، فى وقت حظرت فيه محليات كثيرة وجودهم . وأوصى هذا الفريق بالتخلى عن «سياسات القمع والمنع » ،

Cf. T. Acton and D. Kenrick, ' From Summer Voluntary Schemes to (١٧) European Community butreauracy : the development of special provision for Traveller education In the United Kingdom since 1967 ' , European Journal of International Studies , 1 (1991), no. 3, PP. 47 - 62 .

Lord Swann , Education For All (London , 1985) , ch. 16 . (١٨)

Cf. J. P. Liégeols , School Provision for Gypsy and Traveller children (١٩) (Brussels, 1987) ,

وذلك فيما يختص بالدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى .

وأعرب وزير الداخلية عن تأييده الرسمي للتعامل الإيجابي مع هذه المشكلات ، وأخيراً وبعد عشرين عاماً ، تم إلغاء التصريح الأنثروپومتري للجوالين (انظر ص ٢٨٢) ، ليحل محله تصريح سير Carnet de Circulation ، تقوم الشرطة بفحصه شهرياً ، وتحولت الضغوط التي مارسها الحكومة على السلطات المحلية ، لتحديد مواضع لإقامة الفجر ، من الإلحاح الشديد المصحوب بإعانة مالية مركزية ، إلى إرغامها على القبول بإقامة قصيرة لهم في مكان ، مع عدم التصريح لهم بالتخيم في مكان آخر . وقد تناثرت هذه المواضع في معظم أنحاء فرنسا ، خصوصاً في شماليها الغربي ، وتفاوتت في مستواها ، بين المجهزة تجهيزاً جيداً إلى البدائية ، فضلاً عن قليل من المستوطنات السكنية ، أما عن الناحية التعليمية ، فقد نهضت بها هيئات تطوعية ، قامت بإعداد مجموعة من الفصول الدراسية والمدارس ، بيد أننا لا نجد سوى اليسير من الدلائل على سياسة مركزية متساوقة .

في إيطاليا أقامت الحكومة المركزية والمحليات معسكرات قليلة مصرح بها ، على أن ما أنشئ من فصول دراسية خاصة ، إنما كان بمبادرات فردية ، لم يقدر لها أن تتواصل ، بعد أن تحول الاهتمام الرسمي إلى تأمين إلحاقهم بفصول عادية ، مع الوعد بمعونة إضافية لمن يعاني منهم صعوبات في التعلم ، وهو تحول لم يعد قصراً على إيطاليا وحدها ، وكان يحظى بالقبول ما دامت المعونة المتوقعة كافية من الناحية العملية ، وكانت بلجيكا واحدة من البلاد التي انصرفت عن الفصول الدراسية المنفصلة ، بينما ناطت بالبلديات إلى حد كبير مهمة تحديد المواضع لإقامة الفجر ، مع توفير الدعم المالي من الحكومة ، وقد نيف عدد هذه المواضع على العشرين ، وكانت على درجة فائقة من الأهمية ، وقد صممت بحيث تتناسب مع حركة الكرافانات ، التي كانت قد توقفت لبضعة عقود ، وتوجه اهتمام الحكومة في إسبانيا نحو ما يمكن عمله مع الفجر الرحل ، بعد أن صار معظمهم يعيشون في أحياء فقيرة أو عشوائيات ، وكان هناك تمييز خبيث غير معلن في أجور العمال الزراعيين ، ففي سنة ١٩٨٩ كان الأجر عن ساعة عمل واحدة في حقول مرسية ، يتراوح بين ثلاثمائة بيسة للرجال ومائتين وخمسين للنساء ومائتين للفجر ، وقد حثت الحكومة السلطات البلدية على تبني برنامج إسكان لإزالة العشوائيات ، وقد التزم بعضها بهذا البرنامج ، كما أنها قدمت دعماً للفصول التعليمية الأولى بالمدارس .

تبين لإسبانيا ما قد يحدث من ردود أفعال لدى سكانها ، عندما يجدون عائلات غجرية ، تنتقل إلى منازل جديدة ، أو أطفالاً يلتحقون بمدارسهم ، وهى لم تكن متفردة بهذا الشأن ، فردود أفعال مثل هذه لم تكن غير مألوفة ، حتى فى البلاد الواطئة والسويد ، وهما بلدان كانا من نواح معينة أكثر استعداداً للمساعدة ، فقد قبلت السويد بمئات من الغجر المنفيين من بولندا (انظر ص ٣٠٤) وعاملتهم كلاجئين ، وأعانتهم فى الحصول على العمل والسكن ، وهيأت البلاد الواطئة بدورها منازل مناسبة لمن حل بها من غجر أجانب (ص ٣٠٢) ، أما بشأن الرحالين المحليين ، فقد اتجه الرأي إلى تجميع سكان الكرافانات المتنقلة فى مجموعات كبيرة فى مراكز قليلة العدد نسبياً ، وأفضى القانون الهولندى الصادر فى سنة ١٩٦٨ إلى أن تقوم الحكومة بمحاولة لأن تلحق بساحات الكرافانات والوحدات السكنية العائلية مدارس خاصة وفصولاً لتعليم الكبار ، لكن هذه السياسة انتهت فى أواخر السبعينيات إلى النقيض ، وذلك لعدم ملائمة أراضى التخييم واتساعها ، فضلاً عن صعوبة أن يستبدل بها العدد اللازم من المواضع الصغيرة ، وبالمثل فعندما تحولت السياسة التعليمية إلى إلحاق الأطفال بفصول دراسية عادية ، كانت ردود أفعال غيرهم من الأطفال ، تؤدى إلى مشكلات ، تعود إلى تدنى مستوى هؤلاء الأطفال دراسياً ومقاطعة زملائهم لهم وسوء الظن بآبائهم .

لم يكن ثم افتتار إلى البيانات التى تعبر عن حسن القصد والحلول الجاهزة فى الساحات الدولية ، فابتداءً من عام ١٩٧٥ تبنى وزراء المجلس الأوروبى الممثلين لمعظم الأقطار الأوربية خارج الكتلة الشيوعية حينذاك ، تبنا سلسلة من القرارات والتوصيات ، واستنكروا الوضع البائس للرحل فى أوروبا ، وحثوا الحكومات الأعضاء والسلطات المحلية على أن يضعوا حداً للتمييز العنصرى ، ويفعلوا شيئاً فى شأن أراضى التخييم والإسكان ورفع مستوى التعليم والتوجيه المهنى والصحة والرفاه الاجتماعى ، وانكب مجلس الاتحاد الأوروبى على الجوانب التعليمية ، ودعا القرار الذى أصدره فى مايو ١٩٨٩ إلى « مقاربة عملية بناءة ، تساعد فى التغلب على الصعوبات الرئيسية لإلحاق أطفال الغجر الرحالين بالمدارس » ، على أن تقوم هذه المقاربة على احترام ثقافتهم ، وعلى موارد إضافية وتدريب خاص للمعلمين^(٢٠) ، ويتضح من القرار

' Resolution of the Council and Ministers of Education ... on School (٢٠) Provision for gypsy and traveller children ' , Official Journal of the European Communities , 21 June 1989, 89 / c 153 / 02 .

ما كانت عليه الحال فى الدول الاثنتى عشرة الأعضاء ، فبين نصف مليون أو يزيدون من الأطفال ، كان ثلاثون بالمائة فقط هم الذين انتظموا بدرجة أو بأخرى فى المدارس ، والنصف لم يلتحقوا بها على الإطلاق ، أما من وصل من هؤلاء الأطفال إلى المرحلة الثانوية وما بعدها فكان أقل بكثير ، كما كانت مهاراتهم التعليمية ضعيفة الصلة بالمدى المفترض للتعليم ، بينما وصل مستوى الأمية بين الكبار إلى ما يزيد على الخمسين بالمائة ، ووصل فى بعض الأماكن إلى ثمانين بالمائة وزيادة .

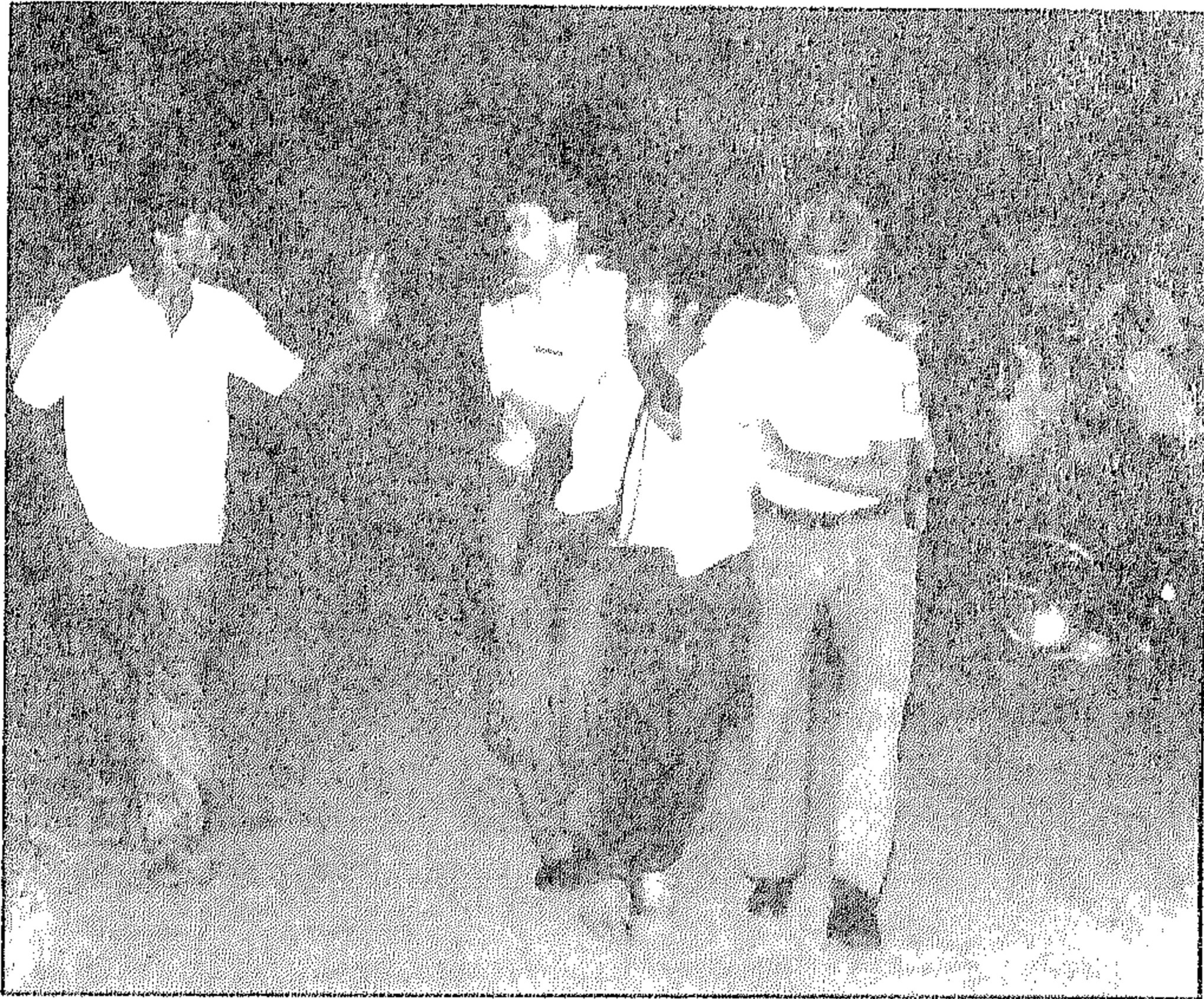
وترتب على ما جرى من تحولات سياسية فى عام ١٩٨٩ أن نشأت صدوعات وصراعات ، أضفت دلالة إضافية إلى الوثيقة التى تقرر حقوق الأقليات القومية ، والتى وقعت فى العام التالى أربع وثلاثون حكومة فى اجتماع مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى . فبعد إدانة أى شكل من أشكال التمييز القائم على أسس عرقية ، يقرر المجتمعون أنهم « فى هذا السياق يعترفون بمشكلات الغجر الخاصة » .

كانت هذه المشكلات قد صارت أكثر حدة ، فقد ترتب على سقوط النظم الشمولية فى الشرق أن انبعثت مشاعر ظلت مكبوتة منذ الحرب ، وأضحت حرية الكلام تعنى حرية التعبير عن التعصب ، ووقعت أعمال عنف ، حتى فى أماكن استقر بها الغجر منذ زمن طويل ، وكان يظن أنهم صاروا مقبولين بها . ولم يعد المشروع الخاص مجرماً ، ولكن هؤلاء الغجر الذين أفادوا بانتهازيتهم من الثغرات التى أتاحها لهم ما جرى من تحرير للاقتصاد ، فأنصرفوا إلى الاتجار بالسلع النادرة ، فإنهم زادوا من عداء غيرهم لهم ، وفى رومانيا بالذات كانوا مصدراً لاستياء كثير من العمال الذين اشتدت بهم الأزمة الاقتصادية ، وسعرت الحكومة الجديدة المنتخبة من هذه الحملة ضد الغجر ، وعندما توجهت جماعات من عمال المناجم إلى بوخارست فى يونيو ١٩٩٠ ، لقمع انشقاق ضد الحكومة ، فقد اختصوا الغجر بمعاملة خاصة ، ومضوا فى هيجانهم إلى بيوتهم ، وقاموا باعتداءات أثيمة عليهم ، قبل مغادرتهم العاصمة ، وإطراء رئيس الجمهورية يجلس فى آذانهم .

ومنذ عام ١٩٨٩ جرى قدر من التحول فى الشرق ، فحالما يسرت الديمقراطيات الناشئة من إجراءات الخروج ، وأضحى ممكناً الحصول على جوازات سفر للمرة الأولى بعد عقود ، بدأت أقطار أوروبا الوسطى والغربية تتعرض للغزو من قبل مهاجرين ، بينهم عشرات الآلاف من الغجر القادمين من رومانيا ، وحيث إن يوغسلافيا



شكل ٤٤ - في قرية هاداريني بترانسيلفانيا ، غجرية تفارق بيتها بعد تدميره ، وهو واحد من ثلاثة عشر بيتا تم إحراقها في ليلة واحدة على أيدي جماعة معادية للنجر في سبتمبر ١٩٩٣ ، تصوير ريموس ماركو سلاج ، أسوشييتد پرس ، لندن .



شكل ٤٦ - إلقاء القبض على غجري روماني لدى مركز للاجئين في ليباخ قرب بريمن ١٩٩٠ ، وكالة الصحافة الألمانية - هامبورج .

قد سقطت فريسةً لصراعات مريعة ، فإنه لم تلبث أن زادت أعداد الغجر القادمين منها الطين بلةً ، وفي ألمانيا وهي المحطة الرئيسية للغجر تدافعت حشود غفيرة من الباحثين عن مأوى ، واعترضت المحليات على تهيئة معسكرات لهم ، بل وازدادت الضغوط لطردهم من أتى منهم قبل سنوات وليست لديهم تصاريح إقامة رسمية، كما طالبت بتعديل دستور البلاد وتغليظ قوانينها الخاصة باللجوء ، وفي مواجهة هذا التشدد ضد اللاجئين والعمال المهاجرين ، شهد عام ١٩٩٢ بدايةً لتحركات داخل الاتحاد الأوربي من أجل توحيد سياسات الدول الأعضاء تجاه دخول أفراد من دول ليست أعضاء فيه ، كنظير لفتح الحدود الداخلية للمرور الحر لمواطني الاتحاد ، وهي حرية لا تؤدي بالضرورة إلى طرح القيود القومية للعمل والتنقل مثل تصاريح السير الفرنسية .

أقوام وجماعات

لا يدهشنا - وقد اهتز المشكال^(٢١) اهتزازات متعددة - أن نشاهد بين غجر اليوم أنماطاً ، تدل على توزيعهم إلى عناصر مختلفة ، وفي تقصينا لهذه الفسيفساء علينا أن نتساءل عما يمكن عمله لإيجاد قاعدة لهذا التصنيف ، ولدينا نقطة بداية مناسبة، هي التمييز في معظم أقطار أوربا الغربية بين الجماعات الغجرية التي طال العهد بها وبين تلك التي وفدت إلى هناك خلال القرن الماضي مثل الروم ، ثم من وفدت في فترة أحدث مثل الشوراشان ، فأولئك وهؤلاء يتميزون عن غيرهم من جملة أوجه سواء في لغتهم وعاداتهم أو حرفهم أو في أنماط حياتهم ، وهناك تمييز مماثل بين الزنتي والروما ، وهي مسميان يعودان في أصولهما إلى الغجر أنفسهم ، وربما يستخدم الواحد من الزنتي مسمى روما في الإشارة إلى أي نوعية من الغجر ، تعود في أصولها إلى شرقي أوربا ، أو إلى أي غجر ليسوا من الزنتي ، بينما يشير الروما إلى جماعات الغجر في غربي أوربا على أنهم زنتي ، وعلى نحو دقيق فالزنتي هم غجر أقاموا منذ زمن بعيد في بلاد تتحدث بالألمانية ، وهي حقيقة يشهد عليها ما للألمانية من تأثير قوى في لهجاتهم الرومنية ، ويوجدون في بلدان مختلفة ، بل إن لهجاتهم تمتد

(٢١) Kaleidoscope جهاز يشبه المنظار به مرايا وقطع صغيرة ملونة ، تنعكس في أشكال متناظرة متناسقة (النجدة) .

بجنورها شرقاً إلى نهر الفولجا ، فقد حملها إلى هناك غجر ، وصلوا عن طريق بولندا في الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم امتدت خلال الحرب العالمية الثانية إلى كازاخستان ، وقد عرف الزنتى في فرنسا بالمانوش *manouches* (من الرومنية *manus* أى رجل غجرى) . وهناك مجموعة ثالثة أساسية تتميز عن الزنتى والروما ، تضم الكالى *Calé* في إسبانيا والسيجانوس *Ciganos* في البرتغال والجيتان *gitans* في جنوبي فرنسا ، فضلاً عن جماعات أخرى ، يعيش بعضها في أمريكا اللاتينية ، وهكذا فغالباً ما تتبين لنا في غربي أوروبا طبقات عدة من الغجر ، ففي فرنسا نصادف المانوش والجيتان والروم (غالبهم كالديراش) والشوراشان وغيرهم ، أما في إيطاليا فالطبقات الأقدم مؤلفة من عائلات زنتية مختلفة في الشمال ، بالإضافة إلى غجر أبروتسى *Abruzzi* وكالابريا *Calabria* في الوسط والجنوب ، وربما ينحدرون - بحكم ما فى لغتهم من ندرة فى الكلمات المستعارة من السلافية والألمانية ، فضلاً عن تقارب لهجاتهم - من غجر عبروا البحر مباشرةً من بلاد اليونان ، ونضيف إلى هؤلاء الشوراشان وأقواماً غيرهم ، أتوا من يوغسلافيا ، إلى جانب الكالديراش والتشورارا والرودارى وقبائل دانوبية أخرى .

عندما نبتعد شرقاً يصير الوضع أكثر إختلاطاً ، فيتضح من التعقيدات العرقية واللغوية العميقة أن ما وقع هناك يعد حيويّاً بالنسبة لتاريخ الغجر ، ففي هذه البلاد يحتشد الغجر على نحو كثيف ، بحيث أضحت الأصل والمنشأ *Fons et origo* لغجر أوروبا كافة ، وعبر القرون تنوعت عناصرهم ، أكثر منها فى أى مكان آخر^(٢٢)، وعلى المرء أن يستند إلى معايير عدة ، فى محاولته رسم خريطة للتشعبات من بين غجر البلقان ، وليست الجنسية ذاتها معياراً ذا شأن ، لأن كثيراً من القبائل الغجرية امتدت عبر الحدود القومية، كما أن هناك نظائر عديدة فى التنظيم الداخلى من بلد إلى آخرى، كذلك كان كل من اللهجة والدين (مسلم / مسيحى) عاملين هامين والتخصص المهنى فى الحاضر أو الماضى عاملاً آخر ، وقد شاهدنا بالفعل كيف أسفر هذا التخصص

(٢٢) توجد خلاصة عامة فى : W. G. Lockwood, " Balkan Gypsies : an introduction ' , in Papers From the Fourth and Fifth annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter (New York , 1985) , PP. 91 - 9 وتتكرر مع بعض التعديلات فى Giessener Hefte Für Tsiganologie (1985), 1/85, PP. 17 - 23 .

عن تقسيمات فرعية بين الروم ، ولا ننسى أيضاً أن الحدود بين الرحل والمستقرين من بين هذه العوامل ، لكنها لم تكن بأية حال حادة ولا دائمة ، فكان كثير من الفجر المستقرين يتنقلون وراء الأعمال الموسمية ، بينما كان من عادة الرحل أن يستقروا في شهور الشتاء^(٢٣) (ليس ثم ارتباط بين خط التقسيم إلى رحل ومستقرين من ناحية وبين مدى الاحتفاظ باللغة من ناحية أخرى، فليس من النادر أن نجد رحل هجروا الرومنية بينما يحتفظ بها الكثيرون من المستقرين، وكأنهم يعيشون داخل مجتمعات غجرية كبيرة) .

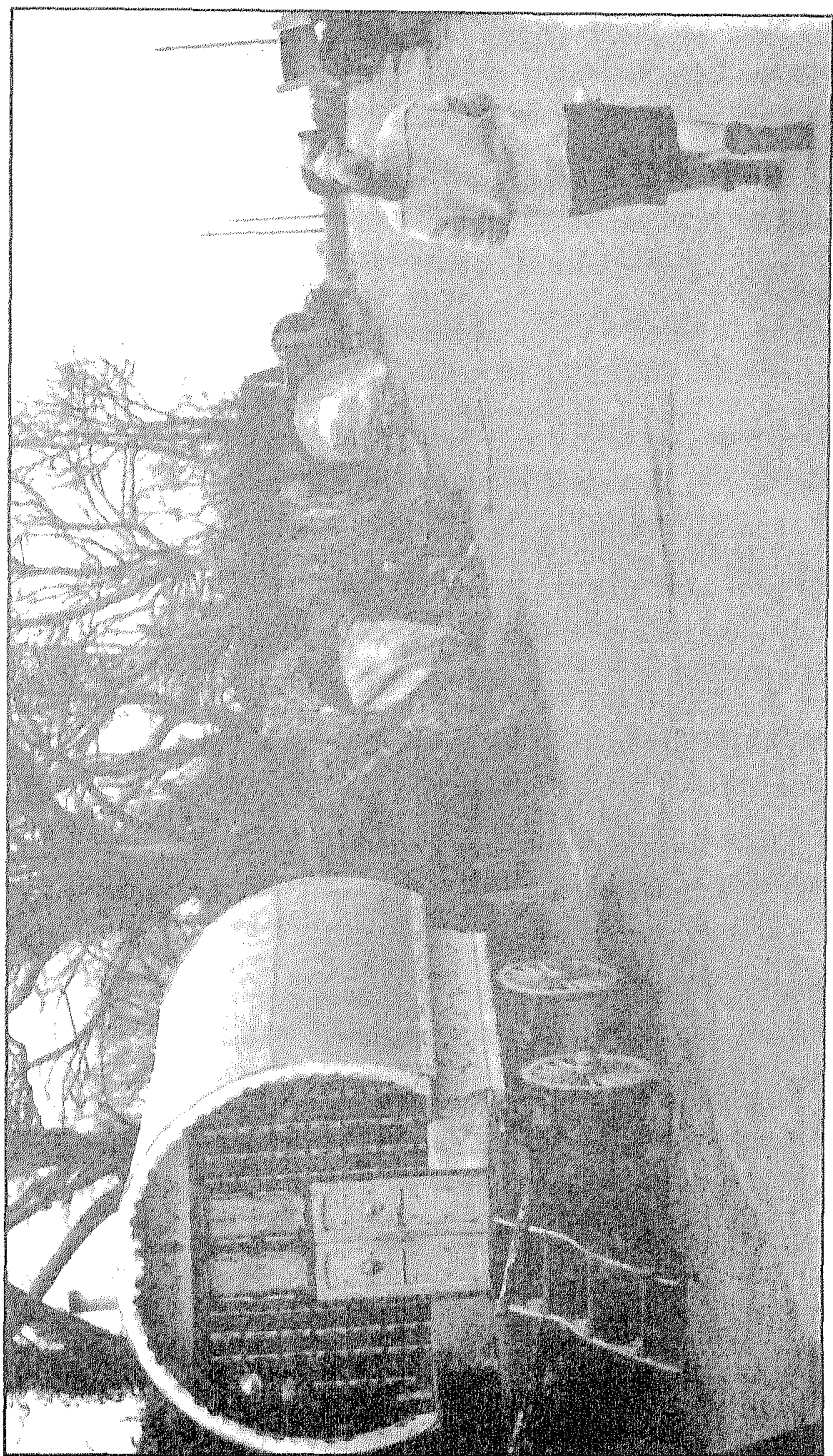
على أساس فوارق مثل هذه يستطيع المرء أن يحدد نحواً من عشرين قبيلة أساسية في يوغسلافيا ، ينقسم الكثير منها إلى تقسيمات فرعية ، يكون لكل منها إقليمها الخاص ، كما تصير لها ثقافتها الخاصة ، وكذا مهنتها ولهجاتها ، ويتزوج أفرادها زواجا داخليا^(٢٤)، وقد أمكن لأحد الباحثين عشية الحرب العالمية الأولى أن يسجل في بلغاريا قائمة لتسع عشرة قبيلة ، تقيم في شمالها الشرقي ، وحدد في هذه القائمة مكان كل منها ودينها وما تمارسه من مهنة ، وما إذا كان أفرادها رحل أو مستقرين ، ويتضح أن سبع قبائل منها مسلمة مستقرة وأربع مسيحية مستقرة ، وأربع مسلمة متحلة ، وأربع مسيحية متحلة^(٢٥)، وثلاثاً منها (بينها الروداري أكبر قبيلة متحلة إلى الشمال الشرقي من بلغاريا) لا تتحدث بالرومنية ، بينما الست عشرة الباقية، تنقسم بالتساوي بين قبائل تتحدث بالأفلاقية وقبائل أخرى تتحدث بلهجات غير الأفلاقية ، على أن هذه الاختلافات خفتت بمرضى الوقت بسبب ما جرى من تطورات متصلة مصحوبة بالتوطين الإجباري والدمج الثقافي والرفض الحكومي للاعتراف بشرعية الفجر كجماعة سلافية .

(٢٣) بشأن اندماج البييلي Bijeli (المسلمون الصرب) الفجر في صربيا في مرحلة ما قبل الحرب وتحولهم من الترحل إلى الاستقرار واختلاطهم بالأغيار ، انظر :

A. Petrovic ' Contributions to the study the Serbian Gypsies ' JGLS (3), 19 (1940), PP. 87 - 100 .

R. Uhlik, ' Iz ciganske onomastike ' , Glasnik Zemaljskog museja u (٢٤) Sarajevu, istorija i etnografija , new series , 10 (1955), PP. 51 - 71 ; 11 (1956), PP. 193 - 209 .

B. J. Gilliat - Smith , " Report on the Gypsy tribes of north east Bulgaria ' , (٢٥) JGLS (2) , 9 (1915 - 16), PP. 1 - 54 , 65 - 109 .



شكل ٤٦ - رجالون أيرلنديون في السبعينيات ، تصوير جانين ويدل .

مما يزيد مشكلة التصنيف تعقيداً وجود شتيت من الجماعات المتنقلة فى غربى أوربا ، تتشابه أنماط حياتها إلى حد بعيد مع نمط حياة الغجر وراثتهم الثقافى بعامه ، فقد تعاطوا الرحلة جيلاً بعد جيل ، ومارسوا مهناً مماثلة ، وعاشوا حياةً مماثلة ، واتخذوا مواقف مماثلة تجاه المجتمعات حولهم ، وصاروا يفضلون الزواج فى سن مبكرة ، على أنهم كانت لهم لغاتهم الخاصة بهم والتي تختلف عن الرومنية وإن تأثرت بها ، كما أن نظام التابو عندهم يختلف كذلك .

نجد فى الجزر البريطانية مترحلين إيرلنديين ، يشار إليهم بأنهم صفاحون ، لكنهم يفضلون أن يطلق عليهم رحالين ، وهم مثال واضح لجماعة كانت موجودةً فى البلاد لدى وصول الغجر^(٢٦) وكانوا فى السابق يتنقلون فى الأرياف ، يزاولون مهناً مختلفةً وخدمات ، خصوصاً الصفاحاة والتعامل بالخيول بيعاً وشراءً والتجول بالتجارة ، ويعيشون فى خيام وعربات تجرها الجياد ، وقد انقرضت معظم هذه الحرف التقليدية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولم يعد بمقدورهم الإقامة بالريف ، وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى المناطق الحضرية ولا سيما دبلن ، حيث قام الرجال بتسجيل أسمائهم ، للحصول على إعانة بطالة ، كما درجوا على جمع المعادن الخردة والسلع المستعملة ، بينما تقوم نساؤهم بالتسول ، ويقيم أكثر من نصفهم فى كراشانات بمقطورات وبيوت سابقة التجهيز فى مواضع خاصة بالتخيم أو فى مساكن مدعومة من الدولة ، ومنذ أواخر الخمسينيات عبر الكثيرون منهم البحر إلى إنجلترا وخاصةً الميدلاند ، حيث شرعوا فى مزاحمة غجرها فى مهنتهم (لم يكن هذا أول دفق لهم ، فقد شكل الجوع الكبير Great Hunger فى أربعينيات القرن التاسع عشر حافزاً كبيراً) ومفردات لغتهم المعروفة باسم Gammon أو الرطانة والمتطورة عن الشلتا Shelta القديمة مشتقة إلى حد بعيد من الكلتية ، وتشتمل على لهجة مقطعية من الإيرلندية العتيقة (وجامون نفسها مشتقة من أوجام Ogam وهى الأبجدية الغالية القديمة) ، لكنها فى بنائها إنجليزية أكثر منها أيرلندية ، أما فى اسكتلندا فقد عرفت الصفاحين قبل مقدم الغجر

Cf. S. B. Gmelsh, *Tinkers and Travellers* (Dublin , 1975, 2nd edn 1979): J. (٢٦) Wiedel and M. O'Fearadhaigh, *Irish Tinkers* (London, 1976); G. Gmelch, *The Irish Tinkers* (Menlo Park. CA, 1977, 2nd edn 1985); and G. Gmlch and S. B. Gmelch, 'Ireland's travelling People: a comprehensive bibliography ' , JGLS (4), 1 (1977), no. 3, PP. 159 - 69 .

بزمن طويل ، وقد احتفظت هذه الجماعة الأصلية بخصوصيتها لدى مقدم هؤلاء ، وما يعرف من صلات بينهما فى الماضى يسير ، لكنه لا بد أنه وجد قدراً وافراً من هذه الصلات بما فيها التزاوج واتساع الرافد العجري ، ويشارك الكثيرون من هؤلاء المترحلين فى بعض تابواتهم (مثل ما يتصل منها بغسل الملابس والأطباق فى الحوض نفسه) بينما حفلت لغتهم أى الرطانة بكلمات رومنية إلى جانب كلمات أخرى من الغالية والاسكتلندية وأيضاً من الرطانة فى معناها القديم (أى الرطانة السرية للعالم السفلى، وقد سجلت لأول مرة فى القرن السادس عشر) (٢٧) .

والبحث فى ظهور جماعات من الرحل بالقارة الأوربية تزاوُل التجارة قضية خلافية . ويذهب البعض إلى أن السبب فى ظهورها ، يتراوح بين عوامل اجتماعية واقتصادية من ناحية واختلاطها بالعجر من ناحية أخرى ، ومع ذلك فليس ثمة جدوى فى قولبتهم على نحو دقيق ، ومن الناحية الجغرافية فأكثر هذه الجماعات انتشاراً هم الينيشية Jenische (٢٨) ، وأول ذكر لهم بهذا المسمى يعود إلى سنة ١٧١٤ ، حين استخدم للدلالة على رطانة نمساوية ، وبعد سبعين سنة صار علامةً على الروتقلش Rotwelsch (وهى رطانة اللصوص الألمان) ، وهناك نظرية شائعة تربط بينها وبين الجذر الرومنى dʒan أى يعرف ، بما يفيد معنى اللغة الحاذقة ، أو أنهم القوم الحذق ؛ وتركز الينيشية على نحو خاص فى الراينلاند وقاموسهم اللغوى خليط من الرومنية والييديشية (٢٩) والروتقلش ولهجة ألمانية ما حسب المكان ، وكانوا يزاوُلون صناعة السلال والمناخل ، ويتاجرون لدى ترحالهم بالسلع الصغيرة ويقومون بشحذ السكاكين والصفاح ، وقد أتوا إلى فرنسا وبلجيكا قبل مائتى سنة تقريباً من بلاد تتحدث بالألمانية ، وتتضح من أسمائهم صلات ما بالزنتى فى جنوبى ألمانيا والألزاس (٣٠) . وهناك من يذهبون إلى أن صلاتهم بفجر سويسرا على مدى القرنين الماضيين كانت

Cf. A. and F. Rehfisch , ' Scottish Travellers or Tinkers ' , in Gypsies , (٢٧) Tinkers and Other Travellers, PP. 271 - 83 ; and E. MacColl and P. Seeger, Till Doomsday, in the Afternoon (Manchester , 1986) .

Cf. H. Arnold, Fahrendes Volk (Neustadt, 1980) ; and A. Reyniers and J. (٢٨) Valet , ' Les Jenis , Études Tsiganes (1991) , no. 2, PP. 11 - 36 .

(٢٩) لغة مزيج من الألمانية والعبرية ، يتحدث بها الكثرة الغالبة من اليهود الأشكنازيم فى شرقى أوروبا (المترجم) .

Cf. J. Valet, Les Voyageurs d'Auvergne , nos familles yéniches (Clermont, (٣٠) 1990) .

محدودة ، لكنه ليس لدينا ما يقطع بذلك^(٣١)، ويبدو اختلاطهم بغيرهم محتملاً في بلاد وأكيداً في بلاد أخرى (فهناك مثلاً قدر من الصلات والتزاوج بين المانوش والينيشية في أواسط فرنسا) ، لكنهم يتفردون عن غيرهم في اللغة وقاعدة النجاسة ، والجماعة المماثلة لهؤلاء في البلاد الواطئة تعرف بساكني الكراقاتانات Woonwagenbewoners أو الرجال reizigers ، ويبدو أن هؤلاء ظهوروا في القرن الثامن عشر كباعة جوالين وحدادين وشحاذين للسكاكين وما إليه وقد أتوا بشكل أساسي من قسطنطينية ومن فحامي المستنقعات الذين كانوا يجوبون الأراضي البور شمالي البرابانت ، وخلال القرن التاسع عشر تشكلوا كجيل جديد من أصول مختلفة ، وغالباً ما يعيشون اليوم في كراقاتانات ثابتة يتاجرون بالخردة والسيارات المستعملة والمنسوجات ، أو يزاولون أعمالاً موسمية^(٣٢).

الأمر نفسه حدث لجماعات أخرى مماثلة ، صلاتها بالفجر غير أكيدة ، وربما انحدر رجالوا النرويج Omstreifere من اتحاد بين الفجر والألمان إلى جانب عناصر محلية ، وحوالي ثلث لغتهم المعروفة بالرودي Rodi مشتق من الرومنية وعشرها من الألمانية^(٣٣)، وغالبهم أشباه مستقرين ، كما عرف رجالو السويد أشباه المستقرين باسم Tattare وهي تسمية سبق أن أطلقت على الفجر ، ثم بدأت تطلق في غضون القرن الثامن عشر على العائلات المترحلة بوجه عام ، أما الفجر أنفسهم فصاروا يعرفون باسم zigenare ، ويحتوي القاموس اللغوي لهؤلاء الرحالين (كما يفضلون أن يطلق عليهم) كثيراً من المفردات الرومنية ، فضلاً عن مفردات أخرى مستعارة ، والاعتقاد الشائع أنهم ينحدرون جزئياً من فجر وجزئياً من عائلات سويدية مستقرة ، ومع أن البعض يعترض على ذلك استناداً إلى شجرات أنسابهم^(٣٤)، إلا إن هذه في حد ذاتها توضح تسرب قدر من الدماء الفجرية إليهم .

عندما ننتقل إلى إسبانيا والبرتغال نشاهد قوماً يدعون بالـ quinquis - وهي صيغة تصغير من quinquilleros أي صفاحون - وهم جماعة متجانسة يؤثرون زواج

Cf. S. Golwin, ' Fahrende in der Schweiz ' , Giessener Hefte für Tsiganologie (1985) , 2 + 3 / 85 , PP. 40 - 50 ; and C. Meyer, " Unkraut der Landstrasse ' (Zürich, 1988) .

Cf. J. H. A. Wernink , Woonwagenbewoners (Assen, 1959) . (٣٢)

Cf. R. Iversen, Secret Languages in Norway . Part II : The Rodi (Rotwelsch) (٣٣) in Norway (Oslo , 1945) .

A. Heymowski, Swedish Travellers and their Ancestry (Uppsala, 1969). (٣٤)

الأقرباء^(٣٥)، وربما انحدروا من فرع منعزل من الغجر الأوائل ، وإن كان لا يوجد بالضرورة تماثل فيزيقياً كان أم ثقافياً أم لغوياً ، وكثير من مفردات لغتهم تعود إلى العصر الذهبي في تاريخ إسبانيا ، ولدينا نظرية أكثر قبولاً ، تعود بهم في أصولهم إلى فلاحى قشتالة المعدمين الذين تحولوا إلى الترحل بعد مجاعات وأوبئة ، وقعت خلال القرن السادس عشر ، هلك معها العديد من سكان الريف ، وقد واصلوا الترحال - أكثر من الخيتانو أنفسهم - حتى الخمسينيات من هذا القرن، فكانوا يتنقلون بعربات صفراء مزينة بسخاء ، ثم صدرت قوانين تحظر الترحل عليهم، مما اضطرهم إلى الاستقرار ، ووضع الكثير منهم أياديهم على أراض أو سكنوا عشوائيات متناثرة خارج مدريد وبرشلونة ولباو ، إلى أن أزيلت ، ورحل سكانها إلى جهات نائية ، ويعيش كثرتهم اليوم في أحياء فقيرة داخل المدن ، وباتوا في عداد العاطلين ، وأضحت كلمة quinquى مرادفة على وجه التقريب لكلمة delinquent^(٣٦) فى القشتالية وصار ينظر إليهم بازدراء من قبل الخيتانو والبايو .

أفضى هذا كله وغيره من احتمالات الخلط والصعوبة فى تحديد الأصول العرقية إلى أن يصير الظفر بتعداد الغجر من الأمور التى تدعوا إلى الإحباط ، ولا يعول فى هذا الشأن كثيراً على الإحصاءات القومية فهناك عقبات جمة فى تحديد ما إذا كان السكان رحل أم مستقرين ، ثم فى تحديد هوياتهم (فى يوغسلافيا دعا بعض الغجر أنفسهم روما ، وبخلاف ما درجت عليه الحال ظهر فى عام ١٩٩٠ بمقدونيا اتجاه نحو تبني مسمى Egiptani ، وزج الآلاف من الغجر بأنفسهم فى هذا التصنيف فى إحصاء عام ١٩٩١) ، وغالباً ما تفاوتت التقديرات المعلنة لأعداد الغجر ، ولدينا الآن تحليلان لتعدادهم قطعاً قطعاً ، ونخلص من أحدهما إلى أن العدد الإجمالى للغجر فى أوروبا^(٣٧)، يتراوح بين ١٩٨٨.٠٠٠ و ٦٢١.٠٠٠ ره ، ونخلص من الآخر إلى أن عددهم يتراوح بين ٢٤٢.١٧٥ و ٩٣.٥٠٠ ره ، ونلاحظ فيما يختص ببعض البلدان تفاوتاً هائلاً بين التحليلين ، فأحدهما يحدد أعداد الغجر فى البلاد الواطئة بحوالى الألف وغجر

Cf. L. Ignacio , Los Quinquis (Barcelona , 1974) ; and K. Bonilla , ' The (٣٥) Quinquis : Spain's last nomads ' , (JGLS (4), 1 (1976) , no. 2, PP. 86 - 92 .

(٣٦) بمعنى مجرم أو جانيح (المترجم) .

R. Vossen, Zigeuner (Frankfurt am Main, 1983), PP. 157 - 62 ; and J. P. (٣٧) Liégeois , Gypsies (London , 1986) P. 47 .

السويد بما بين الألف والثمانية آلاف ، في حين نجد الآخر يحددهم بما يتراوح بين ثلاثين ألفاً إلى خمسة وثلاثين ثم بين الستين ألف إلى مائة ألف على التوالي ، وربما يعزى هذا التفاوت جزئياً إلى الميل لإقحام جماعات هامشية في هذا التعداد (مثل الينيشية والتتروساكنى العربات) .

على أن الافتقار إلى اليقين ليس بكاف لأن نصرف النظر عن هذه المشكلة ، ونحاول من جانبنا تقدير أعداد العجر بالبلدان الأوربية في أواخر الثمانينيات ، ونصل إلى ترتيب تنازلي لأعدادهم (يمثل فيه رقم مثل ٢٥٠.٠٠٠ + عدداً يتراوح بين الربع المليون والنصف المليون) .

يوغوسلافيا ، رومانيا	+ ٥٠٠.٠٠٠
المجر ، إسبانيا ، بلغاريا ، الاتحاد السوفييتي السابق ، تشيكوسلوفاكيا	+ ٢٥٠.٠٠٠
فرنسا	+ ١٠٠.٠٠٠
إيطاليا ، ألمانيا ، المملكة المتحدة ، اليونان	+ ٥٠.٠٠٠
بولندا ، ألبانيا ، البرتغال	+ ٢٥.٠٠٠
النمسا	+ ١٠.٠٠٠
السويد ، فنلندا ، البلاد الواطئة ، بلجيكا ، سويسرا ، الدنمارك	+ ١.٠٠٠
أيرلندا ، قبرص ، النرويج	- ١.٠٠٠

يتبين لنا أنه ربما فاقت أعداد العجر في مدينة ما ببلد ما أعدادهم في بلد بأسرها ، فيقدر عدد العجر في شوتو أوريزاري Suto Orizari وهي بلدة تقع خارج سكوبيي Skopje في مقدونيا بأربعين ألفاً معظمهم مسلمون ، يمثلون أكبر تجمع للعجر في أوروبا ، وإن نافستها سيلفين Silven في بلغاريا .

وبالنسبة لأوروبا على الإجمال ، فقد يكون أربعة ملايين هو العدد المعقول ، ومع ذلك فلسنا على يقين من صحة هذا التقدير ، ويحتج البعض بأن العدد الحقيقي أكبر بكثير^(٣٨) .

(٣٨) E. g. G. Puxon, Roma : Europe's Gypsies , 4th edn (London , 1987) P. 13 . وهو يعطينا جدولاً لعدد إجمالي قدره ٩٩١.٠٠٠هـ يضم جماعات من الرحل والمستقرين مرتبطة بهم .

تحولات اللغة

في تحليلنا لهذا التصنيف يتبين لنا أن الاختلافات اللغوية سمة أساسية لها ، وحالما يشرع المرء في حل ما في اللهجات الرومنية من تعقيدات ، يصعب عليه تحديد أين يمكن له أن يتوقف ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن تجمد لغة ما عند حد معين ، فكل عام تكتسب الإنجليزية مائة كلمة جديدة أو تكتسب معان جديدة لكلمات حية، والرومنية بالذات لغة مرنة ، وكل من تكون هذه اللغة لغته الأم ، يتحدث إلى جوارها بلغة أخرى ، وتتهيا له - من ثم - استعارات متواصلة من ثقافات البلاد المضيفة ، ويحدث بالتالي تباعد على مدى الزمن ، على أنه مع الافتقار إلى نموذج مكتوب لهذه اللغة ، يجعل من تقصى هذا التباعد أمراً عسراً ، واللغة هنا شأنها شأن أغانيهم وحكاياتهم التي حذقوها وتداولوها جيلاً بعد جيل ، فقد تعرضت باعتبارها مادة حية للتحوير والتجديد على الدوام ، ولم تعد بعض صور الرومنية لغات على الإطلاق ، وانحطت إلى أن صارت مجموعة من المفردات ، تستخدم في السياق العام للغة قومية أو لهجة قومية ، مثل الكالو في شبه الجزيرة الأيبيرية أو الرومنية الإنجليزية^(٣٩) (المختلفة عن اللغة المهجورة التي ما تزال تتشبه بها أسرة Wood في ويلز) ، وحتى ما يوصف من الرومنية بأنها لغات فإن حجم قاموسها محدود ، ولا يجاوز بعامة بضعة آلاف من الكلمات ، والاختلافات بين لهجاتها عميقة ، ولو أن هذه الاختلافات تتضاءل كثيراً ، إذا ما ركزنا على نواتها النوقية ، وغضضنا البصر عما بها من كلمات مستعارة شبه مندمجة فيها^(٤٠)، ونستطيع أن نتبين في اللهجة الويلزية نحواً من ستين بالمائة من مفرداتها ، تعود إلى عهد ما قبل وصول الغجر إلى أوروبا ، وست عشرة بالمائة لها

(٣٩) كما في الجملة الآتية من حديث فتاة غجرية عن سوق الخيل بأبلباي Appleby « حين ينهض الصبية chavies من نومهم ، ينزلون بالجياد grais إلى الماء pani ويغسلونها ، ثم يمتطون صهواتها إلى أعلى الطريق drom وأسفله » ، فائنتان من هذه الكلمات على الأقل تعودان إلى أصل هندي ، وواحدة تعود إلى اليونانية ، والآخرى grai يحتمل أن تكون أرمنية إن لم تكن هندية.

(٤٠) من أجل التحليل الإحصائي المعجمي لعينة من العينات انظر :

M. Cortiade, ' Distance between the Romani dialects ' , GLS/NAC Newsletter, 8 (1985), no. 2, PP. 1 - 4 and ' O Kodifikaciji i normalizaciji romskog zajednickog Jezika, in Romani Language and Culture, eds S. Balic et al. (Sarajevo, 1989), PP. 205 - 21 .

جذورها في الإنجليزية ، وتسعاً بالمائة يونانية ، وستاً بالمائة سلافية ، وأربعاً بالمائة ويلزية ، أما سائرها فخليط من الرومانية والألمانية والفرنسية ، وأحياناً ما تكون للكلمات المستعارة معان مختلفة بعض الشيء ، لكنها تصطبغ دائماً بصبغة رومانية ، وتخضع لقواعد النحو الرومانية .

في عام ١٨٧٤ قام فرانتس ميكلوسيش Franz Miklosisch^(٤١) بتصنيف الرومانية الأوربية ، إلى ثلاث عشرة لهجة ، وقام تصنيفه هذا على أساس منابع الاستعارة^(٤٢) . على أنه نتيجة لما لحق من تحركات سكانية ، وما طرأ من تطورات في اللغة واكتشافات ، لم تعد لتحليله أهمية كبيرة ، وأضحت الرومانية شبكةً تضم أكثر من ستين لهجة لعشرين مجموعة^(٤٣) ، يمكن أن نصنفها بوسائل عدة ، وليست دراسة النظام الصوتي بذاتها محكاً كافياً^(٤٤) ، ولو أنه أحياناً ما يميز التحول الصوتي جماعةً واحدةً عن غيرها من جماعات ، كما في حالة لهجات معينة اكتسبت في مرحلة باكراً من تاريخها صوتي h أو x بدلا من s الأصلية وذلك في سياقات معينة (مثل hum / hin / hi بدلاً من is / si) وهو تطور يمكن تبيينه في مسرد لغوي ، قام عليه فان إفزوم van Ewsum ، ويعود إلى خمسينيات القرن السادس عشر (انظر ص ٢١٣) ، ويعد خصيصةً من خصائص لغة الزنتي فضلاً عن الكالي Kaale في فنلندا ، أو بدرجات متفاوتة لدى بعض لهجات سلوفاكيا وما حول الكاربات (شرقي المجر ، غاليسيا ، ترانسيلفانيا) . ومع ذلك فمنذ هذه الفترة ، وقعت تغيرات أبعدت هذه اللهجات بعضها عن بعض ، وانتهت إلى لهجات فرعية جديدة ، فبالنسبة للزنتي تبين لنا ما جرى من تباعد صوتي ومعجمي^(٤٥) بين لهجة زنتي پييدمونت Piemontesi ولهجة زنتي لمبارديا Lombardi

(٤١) عالم غجريات ألماني اشتهر في أواخر القرن التاسع عشر بمحاولته لإثبات التماثل بين اللهجات الغجرية والأفريقية ونشر أهم دراسات عن فولكلور الغجر ولهجاتهم في السنوات ١٨٧٤ - ١٨٨١ (المترجم) .

(٤٢) Über die Murdarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas (Denkschriften der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philosophischhistorische Klasse, Vienna), vol 23 (1874) , PP. 1 - 46 .

(٤٣) Cf. T. Kaufman' review in International Journal of the Sociology of Language, 19 (1979) PP. 131 - 44 , esp. PP. 134 - 6 .

(٤٤) لتصنيف يقوم على أساس درجة النظام الصوتي أنظر : J. Kochanowsky , Gypsy Studies, Part. 1 (New Delhi , 1963), PP. 52 - 118 .

(٤٥) Cf. G. Soravia, Dieletti degli Zingar Italiani (Pisa , 1977) .

فى شمالى إيطاليا وبين سائر لهجات الزنتى ، وحتى هذه اللهجات فبرغم تقاربها انقسمت إلى ثلاث مجموعات رئيسية هى (٤٦) :

* اللهجات المحكية فى ألمانيا والبلاد الواطنة والأكراس .

* اللهجات المحكية فى فرنسا .

* اللهجات المحكية فى البندقية (إيطاليا) وستيريا Styria (النمسا) والمجر .

وتتسم كل لهجة من هذه اللهجات بالتجانس ، رغمًا عن بعض الاختلافات اللفظية بين بلد وأخرى ، بحيث لا يجد من يتحدث بلهجة من لهجات الزنتى صعوبة فى فهم من يتحدث باللهجة نفسها فى بلد أخرى غير بلده .

هناك اختلاف آخر أولى بين اللهجات الأفلاقية وغير الأفلاقية من الرومنية ، فجميع الصيغ الأفلاقية من الرومنية تكشف عن تأثير قوى ، حمل بعضه بعيداً روم لهجاتهم الرئيسية كالديراشية روسية وكالديراشية رومانية وكالديراشية صربية ولوقارية وتشورارية وفى (الولايات المتحدة) ma'cvano وتوجد فى هذه اللهجات وفرة من المفردات الرومانية تمثل خمسين بالمائة من معجمها ، كما أن بها خصائص رومانية معينة فى التخاطب والبناء (مثل نهايتى الجمع uri - uria - المستخدمة مع الكلمات المستعارة ، وإحلال السابقة الرومانية mai بدلاً من اللاحقة الرومنية der فى صيغة المقارنة ، مثل mai ternó بمعنى أصغر ، فى حين إنها فى الرومنية الويلزية tamdér) ومن الخصائص الأخرى المشتركة استخدام النهاية em لصيغة الفعل الماضى للشخص الأول المفرد (قارن Kerdem الكالديراشية و Kedóm الويلزية بمعنى صنعت) وإحلال صوتى sَ و zَ بدلاً من صوتى t's ، و d'z كذا إحلال le كأداة جمع معرفة بدلاً من e أو i (قارن الكالديراشية le gazé والولزية i gadzē وبمعنى الأغيار) .

ولا تتماثل اللهجات غير الأفلاقية تماثل اللهجات الأفلاقية ، فقد اكتسبت عبر الزمن نوعية معينة من التجديد (ليس فقط فى الكلمات المستعارة ولكن فى النطق كذلك كما اكتسبت طرقاً أخرى لبناء الكلمات والعبارات والجمل) ، وربما يعود ذلك إلى

Cf. J. Valet, ' Les dialectes du sinto - manouche ' in Tsiganes : Identité, (٤٦) Évolution , ed . P. Williams (Paris, 1989), PP. 309 - 14 .

امتدادها الجغرافى الواسع وتعرضها لتأثير لغات تختلف عنها تماماً ، فقد تراوحت فى انتشارها عبر أوروبا ، من روسيا وجمهوريةات البلطيق وأوكرانيا إلى بريطانيا وشبه الجزيرة الأيبيرية ، بما فى ذلك بلاد البلقان ، وبعض لهجات هذه الأخيرة كالأرلية Arliya التى يتحدث بها عدة آلاف من الشوراشان وهم غجر مسلمون انتقلت إلى أقطار خارج البلقان ، ورغمما عن هذا الامتداد الواسع ، فإن بعض ما بها من لهجات يصير أشبه بعنقود تترابط حباته بأواصر قريى وثيقة ، مثلما هى حال مجموعة الزنتى المشار إليها آنفاً .

هكذا فقد تم اختراق الرومنية من قبل لغات أخرى ، إلى حد أننا نجد متحدثين بها فى مكان قد لا يستطيعون فهم إخوانهم المقيمين بعيداً عنهم فى مكان آخر ، فالغجرى فى سكوبيى بمقدونيا يجد صعوبات جمّة فى فهم أحد من زنتى شمالى إيطاليا ، والرومنية الكارپاثية التى يتحدث بها الغجر سكان البيوت فى شمالى المجر ، ليس من السهل فهمها عند قبائل الأفلاق فى البلاد نفسها ، ومن الأمور الجديدة بالنقاش هو ما إذا كانت الرومنية مجموعة من اللغات المتقاربة ، أم لغة واحدة تنتظم عدداً هائلاً من اللهجات .

تراث من المتغيرات

هذا التعدد العرقى - اللغوى ينعكس فى (ويتقاطع مع) متغيرات فى حياة الغجر المعاصرين ، تأثرت بدورها بما جرى من تطورات فى صلات الغجر بالمجتمع حولهم ، سواء كانت هذه التطورات نمواً سكانياً أو تناقصاً شديداً فى الأراضى المتاحة أو توطيئاً إجبارياً ، واضطرارهم لأن تكون لهم صلات وثيقة بالأغيار ووسائل النقل الحديثة والتصنيع والتقلبات فى فرص الرزق ، وغالباً ما صار يمكن التكهن بزوال المجتمع الغجرى ، بعدما أصاب لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وسائر أنماط حياتهم من تغير دائم ، فواقع إنهم اقتبسوا عناصر من مجتمعات أخرى يؤشر إلى الانحلال ، وأصبحت كل جماعة غجرية تختلف عن غيرها من جماعات ، بسبب ما تعرضت له من تأثيرات لجماعة مختلفة من الأغيار ، أى تصبح محصلة لتراث عام من الملاحة والتكيف اجتماعياً وجغرافياً ومهنياً ، وربما تذوب بعض هذه الجماعات فى نهاية المطاف لكن

كثيراً منها ما تزال تحتفظ بشعورها بالغيرية العميقة تجاه الآخرين ، وتنشئ مما تم امتصاصه ثقافات غجرية خاصة ، وقد انقرضت فى بعض الأحيان أزياءهم القديمة وعاداتهم - مثلاً حدث عندما تخلت النسوة من الكالديراش عن المناديل التى تغطى شعورهن ، وكذا عندما كفت نساء اللوقارا عن ارتداء تفانيرهن الطويلة - ، لكن هذا لم يؤد إلى القضاء على انفصالياتهم أو الانتقاص منها ، وربما نظر معظم الكالديراش إلى انحرافات هؤلاء النسوة كدليل على فسادهن .

هناك دائماً خطورة فى التعميم ، عندما ننتقى جوانب معينة من حياة الغجر ، نستعين بها فى رسم صورة كلية لهم ، ويترجح لنا فساد الزعم بوجود أنماط غجرية فى مهن مختلفة وحرف ، ربما لأن بعض الغجر تلاعوا مع بعضها ، ولكن بالتأكيد لأنه لا توجد مبادئ عامة تنتظم وسائل رزقهم ، والكثير من مهنهم التقليدية إنما اكتسبوها خلال رحلتهم الطويلة عبر أحقاب الزمن ، فمعظم التعبيرات الخاصة بمهنة كالاشغال المعدنية مأخوذة من اليونانية والرومانية والسلافية ولغات أخرى أوروبية، وما جرى من ملامعات اقتصادية فى القرن التاسع عشر (قارن الفصل السابع) إنما كانت ببساطة جزءاً من عملية تاريخية طويلة ، وهى عملية ظلت فوّارة دائماً ، ولم يعد للأسماء المهنية القديمة كالكديراشا واللوقارا والرودارى وغيرها من دلالة سوى التمييز بين جماعة غجرية وجماعة أخرى غجرية ، وفى مجتمعات صناعية متطورة ، لم تعد تتوافر للغجر فرص واسعة ، لأن يمارسوا مهناً اعتادوا عليها فى الماضى ، ولكن بينما تتغير نشاطاتهم ، فإن ما يظل باقياً من ماضيهم هو نزوعهم لأن يعملوا لحسابهم ، وأن تتسم هذه النشاطات بمرونة تتلاءم مع بنائهم الاجتماعى ورغبتهم فى الاستقلال بترتيب أمور حياتهم (ولا يعنى هذا اكتفاء ذاتياً ، لأن الغجر لا يستطيعون أن يعيشوا مستقلين عن مجتمع الأغيار الواسع واقتصاده) .

وعلى نحو ما درجوا عليه ، يخرج الغجر للبحث عن زبائنهم ، من باب إلى باب ومن منشأة إلى منشأة ، يعرضون مجموعة من السلع والخدمات ، وقد تبدو هذه السلع والخدمات استمراراً لما اعتادوا عليه لأجيال ، مثل ما يتصل منها بالسيرك أو التردد إلى الأسواق فى فرنسا وإيطاليا ، لكنه - كما هى الحال غالباً - عندما لا يتوافر لهم ما يشترون به عدداً أو معدات أو سلعاً ، كما لا يتوافر مكان ثابت للعمل - فهم يتنقلون بسهولة من مكان إلى آخر ، ومن مصدر دخل إلى مصدر دخل آخر ، ولا يقصرون

أنفسهم على تخصص بذاته ، فربما تغيرت نشاطات المرء تغيرات جذرية على مدى حياته ، وتحول الفجر فى بلدان كثيرة وعلى نحو منتظم ، من بيع سلع وخدمات لقاعدة صغيرة من الزبائن ، إلى العمل فى هيئات الانقاذ (مثل الإطفائيات) وفى صناعة البناء ، فضلاً عن تعاملات تجارية محدودة ، وبرزت وسائل جديدة للارتزاق ، أو أنها أضحت أوسع انتشاراً ، مثل التعامل بيعاً وشراءً فى السجاد والمنسوجات والخردة والسيارات المستعملة والأثاث والفضالات والعاديات ، فضلاً عن العمل فى الإنشاءات (كالتسقيف ورصف الطرق) ، وقد يزاولون بعض أعمالهم التقليدية كالموسيقى وغيرها من ضروب الملاهى وقراءة الطالع (المبنية على معرفة جيدة بنفسية الزبون) أو يلجئون إلى موارد دخل إضافية ، كفلاحة البساتين والزراعة ، وعند رحالى بريطانيا فالنشاطات التى يدعونها حرفاً ، يمكن أن تشمل التنقل بالتجارة وقراءة الطالع وجمع الخردة والمهمات وشراء العاديات وغيرها من السلع التى يمكن إعادة بيعها ، والبحث عن أعمال مؤقتة ، ويتحولون إلى منافذ جديدة ، حسب الفرص المتاحة والضرورة .

والقيم العائلية هى الملام الأساسية للحياة الفجرية فى معظم جوانبها ، وهو ما يتضح كذلك فى أساليب طلبهم لرزقهم ، فيشارك الأطفال فيها حالما يصلون إلى السن المناسبة ، وغالباً ما يصطحبون وهم المفتقرون إلى التعليم بمعناه التقليدى ، يصطحبون أهلهم ويساعدونهم فى أعمالهم ، وينصتون إلى نصائحهم ، مما يؤهلهم لأن يصيروا على دراية بمهن عديدة ، وعادةً ما يكون دخل الزوجة من جولاتها أكثر انتظاماً من دخل زوجها ، ويتوجب عليها تلبية الحاجات اليومية لأسرتها ، بينما يتكفل الرجال بالنفقات الأكبر كإعداد سيارة أو شاحنة أو كراخان أو الصرف على الرحلات الطويلة والأعياد والاحتفالات ، أو زيادة المخزون من الأشياء الثمينة كالحلى الذهبية ، ويتباهى كثير من الفجر بمرونة وسائل عيشهم ، ويشمخون بأنوفهم تجاه ما عليه الأغيار من حياة رتيبة ومنمطة ، وأحياناً تطيب حياتهم وأحياناً لا تطيب ، فهناك غجر يقتنون المرسيديس ومقطورات مجهزة جيداً ، بينما هناك غجر آخرون يترحلون فى هيئة متواضعة أو بائسة ، وغجر مطحونون يعيشون فى مجمعات أسمنتية كثيفة .

ومن المفيد أن نربط بين هذه التعميمات - على سطحياتها - وبين المسار الحياتى - الاقتصادى لعينة من الفجر ، استقرت فى منتصف الستينيات بقرية غجرية فى جنوبى فرنسا قريبة من جراس Grasse ، وتمثل هذه العينة روزيتى Rosette ، وهى أرمل

كانت إذ ذاك فى منتصف الخمسينيات^(٤٧) من عمرها وتنتمى إلى عائلة كبيرة من المانوش وفرنان Fernand وهو زنتو بيمونتى ولد فى عام ١٩٣٢ .

عندما كانت روزيتى صبيةً فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، كانت عائلتها تنتقل من قرية إلى أخرى بعربة معيشة يجرها جواد ، فتعرض على النظارة أفلاماً صامتةً فى أماكن لم تكن قد عرفت السينما بعد ، وقد امتدت بتنقلاتها بين فرنسا وألمانيا ، وسويسرا وإيطاليا، واقتصرت فى فترة تالية على الجهات الجنوبية الشرقية من فرنسا، على أن العائلة اضطرت لأن تتخلى عن هذه الأفلام فى العشرينيات نتيجةً لمزاحمة الأفلام الناطقة ، فتحول الأب إلى شحذ السكاكين والأدوات المعدنية ، وهى مهنة كان قد تعلمها فى صباه ، وعندما بلغت روزيتى الثامنة عشرة فى عام ١٩٣١ اقترنت برجل من الكالديراش ، وارتحل الزوجان الشابان إلى جزيرة كورسيكا ، بحثاً عن حياة جديدة هناك ، ولم يلبث أن لحق بالزوج بعض أقربائه ، وقد عمل صفاحاً ينتقل بعربة صغيرها يجرها جواد ، وشرعت روزيتى بدورها فى العمل كبائعة جواله ، وذلك بعد أن أفادت بخبرة غجرية إسبانية ، وفى فترة لاحقة مارس الزوجان الحياة نفسها فى الجزائر وفى كل أنحاء فرنسا ، وفى النهاية استبدلا بالحصان سيارةً ، وكانت الجماعة تقضى أسبوعاً أو نحوه فى أى مكان ، تبعاً لكمية العمل المتاحة وتساهل السلطات ، فكان الرجال يذهبون إلى المستشفيات والثكنات والفنادق والمدارس والمصانع ، يتلمسون أدوات الطهى لإصلاحها ، أو يحصلون على طلبيات لصناعتها ، بينما كانت النسوة يعاوننهم بنفخ الأكيار وصقل الأدوات المعدنية ، وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية تشتت شمل العائلات الغجرية ، واضطرت لأن تتوقف عن تنقلها ، وعاشت عائلة روزيتى وقد تردت أحوالها فى خيام ، ولدى حلول السلام التحق الزوجان بأقربائهما ، وعاودا التنقل بعربة يجرها جواد ثم بسيارة صغيرة ، وأضيفت إلى دخلهما من الصفاحه علاوة حكومية للأبناء ، وفى سنة ١٩٤٧ أخذت العائلة فى التنقل بجبال الألب البحرية ، وأضحى لها عمل وافر ، واستأجرت قطعاً من الأراضى القريبة من نيس وكان ، حيث عاشت لمدى سنوات فى سيارة عرض كبيرة ، وفى سنة ١٩٥٦ مات زوج روزيتى ، مخلفاً لها تسعة من الأبناء، وكان عليها أن تعنى بهم ، وإلى جانب معاشها

(٤٧) حسبما يرد فى كتاب : B. Formoso , Tsiganes et Sédentaires (Paris, 1986) فيتناول هذه القرية وسكانها بدراسة عميقة بدعم من رابطة محلية من المتعاطفين مع الغجر .

كأرمل وعلاوات أبنائها صارت تشتري ملاءات المنازل ورباطات الأحذية من تجار الجملة ، وتعاود بيعها من بيت إلى بيت إلى جانب قراءة الطالع ، وشرع الأطفال الكبار فى مساعدتها، وانصرف أحدهم إلى جمع قطع الخردة ومزاولة بعض أعمال القصدة، وعندما مرضت روزيتى لعدة شهور هرعت النساء الأخريات إلى حيث تقيم ، وصرن يعطينها نصيباً من كسبهن ، واستقرت فى عام ١٩٦٦ بمنزل فى قرية غجرية صغيرة ، وواصلت عملها كبائعة جواله وقارئة طالع إذا أتيح لها ذلك ، ولكن الآن وبعد أن وجد ولدها الأكبر أن القصدة قد تضاعل الطلب عليها ، بعد انتشار الأدوات المصنعة من الفولاذ الذى لا يصدأ ، اشتغل بجمع الخردة والأدوات المنزلية المستعملة ، وصار يتنقل بتجارته فى سيارة مستعملة ، ويقوم أحياناً بشحذ السكاكين وبيع السلع الراكدة فى الأسواق، وجميعها مهن تعلمها من عائلة غجرية أخرى .

أما عن فرنان فقد نشأ فى عائلة من زنتى پييمونت ، يترأسها جده لأمه ، ومثل كثير من الزنتى فى فرنسا بين الحربين العالميتين ، درج أفراد هذه الأسرة على التنقل بعربات تجرها الجياد، ومارسوا مختلف المهن ، فكان الرجال يتوجهون كل يوم بعربات صغيرة ، يطرقون الأبواب يسألون عما يمكن عمله ، وكانت هذه الأعمال تتراوح بين تجارة الخيول وصنع السلال ومقعدات الكراسى وجمع الخردة ، أما النساء فكان يقمن ببيع السلال والقمصان و (إذا حظين باستقبال طيب) قراءة الطالع واستجداء الطعام ، وما يمكن أن يستغنى عنه ، ولدى بلوغه الثالثة عشرة ، انصرف فرنان ولم يكن قد انتظم بعد فى دراسة إلى العمل لحسابه ، فكان يبيع الحبال ، ثم تحول إلى البحث عن قطع الخردة ، وعندما بلغ السابعة عشرة تزوج بإحدى بنات عمومته ، وبدأ يصنع السلال التى تقوم زوجته ببيعها مع غيرها من السلع الصغيرة ، كما كان يقوم بصنع الكراسى الخيزران ، ثم امتد بنشاطه إلى قطع الخردة وكسر السيارات (مستخدماً فى ذلك عربة يجرها حمار ثم حصان ، إلى أن ابتاع أول سيارة له فى سنة ١٩٥٠) وقد أفاد كثيراً من هذه المهنة عبر السنين ثم ارتحل مع جده وأخواله إلى جبال الألب البحرية ، فكانوا يحطون الرجال فى مكان ما طالما توافرت به فرص عمل ، ولا ينتقلون إلى مكان آخر ، على أن زمن التساهل بدأت تغيب شمسها ، بسبب الزحف الحضري ، وفى منتصف الخمسينيات أصبح الحصول على موطيء قدم يمثل مشكلة كبيرة ، وأخيراً استقر فرنان فى قرية غجرية صغيرة ، وتحول إلى شراء ما يمكن شراؤه من سلع التصفية ونهايات الخطوط من مصانع الملابس وتجار الجملة وتجار القطاعى ،

وكان يقوم وولده ببيعها في الأسواق والبيوت ، وأضحى الريع الناجم عن جولات زوجته وبناته الكبار ، فضلاً عن علاوات أبنائه التسعة كافياً لحاجاتهم اليومية ، وفي عام ١٩٦٦ كان قد ادخر ما يكفي لشراء قطعة من الأرض ، تبعثها قطع أخرى ، وابتنى لنفسه بيتاً في واحدة منها ، ثم باعه وربح فيه ، وأقام بيتاً آخر في قطعة أخرى استقر فيه وأسرته ، وفي الوقت نفسه اشتغل ابنه الأكبر بتجارة الأقمشة ، ولم تكن تعاملات فرنان في الأرض والإنشاءات هي المصدر الوحيد لتراكم ثروته ، فمئذ سنة ١٩٧٣ ، نظم مع بعض أبناء أخواله وبعض الكالديراش مهرجان ملاه غجري يستمر عشرة أيام كل صيف ، والتحق بهذا المهرجان جيتان وروم ومانوش وغجر غيرهم ويقومون ببيع الطعام والشراب ، وكان المهرجان يجتذب دائماً جمهوراً غفيراً إلى حد أن الملحين صار بإمكانهم الشروع بالتجوال به .

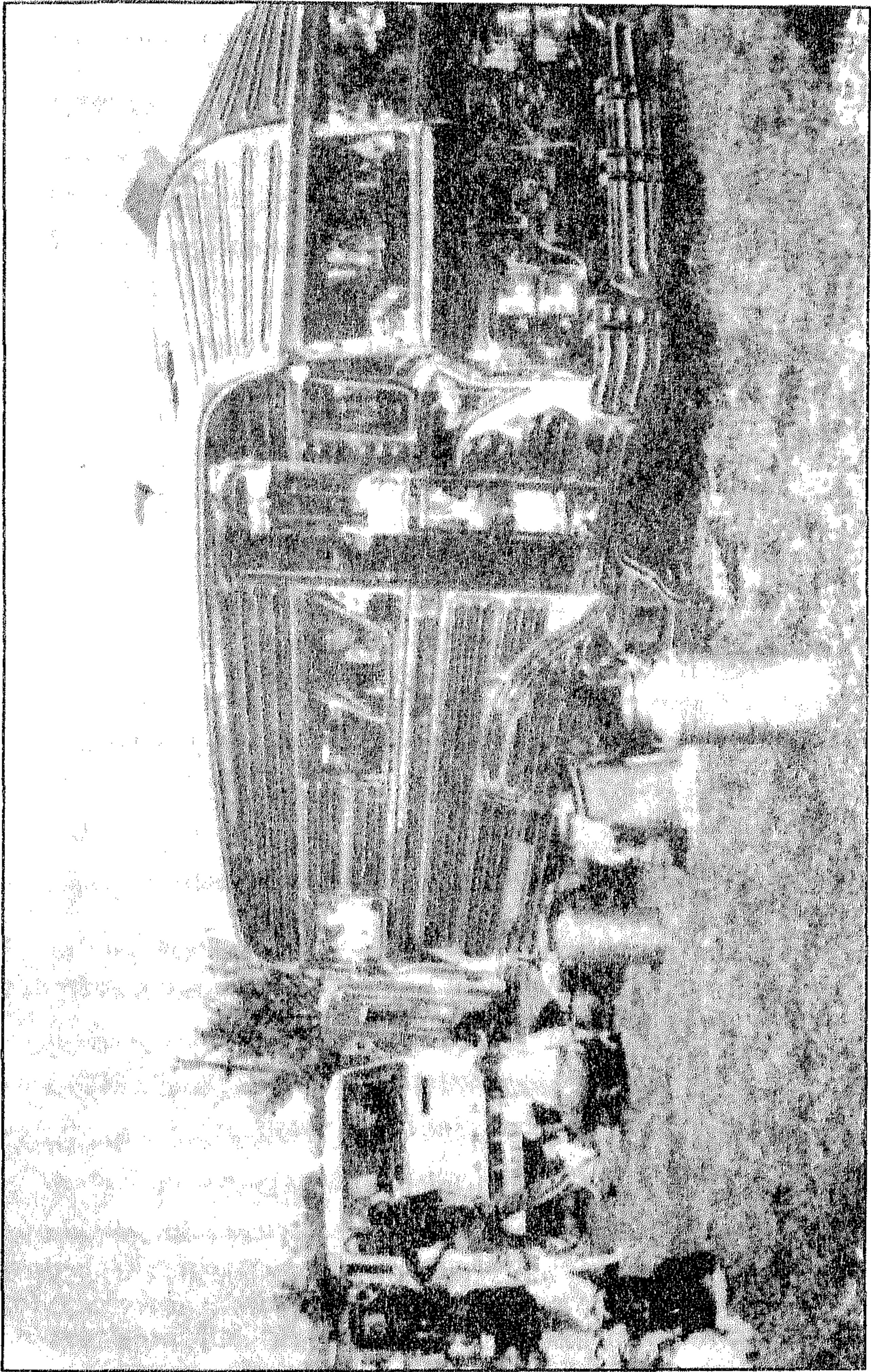
يستدل من هذه الأمثلة (وغيرها مما لا حصر له) على أن الاستقرار لم يكن يعني بذاته أن الغجر تحولوا إلى مواطنين فرنسيين تقليديين وإسبان وما إلى ذلك ، أو أنه ينطوي على تخليهم عن نمط « الغجري » في طلب الرزق ، والحق إنه جرى لهم في شرقي أوروبا اندماج أشد في بنية العمالة القومية كقوة عمل غير ماهرة في غالبها ، الأمر الذي كان يجعلهم عرضة لأن يستغنى عنهم لدى التخلص من الصناعات غير المجدية أو إصلاحها ، لكنه حتى في الاقتصاديات الموجهة للدول الشيوعية السابقة ظلت الأنماط الغجرية تلوح للعيان ، وإذا تأملنا ما حدث في المجر^(٤٨) يلاحظ المرء أن تقلبات السوق دفعت بالكثيرين من الأقلاق أشباه المستقرين من العمل كصناعات إلى العمل في نشاطات دنيا ، مثل الحديد الخردة وغيره من صنوف التجارة التي يستطيعون حملها على حصان وعربة ، إلى درجة أثارت ذعر السلطات ، ودفعتها إلى أن تنتهج سياسة إصدار التراخيص ، كمحاولة منها للتحكم في هذه النشاطات والحد منها ، وربما ارتبطت هذه المهن بأعمال موسمية مؤقتة (مثل العمل في معامل السكر والفواكه المحفوظة) أو أعمال تتسم بقدر من المرونة (مثل إصلاح الأدوات المنزلية وصيانتها) ، أما عن غيرهم من الغجر الذين كانوا يعيشون في مستوطنات تم

Cf. G. Havas, ' Strategien des Beschäftigungswechsels bei Verschiedenen (٤٨) Zigeunergemeinschaften in Ungarn ' , Giessener Hefte Für Tsiganologie (1984) , 2/84, PP. 3 - 24 .

تناسيها إبان سياسة التجميع الزراعى بعد الحرب ، فقد واصلوا وسائل عيشهم القديمة ، وربما يتقبلون ما يتاح لهم من فرص للعمل فى أماكن بعيدة كالإندراج فى فرق الإنشاءات التى تنتقل من موقع لآخر ، ويمارسون أعمالاً يدويةً ، وقد هيا ذلك لهم الفرصة لأن تكون لهم جماعاتهم الخاصة بهم ، فيقررون من الذين سوف يذهبون معهم للعمل ، ويعيشون سوياً فى النزل ، كما كان ذلك يعنى أنه صار بإمكانهم الاشتغال كعمالة ثانوية فى قطاع البناء الخاص المتنمى، ومع هذا فكانوا يشعرون بالقلق على أسرهم التى خلفوها وراءهم والتى كان عليها السعى لموازنة دخلها ، بالبحث عن أعمال زراعية ومنزلية ، ربما تتاح لها حيث تعيش .

واليوم صار المستقرون من الغجر هم الغالبية فى الشرق والغرب معاً ، لكنهم مهما طال استقرارهم ظل يحافظون على خصوصيتهم ، وما يزال التنقل ملمحاً هاماً عندهم ، وأصبحت السيارات لمن عاش منهم فى غربي أوربا وسيلة لا غنى عنها لممارسة مهنتهم ، ويسرت لهم إمكانية السفر لمسافات بعيدة بحثاً عن الزبائن ، ولم يفقدوا وهم الرحل السابقون ، ما كان لديهم من عادات اجتماعية ، فهم يميلون للعيش قريباً من بعضهم البعض ، ويفضلون الإبقاء على صلاتهم بأقربائهم ، وتتركز الحياة المنزلية داخل غرفة واحدة مع قليل من الخصوصية ، ويأنفون من الحياة فى شقق وما تفرضه من قيود تعزلهم بعضهم عن بعض ، وتقوض روابطهم العائلية ، وبدا ذلك وكأنه نمط درجوا عليه قريب من حياتهم السابقة فى المخيمات .. عدم الراحة فى العزلة والبحث عن الصحبة، وقضاء ما أمكن من وقت خارج المنزل حتى لو كان وقتاً للراحة .

أما عن هؤلاء الذين واصلوا تنقلهم بكراخانات تجرها مركبات ، فإنها لم تعد تتوقف كل عشرة أميال كما كانت الحال فى زمن الحصان والعربة (الفاردو) ، هذا الرمز الراسخ للغجرى الحقيقى فى عيون الأغيار ، وقد تضاعل دورها مع الميكنة ، فصرنا نجد فى عام ١٩٦٥ ستة بالمائة فقط من العائلات فى إنجلترا وويلز هى التى ما تزال تعتمد على وسيلة نقل كهذه ، ثم بدأت تتضاعل منذ يومئذ ، ولو أنه ما تزال للخيال جدواها عندهم، وإن لم تعد هذه الجدوى اقتصادية عند الغجر من أصحاب السيارات وقد غير التحديث من حياة هؤلاء المترحلين ، فقد تم تزويد كراخاناتهم بالإضاءة الكهربائية والثلاجات ومواقد الغاز ، وبالنسبة للجميع مستقرين أو مترحلين، فقد قرب التليفزيون وقبله الراديو والسينما المسافات بينهم وبين العالم حولهم ، وأضحى له



شكل ٤٨ المقطورة وستمور لاند ستار . ب : ت باتسفورد ولينيس أ . هارفي .

تأثيره العميق فى شبابهم خاصة ، كما أنه جعلهم أقل ميلاً لأن يكونوا منبوذين ، وهياً لهم قنوات جديدة لامتناساص قيم الأغيار ، بل إنه فى أحيان كان يقوم بدور فى تذكيرهم بماضيتهم ، وحدث فى أواخر الثمانينيات ببلاد اليونان أن عرض التليفزيون برنامجاً يوضح الصلة بين الغجر والهند ، وترتب عليه سرعة بين الفتيات الغجريات ، فصرن يرتدين السارى ، ويضعفن على رقصاتهن عناصر شرقية ، وربما بعد خمسفن سنة أو نحوها يتعامل علماء الموسيقى السلاليون مع ظواهر مثل هذه على أنها بقايا ثقافية تعود إلى أوطان الغجر الأصلية .

حجاج ومحتفلون بالعنصرة

يعد الدين مجالاً آخر ، يعكس من خلاله الغجر عالم الأغيار حولهم ، فقد اعتادوا دائماً على أن يتخذوا أديان الأقطار التى عاشوا فيها حقبةً من الزمن .. وهكذا صار لدينا غجر كاثوليك ، وأنماط عديدة من الغجر البروتستانت والأورثوذكس ، وغجر مسلمون فى أنحاء العالم الإسلامى ، وأجزاء من جنوبى شرق أوربا التى سبق أن خضعت للعثمانيين ، وفى كل مكان كانوا يتهمون بافتقارهم إلى صحيح الإيمان ، بل إنهم دعوا فى مراحل بعينها بالكفرة والسراسنة والتتار ، وفى حين يتم التأكيد على هذه الاتهامات ، فربما كانت لديهم انتقائية فى ممارساتهم الدينية ، فالغجر المسلمون فى بلغاريا لا يهتمون بالاحتفال بعيد القديس جورج ، شأنهم فى ذلك شأن كثير من الغجر الأورثوذكس ، كما لا يهتمون بتلوين البيض فى عيد الفصح^(٤٩).

عندما حل الغجر بغربى أوربا لأول مرة كانوا يتخذون هيئة الحاج ، وإن كان من المشكوك إذ ذاك حرصهم على زيارة الأضرحة المقدسة ، أما عن أسرار الكنيسة ، فبينما كان العماد واسع الانتشار بينهم ، إلا إنه غالباً ما كان لهم أسلوبهم الخاص بدفن موتاهم ، والأهم منه أسلوبهم فى عقد زيجاتهم ، ومع ذلك فقد صارت زياراتهم للأضرحة المقدسة من الأمور المعتادة عندهم فى القرن التاسع عشر ، وفى أيامنا هذه

(٤٩) هذا أمر طبيعى بالنسبة للغجر المسلمين لأنهم مسلمون ، لكنه قد يكون غير طبيعى بالنسبة للغجر الأورثوذكس (المترجم) .

يقومون بزيارات دورية لما يزيد على ستة مشاهد فرنسية مقدسة، بينها لورد Lourdes ، ومشاهد أخرى في إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا ، وأصبح أشهرها منذ زمان تجمعهم في الرابع والعشرين والخامس والعشرين في مايو من كل عام في مشهد المريميتين Saints - Maries - de - la Mer^(٥٠) بكامارج Camargue . وليس للقديسة سارة التي اتخذوها راعية لهم مكان في تقويم الكنيسة للقديسين ، وقد كانت الخادم المصرية لمارى يعقوب ومارى سالومى خالتي يسوع ، ويعتقد أن مياه البحر حملتهن على نحو معجز إلى مصب نهر الرون ، في أعقاب الصلب بسنوات قليلة ، ولم يكن ذلك قبل منتصف القرن التاسع عشر ، حين سجل حضور الفجر مع غيرهم من الحاج إلى سانت ماري ، وفي وقت أحدث صاروا هم سواد الحضور في اليوم الأول من هذين اليومين ، فكل عام يأتون ويضعون ثياباً جديدةً على تمثال القديسة سارة الجصى الذى حال لونه ، بسبب دخان الشموع في قبو الكنيسة ، ثم يقام القداس ، ويتوجه موكبهم إلى البحر حاملين التمثال صحبة حراس على خيول بيضاء يمتلكونها في معظمها ، أما الموكب الذى يقام في اليوم التالى فهو على شرف المريميتين ، ولا يعد بمشاركة الفجر مهرجاناً پروفنساليا خالصاً ، وزيارات مثل هذه تعنى للفجر إلى كونها محجةً فرصةً طيبةً لتجديد الروابط العائلية والاجتماعية بينهم أو التداول في شأن خطبة ، أو ربما لترتيب معاملات تجارية .

وربما لا يكون من المبالغة أن نشاهد فيما قامت به الكنائس الكبيرة بعد الحرب من أنشطة تبشيرية وخيرية عنصراً من عناصر المنافسة مع حركة جديدة نشطة ، بدأت في بريتاني في سنة ١٩٥٢ بزعامة كليمان لوكوسيك Clément le Cossec وهو قس بريتونى لا يعود في أصله إلى الفجر ، وقد امتد الإحياء الدينى من بريتاني إلى باريس فيوردو وأنحاء أخرى من فرنسا ، واستحث على نشر الأفكار المتعلقة بالعنصرة

(٥٠) هن ثلاث مرايم وإيستا مريميتين : مريم المجدلية ومريم زوجة كلوبا ومريم أم يعقوب ، وتذهب القصة إلى أن هؤلاء المرايم ومعهن إيلعازر الذى أحياه يسوع بعد موته وآخرين طربوا من فلسطين ، ووصلوا إلى مرسيليا وبشروا بالمسيحية في پروفانس ، وصار يحتفل بهم في ٢٥ مايو من كل عام ، وقد ظهرت هذه القصة للمرة الأولى في القرن الحادى عشر . انظر :

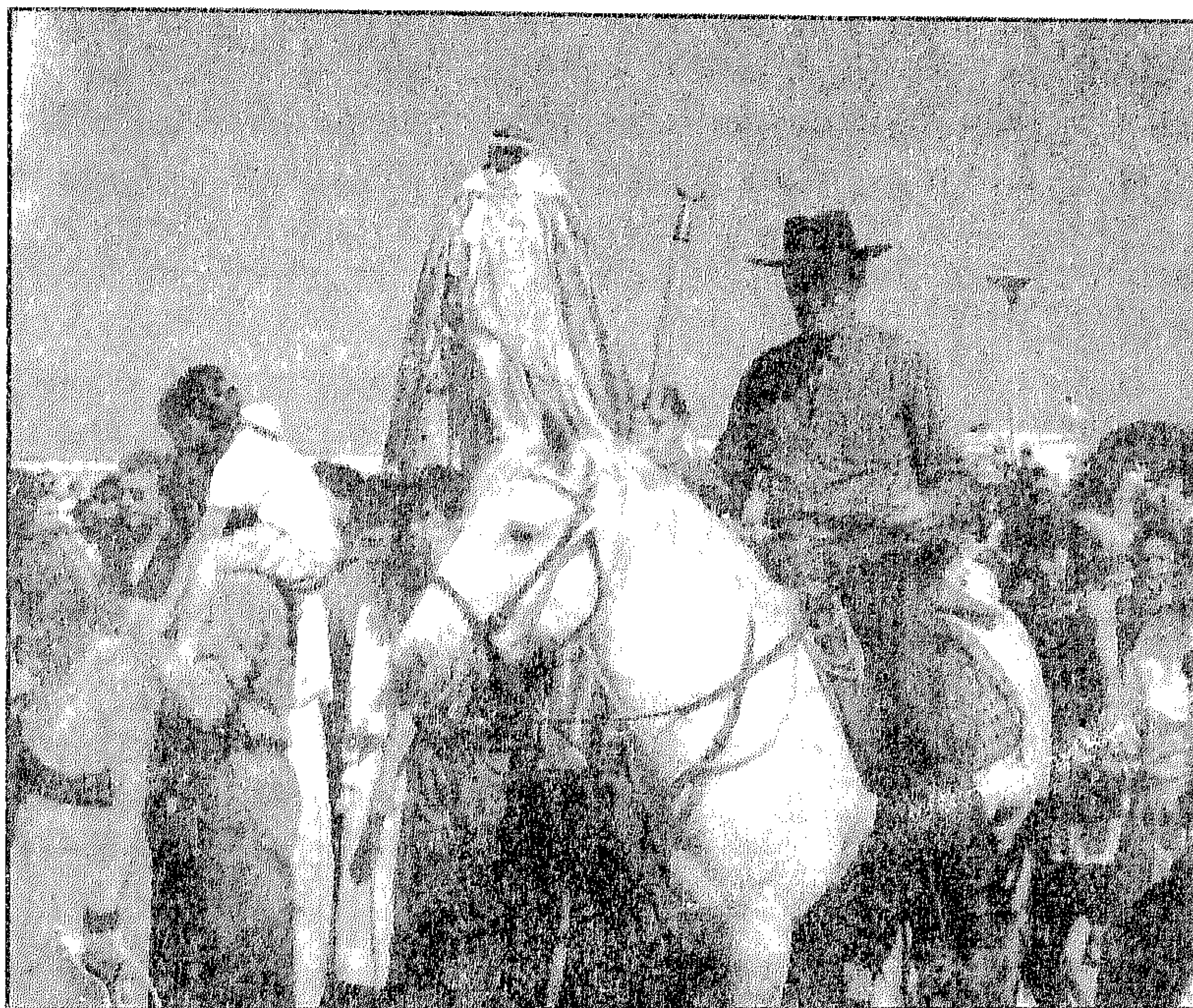
Stephen Neil et al; Concise Dictionary of the Bible (London, Lutterworth Press 1967 . PP. 201 - 202 & Donald Attewer, The Penguin Dictionary of Saints, 1980 . P. 238 (المترجم) .

Pentecostalism^(٥١) بين الفجر فى أوربا والأمريكيتين ، وأدى إلى اجتماعات دورية بين جموع الفجر ألفت بين قلوبهم فى مكافئ إنجيلي للحج عند الكاثوليك^(٥٢) وهناك سبب واحد لتفسير قدرة هذه الحركة على الانتشار السريع ، وهو حيثما كانت الكنائس المعترف بها تحتاج وقتاً طويلاً لتدريب قساوستها ، فإن هذه الحركة كانت تعتمد على مبشرين علمانيين (جميعهم رجال) من عائلات غجرية، يعرفون ماذا يفعلون ويتحدثون بلغة من يتوقع هدايتهم ، ويخاطبونهم وملوهم ثقة بمواعظ مرتجلة فى موضوعات إنجيلية بسيطة ، وقد اتخذت فيما بعد خطوة أهم ، هى مزاولة العمل التبشيري على أساس قبلى ؛ فيستخدم مبشرون مانوش للوصول إلى مانوش ، ومبشرون جيتان للوصول إلى جيتان وهكذا ، وظهر اتجاه نحو تنظيم القداسات فى الكنائس على نحو مماثل ، وابتعثت إرساليات إلى الخارج ، وامتدت فى الستينيات إلى إسبانيا ، حيث كان المهتدون الجدد يفضلون أن يعرفوا بالـ aleluyas^(٥٣) ، وجرى تقدم وإن كان أبطأ فى بلدان أخرى بغربى أوربا واليونان، وشوهدت فى مطالع الستينيات إرساليات توجهت إلى شرقى أوربا والأمريكيتين ، وتسارعت الخطى فى الولايات المتحدة فى الثمانينيات ، وكان يمكن لاجتماع تبشيري فى بريطانيا أن

(٥١) تعنى العنصرة فى العهد القديم اليوم الخمسين بعد السادس عشر من شهر نيسان الذى يقدم فيه قربان الحنطة ، وفى هذا اليوم الخمسين يكون قد تم حصادها ولذا فهو يدعى كذلك بعيد الحصاد ، أما فى العهد الجديد فهو يوم العماد بالروح القدس حين عمد يسوع تلاميذه بعد صعوده ، وما ترتب على ذلك من معرفة الألسن كلها والدعوة للخلاص من خلال يسوع وما جرى من عجائب للرسل Concise Dictionary of the Bible . P. 242 . (المترجم) .

Cf. T. Acton, ' The Gypsy Evangelical Church ' , Ecumenical Review , 31 (٥٢)
(1979) ,no. 3 , PP. 11 - 17 ; C. Le Cossec , 'Phénomène Pentecôtiste ' ou réveil religieux ' , Études Tsiganes (1985) , no. 1 , PP. 19 - 21 ; J. Ridholls , Travelling Home (Basingstoke , 1986) ; E. B. L. Sato, ' The Social impact of the rise of Pentecostal evangelicalism among American Rom ' , in Papers from the Eighth and Ninth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter (New York , 1988) , PP. 69 - 94 ; K. Wang , ' Le Mouvement Pentecôtiste chez les Gitans espagnols ' , in Tsiganes : Identité Évolution, PP.423 - 32; and R. Glize, ' L'église évangélique tsigane Comme Voie Possible d'un engagement culturel nouveau ' , Ibid., PP. 433 - 43 .

(٥٣) تعنى Aleluya فى اللغة الإسبانية « سبحان الله » كما تعنى صلاة من صلوات القداست (المترجم) .



شکل ۴۹ غجر فی لی سانت ماری دو لامیر ، ۱۹۸۸ .

يستحوذ على مشاعر الآلاف من الرحالين ، ويذكر أن الكنيسة التبشيرية الفجرية نجحت خلال العقود الثلاثة الأولى فى هداية نحو سبعين ألفاً من الفجر وتعميدهم ، كما اجتذبت الكثيرين إلى إجتماعاتها ، وصار ألف وستمئة من الفجر مبشرين أربعة منهم قساوسة ، وتحظى الحركة اليوم بولاء حوالى ثلث الفجر فى فرنسا، وأصبحت لها دورياتها العديدة ومحطات راديو ومعهد للكتاب المقدس ومدرسة متنقلة وفصول خاصة فى أماكن تخيم لفجر ونحو خمسين كنيسة .

ربما أفادت هذه الكنيسة بالطريقة التى اكتسحت بها النحل الأصولية الأخرى مجتمعات فجرية مختلفة فى غربى أوروبا وأمريكا اكتساحها لمجتمعات السكان الأصليين فى أستراليا وأقزام زائير ، ويتضح لدينا جانب ممتع فى هذه الكنيسة هو- شهود المسيح - وهو ما بدا جذاباً لقوم كانت تتهددهم أخطار من نوع ما . وبحكم طبيعتها جعلت الكنيسة التبشيرية الفجرية من تمت هدايتهم يشعرون بأنهم شعب مختار ، كما جعلتهم يتضامنون إجتماعياً ، وهى بعمادها الذين يتم بالغمر بالماء ، وأنماطها العاطفية للتعبير الدينى ومواعظها التلقائية وأسلوبها الجمعى فى العبادة وإيمانها بضرورة الخلاص من خلال المسيح ، وأن البديل جهنم ، واعتقادها بكاريزمية^(٥٤) الروح القدس ... كان من شأن هذا كله الاستجابة لحاجات الفجر العاطفية والسيكولوجية ، وعلى العكس من إرساليات القرن التاسع عشر ، فلم تكن لها غايات إدماجية ، لكن تأثيرها فى حياة هؤلاء المهتدين كان جذرياً ، وقد جعلت هناك مكافآت لمعرفة القراءة والكتابة والتعليم ، كما حظرت عليهم بمبادئها المثالية كلاً من الكحول والدخان والمخدرات وكذا الميسر والخداع والكذب والسرقة ، وكان على الممارسات الوثنية أن تولى ، لكن مهر العروس كان ينظر إليه على أنه ينسجم مع الكتاب المقدس ، فى حين لم يكن الأمر كذلك بالتأكيد بالنسبة لقراءة الطالع ، كما كان من اللازم أن يتخلى الفجر الكاثوليك والأورثوذكس عن مهرجانات يوم القديسين ، وصار عليهم أن يعدلوا فى ممارساتهم الجنائزية التقليدية وأعياد الموت Pomana على أننا لسنا على يقين من قدرة هذه الأفكار الجديدة على أن تتواصل تواصلها فى فرنسا وإسبانيا ، كما أننا لسنا على يقين من قدرتها على البقاء .

(٥٤) تعنى الكاريزما إلهاماً وتعنى فى الديانة المسيحية هبة من الله (أو من السماء) (المترجم) .

انهضوا يا غجر !

مثلت الكنيسة التبشيرية الغجرية أول نموذج واقعى فى أوربا الغربية لمنظمة غجرية عامة ومتعدية للتشعبات القبلية. وعلى المستوى السياسى فقد نشطت حركة بين الغجر فى بولندا ورومانيا فى الثلاثينيات ، تستهدف قيام جماعة ضغط دولية ، وفى مؤتمر عقد ببوخارست فى سنة ١٩٣٣ ، حضره موفدون من معظم أقطار أوربا الشرقية وما ورائها ثم اعتماد برنامج شامل يستهدف فى معظمه إصلاح أحوال الغجر الاجتماعية ، وحظى بدعم روحى من الكنيسة الأورثوذكسية^(٥٥)، ولم يتمخض الكثير عن هذا المؤتمر . وأضحى من اللازم وقد انتهت الحرب العالمية الثانية الشروع فى التعامل مع ما استجد من مشكلات للغجر فى مجتمعات صناعية متقدمة ، وكان ذلك فى بدايته من شأن منظمات للأغيار تهتم بأحوال الجماعات الغجرية ، لكن الغجر بدورهم بدأوا ينشئون لأنفسهم روابط دينية وسياسية وثقافية وجماعات ضغط محلية وقومية^(٥٦) ، فمنذ الخمسينيات تأسست فى ألمانيا لجان غجرية متعددة ، تستهدف دعم دعاوى التعويضات لضحايا الحرب من الغجر ، ثم ما لبث أن اتسع نشاطها ، فتأسست رابطة للزنتى الألمان Verband deutscher Sinti تحول اسمها فيما بعد إلى المجلس المركزى للزنتى الألمان والروما Zentralrat deutscher Sinti und Roma وقد حظى هذا المجلس بعناية وسائل الإعلام ، وكانت فرنسا مركزاً للمحاولات الأولى للوصول بقضايا الغجر إلى المجال الدولى ، وكان بعض هذه المحاولات طوباوياً ، بيد أنه تأسست فى عام ١٩٦٥ هيئة كانت أكثر واقعية فى التعامل مع هذه القضايا دعيت باللجنة الغجرية الدولية Comité International Tsiganes سعت إلى أن تتخذ طريقاً وسطاً بين الجماعات القبلية المختلفة ، ثم بين الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت والمسلمين ، كما فضلت أن تزاوّل عملها قريباً من الكنيسة التبشيرية الغجرية ، لما كان لها من مكانة بين الغجر ، وقد صار لهذه اللجنة فروع فى عديد من البلدان ،

Cf. W. J. Haley ' The Gypsy Conference at Bucharest ' , JGLS (3), 13 (٥٥)
(1934) , PP. 182 - 90 .

(٥٦) بشأن الوضع فى إنجلترا وما دار بها من نقاشات وسجلات . انظر :

T. Acton, Gypsy Politics and Social Change (London, 1974) .

كما صارت لها صلاتها بمؤسسات مستقلة في غيرها ، وكان بعض هذه المؤسسات كبيرة ومؤثرة ، ولم يكن لبعضها الآخر سوى وجود اسمي ، كما كان بعضها الآخر يعتمد على عون الأغيار المطبوعين على فعل الخير ، وجميعها جعلت غايتها ليس مجرد تكيف الفجر مع مجتمعاتهم المضيفة لهم، ولكن وضع نهاية لما لحق بهم من تمييز واضح، وذلك باستخدام آليات الأغيار من مظاهرات وجماعات ضغط وحملات دعائية ، وركزت على الحاجة للحفاظ على مرونة اقتصادية وجغرافية ، مبنية على الحق في الترحل ، واستخدام اللغة الرومنية والثقافة الفجرية في التعليم الرسمي .

نظمت اللجنة الفجرية الدولية أول مؤتمر عالمي للرومني تم عقده في لندن في أبريل ١٩٧١ ، وأتاه موفدون من أربع عشرة بلداً ، واتخذ المؤتمر قراراً باستخدام تعبير روم في وصف أنفسهم ، كما اتخذوا علماً وشعاراً بسيطاً هو !! Opré Roma أى انهضوا يا فجر !! وتحولت اللجنة لتصبح الأمانة الدائمة والهيئة التنفيذية للمؤتمر، وانبثقت عنها خمس لجان فرعية ، تختص بالقضايا الاجتماعية والتعليمية وجرائم الحرب واللغة والثقافة؛ أما المؤتمر الثاني الذي جرى عقده في جنيف في أبريل ١٩٧٨ ، فقد أتاه نحو مائة وعشرين مندوباً ومراقباً من ست وعشرين بلداً ، وكان للهند حضور واضح فيه ، وقد تم إنجاز الكثير في هذا المؤتمر لربط الفجر بوطنهم الأصلي، وانتخب مبعوثون منه إلى الأمم المتحدة ولجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان واليونسكو ، وأطلق على الهيئة التي أنشئت للنهوض بالعمل حتى عقد المؤتمر التالي الاتحاد الرومني الدولي ثم الاتحاد الرومني وقد أضحى لها بالمسمى الأخير وضعها في سنة ١٩٧٩ كهيئة استشارية لمجلس الأمم المتحدة الاجتماعي والاقتصادي، وعندما عقد الفجر مؤتمرهم الثالث في جيتنجن في مايو ١٩٨١ كان مصيرهم تحت الحكم النازي هو الموضوع الأهم بين الموضوعات التي تمت مناقشتها ، وعندئذ بدأ التعاطف الغربي تجاه قضايا الفجر في التضائل ، وقد لعب الفجر اليوغوسلاف منذ البداية دوراً هاماً في هذه النشاطات الدولية ، لكنه كان يحال بين إخوانهم المقيمين في غيرها من أقطار أوروبا الشرقية وبين المشاركة في هذه النشاطات ، وبعد سقوط الأنظمة المتشددة صار ممكناً لهم اللحاق بالمؤتمر الرابع الذي عقد في ضواحي وارسو في أبريل ١٩٩٠ ، والآن فمن بين مائتين وخمسين مندوباً إلى المؤتمر كان ثلاثة أرباعهم ينتمون إلى دول الكتلة الشرقية السابقة ، وفي الوقت نفسه فقد أتاح انتقالات عام ١٩٨٩ الفرصة لأن يشارك الفجر في السياسات القومية والمحلية لبلادهم، ويتضح ذلك في قيام أحزاب

غجرية مستقلة ، أنشأت بعد قيامها تحالفات مع أحزاب سياسية كبيرة ذات توجهات أيديولوجية مماثلة ، ففي المجر على سبيل المثال تعاون الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروماني مع الحزب الديمقراطي الاجتماعي المجري لتأمين وصول مرشحين غجريين إلى عضوية البرلمان في انتخابات أبريل ١٩٩٠ ، وحدث ما يشبه ذلك في تشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا ، وأحياناً ما كان للتشرذم بين الغجر أنفسهم أثره في تشرذم آخر على المستوى السياسي ، فقد سجل في رومانيا ما لا يقل عن سبعة أحزاب غجرية .

خول المؤتمر الرابع هيئته التنفيذية تحقيق برامج طموحة في مجال التعويضات والتعليم والثقافة والعلاقات العامة واللغة ، كما خولها اتخاذ ما يلزم نحو إصدار موسوعة غجرية ، أي موسوعة للغجر وليست عن الغجر ، وذلك بهدف إعادة تشكيل معرفة العالم عنهم ومن جهة نظرهم ، وبالمثل فقد بذلت جهود لإقامة لغة أدبية نموذجية على المدى البعيد مع الاعتراف بأنه لم يتحقق حتى الآن سوى تقدم محدود في التوفيق بين الاختلافات الصرفية ، فضلاً عن أنه لا يتوافر معجم لغوي نموذجي ، كما توجد اختلافات لهجية هامة ، حتى في المفاهيم الأساسية^(٥٧) وأجراً محاولة بذلت لابتكار لغة أدبية نموذجية^(٥٨) كانت تلك المحاولة التي استهدفت استخدامها للتعليم في مدارس مقدونيا وكوسوفو وما جاورهما في صربيا ، وقد قامت هذه المحاولة على أساس لهجة أرليا Arliya الذائعة الانتشار في سكوبيي ، لكنه اعتمدت أيضاً على ثلاث لهجات محكية في يوغوسلافيا ، ورغماً عن التشابه النسبي بينها ، إلا أنه توجد مشاكل كبيرة للملاحة لا مفر من مواجهتها^(٥٩) ، وحتى بعد أن تتحقق هذه اللغة ، فهناك تساؤل يطرح نفسه ، هو ما إذا كان من الممكن اللغة رومنية نموذجية مفردة أن تصل إلى ما هو أبعد من النخبة ، ناهيك عن كتب ودوريات وصحف تنشر بهذه اللغة ، ويتعذر على غير هؤلاء الوصول إليها .

(٥٧) التأم في يوليو من هذا العام (٢٠٠٠) عقد المؤتمر الدولي الخامس في العاصمة التشيكية براغ (المترجم) .

(٥٨) S. Jusuf and K. Kepeski , Romani gramatica - Romska gramatica (Skopje, 1980) .

(٥٩) Cf. V. A. Friedman, ' Problems in the Codification of a Standard Romani literary language ' , in Papers from the Fourth and Fifth Annual Meetings, Gypsy Lore Society , North American Chapter (New York, 1985) , PP. 56 - 75 .

يتضح لدينا أن السعى نحو خلق لغة نموذجية ، ليس سوى جانب واحد لتطلعات
الفجر نحو تجسير الصدوع التى نجمت عبر تاريخهم الطويل ، وتطويق ما نشأ بين
بعضهم بعضاً من تمايزات ، هى حصيلة صلات مديدة مع مجتمع أوربى أكبر ، وكونك
غجريا لا يعنى مجرد أنك قد نشأت ثم عشت بين غجر ، لكنه يعنى كذلك صلات مع
مجتمع مستقر ، ومعظم هذا الكتاب يتمحور حول موضوع محدد؛ هو ما إذا كان من
حق أقلية لا حول لها ولا طول أن تكون مختلفة الأمر الذى قبول من غيرهم برفضهم ثم
سعوا إلى دمجهم ، ولدى طويل اعتمد هؤلاء القوم فى بقائهم على تحاشي استعداد
المجتمع حولهم ، وكانت وسيلتهم الحيلة أكثر منها القوة، واعتادوا دائماً على أن يكونوا
على الأهمية والابتعاد عن المتاعب ، وقد عززوا ذاتيتهم بالتلاؤم مع الثقافات السائدة ،
والاحتفاظ فى الوقت نفسه بمسافة اجتماعية ، عمقوها بارتياحهم فى معاملة الأغيار
لهم .. والآن ويخالف ما كانوا قد درجوا عليه فى البقاء بعيداً عن الأنظار وتحاشي
العلانية ، يسعى بعضهم لأن يجدوا طريقهم الخاصة بهم ، ويطالبوا بصوت مسموع
لهم فى تقرير أمورهم ، حتى يتسنى لهم الصمود ضد التعصب الذى لم تفعل
خمسائة عام سوى القليل لإزاحته ... وليس من المرجح أن تتحقق وحدتهم بسهولة .

Bibliography

This bibliography is, with the exception mentioned below, confined to publications cited in the foregoing pages. These are classified under the following headings:

1. Bibliographical works; 2. Periodicals; 3. General studies; 4. Asian background; 5. Particular European countries; 6. Pre-1800 European history; 7. Nineteenth and twentieth centuries; 8. North America; 9. Physical anthropology; 10. Language; 11. Music; 12. Folk-tales; 13. Pollution code; 14. Religion; 15. Other Travellers; 16. Gypsies in art and literature.

The citations represent only a small fraction of the literature. Several additional titles have therefore been included under the first heading to indicate more comprehensive bibliographies.

1 Bibliographical works

- Binns, D. A *Gypsy Bibliography* (Manchester, vol. 1 1982, vol. 2 1986, vol. 3 1990, supplement 9 1991).
- Black, G. F. A *Gypsy Bibliography* (London, 1914).
- German, A. V. *Bibliografiya o tsyganakh: Ukazatel' knig i statei s 1780 g. po 1930 g.* (Moscow, 1930).
- Gronemeyer, R. *Zigeuner in Osteuropa. Eine Bibliographie* (Munich, 1983).
- Hohmann, J. S. *Neue deutsche Zigeunerbibliographie* (Frankfurt am Main, 1992).
- Hovens, P. and Hovens, J. *Zigeuners, Woonwagenbewoners en reizenden: een bibliografie* (Rijswijk, 1982).
- Hundsalz, A. *Stand der Forschung über Zigeuner und Landfahrer. Eine Literaturanalyse* (Stuttgart, 1978).

Bibliography

- Lockwood, W. G. and Salo, S. *Gypsies and Travelers in North America: An annotated bibliography* (Cheverly, MD, 1994).
Masson, D. I. *Catalogue of the Romany Collection* [University of Leeds] (Edinburgh, 1962).
Tong, D. *Gypsies: A multidisciplinary annotated bibliography* (New York, 1995).
Tyrnauer, G. *Gypsies and the Holocaust: A bibliography and introductory essay* (Montreal, 1989; 2nd edn 1991).

2 Periodicals

- Études Tsiganes* (since 1955), 2 rue d'Hautpoul, 75019, Paris, France.
Giessener Hefte für Tsiganologie (1984–6), succeeded by *Tsiganologische Studien* (since 1990, on a sporadic basis), c/o Institut für Soziologie, Justus-Liebig-Universität, Karl-Glöckner-Str. 21E, 6300 Giessen, Germany.
Journal of the Gypsy Lore Society (since 1888). There have been some interruptions, and the journal is now in its fifth series: 5607 Greenleaf Road, Cheverly, MD 20785, USA. A *Newsletter of the Gypsy Lore Society, North American Chapter*, published from 1978, became in 1989 the *Newsletter of the Gypsy Lore Society*.
Lacio Drom (since 1965), Centro Studi Zingari, Via dei Barbieri 22, 00186 Roma, Italy.
Roma (since 1974), 3290/15-D, Chandigarh, 160015, India.

3 General studies

- Balić, S. et al. (eds). *Romani Language and Culture* (Sarajevo, 1989).
Cohn, W. *The Gypsies* (Reading, MA, 1973).
Colocci, A. A. *Gli Zingari* (Turin, 1889).
Grellmann, H. M. G. *Die Zigeuner. Ein historischer Versuch über die Lebensart und Verfassung, Sitten und Schicksale dieses Volks in Europa, nebst ihrem Ursprung* (Dessau and Leipzig, 1783; 2nd edn Göttingen, 1787). English translation, *Dissertation on the Gypsies* (London, 1787; 2nd edn London, 1807); French translations Metz, 1788 and Paris, 1810; Dutch translation Dordrecht, 1791.
Gronemeyer, R. and Rakelmann, G. A. *Die Zigeuner, Reisende in Europa* (Cologne, 1988).
Hancock, I. *The Pariah Syndrome* (Ann Arbor, 1987).

Bibliography

- Hoyland, J. *A Historical Survey . . . of the Gypsies* (York, 1816).
 Kenrick, D. and Puxon, G. *The Destiny of Europe's Gypsies* (London, 1972); Romani version, *Berša bibahtale* (London, 1988).
 Kogălniceanu, M. *Esquisse sur l'histoire . . . des Cigains* (Berlin, 1837).
 Liégeois, J.-P. *Gypsies* (London, 1986).
 Martinez, N. *Les Tsiganes* (Paris, 1986).
 Nunes, O. *O Povo Cigano* (Oporto, 1981).
 Popp Serboianu, C. J. *Les Tsiganes* (Paris, 1930).
 Predari, F. *Origine e vicende dei Zingari* (Milan, 1841).
 Rehfisch, F. (ed.). *Gypsies, Tinkers and Other Travellers* (London, 1975).
 Salo, M. T. (ed.). *100 Years of Gypsy Studies* (Cheverly, MD, 1990).
 Vaux de Foletier, F. de. *Mille ans d'histoire des Tsiganes* (Paris, 1970).
 Vossen, R. *Zigeuner* (Frankfurt am Main, 1983).
 Willems, W. *Op zoek naar de ware zigeuner. De geschiedenis van het Europese denken over zigeuners (1783–1945)* (Leiden, in preparation).
 Williams, P. (ed.). *Tsiganes: Identité, Évolution* (Paris, 1989).

4 Asian background

- Berland, J. C. 'Pāry[ā]tān: "native" models of peripatetic strategies in Pakistan', *Nomadic Peoples* (1986), nos 21/22, pp. 189–205.
 Burton, Sir Richard. *The Jew, the Gypsy and El Islam* (London, 1898).
 Goeje, M. J. de. *Mémoire sur les migrations des Tsiganes à travers l'Asie* (Leiden, 1903).
 Harriot, J. S. 'Observations on the Oriental origin of the Romnichal', *Transactions of the Royal Asiatic Society*, 2 (1830), pp. 518–58.
 Kochanowski, J. 'Roma – History of their Indian origin', *Roma*, 4 (1979), no. 4, pp. 16–32.
 Longpérier, G. de. 'L'Inde et ses mystères', *Musée universel*, 1 (1857), pp. 330–6.
 MacRitchie, D. *Accounts of the Gypsies of India* (London, 1886), pp. 1–126.
 Misra, P. K. and Malhotra, K. C. (eds). *Nomads in India* (Calcutta, 1982).
 Mroz, L. 'Les Lohar, les Banjara et le problème de l'origine des Tsiganes', *Études Tsiganes* (1990), no. 1, pp. 3–14.
 Rao, A. 'Note préliminaire sur les Jat d'Afghanistan', *Studia Iranica*, 8 (1979), no. 1, pp. 141–9.
 Rishi, W. R. 'Roma – a study', *Roma*, 7 (1983), no. 2, pp. 1–10.

Bibliography

- 'History of Romano movement, their language and culture', in *Romani Language and Culture*, eds S. Balić et al. (Sarajevo, 1989), pp. 1–10.

5 Particular European countries

Austria

- Mayerhofer, C. *Dorfzigeuner* (Vienna, 1987).

Britain

- Crabb, J. *The Gipsies' Advocate*, 3rd edn (London, 1832).
Gentleman, H. and Swift, S. *Scotland's Travelling People* (Edinburgh, 1971).
Gordon, A. *Hearts upon the Highway* (Galashiels, 1980).
Gypsies and Other Travellers, report by an MHLG Sociological Research Section (London, 1967).
Jarman, A. O. H. and Jarman, E. *The Welsh Gypsies: Children of Abram Wood* (Cardiff, 1991).
M'Cormick, A. *The Tinker-Gypsies* (Dumfries, 1907).
MacRitchie, D. *Scottish Gypsies under the Stewarts* (Edinburgh, 1894).
Mayall, D. *Gypsy-Travellers in Nineteenth-Century Society* (Cambridge, 1988).
Okely, J. *The Traveller-Gypsies* (Cambridge, 1983).
Ribton-Turner, C. J. *A History of Vagrants and Vagrancy* (London, 1887).
Simson, W. *A History of the Gypsies* (London, 1865).
Vesey-FitzGerald, B. *The Gypsies of Britain* (London, 1944).
Ward-Jackson, C. H. and Harvey, D. E. *The English Gypsy Caravan* (Newton Abbot, 1972; 2nd edn, 1986).

Denmark

- Dyrlund, F. *Tatere og Natmandsfolk i Danmark* (Copenhagen, 1872).

Finland

- Grönfors, M. *Blood Feuding among Finnish Gypsies* (Helsinki, 1977).
Vehmas, R. *Suomen Romaaniväestön Ryhmäluonne ja Akkulturoituminen* ['The Group Character and Acculturation of the Gypsy Population of Finland'] (Turku, 1961).

France

- Vaux de Foletier, F. de. *Les Tsiganes dans l'ancienne France* (Paris, 1961).

Bibliography

— *Les Bohémiens en France au 19e siècle* (Paris, 1981).

Germany

Arnold, H. *Die Zigeuner, Herkunft und Leben im deutschen Sprachgebiet* (Olten, 1965).

Hohmann, J. S. *Geschichte der Zigeunerverfolgung in Deutschland* (Frankfurt, 1981).

Mode, H. and Wölffling, S. *Zigeuner, Der Weg eines Volkes in Deutschland* (Leipzig, 1968).

Hungary and Transylvania

Jekelfalussy, J. (ed.). *A Magyarországon . . . cigányösszeírás eredményei* ['Results of the Gypsy Census in Hungary'] (Budapest, 1895); reprinted with essay in English (Pécs, 1992).

Schwicker, J. H. *Die Zigeuner in Ungarn und Siebenbürgen* (Vienna, 1883).

Wlislöck, H. von. *Vom wandernden Zigeunervolke* (Hamburg, 1890).

The Netherlands

Hovens, P. and Dahler, R. (eds). *Zigeuners in Nederland* (Nijmegen/Rijswijk, 1988).

Kappen, O. van. *Geschiedenis der Zigeuners in Nederland* (Assen, 1965).

Lucassen, L. *En men noemde hen Zigeuners* (Amsterdam/The Hague, 1990).

Norway

Sundt, E. *Beretning om Fante-eller Landstrygerfolket i Norge* (Christiania, 1850).

Poland

Ficowski, J. *Cyganie na polskich drogach*, 2nd edn (Kraków, 1985).

— *The Gypsies in Poland* (n.d. [Warsaw, 1990]).

Portugal

Coelho, F. A. *Os Ciganos de Portugal* (Lisbon, 1892).

Rumania

Potra, G. *Contribuțiuni la istoricul Țiganilor din România* (Bucharest, 1939).

Rommel, F. *Die Roma Rumäniens* (Vienna, 1993).

Russia

Druts, Y. and Gessler, A. *Tsygane* (Moscow, 1990).

Bibliography

Spain

Borrow, G. *The Zincali* (London, 1841).

Leblon, B. *Les Gitans d'Espagne* (Paris, 1985).

Sweden

Erzler, A. *Zigenarna och deras avkomlingar i Sverige* (Uppsala, 1944).

Switzerland

Huonker, T. *Fahrendes Volk – verfolgt und verfemt* (Zürich, 1987).

6 Pre-1800 European history

Aaltonen, E. Review of R. Vehmas's *Suomen Romaaniväestön*, *JGLS*(3), 42 (1963), pp. 64–7.

Andreas, Presbyter Ratisbonensis, *Diarium sexennale*, in A. F. Oefelius, *Rerum boicarum scriptores* (Augsburg, 1763), vol. 1.

Andree, R. 'Old warning-placards for Gypsies', *JGLS*(2), 5 (1911–12), pp. 202–4.

Arlati, A. 'Gli Zingari nello stato di Milano', *Lacio Drom* (1989), no. 2, pp. 4–11.

Arnold, H. 'Das Vagantenunwesen in der Pfalz während des 18. Jahrhunderts', *Mitteilungen des historischen Vereins der Pfalz*, 55 (1957), pp. 117–52.

—— 'Die Räuberbande des Hannikels', *Pfälzer Heimat*, 8 (1957), pp. 101–3.

Asséo, H. 'Le traitement administratif des Bohémiens', in H. Asséo and J.-P. Vittu, *Problèmes socio-culturels en France au XVIIe siècle* (Paris, 1974), pp. 9–87.

Aubrion, J. *Journal de Jean Aubrion, bourgeois de Metz* (Metz, 1857).

Aventinus. See Thurmaier.

Azevedo, P. d'. 'Os Ciganos em Portugal nos secs. XVI e XVII', *Arquivo Histórico Português*, 6 (1908), pp. 460–8; 7 (1909), pp. 42–52, 81–90, 169–77.

Bartlett, D. M. M. 'Münster's *Cosmographia universalis*', *JGLS*(3), 31 (1952), pp. 83–90.

Bataillard, P. 'Beginning of the immigration of the Gypsies into western Europe in the fifteenth century', *JGLS*(1), 1 (1888–9), pp. 185–212, 260–86, 324–45; 2 (1890–1), pp. 27–53.

Beier, A. L. *Masterless Men* (London, 1985).

Bellorini, T. and Hoade, E. (trans.). 'Pilgrimage of Lionardo di Niccolò Frescobaldi to the Holy Land', in *Publications of the Studium Biblicum Franciscanum* no. 6 (1948), pp. 29–90.

Bibliography

- Biester, J. E. 'Ueber die Zigeuner; besonders im Königreich Preussen', *Berlinische Monatsschrift*, 21 (1793), pp. 108–65.
- Blair, F. G. 'Forged passports of British Gypsies in the sixteenth century', *JGLS*(3), 29 (1950), pp. 131–7.
- Blunt, F. J. *The People of Turkey* (London, 1878).
- Breydenbach, B. von. *Peregrinatio in terram sanctam* (Mainz, 1486).
- Campigotto, A. 'I bandi bolognesi contro gli Zingari (sec. XVI–XVIII)', *Lacio Drom* (1987), no. 4, pp. 2–27.
- Chambers, E. *Cyclopædia* (London, 1728).
- La Continuation du Mercure François*, 1610–12.
- Cornerus, H. *Chronica novella usque ad annum 1435*, in J. G. Eccard, *Corpus historicum medii ævi* (Leipzig, 1723), vol. 2.
- Creades, D. 'Les premiers Gitans à Murcie', *Études Tsiganes* (1974), nos 2/3, pp. 5–7.
- Crofton, H. T. 'Early annals of the Gypsies in England', *JGLS*(1), 1 (1888–9), pp. 5–24.
- 'Supplementary annals of the Gypsies in England, before 1700', *JGLS*(2), 1 (1907–8), pp. 31–4.
- Davies, C. S. L. 'Slavery and Protector Somerset; the Vagrancy Act of 1547', *Economic History Review* (1966), pp. 533–49.
- Diderot, D. (ed.). *Encyclopédie* (Paris, 1751–72).
- Douglas, G. *Diversions of a Country Gentleman* (London, 1902).
- Fielding, H. *A Clear State of the Case of Elizabeth Canning* (London, 1753).
- Foresti, J. F. *Supplementum chronicorum Fratris Jacobi Philippi Bergomensis* (Venice, 1483).
- Fraser, A. M. 'Counterfeit Egyptians', *Tsiganologische Studien* (1990), no. 2, pp. 43–69.
- Fraser, A. M. and Vaux de Foletier, F. de. 'The Gypsy healer and the King of Scots', *JGLS*(3), 51 (1972), pp. 1–8.
- Frescobaldi, N. See Bellorini and Hoade; Manzi.
- Fritsch, A. *Diatribæ historica-politica de Zygenorum origine, vita ac moribus* (Jena, 1660); German translation 1662.
- Gaster, M. 'Rumanian Gypsies in 1560', *JGLS*(3), 12 (1933), p. 61.
- Gelsenbach, R. 'Quellen zur Geschichte der Roma und ihrer Interpretation, dargestellt an Beispielen aus dem 15. Jahrhundert', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 1/85, pp. 8–16; 2 + 3/85, pp. 3–11.
- Gheorghe, N. 'Origin of Roma's slavery in the Rumanian principalities', *Roma*, 7 (1983), no. 1, pp. 12–27.
- Gilliat-Smith, B. J. 'An eighteenth century Hungarian document', *JGLS*(3), 42 (1963), pp. 50–3.
- 'Gypsies in America, 1581', *JGLS*(2), 6 (1912–13), p. 61.

Bibliography

- Gómez Alfaro, A. 'Anotaciones a los censos gitanos en Andalucía', *Actas del I Congreso de Historia de Andalucía* (Córdoba, 1978), vol. 1, pp. 239-56.
- 'La polémica sobre la deportación de los Gitanos a las colonias de América', *Cuadernos Hispanoamericanos* (Madrid, 1982), no. 386, pp. 319-21.
- 'El Expediente general de Gitanos' (doctoral thesis, Madrid, 1988).
- 'La "Reducción" de los niños gitanos', *Historia de la Educación* (Salamanca, 1991), no. 10, pp. 187-202.
- Gronemeyer, R. 'Die Zigeuner in den Kathedralen des Wissens', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1986), 1-4/86, pp. 7-29.
- *Zigeuner im Spiegel früher Chroniken und Abhandlungen* (Giessen, 1987).
- Groome, F. H. 'Transportation of Gypsies from Scotland to America', *JGLS*(1), 2 (1890-1), pp. 60-2.
- Hall, E. *Chronicle of King Henry the Eighth* (London, 1548).
- Hall, E. M. 'Gentile cruelty to Gypsies', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 49-56.
- Halliday, W. R. *Folklore Studies* (London, 1924).
- Hammer-Purgstall, J. G. von. *Geschichte des osmanischen Reiches* (Budapest, 1827-35).
- Harff, A. von. *Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff*, ed. E. von Groote (Cologne, 1860).
- Harrison, W. *A Description of England* (prefixed to Holinshed's *Chronicles*, London, 1587).
- Hasluck, M. 'Firman of A.H. 1013-14 (A.D. 1604-5) regarding Gypsies in the Western Balkans', *JGLS*(3), 27 (1948), pp. 1-12.
- Huften, O. H. *The Poor of Eighteenth-Century France* (Oxford, 1974).
- Jones, R. O. 'The mode of disposing of gipsies and vagrants in the reign of Elizabeth', *Archæologia Cambrensis* (4th series), 13 (1882), pp. 226-31; rptd in *JGLS*(2), 2 (1908-9), pp. 334-8.
- Kappen, O. van. 'Four early safe-conducts for Gypsies', *JGLS*(3), 44 (1965), pp. 107-15.
- 'Contribution to the history of the Gypsies in Belgium', *JGLS*(3), 48 (1969), pp. 107-20.
- Krantz, A. *Rerum Germanicarum historici clariss. Saxonia* (Frankfurt am Main, 1580; 1st edn Cologne, 1530).
- Lang, D. M. (ed.). *Lives and Legends of the Georgian Saints. Selected and translated from the original texts* (London, 1956).
- Le Saige, J. *Voyage de J. Le Saige de Douai à Rome, Venise, Jérusalem, et autres saints lieux* (Douai, 1851).
- Lewenklaw von Amelbeurn, H. *Neuwe Chronika türkischer Nation*

Bibliography

- (Frankfurt am Main, 1590).
- Liégeois, J. -P. 'Bohémiens et pouvoirs publics en France du XVe au XIXe siècle', *Études Tsiganes* (1978), no. 4, pp. 10-30.
- Lopes da Costa, E. M. 'La minoranza sociale Rom nel Portogallo moderno (secoli XV-XVIII)', *Lacio Drom* (1989), no. 1, pp. 5-23.
- López de Meneses, A. 'La inmigración gitana en España durante el siglo XV', in *Martínez Ferrando, Archivero. Miscelánea de Estudios dedicados a su memoria* (Barcelona, 1968), pp. 239-63.
- 'Noves dades sobre la immigració gitana a Espanya al segle XV', in *Estudios d'Historia Medieval* (Barcelona, 1971), vol. 4, pp. 145-60.
- Macfie, R. A. S. 'The Gypsy visit to Rome in 1422', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 111-15.
- 'Gypsy persecutions: a survey of a black chapter in European history', *JGLS*(3), 22 (1943), pp. 65-78.
- Manzi, G. (ed.). *Viaggio di Lionardo di Niccolò Frescobaldi in Egitto e in Terra Santa* (Rome, 1818).
- Mészáros, L. 'A hódoltsági latinok, görögök és cigányok történetéhez. 16. sz.-i oszmán-török szórványadatok' ['On the history of Latins, Greeks and Gypsies under Ottoman rule. Documents from Ottoman archives of the sixteenth century'], *Századok* 110 (1976), no. 3, pp. 474-89.
- Moncada, S. de. 'Espulsion de los Gitanos', in his *Restauracion politica de España* (Madrid, 1619).
- More, Sir Thomas. *A dyaloge of Syr Thomas More, knt.* (London, 1529).
- MS Register of the Privy Seal of Scotland, vol. 8.
- Münster, S. *Cosmographia universalis* (Basel, 1550).
- Muratori, L. A. (ed.). *Rerum Italicarum Scriptores*, vols 18 and 19 (Milan, 1730-1).
- Ogle, A. *The Case of the Lollards Tower* (Oxford, 1949).
- Panaiteescu, P. N. 'The Gypsies in Walachia and Moldavia: a chapter of economic history', *JGLS*(3), 20 (1941), pp. 58-72.
- Pastore, M. 'Zingari nello Stato Sabaudo', *Lacio Drom* (1989), nos 3-4, pp. 6-19.
- Paul, Sir J. Balfour (ed.). *Accounts of the Lord High Treasurer of Scotland*, vols 3 and 5 (Edinburgh, 1901-3).
- Peeters, P. 'Histoires monastiques géorgiennes', *Analecta Bollandiana*, 36-7 (1917-19).
- Piasere, L. 'De origine Cingānorum', *Études et documents balkaniques et méditerranéens*, 14 (1989), pp. 105-26.
- Pike, R. *Penal Servitude in Early Modern Spain* (Madison, WI, 1983).
- Pischel, R. *Beiträge zur Kenntnis der deutschen Zigeuner* (Halle, 1894).

Bibliography

- Pray, G. (ed.). *Annales Regum Hungariae ab anno Christi CMXCVII ad annum MDLXIV* (Vienna, 1764–70).
- Rid, S. *The Art of Juggling or Legerdemain* (London, 1612).
- Sampson, J. 'The Wood family', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 56–71.
- Sánchez Ortega, M. H. *Documentación selecta sobre la situación de los gitanos españoles en el siglo XVIII* (Madrid, 1977).
- Shirley, J. (trans.). *A Parisian Journal, 1405–1449* (Oxford, 1968).
- Sibeth, U. 'Verordnungen gegen Zigeuner in der Landgrafschaft Hessen-Kassel im Zeitalter des Früh-Absolutismus', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), no. 4, pp. 3–15.
- Soulis, G. C. 'A note on the taxation of the Balkan Gypsies in the seventeenth century', *JGLS*(3), 38 (1959), pp. 154–6.
- 'The Gypsies in the Byzantine Empire and the Balkans in the late Middle Ages', *Dumbarton Oaks Papers*, no. 15 (1961), pp. 142–65.
- Stumpf, J. *Schweytzer Chronik* (Zürich, 1606).
- Thomasius, J. *Dissertatio philosophica de Cingaris* (Leipzig, 1671); German translation 1702.
- Thompson, T. W. 'Consorting with and counterfeiting Egyptians', *JGLS*(3), 2 (1923), pp. 81–93.
- 'Gleanings from constables' accounts and other sources', *JGLS*(3), 7 (1928), pp. 30–47.
- Thurmaier, J. *Annalium Boiorum libri septem* (Ingolstadt, 1554).
- Tuetey, A. (ed.). *Journal d'un Bourgeois de Paris (1405–49)* (Paris, 1881).
- Twiss, R. *Travels through Spain and Portugal in 1772 and 1773* (London, 1775).
- Vaux de Foletier, F. de. 'Le pèlerinage romain des Tsiganes en 1422 et les lettres du Pape Martin V', *Études Tsiganes* (1965), no. 4, pp. 13–19.
- Vekerdi, J. 'Earliest archival evidence on Gypsies in Hungary', *JGLS*(4), 1 (1977), pp. 170–2.
- 'La parola "Zingaro" nei nomi medievali', *Lacio Drom* (1985), no. 3, p. 31.
- Voetius, G. *Selectarum disputationum theologicarum* (Utrecht, 1655).
- 'Von dem heutigen Zustande... der Zigeuner in Ungarn', *Allergnädigst-privilegirte Anzeigen, aus sämtlich-kaiserlich-königlichen Erbländern* (Vienna), 5 (1775), pp. 159–416; 6 (1776), pp. 7–168, *passim*.
- Von der falschen Betler buberey, Mit einer Vorrede Martini Luther* (Wittenberg, 1528).
- Vukanović, T. P. 'Le firman du sultan Sélim II relatif aux Tsiganes, ouvriers dans les mines de Bosnie (1574)', *Études Tsiganes* (1969), no. 3, pp. 8–10.

Bibliography

- Weber, C. von. 'Zigeuner in Sachsen 1488-1792', in *Mitteilungen aus dem Hauptstaatsarchiv zu Dresden* (Leipzig, 1857-61), vol. 2, pp. 282-303.
- Weissenbruch, J. B. *Ausführliche Relation von der famosen Zigeuner-Diebs- Mord- und Räuber-Bande, welche zu Giessen justificirt worden* (Frankfurt and Leipzig, 1727).
- Wellstood, F. C. 'Some French edicts against the Gypsies', *JGLS*(2), 5 (1911-12), pp. 313-16.
- Wiener, L. 'Ismaelites', *JGLS*(2), 4 (1910-11), pp. 83-100.
- Winstedt, E. O. 'The Gypsies of Modon and the "Wine of Romeney"', *JGLS*(2), 3 (1909-10), pp. 57-69.
- 'Early British Gypsies', *JGLS*(2), 7 (1913-14), pp. 5-37.
- 'Some records of the Gypsies in Germany, 1407-1792', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 97-111; 12 (1933), pp. 123-41, 189-96; 13 (1934), pp. 98-116.
- 'Gypsies at Bruges', *JGLS*(3), 15 (1936), pp. 126-34.
- 'Hannikel', *JGLS*(3), 16 (1937), pp. 154-73.
- 'Some Transylvanian Gypsy documents of the sixteenth century', *JGLS*(3), 20 (1941), pp. 49-58.
- Zedler, J. H. (ed.). *Grosses vollständiges Universal-Lexicon aller Wissenschaften und Künste*, vol. 62 (Leipzig and Halle, 1749).
- Zuccon, M. 'La legislazione sugli Zingari negli stati italiani prima della rivoluzione', *Lacio Drom* (1979), nos 1-2, pp. 1-68.

7 Nineteenth and twentieth centuries

- Acton, T. *Gypsy Politics and Social Change* (London, 1974).
- Acton, T. and Kenrick, D. 'From summer voluntary schemes to European Community bureaucracy: the development of special provision for Traveller education in the United Kingdom since 1967', *European Journal of Intercultural Studies*, 1 (1991), no. 3, pp. 47-62.
- Beck, S. 'Tsigani-Gypsies in socialist Romania', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1986), 1-4/86, pp. 109-27.
- Bernadac, C. *L'Holocauste oublié* (Paris, 1979).
- Boner, C. *Transylvania* (London, 1865).
- Boué, A. *La Turquie d'Europe* (Paris, 1840).
- Cartner, H. *Destroying Ethnic Identity: The Persecution of Gypsies in Romania* (New York and Washington, DC, 1991).
- Chamberlain, H. S. *Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts* (Vienna, 1899).
- Commission for Racial Equality v Dutton*, Court of Appeal, London, 1988.

Bibliography

- 'Compensation claims rejected', in *Manchester Guardian*, 30 March 1959, p. 5.
- Crowe, D. and Kolsti, J. (eds). *The Gypsies of Eastern Europe* (New York/London, 1991).
- Dahler, R. 'Zigeuneropvangbeleid Oldenzaal', in *Zigeuners in Nederland*, eds P. Hovens and R. Dahler (Nijmegen/Rijswijk, 1988), pp. 385-415.
- Davidóva, E. 'The Gypsies in Czechoslovakia', *JGLS*(3), 50 (1971), pp. 40-54.
- Dillmann, A. *Zigeuner-Buch* (Munich, 1905).
- Djurić, R. 'Il calvario dei Roma nel campo di concentramento di Jasenovac', *Lacio Drom* (1992), no. 4, pp. 14-42.
- Döring, H.-J. *Die Zigeuner im NS-Staat* (Hamburg, 1964).
- Ficowski, J. 'The Gypsies in the Polish People's Republic', *JGLS*(3), 35 (1956), pp. 28-38.
- Fischer, E. 'Erbe als Schicksal', *Deutsche Allgemeine Zeitung*, 28 March 1943.
- Formoso, B. *Tsiganes et sédentaires* (Paris, 1986).
- Fraser, A. M. 'References to Gypsies in British highway law', *JGLS*(3), 40 (1961), pp. 137-9.
- 'The Travellers. Developments in England and Wales, 1953-63', *JGLS*(3), 43 (1964), pp. 83-112.
- 'A rum lot', in *100 Years of Gypsy Studies*, ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), pp. 1-14.
- 'The Rom migrations', *JGLS*(5), 2 (1992), pp. 131-45.
- Gaster, M. 'Bill of sale of Gypsy slaves in Moldavia, 1851', *JGLS*(3), 2 (1923), pp. 68-81.
- Gilliat-Smith B.-J. 'Report on the Gypsy tribes of north east Bulgaria', *JGLS*(2), 9 (1915-16), pp. 1-54, 65-109.
- Gjorgjević, T. R. 'Rumanian Gypsies in Serbia', *JGLS*(3), 8 (1929), pp. 7-25.
- Gobineau, J.-A. de. *Essai sur l'inégalité des races humaines* (Paris, 1853-5).
- Gotovitch, J. 'Quelques données relatives à l'extermination des tsiganes de Belgique', *Cahiers d'histoire de la seconde guerre mondiale*, 4 (1976), pp. 161-80.
- '"Greek" Gypsies', *JGLS*(3), 13 (1934), pp. 124-32.
- Günther, W. *Zur preussischen Zigeunerpolitik seit 1871* (Hanover, 1985).
- Guy, W. 'Ways of looking at Roms: the case of Czechoslovakia', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfisch (London, 1975), pp. 201-29.
- Haley, W. J. 'The Gypsy conference at Bucharest', *JGLS*(3), 13 (1934), pp. 182-90.

Bibliography

- Havas, G. 'Strategien des Beschäftigungswechsels bei verschiedenen Zigeunergemeinschaften in Ungarn', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1984), 2/84, pp. 3–24.
- Hehemann, R. *Die 'Bekämpfung des Zigeunerunwesens' im Wilhelminischen Deutschland und in der Weimarer Republik 1871–1933* (Frankfurt am Main, 1987).
- Hohmann, J. S. *Robert Ritter und die Erben der Kriminalbiologie* (Frankfurt am Main, 1991).
- Holmes, C. 'The German Gypsy question in Britain, 1904–06', *JGLS*(4), 1 (1978), no. 4, pp. 248–67.
- Huttenbach, H. R. (ed.). *Nationalities Papers*, 19 (1991), no. 3 (special issue, 'The Gypsies in Eastern Europe').
- Jones, D. 'Rural crime and protest', in *The Victorian Countryside*, ed. G. E. Mingay (London, 1981), vol. 2, pp. 566–79.
- Kalibová, K. and Pavlik, Z. 'Demographic specificities of the Romany population in Czechoslovakia', paper at the 7th International Demographic Seminar, Humboldt University, Berlin, 1986.
- Kaminski, I.-M. 'The dilemma of power: internal and external leadership. The Gypsy-Roma of Poland', in *The Other Nomads*, ed. A. Rao (Cologne, 1987), pp. 323–56.
- Kogălniceanu, M. *Desrobirea Țiganilor* (Bucharest, 1891).
- Kolev, A. 'Census taking in a Bulgarian Gypsy Mahala (Ruse, December 1992)', *JGLS*(5), 4 (1994), pp. 33–46.
- König, U. *Sinti und Roma unter dem Nationalsozialismus: Verfolgung und Widerstand* (Bochum, 1989).
- Körber, U. 'Die Wiedergutmachung und die "Zigeuner"', in *Feinderklärung und Prävention* (Berlin, 1988), pp. 165–75.
- Kostelancik, D. J. 'The Gypsies of Czechoslovakia: political and ideological considerations in the development of policy', *Studies in Comparative Communism*, 22 (1989), pp. 307–21.
- Liégeois, J.-P. *School Provision for Gypsy and Traveller Children* (Brussels, 1987).
- Lockwood, W. G. 'Balkan Gypsies: an introduction', in *Papers from the Fourth and Fifth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1985), pp. 91–9; rptd with modifications in *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 1/85, pp. 17–23.
- 'East European Gypsies in western Europe: the social and cultural adaptation of the Xoraxané', *Nomadic Peoples* (1986), nos 21/22, pp. 63–70.
- Lombroso, C. *L'uomo delinquente* (Milan, 1876).
- MacRitchie, D. 'The Greek Gypsies at Liverpool', *Chambers's Journal*, 11 Sep. 1886.
- Mandla (Sewa Singh) v Dowell Lee*, House of Lords, 1983 (2 A.C. 548).

Bibliography

- Marushiakova, E. 'Ethnic identity among Gypsy groups in Bulgaria', *JGLS*(5), 2 (1992), pp. 95–115.
- Mills v Cooper*, High Court, London, 1967 (2 Q.B. 459).
- Milton, S. 'The context of the Holocaust', *German Studies Review*, 13 (1990), pp. 269–83.
- 'Nazi policies towards Roma and Sinti, 1933–1945', *JGLS*(5), 2 (1992), pp. 1–18.
- Mirga, A. 'The effects of State assimilation policy on Polish Gypsies', *JGLS* (5), 3 (1993), pp. 69–76.
- Müller-Hill, B. *Murderous Science* (Oxford, 1988), a translation of *Tödliche Wissenschaft* (Reinbek bei Hamburg, 1984).
- Nawrocki, G. '"Cintis" in Hamburg – Großstadtzigeuner ohne Romantik', *Hamburger Tageblatt* no. 223, 18 August 1937.
- Oschlies, W. '"Schwarze" und "Weisse": zur Lage der Zigeuner in der Tschechoslowakei', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 1/85, pp. 24–32.
- Petrović, A. 'Contributions to the study of the Serbian Gypsies', *JGLS*(3), 19 (1940), pp. 87–100.
- Piasere, L. 'In search of new niches: the productive organization of the peripatetic Xoraxané in Italy', in *The Other Nomads*, ed. A. Rao (Cologne, 1987), pp. 111–32.
- Pouqueville, F. C. H. L. *Voyage dans la Grèce* (Paris, 1820).
- Puxon, G. *Roma: Europe's Gypsies*, 2nd and 4th edns (London, 1975 and 1987).
- 'Resolution of the Council and the Ministers of Education... on school provision for gypsy and traveller children', *Official Journal of the European Communities*, 21 June 1989.
- Rochas, M.-T. 'Les Tsiganes yougoslaves!!', *Études Tsiganes*, 30 (1984), no. 2, pp. 29–37.
- Samuel, R. 'Comers and goers', in *The Victorian City*, eds H. J. Dyos and M. Wolff (London, 1973), vol. 1, pp. 123–60.
- Sijes, B. A. et al. *Vervolging van Zigeuners in Nederland 1940–1945* (The Hague, 1979).
- Silverman, C. 'Bulgarian Gypsies: adaptation in a socialist context', *Nomadic Peoples* (1986), nos 21/22, pp. 51–60.
- Strauss, E. 'Die Zigeunerverfolgung in Bayern 1885–1926', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1986), 1–4/86, pp. 31–108.
- Swann, Lord. *Education For All* (London, 1985).
- Thompson T. W. 'English Gypsy death and burial customs', *JGLS*(3), 3 (1924), pp. 5–38 and 60–93.
- 'Foreign Gypsy Coppersmiths in England in 1868', *JGLS*(3), 6 (1927), p. 144.
- Turner, E. *Nationalsozialismus und Zigeuner in Österreich* (Vienna, 1983).

Bibliography

- Tritt, R. *Struggling for Ethnic Identity: Czechoslovakia's Endangered Gypsies* (New York, etc., 1992).
- Uhlik, R. 'Iz ciganske onomastike', *Glasnik Zemaljskog museja u Sarajevu, istorija i etnografija*, new series, 10 (1955), pp. 51-71; 11 (1956), pp. 193-209.
- Ulč, O. 'Gypsies in Czechoslovakia: a case of unfinished integration', *Eastern European Politics and Societies*, 2 (1988), pp. 306-33.
- Willems, W. and Lucassen, L. 'Beeldvorming over Zigeuners in Nederlandse Encyclopedieën (1724-1984) en hun wetenschappelijke bronnen', in *Zigeuners in Nederland*, eds P. Hovens and R. Dahler (Nijmegen/Rijswijk, 1988), pp. 5-52 [English version, 'The Church of knowledge', in *100 Years of Gypsy Studies*, ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), pp. 31-50].
- *Ongewenste Vreemdelingen* (The Hague, 1990).
- Williams, P. *Mariage tsigane* (Paris, 1984).
- Winstedt, E. O. 'The Gypsy Coppersmiths' invasion of 1911-13', *JGLS*(2), 6 (1912-13), pp. 244-303.
- Yoors, J. *Crossing* (New York, 1971).
- Zang, T. *Destroying Ethnic Identity: The Gypsies of Bulgaria* (New York and Washington, DC, 1991).
- Zimmermann, M. 'From discrimination to the "Family Camp" at Auschwitz: National Socialist persecution of the Gypsies', *Dachau Review*, 2 (1990), pp. 87-113.
- Zülch, T. 'Und auch heute noch verfolgt?', *Zeitschrift für Kulturaustausch*, 31 (1981), pp. 397-410.

8 North America

- Gropper, R. C. *Gypsies in the City* (Princeton, NJ, 1975).
- Marchbin, A. A. 'Gypsy immigration to Canada', *JGLS*(3), 13 (1934), pp. 134-44.
- Salo, M. T. (ed.). *The American Kalderaš* (Hackettstown, NJ, 1981).
- Salo, M. T. and Salo, S. *The Kalderaš in Eastern Canada* (Ottawa, 1977).
- 'The Romnichel economic and social organization in urban New England, 1850-1930', *Urban Anthropology*, 11 (1982), pp. 273-313.
- 'Gypsy immigration to the United States', in *Papers from the Sixth and Seventh Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1986), pp. 85-96.
- Sutherland, A. *Gypsies, the Hidden Americans* (London, 1975).

Bibliography

9 Physical anthropology

- Bhalla, V. 'Marker genes as guides to the kinship of populations: a plea for linguistic-cum-anthropogenetic approach to the problem of "Roma" ancestry', in *Romani Language and Culture*, eds S. Balić et al. (Sarajevo, 1989), pp. 155–63.
- Corrain, C. 'Sintesi di ricerche antropometriche ed emotipologiche tra gli Zingari europei', *Lacio Drom* (1978), no. 6, pp. 22–9.
- Ély, B. 'Les Crânes tsiganes des collections du Musée de l'Homme', *Bulletins de la Société d'Anthropologie de Paris* (1967), pp. 177–92.
- Gropper, R. C. 'What does blood tell?', *GLS / NAC Newsletter*, 4 (1981), nos 2, 3 and 4.
- Mourant, A. E. *Blood Relations: Blood Groups and Anthropology* (Oxford, 1983).
- Pittard, E. *Les Tziganes ou Bohémiens* (Geneva, 1932).
- Reyment, R. 'Les Voyageurs suédois: aspects physiques et linguistiques', *Études Tsiganes* (1981), no. 4, pp. 1–14.
- Tauszik, T. 'Human- and medical-genetic examinations on the Gypsy population in Hungary', *GLS/NAC Newsletter*, 9 (1986), no. 4.

10 Language

- Bloch, J. Review of J. Sampson's *The Dialect of the Gypsies of Wales*, *JGLS*(3), 5 (1926), pp. 134–41.
- Borde, A. *The Fyrst Boke of the Introduction of Knowledge* [lithographic reprint of 2nd edn of 1562/3] (Salzburg, 1979).
- Borrow, G. *Romano Lavo-Lil* (London, 1874).
- Bryant, J. 'Collections on the Zingara or Gypsey language', *Archaeologia*, 7 (1785), pp. 387–94.
- Büttner, J. *Vergleichungstafeln der Schriftarten verschiedener Völker* (Göttingen, 1775).
- Cortiade, M. 'Romany phonetics and orthography', *GLS/NAC Newsletter*, 7 (1984), no. 4.
- 'Distance between the Romani dialects', *GLS/NAC Newsletter*, 8 (1985), no. 2, pp. 1–4.
- *Romani fonetika thaj lekhipa* (Titograd, 1986).
- 'O kodifikaciji i normalizaciji romskog zajedničkog jezika', in *Romani Language and Culture*, eds S. Balić et al. (Sarajevo, 1989), pp. 205–21.
- Fraser, A. M. 'Looking into the seeds of time', *Tsiganologische Studien* (1992), no. 1 + 2, pp. 135–66.

Bibliography

- Friedman, V. A. 'Problems in the codification of a standard Romani literary language', in *Papers from the Fourth and Fifth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1985), pp. 56-75.
- Friedman, V. A. and Dankoff, R. 'The earliest known text in Balkan (Rumelian) Romani', *JGLS*(5), 1 (1991), pp. 1-20.
- Gjerdman, O. and Ljungberg, E. *The Language of the Swedish Coppersmith Gipsy Johan Dimitri Taikon* (Uppsala, 1963).
- Grierson G. A. *Linguistic Survey of India*, 20 vols (Delhi, 1903-28).
- Hancock, I. 'The development of Romani linguistics', in *Languages and Cultures: Studies in Honor of Edgar C. Polomé*, eds M. A. Jazayery and W. Winter (Berlin, 1988), pp. 183-223.
- 'The Hungarian student Valyi Istvan and the Indian connection of Romani', *Roma*, no. 36 (1991).
- 'On the migration and affiliation of the Dōmba: Iranian words in Rom, Lom and Dom Gypsy', *International Romani Union Occasional Papers*, series F, no. 8 (1993).
- Higgle, B. 'Proto-Romanes Phonology', Ph.D. dissertation, University of Texas at Austin, 1984.
- Iversen, R. *Secret Languages in Norway. Part II: The Rodi (Rotwelsch) in Norway* (Oslo, 1945).
- Josef Karl Ludwig, Archduke. *Czigány Nyelvten* ['Gypsy Grammar'] (Budapest, 1888).
- Jusuf, S. and Kepeski, K. *Romani gramatika – Romska gramatika* (Skopje, 1980).
- Kaufman, T. Review of W. R. Rishi's *Multilingual Romani Dictionary*, *International Journal of the Sociology of Language*, 19 (1979), pp. 131-44.
- 'Explorations in protoGypsy phonology and classification', paper at the 6th South Asian Languages Analysis Round-table, Austin, Texas, 25-26 May 1984.
- Kenrick, D. 'Romanies in the Middle East', *Roma*, 1 (1976), no. 4, pp. 5-8, 2 (1977), no. 1, pp. 30-6, no. 2, pp. 23-39.
- Kluyver, A. 'Un glossaire tsigane du seizième siècle', *JGLS*(2), 4 (1910-11), pp. 131-42.
- Kochanowski, J. *Gypsy Studies* (New Delhi, 1963).
- Macalister, R. A. Stewart. *The Language of the Nawar or Zutt, the Nomad Smiths of Palestine*, GLS Monograph no. 3 (London, 1914); previously published in *JGLS*(2), 3 (1909-10), pp. 120-6, 298-317; 5 (1911-12), pp. 289-305.
- Marsden, W. 'Observations on the language of the... Gypsies', *Archaeologia*, 7 (1785), pp. 382-6.
- Miklosich, F. X. *Über die Mundarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas* (Denkschriften der kaiserlichen Akademie der

Bibliography

- Wissenschaften*, Philosophisch-historische Klasse, vols 21–31, Vienna, 1872–81).
- Papp, G. *A beás cigányok román nyelvjárása: Beás-magyar szótár* ['Rumanian Dialect of Boyash Gypsies: Boyash-Hungarian Dictionary'] (Pécs, 1982).
- Paspati, A. *Études sur les Tchinghianés* (Constantinople, 1870).
- Rishi, W. R. *Multilingual Romani Dictionary* (Chandigarh, 1974).
- *Romani Punjabi English Dictionary* (Patiala, 1981).
- Rüdiger, J. C. C. *Neuster Zuwachs der deutschen fremden und allgemeinen Sprachkunde*, Part 1 (Leipzig, 1782); section on Romani, *Von der Sprache und Herkunft der Zigeuner aus Indien*, reprinted (Hamburg, 1990).
- Sampson, J. *The Dialect of the Gypsies of Wales* (Oxford, 1926).
- 'Notes on Professor R. L. Turner's "The position of Romani in Indo-Aryan"', *JGLS*(3), 6 (1927), pp. 57–68.
- Soravia, G. *Dialetti degli Zingari Italiani* (Pisa, 1977).
- Swadesh, M. 'Lexicostatistic dating of prehistoric ethnic contacts', *Proceedings of the American Philosophical Society*, 96 (1952), pp. 452–63.
- *The Origin and Diversification of Language*, ed. J. Sherzer (London, 1972).
- Torrione, M. 'Del dialecto caló y sus usuarios: la minoría gitana de España' (doctoral thesis, Perpignan, 1988).
- Trail, R. L. *The Grammar of Lamani* (Norman, OK, 1970).
- Turner, R. L. 'The position of Romani in Indo-Aryan', *JGLS*(3), 5 (1926), pp. 145–89.
- "'The position of Romani in Indo-Aryan": A reply to Dr J. Sampson', *JGLS*(3), 6 (1927), pp. 129–38.
- 'Transference of aspiration in European Gypsy', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 22 (1959), pp. 491–8.
- Valet, J. 'Les dialectes du sinto-manouche', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 309–14.
- Vulcanius, B. *De literis et lingua Getarum sive Gothorum* (Leiden, 1597).

11 Music

- Alvarez Caballero, A. *Historia del cante flamenco* (Madrid, 1981).
- *Gitanos, payos y flamencos, en los orígenes del flamenco* (Madrid, 1988).
- Blas Vega, J. *Los Cafés cantantes de Sevilla* (Madrid, 1984).
- Bobri, B. 'Gypsies and Gypsy choruses of old Russia', *JGLS*(3), 40

Bibliography

- (1961), pp. 112–20.
- Brepohl, F. W. 'Die Zigeuner als Musiker in den türkischen Eroberungskriegen des XVI. Jahrhunderts', *JGLS*(2), 4 (1910–11), pp. 241–4.
- Falla, M. de. *El Cante jondo* (Granada, 1922).
- Hajdu, A. 'Les Tsiganes de Hongrie et leur musique', *Études Tsiganes* (1958), no. 1, pp. 1–30.
- Kovalcsik, K. *Vlach Gypsy Folk Songs in Slovakia* (Budapest, 1985).
- Leblon, B. 'Identité gitane et flamenco', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 521–7.
- *Musiques Tsiganes et Flamenco* (Paris, 1990); *El Cante flamenco* (Madrid, 1991).
- Liszt, F. *Des Bohémiens et de leur musique en Hongrie* (Paris, 1859); *The Gipsy in Music*, trans. E. Evans (London, 1926).
- Sárosi, B. *Gypsy Music* (Budapest, 1978).
- Stewart, M. 'La fraternité dans le chant: l'expérience des Roms hongrois', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 497–513.

12 Folk-tales

- Groome, F. H. *Gypsy Folk-Tales* (London, 1899).

13 Pollution code

- Ficowski, J. 'Supplementary notes on the *mageripen* code among Polish Gypsies', *JGLS*(3), 30 (1951), pp. 123–32.
- Miller, C. 'Mačwaya Gypsy Marimé' (MA thesis, Seattle, 1968).
- 'American Rom and the ideology of defilement', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfisch (London, 1975), pp. 41–54.
- Rao, A. 'Some Mānuš conceptions and attitudes', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfisch (London, 1975), pp. 139–67.
- Silverman, C. 'Pollution and power: Gypsy women in America', in *The American Kalderaš*, ed. M. T. Salo (Hackettstown, NJ, 1981), pp. 55–70.
- Thompson, T. W. 'The uncleanness of women among English Gypsies', *JGLS*(3), 1 (1922), pp. 15–43; and 8 (1929), pp. 33–9.
- Winstedt, E. O. 'Coppersmith Gypsy notes', *JGLS*(2), 8 (1914–15), pp. 246–66.

Bibliography

14 Religion

- Acton, T. 'The Gypsy Evangelical Church', *Ecumenical Review*, 31 (1979), no. 3, pp. 11-17.
- Glize, R. 'L'église évangélique tsigane comme voie possible d'un engagement culturel nouveau', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 433-43.
- Lazell, D. *From the Forest I Came* (London, 1970).
- Le Cossec, C. *Mon aventure chez les Tziganes* (Soignolles, 1991).
- Ridholls, J. *Travelling Home* (Basingstoke, 1986).
- Sato, E. B. L. 'The social impact of the rise of Pentecostal evangelicalism among American Rom', in *Papers from the Eighth and Ninth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1988), pp. 69-94.
- Smith, C. *The Life Story of Gipsy Cornelius Smith* (London, 1890).
- Smith, R. *Gipsy Smith: His Life and Work* (London, 1901).
- Wang, K. 'Le mouvement pentecôtiste chez les Gitans espagnols', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 423-32.

15 Other Travellers

- Arnold, H. *Fahrendes Volk* (Neustadt, 1980).
- Bonilla, K. 'The Quinquis: Spain's last nomads', *JGLS*(4), 1 (1976), no. 2, pp. 86-92.
- Cottaar, A. and Willems, W. 'The image of Holland: caravan dwellers and other minorities on Dutch society,' *Immigrants & Minorities*, 2 (1992), no. 1, pp. 67-80.
- Gmelch, G. *The Irish Tinkers* (Menlo Park, CA, 1977; 2nd edn 1985).
- Gmelch, G. and Gmelch, S. B. 'Ireland's travelling people: a comprehensive bibliography', *JGLS*(4), 1 (1977), no. 3, pp. 159-69.
- Gmelch, S. B. *Tinkers and Travellers* (Dublin, 1975; 2nd edn 1979).
- Golowin, S. 'Fahrende in der Schweiz', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 2 + 3/85, pp. 40-50.
- Haesler, W. *Enfants de la Grande-route* (Neuchâtel, 1955).
- Heymowski, A. *Swedish Travellers and their Ancestry* (Uppsala, 1969).
- Ignacio, L. *Los Quinquis* (Barcelona, 1974).
- MacColl, E. and Seeger, P. *Till Doomsday in the Afternoon* (Manchester, 1986).
- Meyer, C. 'Unkraut der Landstrasse' (Zürich, 1988).
- Rao, A. (ed.). *The Other Nomads* (Cologne/Vienna, 1987).

Bibliography

- Rehfish, A. and Rehfish, F. 'Scottish Travellers or Tinkers', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfish (London, 1975), pp. 271-83.
- Reyniers, A. and Valet, J. 'Les Jeniš', *Études Tsiganes* (1991), no. 2, pp. 11-35.
- Valet, J. *Les Voyageurs d'Auvergne, nos familles yéniches* (Clermont; 1990).
- Wernink, J. H. A. *Woonwagengewoners* (Assen, 1959).
- Wiedel, J. and O'Fearadhaigh, M. *Irish Tinkers* (London, 1976).

16 Gypsies in art and literature

- Beaumarchais, P.-A. C. de. *Le Mariage de Figaro* (staged 1784).
- Borrow, G. *Lavengro* (London, 1851).
- *The Romany Rye* (London, 1857).
- Campigotto, A. and Piasere, L. 'From Margutte to Cingar: the archeology of an image', in *100 Years of Gypsy Studies*, ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), pp. 15-29.
- Cervantes Saavedra, M. de. *Pedro de Urdemalas* (Madrid, 1615; written c.1611).
- *La Gitanilla*, in his *Novelas exemplares* (Madrid, 1613).
- Crockett, W. S. *The Scott Originals* (Edinburgh, 1912).
- Cuzin, J.-P. *La diséuse de bonne aventure de Caravage* (Paris, 1977).
- Defoe, D. *Moll Flanders* (London, 1722).
- Fielding, H. *The History of Tom Jones* (London, 1749).
- Firdawsi, *Shah-nameh* (1010).
- Fraser, A. M. 'Authors' Gypsies', *Antiquarian Book Monthly*, 20 (1993), no. 2, pp. 10-17.
- Goethe, J. W. von. *Götz von Berlichingen* (1773).
- Herder, J. G. *Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit* (1784-91).
- Mone, F. J. (ed.). *Schauspiele des Mittelalters* (Karlsruhe, 1846), vol. 2.
- O'Brien, C. *Gipsy Marion* (London, n.d. [c.1895])
- Recueil d'Arras* ['Arras collection'], municipal library of Arras, MS 266.
- Sachs, H. *Die 5 elenden wanderer*, in *Hans Sachs' Werke* (Berlin, 1884), vol. 2, pp. 58-68.
- Scott, Sir Walter, *Guy Mannering* (Edinburgh, 1815).
- Vicente, G. *Farsa das Ciganas* (staged 1521).

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (ملبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريونكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إيفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندروس. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثنية السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شامين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يعنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبوسنة
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصّة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيلفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مفيت
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	أن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : علف أحمد / إبراهيم قتي / محمود ملجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ هارين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمان المياوي ويوسف الأشملي
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التبعيمي	بيتر . ن . ثوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرdash
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي المسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العلم الإسلامي في أول القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحنيد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز ت . س . إليوت
- ٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
- ٧٤ - صلاح الدين والمالِك فى مصر ل . ا . سيمينوفا
- ٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
- ٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب
- ٧٧ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
- ٧٨ - العولة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
- ٧٩ - شعرية التأليف بورييس أوسبنسكى
- ٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» الكسندر بوشكين
- ٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
- ٨٢ - مسرح ميغيل ميغيل دى أونامونو
- ٨٣ - مختارات غوتفريد بن
- ٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
- ٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاي
- ٨٦ - طول الليل جمال مير صادقى
- ٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
- ٨٨ - الابتلاء بالغرب جلال آل أحمد
- ٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جينز
- ٩٠ - رسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
- ٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
- ٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميغل
- ٩٣ - محدثات العولة مايك فيذرستون وسكوت لاش
- ٩٤ - الحب الأول والصحية صمويل بيكيت
- ٩٥ - مختارات من المسرح الإسبانى أنطونيو بويرو بايخو
- ٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة قصص مختارة
- ٩٧ - هوية فرنسا (مج ١) فرنان برودل
- ٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى نماذج ومقالات
- ٩٩ - تاريخ السينما العالمية ديفيد روبنسون
- ١٠٠ - مساعلة العولة بول هيرست وجراهام تومبسون
- ١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليط
- ١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الكريم الخطيبى
- ١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آيا عبد الوهاب المؤدب
- ١٠٤ - أويرا ماهوجنى برتولت بريشت
- ١٠٥ - مداخل إلى النص الجامع جيرارچينيت
- ١٠٦ - الأدب الأندلسى د. ماريا خيسوس روبيرامتى
- ١٠٧ - صورة الفنان فى الشعر الأيريكى المعاصر نخبة
- ت : فؤاد مجلى
- ت : حسن ناظم وعلى حاكم
- ت : حسن بيومى
- ت : أحمد درويش
- ت : عبد المقصود عبد الكريم
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : أحمد محمود ونورا أمين
- ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
- ت : مكارم الغمرى
- ت : محمد طارق الشرقاوى
- ت : محمود السيد على
- ت : خالد المعالى
- ت : عبد الحميد شبيحة
- ت : عبد الرازق بركات
- ت : أحمد فتحى يوسف شتا
- ت : ماجدة العنانى
- ت : إبراهيم الدسوقي شتا
- ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
- ت : محمد إبراهيم مبروك
- ت : محمد هناء عبد الفتاح
- ت : نادية جمال الدين
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : فوزية العشماوى
- ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
- ت : إدوار الخراط
- ت : بشير السباعى
- ت : أشرف الصباغ
- ت : إبراهيم قنديل
- ت : إبراهيم فتحى
- ت : رشيد بنحدو
- ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
- ت : محمد بنيس
- ت : عبد الغفار مكاوى
- ت : عبد العزيز شبيب
- ت : أشرف على دعور
- ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادي أرلين علوي ماركليود
١١٣ - راية التمرد سادي بلانت
١١٤ - مسرحيات حماد كوني وسكان المستنقع وول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده فرجينيا وواف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام ليلي أحمد
١١٨ - النهضة النسائية في مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلي أبو لغد
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإسلام جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيل الكسندر وفنادولينا
١٢٤ - الفجر الكاذب جون جرائ
١٢٥ - التحليل الموسيقي سيدريك ثورپ ديفي
١٢٦ - فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحي
١٢٨ - الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرفرائك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق علي
١٣٤ - تشريح حضارة باري ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كوني
١٣٧ - منكرات ضابط في الصلة الفرنسية جوزيف ماري مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تاروني
١٣٩ - باريسيفال ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار هريوت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا التطور في البحث الاجتماعي ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولادوني
- ت : محمود علي مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سمية رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : ليس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعي
ت : أميرة حسن نوربة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس قطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحي
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبوري
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومي
ت : عدلى السمري
ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدارة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراغة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإثنولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليفاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوجنا الأسبوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثلج	أ . ن أمانا سيفا	ت : سهير المصايفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - في عالم طافور	رايندرا ناث طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أنبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميفيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والتوبة و . ب . بيتس
- ١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه چيلسون
- ١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز إيندورفر
- ١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
- ١٨٦ - معجم مصطلحات هيكل ميخائيل أنود
- ١٨٧ - الأرضة بُزْدَجْ علوى
- ١٨٨ - موت الأدب الفين كرنان
- ١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
- ١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
- ١٩١ - الكلام رأسعأل الحاج أبو بكر إمام
- ١٩٢ - سياحته إبراهيم بيك زين العابدين المراقى
- ١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
- ١٩٤ - مخبرات من نقد الأنجلو-أمريكي مجموعة من النقاد
- ١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
- ١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين راسبوتين
- ١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
- ١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إدوين إمري وآخرون
- ١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندائوى
- ٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبوك
- ٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
- ٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٢ رينيه ويليك
- ٢٠٣ - الشعر والشاعرية أطفاف حسين حالى
- ٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شاراز
- ٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافالى - سفورزا
- ٢٠٦ - الهبولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
- ٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاسندير
- ٢٠٨ - شخمية الربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوربان
- ٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
- ٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الفزنوى
- ٢١١ - فريتيان دوسوسير جوناثان كلر
- ٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
- ٢١٣ - مصر منذ قوم تلبين حتى رجل عبد القمر ريمون فلاور
- ٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جينتز
- ٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك ج٢ زين العابدين المراقى
- ٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
- ٢١٧ - عولة السياسة العالمية جون بايلس وستيث سميث
- ٢١٨ - راويلا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
- ت : فتحي العشرى
- ت : دسوقي سعيد
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : علاء منصور
- ت : بدر الديب
- ت : سعيد الغانمى
- ت : محسن سيد فرجاني
- ت : مصطفى حجازى السيد
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : محمد عبد الواحد محمد
- ت : ماهر شفيق فريد
- ت : محمد علاء الدين منصور
- ت : أشرف الصباغ
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
- ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
- ت : فخرى ليبي
- ت : أحمد الانصارى
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : أحمد محمود هويدى
- ت : أحمد مستجير
- ت : على يوسف على
- ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
- ت : محمد أحمد صالح
- ت : أشرف الصباغ
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : محمود حمدي عبد الغنى
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : سيد أحمد على الناصرى
- ت : محمد محمود محى الدين
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : أشرف الصباغ
- ت : وجيه سمعان عبد المسيح
- ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كانزو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيدوية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانييس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يونغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مازق البطل الوحيد	نورمان كيپمان	ت : أمير إبراهيم العصري
٢٣٠ - عن اللباب والفنران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ - الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستيفر	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سينسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس التبريزي	جلال الدين مولوى رومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادي	روين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى مديولى أحمد
٢٣٩ - العريى في الأدب الإسرائيلي	جيلرافر - رايوخ	ت : نادية سليمان حلفظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والقرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - في انتظار البرابرة	ك. م كوبرتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبي
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أنيس	ت : توفيق علي منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرثيا ماركث	ت : علي إبراهيم علي منولى
٢٤٧ - الثقافة الجافيرية والحداثة في مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزيق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : علي بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - العجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كحيلة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٤٤٠ / ٢٠٠١

The Gypsies

SIR ANGUS FRASER

يعيش بيننا فى مصر وخارج مصر قوم يتفردون عن غيرهم بنسق مهنى خاص بهم ، ويتحدثون فيما بينهم بلغة يفهمونها ولا نفهمها ، وندعوهم - على الإجمال - بالفجر .

ولما كان حضور هؤلاء القوم يتلازم دوماً - ولا نقول أحياناً - مع قدر يوازيه من غموض ، فقد صارت مهمة الكاتب تبديد بعض من هذا الغموض ، وذلك من مداخل تاريخية ولغوية وأنثروبولوجية ، وهى مداخل يصعب أن تجتمع جميعها فى شخص واحد ، ثم إنه كان حريصاً على تقصى موارد فى مظان شتى بلغات شتى ، مع ولع فائق بالوثائق ، ينضو عنها غبار الزمن ، ويمضى بنا فى رحلة مع هؤلاء القوم ، منذ نجومهم قبل خمسة عشر قرناً حتى زماننا ... وكم كانت رحلة شائقة وشاقة فى آن .

لهذا وغيره صادف هذا الكتاب قبولاً واسعاً فى طبعته الأولى (فأعيد طبعه ثلاث مرات فى العامين التاليين ، ثم صدرت طبعته الثانية (١٩٩٥) .

كتاب ممتع بقدر ما هو مفيد .